هالة البدري

مطر على بغداد

ABU ABDO ALBAGL

رواية

إذا أعجبك الكتاب فرجاءً حاول أن تشتري النسخ الورقية
الكتاب والناشرون العرب معثرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم ضمانٌ لاستمرارهم
من أقوال الرفيق الغير مناضل أبو عبدو البغل

هالة البدري

مطر على بغداد

رواية

رواية | المدى

Author: Hala Al-Badry
Title: Rain on Baghdad
Al- Mada P.C.
First Edition : 2010
Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف : هالة البدري
عنوان الكتاب : مطر على بغداد
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠١٠
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

إهداء

إلى أهل العراق

هالة البدري

هذه الرواية ليست نصاً واقعياً ، وأبطالها من صنع الخيال وحده

ثلاث طرقات

❖ ديسمبر ١٩٧٦

اختفاء

أين اختفت "أنهار" من بغداد فجأة ؛ ولماذا ؟

سألت عنها في وكالة الأنباء العراقية، حيث تعمل محررة في القسم الثقافي صباحاً. قال لي رئيسها أبو لؤي: هلا. ست "نورا سليمان". "أنهار"؛ لم تحصل على عطلة. لم تبلغ أنها مريضة، ولا نعرف لماذا لم تداوم[1] الأمس، واليوم. غداً الله كريم "بلكي"[2] يأتينا خبر.

كنت قد لاحظت التوتر في صوته، وهو يجيب عن أسئلتي عاقداً حاجبيه. مدققاً النظر في عينيّ ؛ كأنه يبحث عن سر سؤالي، على الرغم من أنه يعرف أنها تعمل معنا في مكتب مجلة الزهرة المصرية في بغداد، بعد انتهاء وقت عملها الرسمي في الوكالة.

سألت عنها في بيتها مساءً. جاءني صوت أمها باكياً:

"فدوى "نورا" بتي إذا عرفت شي جديد خبريني راح أجن، لم تأتِ منذ ذهبت إلى "الدوام" أول أمس. بحث عنها أبوها، وأخوها، وأزواج أخواتها في المَستشفيات، وأقسام الشرطة، وعند صديقاتها. ما خلينا".

قلت : من عيني خالتي فاطمة. تدلللي إن شاء الله نطمئنك عما قريب.

سألت أبي "غائب" حارس بناية الشيخلي، وساعي مكتبنا إن كانت "أنهار" قد جاءت إلى المكتب في وقت سابق، ولم تجدنا ؟

قال : لم أرها منذ أنهت عملها في المكتب مساء أول أمس.

لا أدري لماذا تسيطر علينا كل هذه الهواجس حول مصيرها ؟ لم يمر غير يومين فقط على غيابها، لماذا نحن جميعاً متشائمون إلى هذا الحد ؟

---

[1] الدوام : العمل .

[2] بلكي : ربما .

في اليوم الثالث حين لم تتصل "أنهار" بنا انقلب غضب مدير مكتبنا "حلمي أمين" إلى نوع من التوتر الذي يقع في تلك المسافة ما بين الغيظ والقلق. وتوقعت أن يلجأ إلى مصادره السرية التي أخمنها في العادة، والتي تتكون من رفاق في الحزب الشيوعي العراقي، أو أصدقاء فلسطينيين، أو مصريين على صلة وثيقة بقيادات حزب البعث لكي يعرف الحقيقة وراء أي موضوع ملتبس. واليوم هو في أشد الحاجة ليعرف أين اختفت "أنهار"؟ وما إذا كان رجال الأمن هم السبب وراء اختفائها؟ أو الحب؟ أو أنها وقعت ضحية لحادث لا قدّر الله؟

حين فتح لي "حلمي أمين" باب مكتبنا في الصباح الرابع لاختفائها، وشت عيناه الحمراوان بأنه لم ينم لحظة واحدة. توجست وسألته :

"هل هناك أخبار جديدة عن "أنهار"؟"

قال بيأس، والسيجارة المشتعلة في ركن فمه تلفظ غبار احتراقها :

"لا أحد يعلم أي شيء. هل سمعتِ أنتِ أي أنباء؟"

قلت : مررت بالوكالة كالمعتاد، واستلمت النشرة الصباحية، ولاحظت أن صديقنا الصحفي "عماد البزاز"، قد تجنبني تماماً، وأجاب على تحيتي بصوت خافت، وهو يمضي نحو غرفة بعيدة، ويغلقها وراءه، وأن أبا "لؤي" ارتدى قناعاً خشبياً، وهو يرد على سؤالي دون أن يرفع رأسه من فوق الجريدة التي يقرؤها قائلاً: لا نعرف أي شيء ست "نورا".

وأضاف بحسم: لا نعرف. حين نعرف سوف نخبرك. أي أنه وجه لي رسالة بعدم السؤال عنها مرة أخرى.

قال "حلمي أمين": توقعت ذلك. لا أحد من الرفاق يعلم عنها أي شيء. في العادة خبر الاعتقال لا يتأكد قبل مرور عدة أيام؛ حين تستقر في معتقل معين.

بعد أسبوع من اختفائها، حين لم يأت أي خبر يشير إلى وقوع حادث لها، أو خضوعها إلى تحقيق، أو اعتقال، رجحنا كفة اختفائها بمحض إرادتها، سواء كان داخل العراق، أم خارجه.

سألت نفسي : هل يعقل أن تفكر "أنهار" بالاختفاء في قرية الجبايش المولودة بها، والمبنية فوق ألف وستمائة جزيرة في منطقة الأهوار شمال البصرة، وهي المنطقة الواطئة

في الحوض الجنوبي للنهرين التوأمين دجلة والفرات، والتي تشيد بيوتها بأعواد القصب، والحصير، فتبدو من بعيد كأنها عش طائر خرافي فوق سطح الماء؟ تبنى القرى أيضاً في موسم الفيضانات حين تجتاح المياه البيوت على "دبونات"* عائمة من القصب والبردى والتراب وروث الجاموس، وتتسع الواحدة منها لكوخ ولعدد من الجاموس، ويمكن دفعها، ونقلها في الماء من مكان إلى مكان. تستطيع "أنهار" أن تختفي بإحداها وتتحرك وسط نباتات القصب والبردى، بين متاهات الأهوار السرية. وإلى أي حد سيكون هناك فارق كبير بينها وبين أي فلاحة إذا ما ارتدت هذا الزي الأسود الطويل، ووضعت فوق رأسها تلك العمامة ذات الشراشيب التي تتدلى على الجانبين. عاشت "أنهار" في هذا المكان سنوات عمرها العشر الأولى قبل أن تأتي مع عائلتها إلى بغداد ؛ وما زال آل "خيون" يسيطرون على المنطقة، ويستطيعون بما يملكون من سلطة ونفوذ، التستر على وجودها بينهم. نعم لابد أن تكون قد فكرت في هذا المكان، كما نفكر الآن، ويفكر الأمن أيضاً. هو مكان يبدو في الظاهر شفافاً بالامتداد الشاسع للمياه التي تغمر آلاف الأفدنة، لكن السراب يعشش فيه تحت الضباب الخادع. هو طريق الهرب الأسطوري، في انتظار الزمن ليفك طلاسم شفراته. والوصول إليه من غير أهله، ومن دون وشاية، هو ضرب من المستحيل. و"أنهار" تدرك ذلك جيداً.

ارتحت لهذا الخاطر، وحين نقلته إلى "حلمي أمين"، رأيته يتمتم بصوت خافت، متمنياً أن يكون هذا ما حدث، وألا تكون "أنهار" في خطر، حتى لو كانت قد اختارت الغياب عنه بمحض إرادتها.

---

* - دبونات : مصاطب عائمة .

❖ يونية ١٩٧٥

عرس

ارتديت فستان الفرح الأبيض، والطرحة، وركبت السيارة في طريقي إلى المطار وخلفي رتل من السيارات يحمل أهلي، وصديقاتي، في زفة صباحية لألحق بحاتم الذي اضطر للسفر قبلي، فلم أكن قد أنهيت امتحانات البكالوريوس بَعْد، حين وقع عقداً للعمل في بغداد. وصلنا في آخر لحظة في الحادية عشرة قبل موعد الإقلاع بساعة واحدة. وجدت أبي في انتظاري منهياً إجراءات التذكرة، ووزن الحقائب. أخذوني من السيارة ركضاً إلى صالة الجوازات. ودعت أمي مشتتة، والقبلات تنهال على وجهي من الجميع. انطلقت الزغاريد ورائي، ومعها حبات الملح. وأبي يخطفني من بينهم قائلاً بهدوء :

- قولي مع السلامة. سبعون كيلو يا مفترية. ماذا وضعت لك أمك في الحقائب؟

ابتسمت. أصرت أمي على أن أحمل في حقيبة اليد علبة من كعك العروس بالسكر، وعلبة أخرى وضعت فيها بطة محمرة، وزوج حمام وشيش كباب، وكفتة، وأرزاً بالخلطة، قائلة : هذه لقمة الشرك. أرجو أن يوافقوا على خروجها معك.

قلت: خروجها سيتكفل به أبي الذي جنّد المطار كله لسفري. لكن دخولها بغداد هو المشكلة.

قالت : حاولي والسلام. سيفهمون هذه العادات.

قلت لصديقتي "سلوى": في أعلى السلم الاجتماعي، في أسفله. هو تفكير واحد: عروس من حي السيدة زينب أو من شبرا، وليس من الزمالك!

أقامت أسرتي بالأمس حفل استقبال في البيت للعائلة، والأصدقاء (حنة من دون طقس الحنة). تبادلت فيها النساء بعيداً عن عيون الرجال خبرات الليلة الأولى.

لكزتني خالتي في فخذي قائلة : كوني عاقلة، ولا تخافي وتفضحينا.

قلت : لماذا أخاف؟ لم أسمع أن عروساً قد ماتت ليلة الزفاف.

انتبهت الحاضرات للحوار، وأمي ترد بصوت خافت: تنصحين من؟

حرصت أمي على إبعادي عن زيارة أي عروس يوم الصباحية. تذكرت ذلك وأنا أسمع جدتي تقول: (مين هيعمل لها الصباحية؟ يا حبيبتي يا "نورا"!).

دخلت ابنة عمي حاملة في يدها صينية عليها "ممبار" ساخن قائلة في مرح : أعرف أنه وجبتك المفضلة. خذي بعضاً منه معك حتى لا تشتاقي إليه.

قالت "سلوى" : ألا يوجد ممبار في بغداد ؟

قالت ابنة عمتي : ليس مثل ممبارنا طبعاً.

قالت ابنة خالتي : طبعاً ممبارنا أقوى. حديد!

قالت عمتي : إذا رأوه في المطار فسيقولون العريس خائب، والعروس واخده العدة معها.

انفجر الجميع في الضحك. تذكرت يوم عادت "مُنى" ابنة خالتي باكية من زيارة أختها "هند" في الصباحية، وقالت لأمي : بهدلها يا خالتي. الجروح تغطي وجهها وجسمها. وأردفت بعد أن بلعت ريقها : هذا حيوان.

نهرتني أمي لأبتعد حين اكتشفت أنني سمعت هذا الحوار. دققت النظر في "هند" وهي تمسك بوشاح تعقده حول مؤخرتها وترقص عشرة بلدي مع صديقاتي سعيدة، سألت نفسي: أين راحت تلك الجراح؟

أدرن أسطوانة زغرودة حلوة رنت في بيتنا. وجاء صوت "حورية حسن" الجميل وغنين معها لمت حارتنا وبنات حارتنا زغرودة حلوة.

تركنني للنوم في الثالثة صباحاً، وانتشرن فوق حاشيات على أرض كل الغرف. ولم يتوقف همسهن حتى الصباح من شكة الدبوس إلى الغشاء المطاطي. صحوت في السادسة، وجدت أمي قد أعدت لي و"لسلوى" إفطاراً خفيفاً، وهي تتحرك على أطراف أصابعها، ذهبنا بعدها إلى صالون الحلاقة الذي فتح خصيصاً.

قلت لـ"سلوى" التي درست الطب هذا العام : جاءت الدورة الشهرية قبل موعدها بأيام لأول مرة في حياتي، وانتهت بالأمس فحسب. تصوري الفرح، والسفر، والحرارة والدورة ووجع القلب؟

قالت "سلوى" : الاضطراب هو السبب. الحمد لله أنك تطهرت بالأمس.

قلت : طلبت أمي أن أتشهد للطهارة مرة أخرى أثناء استحمامي في الصباح.

ابتسمت "سلوى" قائلة: الأمهات.

لم أستطع أن أخبرها أنها وجهت لي عصر الأمس ضربة قاصمة للظهر. كنت قد فضلت استخدام الحلاوة لنزع الشعر بنفسي، في البيت قبل أن أذهب في ليلة الحنة للتجميل عند الحلاق. انتهيت من الدش ولففت شعري بفوطة كبيرة، وأغرقت جسمي بالجلسرين والليمون، وأنا أبعد عن عقلي صورة الاستسلام بعد قليل للمساج والحمام المغربى وأتساءل : هل يجب أن أتعرى أمام غريبات عني؟ سمعت طرقات على الباب، وصوت أمي تطلب الدخول.

قلت : لم أرتد ملابسي بعد.

قالت : ضعي "الروب" فوق جسمك وافتحي الباب.

قابلتها مندهشة، أحاول أن أفهم ما الذي يستدعي دخولها بهذا الإلحاح.

قالت : اجلسي على هذا المقعد، وافردي ذراعيك. ارفعيهما.

وضعت كفها فوق إبطيّ تتحسسهما وقالت : افردي ساقيك.

قلبتني، وفتشت جسمي، وأنا مذهولة تماماً أقول لها : خلاص. كل شيء تمام.

قالت : رفضت أن تقوم متخصصة بالعمل. أنت عروس.ولابد من التأكد أنك على "سنجة" عشرة.

رفعت ساقيّ لتفتش أسفل بطني. صرخت. قالت آمرة : هل نتركك تفضحينا ؟

فتحت أصابعها الشفرتين. لم تكن تبحث عن شعرة هاربة من ضربات الحلاوة. كانت تبحث عن ختم الرب.

تركتني أذهب لتتسلمني أياد أخرى تكمل زينتي، ولم أستطع بعدها أن أتبادل معها كلمة واحدة حتى ركبت الطائرة. ارتديت قناعاً باسماً، وضاعت فرحتي بالمشاعر الحميمية للأهل والأصدقاء وسط الإهانة التي وقفت في حلقي دون أن أستطيع الدفاع عن نفسي، وأظنها ستسكنه إلى الأبد.

لمعت في عينيّ دموع، قال أبي: "حاتم" إنسان جميل، وسيحافظ عليك.

ابتسمت. ركب معي الأتوبيس. توقف الركاب عند سلم الطائرة، وأفسحوا لي

الطريق. قبلني، وسلمني حقيبة ورقية بها زجاجتا ويسكي وزجاجة شمبانيا وقال: هذه هدية لحاتم.

أخذها المضيف. لففت ذيل فستاني الطويل على ساعدي، وصعدت الطائرة. صفّق الركاب ثم هرولوا يصعدون بسرعة. امتلأت عيناي بالدموع.

أعترف أنني ذهبت لحاتم حائرة دون أن أعرف سر حيرتي مثل طير مربوط من قدمه، لا يعرف كيف يمشي، ولا يستطيع الطيران. كنت قد التقيته في حفل عيد ميلاد "سلوى" جارتي، ورفيقة صباي، بعد عودته من دراسته للهندسة في ألمانيا. كان صديقاً لخطيبها "هاشم". حين رآني قال :

"تركت ألمانيا لسبب واحد : أن أتزوج فتاة مصرية سمراء لها عيونك العسلية، وشعرك الكستنائي. هل تصدقين أنك من كنت أبحث عنها ؟"

قلت ضاحكة : لكني قابلتك منذ دقائق فحسب؟ معظم المصريات سمراوات ولهن عيون عسلية وشعر كستنائي حتى لو كان مصبوغاً!

قال: لا تستهيني بفراستي.

وجدته بعد أسبوع يقف أمامي في كلية الآداب، قال :

"أعتذر عن الغياب. اضطررت للسفر إلى مغاغة ؛ لأن الوالدة كانت مريضة ولا أحب أن أترك كل المسؤوليات لأخي الأصغر."

قلت لنفسي : صعيدي شعره أحمر مجعد، وبشرته يغرقها النمش. ربما صعيدي من هولندا! كتمت ضحكتي وأخذته إلى الكافيتريا لنشرب شايا.

وجدت نفسي وسط حياته، أغرقني في تفاصيل كثيرة قائلاً :

"أنا رجل عملي، أواجه العالم كله بحياد، لكنك أنتِ انحيازي الوحيد."

بعد شهور كنا قد أعلنا الخطبة، وسافر هو إلى بغداد. جلست بجوار مهندس مصري، يعمل في العراق. تمنى لي التوفيق، ونام. ولم أستطع النوم على الرغم من سهري في الحفل وصحوي المبكر. لم أفكر في الزواج طوال الرحلة، ولا في المجهول الذي أنا مقبلة عليه في حياتي الجديدة تاركة ورائي أصدقائي، وأهلي وعملي الصحفي الذي مارسته في مجلة الزهرة طوال فترة دراستي الجامعية، بعد أن قال لي رئيسي: أرسلي لنا الأخبار، والتحقيقات الصحفية، بل انشغلت بتفاصيل الرحلة ذاتها. مطمئنة

تماماً لـ"حاتم. ستكون الإثارة في تلك المدينة ؛ بغداد. لم أقترح عليه مطلقاً العودة إلى ألمانيا، على الرغم من أنه يحبها، ويذكرها دائماً بحنين شديد. حين جاء إليه ترشيحان للسفر أحدهما إلى السعودية، والثاني إلى العراق. قررنا معاً بلا تردد قبول العقد العراقي، على الرغم من أنه كان بنصف الأجر السعودي ؛ حيث الحياة الطبيعية في بغداد الحضارة، مدينة ألف ليلة وليلة، و"هارون الرشيد"، و"زبيدة"، و"الفارابي"، و"حمورابي"، و"أنكيدو"، و"عشتار".

جاءت المضيفة بقالب حلوى "تورته"، وزغردت سيدة مصرية تجلس خلفي، وبعد قليل وجدتني أواجه باب الطائرة المفتوح على صهد الرابعة عصر أحد أيام شهر يونية. شعرت أنني وقفت فجأة أمام عين فرن بلدي. تعمد موظفو المطار ألا ينهوا إجراءاتي، كلما انتقلت خطوة إلى شباك، أجّل الموظف تسلم جوازي وهو يبتسم حتى اقتربت ببطء من منفذ الخروج، ورأيت "حاتم" يلوّح لي وسط أصدقائه من المصريين والعراقيين.

في الطريق إلى بيتنا سألني صديقه "عادل" : أليست لك أخت؟

قلت: لا.

قال : أريد الزواج من أختك. بنت عمك. صديقتك. أية بنت من طرفك.

قال "حاتم" : الطلبات اليوم لي وحدي.

قال عادل : هي لنا حتى نصل إلى المنزل. أريد عروساً وحياة النبي.

ألح عادل كلما زارنا بعد ذلك على طلبه، وفي أحد الأيام بعد شهور استقبلتها هي أيضاً في المطار. خطبتها له أمه من بين بنات العائلة.

قدمها لي قائلاً : "ناهد".

❖ أكتوبر ١٩٨٠

دمار

قصف مصافي الدورة وشركة كهرباء بغداد.

"تعرضت اليوم في الثانية عشرة ظهراً كل من شركة كهرباء بغداد، ومصافي البترول في حي الدورة إلى قصف شديد من الطيران الإيراني ؛ مما أدى إلى انقطاع الكهرباء عن معظم أحياء المدينة، وإصابة العديد من العاملين، وتدمير بعض البيوت في الحي السكني المجاور لها، واستشهاد عدد من سكانه، وإصابة العديد منهم بجراح وبعضهم في حالة خطيرة".

حملقت في شاشة التلفزيون في مذيع نشرة أخبار القاهرة. ورأيت سور بيتي مكوماً أمامي والنار تشتعل في الطابق الثاني منه. قلت لأبي الذي كان يستمع معي بانتباه إلى النشرة : بابا بيتي في الدورة يحترق.

قال: الحمد لله، أنكم وصلتم إلى مصر بالسلامة. ما الحرب غير الدمار.

قالت أمي : من هناك الآن؟

قلت : لا أعرف، "تيتي"، وطفلاها هنا في القاهرة، معظم صديقاتنا من النساء المصريات غادرن بغداد مع أطفالهن، وتركن الرجال هناك ليتابعوا عملهم. زوجها "محمود" يعمل في المصنع في هذا الوقت، وأظن أن الطابق الذي كنت أسكنه مازال خالياً، ولا يوجد أحد بالمنزل في هذا الوقت إلا بالصدفة طبعاً. ربما أبو "معصومة" الجنايني، الله أعلم. بدأت الحرب بعد تسعة أيام من مغادرتي العراق. سأتصل بـ"تيتي" في المساء حتى أطمئن على "محمود"، و"تانت فائزة" لأطمئن على الأستاذ "حلمي أمين". تذكرت أم "سميرة"، وأم "تايه"، جيراني في حي الدورة. كل أحياء بغداد لي فيها أصدقاء. تذكرت "أنهار" وسألت نفسي هل عادت إلى بغداد؟ وتذكرت فلاحين قرية الخالصة، ومقهى المربعة، وشارع الرشيد.

جاءني صوت "تيتي" في المساء حزيناً وأخبرتني بالدمار الذي وصفه لها "محمود" في التليفون. وقالت "تانت فائزة": إن "حلمي" بخير، لكن حالة بغداد سيئة.

عادت "تيتي" إلى بغداد هي وطفلاها بعد عدة أشهر، بعد أن تأكدت من استقرار حالة الهدوء. تذكرت خطابها الذي كتبته لي بمجرد دخولها البيت.

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي، وحبيبتي، وصديقتي الغالية نورا. وابني العزيز "ياسر"، وأخي "حاتم":

أبعث إليكم من بغداد - لعل الرسالة تصل، وأنتم في أحسن حال، وأهدأ بال، ومتمتعون بالصحة والعافية.

أختي الحبيبة أعرفك أنني وصلت إلى بغداد يوم السبت ٢/ ٥/ ٨١ صباحاً بعد طول انتظار في مطار عمان تسع ساعات تقريباً وبعد أن وصلت إلى المنزل فوجئت بما جرى فيه. لقد ضرب المنزل ضربات وحشية واحترق جانب منه ولا تتصورين منظري عندما رأيت ذلك وتصورت وجود أي شخص في المنزل في وقت الضرب، وطبعاً حاصروا المنطقة وأخلوا من فيها جميعاً، وأيضاً منزل أبي "جمال" ومنزل أبي "نضال". المهم يا "نورا" إنه منظر يشيب الرأس. وقد قاموا بتعويض "محمود" بمبلغ ٣٠٠ دينار عن الخسائر التي لحقت بكل شيء عندنا. تصوري جميع "الكارتونات"، التي جهزت فيها أدوات البيت حتى يشحنها "محمود" إذا قررنا العودة نهائياً، وطقم "الأنتريه"، والثلاجة، والغسالة، ومكنسة كهربائية كان "محمود" قد اشتراها، وسجادة. وكما يقول "محمود" إن بدلته كان بها المرتب أيضاً لأن البيت ضرب يوم ٢/ ١٠/ ١٩٨٠. المهم أن كل شيء يهون ما دامت الأرواح سليمة - وقد عوضوا أصحاب البيت بمبلغ ٢٠٠٠ دينار. ويبدو أن المبلغ بسيط لأن البيت قديم. المهم لا يوجد شباك واحد به زجاج، وطبعاً كلما أجلس وأسرح؛ لو كنا هنا ماذا كان يحدث؟وقد شاهد أصدقائي النيران من حي الميكانيك. وأيضاً زميلتي "حزام" هل تذكرينها قالت لي أن النار كان لهيبها يصل إلى منطقة المثلث الموجودة في أول المهدي من ناحية السيدية. وكان ذلك سبباً في عدم سكن المهندس "عاطف" معنا، وتصوري يفكر في الاستقالة والنزول إلى مصر و"سوسن" حامل بعد "دعاء"، وابنتها أمورة عقبال ابنتك. أطلت عليك بالحديث المتعب.

عزيزتي "نورا"

نزلت إلى السوق لأول مرة بالأمس. المهم أنني وجدت بدلة "نونو" سعرها دينار واحد. فهل أشتري لك عدداً منها للنونو القادم؟ ووجدت شامبو للأطفال بسعر ٨٥٠ فلساً وبودرة جونسون بسعر ٦٥٠ فلساً و"هيتر" للرضعات سعره ٤,٥ دينار، وكذلك البزازة شيكو بسعر ٤٢٠ فلسا، وملابس الأطفال كلها في حدود دينار واحد. أعرفك أن الأستاذ "حلمي أمين" حين وصلت كان في مؤتمر في تونس، ولم يحضر إلا منذ أيام. المهم أني أعطيته الأشياء التي كانت معي، وطمأنته على "تانت فائزة"، والبنات. مازال البيت في حالة إصلاح. أستخدم الآن حجرة واحدة في الطابق الثانى أتعشم أن تكوني بخير وأن يكون الحمل في أحسن حال، وأن تكون موضوعاتك تنشر بانتظام. للأسف لا تصلنا مجلة الزهرة.

وفي نهاية رسالتي التي أطلت عليك فيها بالحديث أبعث إليكم بسلام "محمود" و"مادو" و"أماني" وسلامي لـ"ياسر" و "حاتم". وإلى لقاء قريب في رسالة أخرى أتمنى أن يصلني الرد حتى أطمئن.

أختك تيتي

متن أول

ثلاث طرقات على باب الذاكرة أعادت إلى الحياة أيام كانت تتلكأ، وهي تستدير ميممة شطر الاختفاء الأبدي. شددت طرف خيط الزمن الذي اعتاد أن يدجن الجبال والبشر. انهمرت الأيام وسقطت على قلبي. حاولت أن أوقف تدفقها، وأنتبه إلى ما يحدث حولي، لكني لم أستطع. في داخلي دبيب يسعى لاستعادتها، ويستشعر لذة الألم التي لم تستوعب اللحظة، وأنا أحمل حقيبتي إلى المطار في طريقي إلى بغداد، ولا أصدق أني بالفعل رتبت ترك ابني ذي الأشهر الستة عند حماتي في مغاغة التي تبعد ساعتين ونصف الساعة عن القاهرة. قالت أمي :

سوف ينسونك، إذا تكرر اعتذارك عن السفر بهذا الشكل. اقبلي الاشتراك في المؤتمر. خمسة أيام لن تغير الكون.

قلت : "هيثم" ما زال يرضع رضاعة طبيعية، كيف أتركه؟

قالت : خذيه معك.

سألت سكرتيرة عام المؤتمر تليفونياً عن اسم الفندق الذي سأنزل فيه، وإمكانية تدبير حضانة لابني الرضيع أثناء انعقاد جلسات المؤتمر.

قالت بعد تردد: فندق الرشيد. أمام صالة المؤتمرات. نعم ندبر لك حضانة.

لا أعرف كيف كيفت الفكرة في رأسها؟ استندتُ على موافقتها كي أقنع نفسي بإمكانية اصطحاب طفلي فعلاً. بحثت في ذاكرتي عن مواقع الحضانات القريبة من الفندق. كنت أعرف المدينة جيداً. عملت فيها مراسلة في مكتب مجلة الزهرة لمدة خمس سنوات. تخيلت البرنامج الذي سألهث وراء ندواته، ودعوات الغداء والعشاء الرسمية التي سأذهب إليها. وسألت نفسي: "متى استطعت في أثناء انعقاد مؤتمر العودة إلى بيتي عند منتصف النهار، أو منتصف الليل؟ أين سيكون ابني؟".

فكرت في الاستعانة بمربية عراقية ؛ تأتي لتعيش معي في الفندق، وترعاه في أثناء غيابي. ارتحت لهذا الحل ثم عدت أفكر: من أين ستأتي هذه السيدة فجأة؟ أأطلب قبل السفر مساعدة جاراتي أم "جمال" وأم "تايه"، وصديقاتي :"رجاء" و"إلهام" و"تيتي"؟ بين الموافقة والتردد رحت أكتب بحثي حول تثقيف المرأة بعد محو أميتها. سألت نفسي: ماذا تحتاج النساء الناضجات اللائي تعلمن القراءة للتو؟ قررت أن أقدم لهن برنامجاً مرتبطاً بحياتهن. قلت : هل يقبل العراقيون أن أقدم نماذج لمفكرين من خارجهم؟ تذكرت المعارك التي كنت أخوضها في النقاش معهم حول حتمية الوحدة قبل الاشتراكية، وعدم اقتناعي بإمكانية الوحدة بين بلاد لا تملك حريتها. كتبت برنامجاً مبدئياً من عدة مستويات، يقنع النساء بأهمية المعرفة.

حياتي الموزعة بين الركض وراء التحقيقات الصحفية، وبين رعاية ابني "ياسر" الذي التحق بالمدرسة، وهيثم الذي يحصل على وجبة زبادي في أثناء غيابي عنه، لم يكن ينقصها دخول مسؤولية كتابة بحث مهم لمؤتمر يتم بالتعاون بين جامعة الدول العربية واتحاد نساء العراق. إشراقة ضحكة "هيثم" كانت كفيلة بمحو هذا التمزق بين تركي له وكتابة بحثي. ينتصر هو بالطبع.

يبدأ برنامجي اليومي في الخامسة صباحاً مع رضعته الأولى. أذهب إليه في سريره، وأبدل ملابسه، ثم أتركه لينام، ليصحو في الثامنة، أكون قد أدرت كل ماكينات غسل الملابس، والأواني وتقطيع الخضروات، وأنهيت إفطار الأسرة الجماعي، وجهزت "ياسر" وأرسلته إلى المدرسة، ووضعت طعام الغداء على النار، ثم أعددت لهيثم حماماً دافئاً في وعاء بلاستيكي. ملعقة عسل أو طماطم ورضعة جيدة كفيلة بشعوره بالتخمة وشعوري بإنهاء مسؤولياتي، حتى الآن على الأقل. يثير احتجاجاً صاخباً على تركي له في السرير ثم يهدأ ويبدأ في مراقبتي، تسرح عيناه خلفي ما دمتُ في مجال الرؤيا حتى أخرج من الباب، يستدعيني بدموع حقيقية و"نهنهة". أربت عليه حتى ينام، أو يغني "يدادي". استغراقي في الكتابة دون التحدث إليه كان يواجه بثورة واحتجاج. أقول له :

"نظيف ومشبع ماذا تريد؟"

أقف لأداعبه قليلاً، ثم أعود إلى الكتابة. في بعض الأوقات يرفض تماماً انشغالي

عنه. لا أجد مفراً من حمله فوق فخذي، وأنا أكتب أو أقرأ، أقلبه فوق بطنه، وأهز ساقي حتى يهدأ وينام، فأعود لعملي. أو يرفض فأتركه لساقي، وأحاول التوازن بين الجمل التي تهرب من الصفحة البيضاء أمامي، وبين بؤبؤي عينيه اللذين يدوران حول وجهي. يريدني له في هذه اللحظة، وأريد أن أكون له، ولعملي في نفس الوقت، ولهؤلاء النسوة اللاتي يردن اللحاق بما يحدث حولهن في الدنيا الواسعة. الطفل هو الذي يستعبد المرأة وليس الرجل. نعم، ليس الرجل.

التفتُ إلى صوت "حاتم" وهو يقود السيارة في طريقنا إلى المطار وابتسمت. ضحك قائلاً : أين سرحت؟ لا تخشيْ على "هيثم". الحمد لله مشكلته محلولة. انتبهي لنفسك، وسلمي على كل الناس في بغداد. أشعرتني ربتات يده فوق كتفي بالاطمئنان. وأسلمتني لصور تتلاحق في خيالي.

كنت وأمي في زيارة حماتي قبل السفر بأسبوع، بعد أن اشتريت تذكرة الطائرة لهيثم، وأضفته إلى جواز سفري الجديد. تأملت "فطوم" خادمة حماتي وهي تمشي مهتزة على الجانبين مثل البطة حاملة ابنتها ؛ بوجهها المستدير الباسم دائماً وطيبتها الشديدة. جلست أمام باب المطبخ، وأخرجت ثديها المنتفخ باللبن لترضع ابنتها. سألتها أمي: متى تفطمينها ؟

قالت "فطوم" : تعبت والنبي يا ستي. أريد أن أخلص اليوم قبل الغد. تأكل كل أنواع الأكل. لكن تغيب طوال الليل قاطعة قلبي.

ضربتها الطفلة فوق وجهها وهي تحاول أن تبعد صدرها المتدلي على بطنها وتدخله في فتحة الجلباب كي تخرج ثديها الآخر والطفلة لا تصبر. حتى أمسكت به بكلتا يديها ورحنا نسمع بانتظام صوت شفطها للبن : أواء.. أوء أوء

استطردت: كنت خائفة من فطامها حتى لا أحمل وهي مازالت صغيرة، لكن الدم نزل، واقتربت هي من السنتين. هو رزق يخبئه الله لها. لماذا نحرمها ؟ لكن والنبي تعبت. قالت لي الدكتورة: تعالي في اليوم الخامس للعادة أركّب لك شريطاً.

قالت أمي : أجلي فطامها أسبوعين. رضعي "هيثم". تسافر "نورا" إلى بغداد لمدة أسبوع. ما رأيك لو تركنا "هيثم" معك حتى تعود أمه؟

قالت "فطوم": عيناي لأم "ياسر". لا أحد أعز منها. أسبوعان ليسا بمدة طويلة.

قلت لها وأنا ما زلت تحت وقع المفاجأة : "هيثم" معتاد عليك ويحبك.

تحمست أخوات "حاتم" وقلن معقبات : اتركيه. لا تخافي. سيرضع وينام.

قالت حماتي ضاحكة : الأرض تربي.

قلت : وماذا أفعل إذا جف ثديي؟

قالت حماتي: عندك شفاط طبعاً. اشفطي اللبن في مواعيد الرضاعة، كما تفعلين عند إصابته بنزلة معوية.

قلت: أشفط اللبن ليوم، ليومين، لثلاثة. لكن لأسبوع؟ يا خوفي يجف اللبن ونكون قد ظلمنا "هيثم"، ولا طلنا بلح الشام ولا عنب اليمن!

قالت أمي: لا تخافي على "هيثم". احرصي أنت على مواعيد الرضعات وتأكدي من أن صدرك فارغ تماماً. نقطة اللبن التي ستتركينها ستفقدينها.

لم يفهم "هيثم" دموعي. انفجر باكياً. كان يظنني غاضبة عليه. عبثاً حاولت أن أضحك، وأنا أودعه دون جدوى. أخذته أمي، وابتعدت به حتى يكف عن البكاء.

قال له "ياسر" بثقة : لا تبكِ ستشتري لك ماما لعبة كبيرة من بغداد.

حمل زوجي حقيبتي، وهو يستعجل خروجي من البيت ؛ حتى نلحق بموعد الطائرة.

قالت أمي: خذي بالطو ثقيلاً، لا تضمني مناخ المطارات في الليل.

راجعت أوراق السفر ؛ الجواز، التذكرة. فتحت دعوة المؤتمر. قال "ياسر": ماما المطار.

قلت: أعرف إنك ولد شاطر وأنا أحبك جداً، سأكلمك في التليفون كلما استطعت لأن التليفونات صعبة من بغداد.

قال: سلمي لي على "مادو" صاحبي.

توافد وصول عضوات الوفد المصري. انتظرن حتى اكتمل معظم عددنا وتحركنا نحو الجوازات. انقطع الطيران المباشر بين القاهرة وبغداد منذ قطع العلاقات المصرية العراقية أيام التوقيع على معاهدة "كامب ديفيد". تأملت العدد الكبير من زميلاتي الصحفيات وعضوات الاتحادات النسائية للأحزاب المصرية، ومجلسي الشعب والشورى والجمعيات الحزبية، مناضلات وسيدات أعمال، وبعض الفنانات والكاتبات. خليط من كل الأعمار والاتجاهات الفكرية. لأول مرة أشارك في وفد رسمي مصري بهذا العدد.

في العادة أكون في استقبالهن في بغداد. انتظرن الصعود إلى الطائرة في صالة كبار الزوار. جلست بجواري "نهى" وهي محامية شابة ابنة محامٍ وطني شهير، سألتني :

"هل تعتقدين أن هناك خطورة على حياتنا من هذه الرحلة؟"

قلت باسمة: لا. لا يقدم العراقيون على خطوة مثل هذه دون أن يعملوا لها ألف حساب. حتى لو اتفقوا مع إيران نفسها على حمايتنا.

ضحكت المجموعة حولنا، واستغرقنا في حديث جماعي عن ظروف الحرب. لاحظت بساطة معلوماتهن. لم أعلق. سألت الصحفية "سهام فتحي" : هل استطاعوا محو أمية النساء حتى سن الخامسة والأربعين. ولا "أونطى"؟

قلت: نجحوا فعلاً، وقد تابعت المشروع، وكتبت عنه. كان برنامجاً جيداً نفذوه خلال ثلاث سنوات. عقبالنا.

تذكرتهن مجتمعات حول بيوتهن ينتظرن اكتمال وصول الصاحبات قبل ذهابهن إلى المدرسة معاً. تحولت مدرسة محو الأمية -بعد العصر- إلى فرصة خروج إجبارية تركت فيها النساء كل مسؤوليات الأسرة الكبيرة،حل الفرح محل الخوف، وعشنا الحالة وكأنها رحلة جميلة، عدنا فيها صبيات يافعات. تذكرت سيارة ركبتها، و"حاتم" إلى سوريا، والنساء فيها يتضاحكن على "راشد" بطل كتاب محو الأمية. ركبن جملاً مختلفة تعرض رأيهن بصراحة في الرجال :

شرب "راشد" ثلاثين بُطلاً[1] من البيرة.

عاد "راشد" من المشرب في الثانية صباحاً.

باع "راشد" ذهب أمه وزوجته "ها ها" وأخته.

ركب "راشد" "التيوتا" وترك زوجته تعمل في البستان.

هؤلاء النسوة اللائي أحببتهن بشدة، تعلمت منهن الكثير، ويستحقن تضحيتي. لكن "هيثم"؟!

---

١ بُطل : زجاجة .

مرّ الوقت. لم تقلع الطائرة في موعدها المعتاد. امتلأ ثديي. تسرب بالتدريج شعوري بزنقة اللبن حتى خفت أن ينفجر ويغرق ملابسي الداخلية. لن أجد إمكانات شفط إذا خرجت من مطار القاهرة. أسرعت نحو الحمام، أخرجت الشفاط من حقيبة يدي. تراصت الأحواض أمام أبواب صغيرة لد"التواليت". كيف سأخلع ملابسي أمام المسافرات، والعاملة؟ دخلت "التواليت" الضيق الذي بالكاد يسمح بالوقوف، وسحبت اللبن. طال الوقت على الرغم من اندفاع الرشاش الخارج من الحلمة، هو مهيأ لطفل يبلع حسب قدرته. فرغ ثديي الأيسر الذي أبدأ به الإرضاع لأنه ناحية القلب بالتدريج، وانتقلت إلى تفريغ ثديي الأيمن. مرت الدقائق ببطء. سمعت صوت العاملة في الخارج تنادي وتسألني :

هل تحتاجين إلى شيء يا ست؟

قلت : لا. شكراً.

كانت تشعر بحركة قدميّ وأنا أقوم وأقعد، ولا تفهم ماذا يحدث في الداخل. عادت تسألني بعد دقائق.

قلت: أفرغ اللبن من صدري. أسافر من دون ابني.

- كبدي يا اختي. لماذا تركتيه؟ شغل "برضه". من مرتاح في هذه الدنيا؟ لا فقير ولا غني. اخرجي وأفرغيه في الحوض. كلنا نسوان وهنا ماء ساخن.

- أخجل. أنا تقريباً انتهيت.

- على راحتك. إذا أردت أي شيء. نادي.

أكملت مهمتي. لو بدأت بالاستعجال الآن في أول مرة. ماذا سأفعل كل ثلاث ساعات؟ وفي أثناء الندوات؟ عدلت من ملابسي وخرجت أسأل نفسي : ترى كيف أنت يا بغداد؟ ما الذي تغير بك بعد غيابي سنتين تقريباً عنك؟ منيت نفسي بزيارة بيتي الذي أفتقدته كثيراً بعد عودتي إلى القاهرة. تذكرت "أنهار خيون": هل أجد في بغداد من يدلني على مكانك يا "أنهار"؟ ويفك لي لغز اختفائك؟!

فتحت حقيبة يدي لأخرج منديلاً قطنياً مطرز الحواف. ما زلت أحب هذا النوع، على الرغم من ظهور المناديل الورقية مؤخراً. اصطدمت أصابعي بسلسلة مفاتيحي. مازلت أحتفظ بمفتاح بيتي في الدورة، ومفتاح مكتبي في الباب الشرقي، والثالث

لصندوق البريد في شارع الرشيد. وهذا خطاب من عائلة "بسيوني" إليه. سلمته لي أخته بالأمس.استحلفتني بجميع الأديان أن أتصل بصديقنا "فتح الله حسن"، وزوجته "مها" ؛ فهما الوحيدان اللذان يعرفان طريقه، ويستمع إليهما. وقالت: قابليه. أقنعيه بالعودة إلى مصر. تورط في الجيش العراقي دون مناسبة. وعدتها أن أحاول. تذكرت لقائي الأول والوحيد به.

صباح شتوي عراقي جميل، بدأته كالمعتاد بالذهاب إلى وكالة الأنباء العراقية للحصول على نشرتها الصباحية. لا يوجد في مكتبنا الصحفي لمجلة الزهرة لا تليفون ولا تيكرز. نعمل يدوياً بالـ"المانفيلا". وصلت مكتبي منشرحة الصدر بسبب أشعة الشمس الناعمة التي أحبها بعد ليلة ممطرة. وجدت شاباً صغيراً يجلس مع الأستاذ "حلمي أمين" مدير المكتب، لا يزيد عن السابعة عشرة من العمر، تصورته أحد الطلاب المصريين الذين بدأوا يلتحقون بجامعات بغداد.

قدمه لي الأستاذ "حلمي" قائلاً : "بسيوني عبد المعين" أحد المعتقلين في أحداث يناير ٧٧ . جاء بتوصية من التجمع للبحث عن عمل.

قلت : معتقل. معقول. هذا الطفل.

انتبهت إلى كلماتي المنفلتة بعد أن امتقع وجه الشاب. استطردت : آسفة لم أقصد. لقد حسبتها في ذهني. منذ سنتين تكون في الخامسة عشرة على الأغلب. هل يعتقلون الصبية أيضا الآن؟

قال : أنا في الثامنة عشرة، وبالفعل اعتقلوني، فقد كان جسمي في مثل حجمه الآن، وتصوروني أحد طلاب الجامعة المتظاهرين، دخلت المعتقل، وتعرفت في الداخل إلى المناضلين السياسيين والأسماء الكبيرة التي تسمعين عنها، وأصبحوا أصدقائي، وزملاء برش. ضحك واحمر وجهه. ثم عملت بالسياسة بعد الإفراج عني وانضممت إلى حزب التجمع.

سألته : ألم تكمل دراستك؟

قال : كنت أدرس في مدرسة صناعية، وتخصصت في ميكانيك السيارات، لكني لم أحصل على الدبلوم حتى الآن.

قلت : لماذا لم تبق في القاهرة حتى تنهي دراستك؟ هل تريد الدراسة هنا؟

أجاب : أريد العمل. مع الأسف الحياة في بغداد صعبة الآن بسبب تدفق ملايين العمال المصريين. والحصول على عمل من دون مؤهل مستحيل تقريباً إلا مع عمال البناء.

سألته : أين تقيم؟

أجاب : في فندق صغير بساحة الشهداء؟

قلت : أظن أن نزلاءه من العمال المصريين.

قال : وجدت من قريتي وحدها مابين ثمانين وتسعين شاباً. شعرت أنني لم أغادر مصر ولا قريتي. لكني حين دخلت الفندق لم أستطع البقاء فيه. ولابد أن أجد سكناً آخر بسرعة. يضعون حاشية إسفنجية لنفر واحد لينام فوقها ثلاثة. وأنا لم أعتدْ على مثل هذه الحياة. أريد أن أعمل فوراً حتى أستطيع الانتقال إلى مكان أعيش فيه على راحتي. أو أعود إلى مصر. يذكرني الفندق بتجربة السجن. هل أعود إليه بكامل رغبتي؟ لن أبقى فيه لحظة واحدة. اتصل بي أحد الزملاء وأخبرني أن "فتح الله حسن" في الموصل وسوف أذهب إليه. هل تعرفون تليفونه أو عنوانه؟

قال "حلمي" : إعطه يا "نورا" تليفون "فتح الله". هو الآن في المصنع، وزوجته في الجامعة. انتظر حتى المساء! واتصل به. مر بنا غداً أكون قد رتبت معه الأمر.

عرفت أن "فتح الله" فرح به بشدة، وطالبه بالقفز إلى أول سيارة تأتي إلى الموصل، ولم أر "بسيوني" مطلقاً بعدها. لكني سألت فتح الله عنه في أول زيارة له إلى بغداد. قال: عيّنته معي في هيئة الطرق والجسور بمبلغ كبير، وأصبح مثار حسد الجميع، وهو يعمل الآن في مشروع مد الطرق من الموصل إلى الشمال.

طلبت منه أن يخبرني عن هذه المشاريع ربما تدفعني المعلومات لعمل تحقيق صحفي عنها، قال : نمد الطريق الآن بين الموصل كمدينة كبيرة، وبين المناطق التي يعيش فيها الأكراد اليزيدية بعد أن أهملوا لفترة طويلة. ستفتح هذه الطرق أمامهم سبل إنشاء المستشفيات والمصانع، وإصلاح الأراضي المجاورة، وستنقلهم إلى عالم ومستوى معيشي آخر.

قلت: هذا ما يحدث للأكراد في الشمال كله.

قال : لا. هم بصفة خاصة عشائر مختلفة ولا يتبعون الملا "مصطفى البرزاني"، ولا يحبون "الطالباني"، ويعتبرونهما باعوها للسلطات.

قلت : في أي خط يعمل "بسيوني"؟

قال : الموصل- الشيخان، ويأتي إلى الموصل كل أسبوع. أقامت الهيئة للعاملين معسكرات جيدة، ومريحة بجوار مواقع العمل. عقد "بسيوني" مع الأكراد صداقات كثيرة، ويفضل أحياناً السفر إلى قراهم وقضاء الإجازة معهم، وهي مسألة نادرة بين الأكراد أن يسمحوا لغريب بدخول بيوتهم. اكتسب ثقتهم بسرعة.-ضحك- واد. عفريت.

سألتني زميلتي "سلوى العطار" محررة مجلة الزهرة : هل ما زلت على اتصال بأبناء "حلمي أمين"؟

قلت : نعم، طبعاً.

قالت : مأساة والله. أمامنا الوقت في بغداد كي نحكي كثيراً. أريد أن أطمئن عليهم. تأخذنا الدنيا. هو صديق العمر.

قلت: أعرف. وصديقي أيضاً.

احتلت "أنهار" سماء الذاكرة. من الصعب أن يتردد أمامي اسم "حلمي أمين" دون أن يستدعيها، ويستدعي اختفاءها الذي ما زال لغزاً محيراً للجميع حتى الآن. لم ينجح "حلمي أمين" بكل اتصالاته ومعارفه في فكه، والوصول إلى معلومات حقيقية عنها. من أدراك يا "نورا"؟ ربما عرف، ولم يخبرك لسبب ما! إما خوفاً على حياتها، وإما حفاظاً على كبريائه. شردت على الرغم من صخب الجالسات حولي، وأصواتهن العالية وضحكاتهن. تذكرت لقائي الأول مع "حلمي أمين". كنت أعرفه اسماً فحسب. أتابع مقالاته، وأعرف معلومات بسيطة عن تاريخه النضالي.

حين عدت إلى مجلة الزهرة بعد سنة قضيتها في بغداد حاملة مقالاتي الأولى عن العراق، قابلني "لطيف جرجس" قائلاً : أرسلنا "حلمي أمين" ليفتح مكتباً لنا في بغداد. هل عرفت؟

قلت : نعم. قرأت تغطيته لمؤتمر أدباء آسيا وإفريقيا.

قال : أنت محظوظة. هو هنا في إجازة. خذي هذا هو رقم تليفون بيته. اتصلي به.

طلبته، قلت: أنا "نورا سليمان"، أعيش في بغداد وأراسل مجلة "الزهرة" من هناك.

قال : أهلاً يا سيدتي. قالوا إنك هائلة. سنلتقي بعد يومين في المكتب عند العاشرة صباحاً. وعنواننا هو بناية الشيخلي شارع المشجر المتفرع من شارع السعدون، الباب الشرقي. خذي معك عدداً من مجلة الزهرة أوصليه إلى وزارة الإعلام في ساحة التحرير.

قلت : إن شاء الله.

كنت أعرف شارع السعدون جيداً. مضيت أسأل عن شارع المشجر حتى وجدته ؛ شارع فرعي كبير، يمتلئ بمحلات بيع الأجهزة الكهربائية والمكاتب وعيادات الأطباء والمحلات الخدمية. تتجاور فيه العمارات الجديدة بطوابقها الأربعة، والبيوت العتيقة للعائلات الآشورية.

استقبلني رجل في الخمسين من العمر. طويل القامة. شديد السمرة. عرفت من فوري أنه من الجنوب. ليس من أسوان، بل ربما من سوهاج. كثيف الشعر، أكرده. ترك سوالفه البيضاء تمتد حتى قرب نهاية فكه، فبدا لي مثل عازف جيتار زنجي خارج للتو من صفحات كتاب لـ"فوكنر". له هيئة هي خليط من أناقة الفنانين، وتلقائية العمال، حين تحدث مرحباً بي، اكتشفت أن شفتيه الإخناتونيتين وعينيه السوداوين ونحافته الشديدة تجعله أنموذجاً صعيدياً تحت شراع أبيض كبير لأحد مراكب الأواني الفخارية التي تعبر النيل طوال العام.

قال : وافق رئيس مجلس الإدارة على تعيينك في المكتب الذي أصبح يضمنا مؤقتاً فحسب، إلى أن نتوسع في المستقبل إن شاء الله.يقدم المكتب موادّاً صحفية عن العراق نظير إعلانات تنشر من حين إلى حين على صفحاتنا. نتبع قسم المراسلين الأجانب في وزارة الإعلام العراقية، وهو ما ييسر لنا حرية الحركة في العراق كلها.

ابتسمت في سعادة. أخيراً سيكون لي عمل منتظم. سألته: ما مواعيدنا ؟

قال : تأتين في الثامنة صباحاً وحتى الرابعة. وإذا كانت لدينا أعمال مسائية سنرتبها معاً. أريد صورة شخصية لك. نذهب غداً إلى وزارة الإعلام كي نستخرج لك بطاقة مراسلة مصرية.

ذهب ليأتي بالشاي. لاحظت أن المكان رطب وفيه لسعة برودة محببة على الرغم من ارتفاع حرارة الجو الشديدة في الخارج. انتبهت لوجود مبردة صغيرة بجوار المكتب. لم أر مثل هذا الحجم من قبل. جو بغداد الجاف يسمح بالتبريد بتمرير ماء أمام تيار هواء لاكتساب رطوبة تخفف من درجة الحرارة. طقم من الخيزران أمام مكتب بسيط من الخشب علقت فوقه لوحة للبحر. انتبهت إلى وجود لوحة أخرى للبحر في الجهة المقابلة للمقاعد، وانتشار آنيات خشبية ملونة بأشكال سيريالية.دخل يحمل صينية رصت فوقها أكواب "استكانات" شاي صغيرة، قال :

"معذرة أبو غايب يأتي لتنظيف المكان بعد قليل. يشتري الطلبات في الصباح. ثم يأتي مرة أخرى في المساء. نعتمد على أنفسنا. ميزانية المكتب بسيطة لكنها ستزيد بعد ثلاثة أشهر. ستعملين معي في تحقيقات عن الحياة الاجتماعية. خاصة المرأة والشباب."

اندفعت قائلة : لماذا يقتصر عملي على هذه المجالات؟ أريد أن أكتب في الفن، والأدب.

ضحك قائلاً : سنرى مع الأيام ما الذي تستطيعين تحقيقه.كيف لم أقابلك في المجلة؟ من درّبك؟ وكيف التحقت بها ؟ هل درست الصحافة؟

قلت : كنت قد ملأت أرض كلية الآداب بمجلات حائط من الورق المقوى فيها رأي الطلاب في عام الحسم، وجاء صحفيون ليتابعوا مظاهراتنا ، من بينهم مجموعة من كتاب مجلة الزهرة. وقفوا يقرأون المجلات المثبتة على الأرض بقوالب الطوب. تناقشنا . دعاني "عبد الفتاح الطويل" لأعمل معه. تنقلت بين الأقسام، وكتبت في الرياضة والتحقيقات، ثم كتبت لهم من هنا وأنا أتحرك بين القاهرة وبغداد. أعيش هنا مع زوجي الذي يعمل مهندساً في مصنع "الأمين"، ولي طفل واحد طلب مني الطبيب أن يبقى في القاهرة تحت رعايته لفترة. أي أنني متفرغة تماماً.

قام إلى المكتبة، وأمسك بلفافة مربعة كبيرة اختلت في يده. حاولت مساعدته. رفض. لاحظت حركة يده غير العادية. وسلمها لي قائلاً:هذه هدية من المكتب بمناسبة بداية عملك.

قلت : شكراً. سلامة يدك.

قال ضاحكاً : هذه ضريبة الاشتراك في الدفاع الشعبي عام ١٩٥٦ . أصبت برصاصة في يدي اليسرى. لم تعوقها تماماً. تكلس المرفق بسبب وضعها في الجبس لمدة طويلة. لم ينفع معها العلاج حتى في أكبر مستشفيات موسكو. قرروا أن الحل الوحيد هو إجراء جراحة في المفصل، وكانت الجراحات في بداية تطورها ذلك الوقت ففضلت تركها على ما هي عليه. لا تعيقني عن العمل الصحفي، أو الكتابة مطلقاً. وكثير من الناس لا يلاحظونها على الإطلاق.

قلت : آسفة لم أقصد.

- تعالي، لتتعرفي على المكان. هذا مكتبي بالطبع. سنشتري لك بعد أيام مكتباً نضعه في الصالة. وأنا أستخدم جزءاً من الشقة للسكن. فصلته بباب صغير. كما تشاهدين. أسرتي تعيش في مصر. لأن "ميرفت" على وشك إنهاء دراستها الجامعية، و"رشا" في المرحلة الابتدائية، وعندي طفلة صغيرة اسمها "رنا". أسافر إليهم، ولا توجد نية حتى الآن لنقلهم إلى بغداد، وتغيير حياتهم. وفي هذه الحالة - أقصد حضورهم - سأنقل سكني إلى مكان آخر.

هبطت درجات السلم متفائلة. قدرت أن الشارع الموازي لشارع السعدون سيكون شارع "البتاوين". أعرف هذه المنطقة جيداً. فيها عيادات الأطباء الذين ترددنا عليهم في العام الماضي. لا تنقطع الحركة هنا ليلاً أو نهاراً. فنادق شعبية رخيصة على جانبي الشارع الذي يتوسطه سوق للخضار والفاكهة. مطاعم شعبية ومقاهٍ. حول كل منعطف يقف أحد الرجال يشوي تكة* فوق عربة مجهزة للشواء. يتجمع حوله العمال في الصباح الباكر. تجلس بعض الفلاحات فوق الرصيف، يبعن القشدة بجوار عربات الشلغم** والدبس. تذكرت شوارع شبرا، والسيدة زينب. الحياة الشعبية واحدة. ملامح البشر هنا مختلفة. عابرو السوق لهم عيون واسعة، وأنف ضخم، وأزياء متنوعة. يمكن التفريق بينهم وبين الآشوريين من سكان الحي بسهولة. سكنه اليهود. فلما خرجوا خلفتهم الأقليات معظمهم من الآشوريين وبعض التركمان والكلدان والأرمن. أجسام هزيلة تميل إلى القصر وبشرة بيضاء، أو حمراء، وشعر أصفر، وعيون زرق. لفت انتباهي على مر الأيام وجود عدد كبير من المتخلفين عقلياً في هذا الحي بسبب الزواج المستمر بين الأقارب.

* - تكة : لحم مشوي مقطع قطعاً صغيرة .

** - الشلغم : اللفت .

اقتربت من الحديقة. في هذا البناء عيادة طبيب الأطفال الذي كان يرعى "ياسر" منذ ولادته هنا في بغداد. كان يعاني من آلام في معدته لا أعرف لها سبباً، وكنت وحيدة، وبلا تجربة سابقة في الأمومة. أنتظر عودة "حاتم" من العمل حتى يأخذنا إلى الطبيب الذي ضج من ترددنا عليه حتى إذا رآني أدخل من الباب، قال :

"ابنك طبيعي تماماً يا مدام."

أقول : لكنه يبكي.

يقول : عنده لوية.

يقول "حاتم" : يقصد مغصاً.

يستطرد الطبيب: إعطه ماء "غريب" ليهدئ معدته.

يقول "حاتم" ضاحكاً : ستنا حواء حين ولدت أول طفل كانت تعرف أكثر منك.

أقول ضاحكة : أبونا آدم كان يعرف كيف ينجب الأطفال أكثر منك.

حملته إلى القاهرة بعد شهرين من ولادته. تحسنت صحته، لكن الطبيب طالبني بإبقائه في مصر. أخبرني أنه يعاني من فتق سري بسيط ووضع له خرزة من مسبحة وأغلق عليها "بالبلاستر". وقال الحر يضايقه. بعد سنة عودي به إلى بغداد. لم يقبل "حاتم" بقائي في مصر وطالبني بالعودة وتركه مع أمي أو أمه.

أجّلت سفري عدة مرات. وعشت أغزل حبل التوازن بين بقائي مع "ياسر" لأرعاه، وعودتي إلى "حاتم" الذي يهدد بإلغاء التعاقد والعودة إلى مصر. بحثت عن القاهرة التي أعرفها. لم أجدها. كنت قد تركتها بعد ثلاثة أسابيع من تخرجي في الجامعة. سافر أصدقائي إلى الخليج أو إلى أوروبا. تابعت نشر موضوعاتي عن بغداد في مجلة الزهرة. والتقيت "لطيف جرجس". وها أنذا في المكتب الذي حلمت بالعمل فيه حين قرأت ذات صباح مانشيت : بغداد من مكتب الزهرة.أدباء العالم يسألون: هل تعرف مجلة اسمها اللوتس؟

تساءلت: أين هذا المكتب؟ وكيف أتصل به؟ حين أصل إلى القاهرة سأعرف كل التفاصيل، والتحق به.

شجعتني حماتي على ترك "ياسر". قالت لي : لا تخافي عليه. البنات يرعينه، والطبيب موجود هنا يتابع حالته. سرعان ما تمر السنة، وتعودين لاصطحابه بدلاً من خلق مشكلة مع زوجك من دون داع.

قلت : لم آت إلى مصر بإرادتي. جئت لأنني احترت مع الطبيب في العراق." وحاتم"، عانى معي ليالي طويلة من السهر بجوار "ياسر". فلماذا يمزقني الآن بالاختيار بينهما ؟

قالت : ستجدين صعوبة في البداية بالطبع. لكن حين تسمعين صوته في التليفون، وتشعرين أنه آمن بجوار طبيبه الذي تثقين به، سوف تقاومين آلام البعد عنه. التحقي بالمكتب الذي حكيتِ عنه. اعتبريها فرصة لبناء عملك.

قالت: ماذا تريدين أكثر من تشجيع حماتك وأمك لتبدئي عملك. لا تضيعي هذه الفرصة.

- لكن "ياسر".

- "ما لاكنش".

هربت من القاهرة وأنا أقول لنفسي: أم صحيحة نفسياً تعمل وتنجح أفضل ألف مرة من أم مصابة بالاكتئاب. تذكرت ليالي الملل الطويلة، والوحدة والفراغ الداخلي والتخبط، وساعات الحكي التافه مع جارتي، على الرغم من معاملة "حاتم" الناعمة الودودة. لكن أين هو "حاتم"؟ يعمل ليلاً ونهاراً في مصنع يبعد عن بغداد ثلاثين كيلو متراً. لماذا لا أفتح عالماً جديداً يعيدني إلى الحياة؟ لكن هل يقبل "حاتم" حياتي الجديدة؟ لقد كنت متفرغة له تماماً طوال سنة. ستنقلب الآن حياتي رأساً على عقب. لماذا أدع هذه التساؤلات تعكر صفو حياتي؟

بعد أسبوع كنت عضواً صحفياً في المجتمع العراقي. ونادراً ما رآنا أحد منفردين أنا أو"حلمي أمين". تحركت معه طوال خمس سنوات في طول العراق وعرضها. نبدأ عملنا في الصباح، بتحديد الأخبار التي سنهتم بمتابعتها، وتحويلها إلى تحقيقات صحفية، ثم نذهب إلى وزارة الإعلام لمتابعة ما يستجد من معلومات، وأحداث. نتناول غداءً مبكراً في الكافيتريا، ونلتقي بالأصدقاء، ثم نعود إلى المكتب لنتابع أعمالنا وفقاً للبرنامج الأسبوعي.

قدمت إليه قصيدة من أشعاري، قرأ:

أوتار جيتارك من قلبي.. تمس روحي بحذر..

قال : هذه ليست أشعارك.

اتسعت حدقتا عينيّ وقلت مستنكرة بعنف : طبعا أشعاري.

قال : ألاحظ أن كبار الشعراء الآن يتأثرون بالأشعار الفرنسية والإنجليزية المعاصرة، وهذه الكتابة تشبهها.

قلت بحسم : هذا غير صحيح.

هز رأسه. فلم أجادله. لم يكن يعلم عني الكثير بعد. سيعرف أن الفتاة المدللة التي عاشت بطلة رياضية طوال حياتها الماضية، لا تجد سبباً واحداً يجعلها تنسب لنفسها شيئاً لم تفعله ؛ فهي تعتقد اعتقاداً راسخاً أن ما تفعله يكفي ليقيم غرورها. ابتسمت قائلة بثقة تناسب أعوامي الواحدة والعشرين :

هي أشعاري وسآتيك بديواني غداً.

دعوته إلى بيتي وقدمته إلى زوجي. مكتبتي كانت هي بطاقة التعارف الحقيقية. شعرت بحرارة التحول الذي تم بيننا. قلت ضاحكة وأنا أشير إلى الكتب التي اشتراها "حاتم" لي قبل حضوري إلى بغداد ؛ لكي يغريني بحياة تشبه ما عشته في مصر: "المنفلوطي"، "المازني"، "محمد فريد أبو حديد"، "عباس العقاد"،"طه حسين"، و"محمود حسن إسماعيل".

قال : جميل.

قلت : ملل. ملل. ملل.

ضمني "حاتم" إليه وقال : ألا يعجبك ذوقي؟

قلت : كلاسيكي. أين "أبو نواس"، و"المتنبي" و"أدونيس" و"رامبو". أين الأرض اليباب وصباح الخير أيها الحزن؟ أين "سارتر" و"كامو" و"مارسيل بروست"؟

ضم "حلمي أمين" صوته إلى صوت "حاتم" قائلاً : يا عم، هؤلاء جيل الحداثة.

قال "حاتم": اشترت كل ما تريد فور وصولها.

قلت : هذه كتب عراقية في الفن، والتاريخ والأدب. أتاح لي الفراغ أن أنهي ثلاث روايات كل أسبوع، هل تصدق؟

اصطحبني "حلمي" بانتظام صباح كل ثلاثاء طوال خمس سنوات إلى مكتبات شارعي السعدون والرشيد. نستعرض الكتب الجديدة، ونشتري ما نحتاجه منها. أمدني بكتب سلامة موسى، وطبعاً كارل ماركس، ولينين، بالإضافة إلى أعمال "هيمنجواي"

و"سومرست موم". اشترينا لـ"جاك لندن" العقب الحديدية، وعرفني على "شتاينبك" وأهداني عناقيد الغضب. لكن بقيت قصة "العجوز والبحر" لـ"هيمنجواي" دستوراً خفياً يحكي قصة العلاقة الملتبسة التي نمت بيننا، واختلطت خطوطها حتى ما عاد تحديدها ممكناً، وأصبح مكتبنا في هجير بغداد، وتداعيات الغربة يشبهان تلك المركب الصغيرة في عرض البحر التي أبحر بها العجوز، يريد اصطياد سمكة عملاقة بمساعدة خبرته العميقة بالبحر وصبي صغير. ثم عاد صفر اليدين بعد أن أكلت الوحوش صيده. يقول لي في حنان :

ـ أنت عكازتي التي أراهن عليها. أرجو ألا تسيئي استخدام هذا أبداً.

ولم أفعل. ولم تكن "أنهار خيون" قد ظهرت في حياتنا بعد.

تقاطرت دموع من عيني. عائدة إلى بغداد دونه. يا إلهي. ودون معرفة أين "أنهار" أيضاً أهي في بلد آخر كما تقول بعض المعلومات المشكوك بها، أم في جب مظلم للأمن أم رحلت عن الحياة كلها، والله أعلم؟ وأين بسيوني وهل أستطيع إقناعه بالعودة إلى مصر.

انشغلت بالعمل في مكتب الزهرة. تعمقت مع الوقت معرفتي بالعراق : بالناس، بالشارع، بالتاريخ. وضعنا خطة في المكتب لزيارة المقدسات العراقية في النجف وكربلاء، وعواصم الحضارات من سامراء إلى بابل، وأور، الآثار الآشورية، أو السومرية، وبلاد الأكراد ومستنقعات البصرة. من إيوان كسرى في سلمان باك إلى بابا جرجر حيث نار سيدنا إبراهيم. أردنا أن نكتب عن هذا العالم المتنوع الرائع، الذي فتح لنا الأبواب على وسعها فدلفنا إليه.

تابعت مشاكل العمال المصريين، وأعدادهم المتزايدة في العراق. كنت أمر بعدد منهم في ساحة التحرير صباحاً وأنا في طريقي إلى المكتب أثناء انتظارهم وصول سيارات المقاولين لنقلهم إلى مواقع العمل التي تقوم على قدم وساق في أنحاء العراق كلها. توطدت صلتي بوكالة الأنباء العراقية، وصحفييها بحكم عملي اليومي معهم، وبعدها مباشرة بمجلة المرأة العراقية التي أسسها حديثاً اتحاد نساء العراق. وكذلك

طريق الشعب، جريدة الحزب الشيوعي العراقي و"الثورة"، جريدة حزب البعث؛ حيث يعمل عدد كبير من الصحفيين المصريين، و جريدة الجمهورية. وعرفت الطريق إلى قرية الخالصة التي امتلكها الفلاحون المصريون في سابقة خطيرة لتمليك أرض عراقية لفلاحين من مصر ؛ من أجل استصلاحها.

تحركت زميلتي الصحفية "سلوى العطار" الجالسة إلى جواري في صالة كبار الزوار وهي مستغرقة في الحديث مع "منى عايد". ضغطت كتفها دون قصد على صدري. تألمت بشدة. انتبهت وعدلت وضعها على الكنبة وهي تعتذر. لا أحتمل في فترة الإرضاع اللمس المفاجئ، يتحول صدري إلى كتلة من الانتباه، واللهب. ازدادت الطرقات على باب ذاكرتي تريد النفاذ وعلا صوتها. شردت معها.

أبلغنا مكتب المراسلين الأجانب دعوة وزارة الإعلام العراقية لنا للسفر بعد غد إلى الشمال العراقي للقاء الأسر الكردية العائدة من إيران بعد صدور عفو عام عنها ـ لم أنم هذه الليلة. أول رحلة عمل لي خارج بغداد لمدة ثلاثة أيام. ساورني شعور بالقلق من أن يرفض "حاتم" سفري وحدي إلى الشمال. رتبت بنود الدفاع في ذهني. تذكرت شهر العسل فوق الجبال في قرية صلاح الدين، والزهور البرية. قال لي الأكراد: تعالي في الشتاء. الشمال أجمل كثيراً بقمم الثلوج البيضاء والهدوء بعد أن يرحل المصطافون. وافق "حاتم" ببساطة على سفري. رحت أتخيل رحلتي الأولى وكيف ستكون.

سألني وهو يحتضنني: هل سافرت منذ الآن؟

عدت أنتبه إليه : اعذرني. تعالَ.

بدأ المرح فور أن تحركت بنا السيارات. تعرفت إلى رجل صيني وزوجته التي تبدو في الثلاثين من عمرها، وصحفي لبناني، واثنين من الروس، وصحفي يوغوسلافي، وآخر فرنسي. كنا سيدتين فحسب. سيظل هذا طابع الرحلات بعد ذلك. وصلنا إلى مطار عسكري. حملتنا طائرات هليوكوبتر نحو مدينة أربيل في الشمال. رأينا من الطائرة ناراً تخرج من باطن الأرض. قال مرافقنا "هشام" : هذه هي النار المقدسة.

قلت : أليست هي مصافي البترول؟

قال : نعم.

قال "حلمي أمين" : كان "نبوخذ نصر" يشوي فيها أعداءه.

قلت: أليست هذه هي نار سيدنا إبراهيم؟

قال "هشام" : نار سيدنا إبراهيم في مدينة أور.. وهذه كركوك.

قلت : معهم حق. كيف يقبل العقل خروج نار مستعرة من الأرض للأبد، دون أن يخشاها، و الحياة على الأرض في طفولتها. يصنع الإنسان آلهة لكي يدرأ الخوف.

قال الصحفي الروسي "إيزاك": أنا أعرف العربية. لكن تحدثي ببطء يا"نفرتيتي" حتى نستطيع كلنا أن نتابعك. سيدنا "إبراهيم" الرسول أليس كذلك؟

قلت: نعم. هو جد سيدنا "محمد" وأبو الأنبياء. يقول القرآن الكريم: "يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم". هل تتخيل أن تتوقف النار ويتوقف تدفق البترول من الأرض؟

قال "إيزاك": لنا أساطيرنا الجميلة أيضاً.

قلت مستنكرة : هذه ليست أسطورة.

قال ضاحكاً : وهذا هو جمالها. وجمالك.

تجاهلت كلمته. لاحظت الامتعاض فوق وجه "حلمي أمين". قلت في نفسي: "ربنا يستر. هذا الروسي يبدو خفيفاً. أرجو من الله أن لا يسبب لي المشاكل".

أخذتنا السيارات إلى بناء صغير. قال "هشام": "نتريك" (نفطر) أولاً ثم نذهب إلى المعسكر.

جلست مع "شن". قالت : لي ابنة في مثل عمرك تعيش مع باقي أولادي في بكين.

شهقت من المفاجأة. كانت رقيقة أنيقة في بساطة، وشابة جداً. لم تتركني طوال الرحلة بعد ذلك. وكنت أشعر بيدها من حين إلى حين، وهي تربت فوق كتفي بحنان.

قالت بعربية مكسرة : زرت وزوجي "يانج" القاهرة من قبل ونتمنى أن نزورها ثانية.

عدنا إلى السيارات التي حملتنا وسط طرق جبلية وعرة إلى معسكر تعيش فيه مئات الأسر من اللاجئين. حاولت أن أفهم لماذا لم يعودوا إلى قراهم ومدنهم التي نزحوا منها.

قـال أحد المسؤولين : يتـجـمعـون هنا أولاً؛ للتـأكـد من سـلامـة أوراقـهم وإعـادة تأهيلهم، ثم يجري ترتيب إعادتهم إلى وظائفهم وحياتهم الأولى.

تأملت وجوههم. ملامح آرية جميلة. بشرة بيضاء قوية، وعيون زرق، وشعر أصفر، أو أحمر، وجسم نحيف، قصير غالباً. تسرب إليّ القلق المستتر الذي يخفونه. اقتربت من طبيب عائد يتحدث مع بعض المراسلين بإنجليزية سليمة تماماً، عن سعادته بالعفو، وحكمة الرئيس "أحمد حسن البكر"، ونزاهة القيادة السياسية.

قال : أنا نادم على مغادرة بلادي،ومتأكد أن الأكراد سيفتحون صفحة جديدة في ظل عراق متحد.

شعرت أن في كلماته مداهنة غير صادقة.لكني دونتها بحذافيرها. قلت لنفسي: لماذا هذا الشعور؟ هو نادم فعلاً. ومضطر أيضاً لتملقهم ؛ حتى يعود إلى بلاده سليماً. هو شارك في ثورة ضد نظام الحكم في بلد عربي يا "نورا"! بحثت عن أسرته. وجدت زوجته تجلس على وسائد فوق الأرض، مع باقي النساء. امرأة جميلة في الثلاثينيات من عمرها. حولها ثلاثة أطفال أكبرهم في الثامنة، وأصغرهم يرضع. تركت له صدرها ليلقمه في هدوء. قالت لي : أنا سعيدة بعودتي إلى العراق. وطن الإنسان هو بيته الذي نشأ وتربى فيه الأهل والأصدقاء.

تحدثت مع عدد من النساء والشباب العائد. لاحظت أن معظمهم من المتعلمين. قالوا إنهم سعداء بالعودة. استمعنا إلى المسؤولين وهم يمرون بنا بين أرجاء المعسكر. نددوا بما فعله الملا مصطفى البرزاني، ووصفوه بالعمالة والاستعانة بالأمريكيين لكسر وحدة العراق، وهددوا،وتوعدوا بالضرب بشدة على الدعاوي الانفصالية. ثم وصفوا لنا أهمية الحكم الذاتي والمشاريع المستقبلية في المنطقة. قابلنا محافظ "أربيل" في لقاء سريع. شرح لنا فيه ترتيبات عودة العائلات الكردية إلى قرى نموذجية شيدت على عجل ؛ لإيوائهم حتى تتم إعادتهم إلى حياتهم الطبيعية في قراهم، أو إلى أماكن أخرى، إذ كانت قراهم قد دمرت في الاشتباكات.

جلسنا للراحة في إحدى الاستراحات. طلب الجميع خمراً، وطلبت عصيراً، أعدوا لنا طعاماً كردياً فاخراً مكوناً من الفريك ولحم الماعز ونوع من الأرز واللحم مدفون في كرة من الفطائر يسمونه "بردا بلاو". علت أصواتنا وضحكاتنا. سألني النادل : ماذا تشربين؟

سمعت صوت "إيزاك" يقول: أعطها ينسن (يانسونا) أو حليب ماعز.

لم يعجبني التعليق، وقبل أن أجيب النادل قال "حلمي أمين": عصير من فضلك.

قلت لنفسي ملاحظة "حلمي" معناها أنه يتابع الموقف وأنه قلق.

حملتنا السيارات إلى الفندق الذي سنقيم فيه طوال رحلتنا، في مدينة "شقلاوة" التي تبعد خمسين كيلومتراً عن "أربيل". طريق وعر لكنه رائع. رحت أتابع الأشجار الباسقة وأتخيلها كائنات خرافية تتحرك وتفرد أذرعتها وتحاول الإمساك بنا، ويمنعها الظلام. تلألأت القرى الصغيرة عن بعد بأضواء خافتة وسط الجبل، وبدأ الطريق الضيق يتعرج في دورات، كل دورة نصف كيلو متر تقريباً. مال بنا الأتوبيس، وهو يصعد بصعوبة، وتعالت آهاتنا منغمة بكل اللغات حتى تنتهي الدورة فننفجر ضاحكين، ثم بدأنا نعد: الثالثة. الرابعة. الخامسة. إلى أن وصلنا إلى رقم أربع عشرة، واستوت السيارة فوق القمة. فتحنا النوافذ، وأمسكنا بأشجار الفاكهة التي مدت فروعها إلى داخل السيارة. وضعنا الحقائب بسرعة في غرفنا، وارتدينا ملابس ثقيلة، وركضنا نحو الشارع الذي يدعونا إلى المشي به. برودة منعشة ولذيذة. وقفنا أمام أفران مفتوحة نشاهد العجين وهو يلت، والتنور يستقبل الأرغفة، ويخرجها برائحة فواحة. عرضت المحلات بضائع شعبية ملونة ببذخ، لاحظت وجود المزهريات الخشبية التي تزين ديكور مكتبنا، وأدركت أن "حلمي أمين" قد اشتراها من هنا. بنيت القرية وسط سهل محاط بالجبال. أعطتها الزراعة فوق المدرجات مذاقا خاصا. ينزل الماء المتجمع من الينابيع الطبيعية في الأعالي في جداول إلى الطرقات، ويمر في مجارٍ خاصة حتى إذا قابل مدرجات بعينها اتحد في شلال صغير. على الرغم من الظلام والرحلة الطويلة لم أرغب في النوم. تمنيت أن أسهر، وأن أعيش هنا مدى الحياة.

عدنا إلى الفندق، ودخلنا إلى المطعم، تفتحت شهيتنا إلى الطعام، على الرغم من أننا لم نتوقف عن الأكل طوال نهارنا. جلس "إيزاك" في المقعد المقابل لي على المائدة. سكر بشدة وراح يغازلني على مشهد من الجميع. احترت في الرد عليه. التزمت الصمت التام، وبعد قليل طلبت من أحد الجالسين عن بُعد تبديل مكانه معي. لذت بـ"فراس" الصحفي اللبناني الذي لاحظت أنه يراقب الموقف بوضوح، ورحنا نتحدث عن مصر وزيارته لها. كنت مشتتة الذهن بينه وبين "إيزاك" الذي يعلو صوته منادياً :

"نفرتيتي. نفرتيتي".

قلت لنفسي: "المجانين في نعيم. لقد شرب هذا الرجل كثيراً في كل استراحة دخلناها". رأيته قادماً نحوي وفي يده مشط. قال:

"هل أستطيع أن أمشط شعر نفرتيتي الجميلة؟ please let me.. let me"

قلت: اذهب إليها في برلين. فستسعد بذلك.

لم يدرك المعنى. قال : بل أريد هذا الآن.

قام "فراس" واصطحبه إلى الصالون. وغرقت في الخجل وعيون المراسلين الأجانب والموظفين العراقيين تتطلع نحوي. استأذنت في الذهاب إلى غرفتي. شعرت بحركة وراء بابي. فتحته غاضبة بسرعة. وجدت أحد شباب الفندق يقوم بحراستي. رن جرس الهاتف.

قال"حلمي أمين" : هل أنت بخير؟

قلت: نعم. أنا آسفة لما حدث.

قال: تصبحين على خير. نتحدث غداً.

استشعرت نبرة الغضب في صوته. تقلبت في فراشي يجافيني النوم. وصلتني حركة خلف بابي. ماذا يحدث لي في أول رحلة صحفية؟ وما تأثير هذا على مكاني في المكتب. تذكرت أننا كلما توقفنا مشط "إيزاك" شعره. كان ينظر في كل زجاج مرّ به، وكل مرآة، مرحاً لطيفاً ومعجباً بنفسه. لكنه ختمها غماً. ضقت بالتفكير،ونمت نوماً قلقاً، يملؤني الضيق. لم أدرك أن ما حدث في هذه الرحلة سيطبع عملي وحركتي في بغداد بطابع خاص لخمس سنوات قادمة.

خرجنا في الصباح إلى قرية "عفية"، مازالت تحمل آثار ندى الفجر. سحبت الفلاحات الأبقار والماعز، ومشى الأطفال وراء الركب. رحنا نلتقط الصور التذكارية لبيوت الأكراد المختفية وراء الأشجار. كشف لنا لمعان أقمشة الفلاحات عن أماكنهن. زرنا مصانع السجاد والدخان. أردت أن أجمع بعضاً من الزهور البرية كما كنت أفعل مع "حاتم" في شهر العسل، لكني خفت أن تؤدي حركتي هذه إلى تعليقات من "إيزاك" بعد ليلة الأمس "إياها". نزلنا إلى أسواق أربيل. اشتريت الأقمشة المقصبة الكردية. علقت شن الصينية :

"ما كل هذا ؟"

" صديقاتي في مصر سيصنعن منها ملابس للسهرة."

صعدنا إلى القلعة. أشار هاشم قائلاً : نزل منها الناس وبنوا دوراً بعيدة في السفح بعد أن انتشرت داخلها الأمراض والأوبئة.

عدت إلى بيتي في بغداد سعيدة ؛ أحمل معي مادة موضوع صحفي وهدايا للبيت والأصدقاء. كتبت تحقيقي وسلمته لمدير المكتب في الصباح. أضاف إليه فقرة عن المشكلة الكردية، وثورة الملا مصطفى البرزاني. وكتب في نهايته إننا سنتابع تطبيق قوانين الحكم الذاتي وتأثيرها في الأكراد خلال متابعاتنا القادمة. طلب مني أن أقرأ التحقيق بعد الإضافات وأن أحاول أن أتعلم لماذا أضيفت. ثم دعاني قائلاً :

"جهدك الصحفي في المكتب يتقدم بشدة. لكن لن أقبل من يسبب لي المشاكل في بلد حساس مثل العراق. وصلني اعتذار رسمي من المكتب السوفييتي مساء أمس بمجرد عودتنا."

قلت : إذن هم يعلمون بخطأ مراسلهم.

قال : خطأ من؟ لا أريد أن أعرف.

عرفت بعد أيام أنه تم توجيه اللوم إلى "إيزاك". ومنع من السفر معنا بعد ذلك لفترة طويلة. وتجنبنا المراسلين السوفييت في كل مكان اجتمعنا فيه. ويبدو أن زميله قد أبلغ رؤساءه بالواقعة؛ فتعاملوا معه بعنف. وصمتُ أنا للأبد. تجنبت الحديث مع كل الرجال. تحولت إلى مستمعة، إلا إذا كنت أوجه أسئلة رسمية. أو أجمع مادة لتحقيق صحفي. ساعدت عوامل كثيرة على استمرار موقفي هذا لسنوات.

تواردت إلينا الكثير من المعلومات عن الأكراد. معلومات رسمية في الصباح، ومعلومات غير رسمية في المساء. تصل إلى "حلمي أمين" من خلال لقاءاته مع المثقفين العراقيين. ويصلني بعضها من "حاتم"، وزملاء المصنع، والجيران أحياناً. أين موقع إيران من هذه المشكلة؟

قلت لنفسي وقتها: ماذا تفعل دولة وجدت آلاف النازحين يعبرون الجبال إلى أراضيها. أقامت لهم المعسكرات مضطرة حتى انتهت الأزمة. لكن هل كان الشاه يغذي الانفصال الكردي العراقي؟ ولماذا يغذيه ولديه أكراد. سوف يطالبون هم أيضاً

بالانفصال؟ هل أمريكا وراء القلقلة في هذه المنطقة؟ لماذا؟ ما مصلحتها؟ ماذا يريد الأكراد بالضبط؟ من هم؟ ما تاريخهم؟ رحت أجمع مواد عن تاريخ الأكراد. قرر "حلمي أمين" أن يتقدم لوزارة الإعلام العراقية بقائمة من مشاريع الكتب يعدها مكتب الزهرة بالتعاون مع الوزارة. وجاء على رأسها كتاب عن الأكراد والحكم الذاتي. وافق عليه مسؤول الإعلام من فوره. داعماً موافقته بتوفير الإقامة في الفنادق وحريتنا في الحركة وجمع ما نشاء من معلومات عن ظروف الأكراد، ومقابلة من نريد أن نقابلهم.

هل قابلنا "أنهار" في تلك الفترة؟ نعم. في أماكن متفرقة في بغداد وخارجها في الاحتفالات والمؤتمرات. لكنها لم تكن تعمل معنا بعد. لحقت بنا بعد وقت قليل.

انتبهت للحركة المتصاعدة حولي. جاء مدير المضيفة بنفسه ليخبرنا أن الأتوبيس في انتظارنا في الخارج. دب فينا نشاط مفاجئ، وتحركنا مستبشرات على الرغم من تأخر موعد إقلاع الطائرة ساعة كاملة. كنا نعرف أن مدة الترانزيت في مطار عمان سبع ساعات، فلم يُضرنا استهلاك ساعة منها في مطار القاهرة. صعدنا إلى الطائرة، وكأنها طائرتنا الخاصة. جلست "سلمى" بجواري وأعطتني قطعة لبان قائلة:

أنا تعبة جداً. لم أنم الليلة الماضية. فرصة لأنام هذه الساعة وأجدد نشاطي.

غرقت في النوم فور إغماض جفنيها. ازدادت الطرقات على باب ذاكرتي تريد النفاذ إليها، وعلا صوتها. كان قد غمرني شعور بعرامة الحياة العملية الحافلة التي تعرفت فيها على كل ما هو أصيل في محاولة لفهم الجذور الحقيقية لهذا الشعب، وكان عليَّ أن أبدأ من الكوفة. برقت نجمة في سماء الذاكرة التي فتحت الباب لسيل أيامها لتمطر بإلحاح.

***

شدتني في زيارة الكوفة مأساة الصراع بين العلويين والأمويين، وقصة شعبية من جاراتي العراقيات يؤكدن فيها أن عين ماء جارية انبثقت تحت سفينة نوح لترفعها رويداً وليبدأ الطوفان. رتبنا في المكتب رحلة إلى النجف والكوفة. ذهبنا في السابعة صباحاً إلى موقف العلاوي وسط بغداد وركبنا إحدى السيارات الفورد العاملة بالنفر. كنت و"حلمي أمين" قد زرناهما في مرة سابقة، كل على حدة. لاحظت انتشار المقابر

على مساحة واسعة من الأرض قبل مدخل مدينة النجف بأميال قليلة. قلت : كل هذا العدد من القبور؟

قال "حلمي أمين" : يدفن الشيعة في النجف حتى يكونوا بالقرب من الإمام "علي" أما "الحسين" فهو مدفون في كربلاء.

قلت: أليس" الحسين" مدفوناً في مصر؟

قال : في الغالب هذه أسطورة. يقولون: أن أصدقاءه حملوا رأسه وهربوا به، وقالوا حملوا جثمانه وهربوا به. ودفنوه في القاهرة، أو دفنوه في سوريا، أو في مقبرة سرية هنا في العراق. وسواء دفن هنا، أو دفن هناك سيبقى رمزاً أبدياً للاستشهاد.

- هل تذكر مسرحية الحسين شهيداً، وما سببت من مشاكل؟

– بالطبع، "عبد الرحمن الشرقاوي" صديقي. لم يحتمل الأزهر رؤيته للموضوع.

- نحتاج إلى رجرجة تلك العقول.

- هذا هو ما يفعله المثقف بالضبط، حين يطل على التاريخ دون انحياز، إلا ما يراه من أفكاره، وما يصدقه، لا ما يفرض عليه. أي حين يعمل العقل.

ترجلنا من السيارة. قابلتنا مدينة صغيرة تشبه كل المدن الصحراوية ببيوتها الفسيحة قليلة العدد، المغطاة بالاسمنت المتروك بلونه الرصاصي. مشينا وسط المدينة، في شارعها التجاري. رأيت الدكاكين مغطاة بالمرايا الصغيرة المقطعة بخطوط هندسية عربية.

قلت : هذه هي المرايا النجفية.

قال : إنها ساحرة. تعالي نشتري سجائر أولاً.

دخلنا محل قلت : الله يساعدك، "باكيت جكاير* سومر".

قال البائع : أمن مصر؟ بلد عبد الوهاب، وأم كلثوم، وشوقي.

قلت : نعم. أتحب الفنانين؟

قال: نعم. وأقصد أحمد شوقي.

لاحظت قصائد الشعر المعلقة فوق الحائط. سألته : هذا شعر عمودي. لمن؟

قال : هذا شعر أصيل. الشعر هو الشعر العمودي. هذه قصائدي. كلنا هنا شعراء.

عدنا إلى سيارة أخرى أقلتنا إلى الكوفة. استقبلنا وادي خد العذراء الذي يحتضنه بخمسة وثلاثين ألف فدان من الأرز. سجادة خضراء لا يدرك البصر مداها. لم

---

* – جكاير : سجائر .

أكن أتوقع أن ينتظرني تاريخ العالم هنا ملخصاً في ساحة واسعة لمسجد له خصوصيته الشديدة. رأيت الناس يدورون حول اثني عشر مقاماً ويصلون عدداً محسوباً من الركعات. بدأت بمقام سيدنا إبراهيم؛ حيث تقول الروايات إنه كان يصلي هنا. قرأت على قطعة من الرق : "يصلى به أربع ركعات". وقفت على بعد قليل من مقام سيدنا الخضر، ولسيدنا الخضر مكانة خاصة عند المصريين وحق المقام ركعتان. ثم أيضاً "بيت القضاء" حيث كان يقضي علي بن أبي طالب. جاءت سيدة مسنة تسألني لماذا لا أشتري عباءة؟ بعد أن لاحظت استعارتي للعباءة من محل قريب يقوم بقرضها للزائرات. ثم عرفت أن حق مقام المعراج ركعتان. لم أكن أعلم أن النبي "محمداً" صلى الله عليه وسلم ـ قد زار العراق، ولكنهم يرون أنه حين أسرى به إلى السماء قال له "جبريل" : أتدري أين أنت الآن يا"محمد"؟ أنت مقابل مسجد كوفان. قال النبي صلى الله عليه وسلم : فاستأذن لي أصلي فيه ركعتين ؛ فنزل فصلى فيه. ولتوبة آدم مقام حقه ركعتان، وللإمام "علي" حيث كان يصلي مقام، "ولزين العابدين" مقام. ومقام أخير هو بيت الطشت، ثم المقام الأخير للإمام"جعفر الصادق".

سألتني فتاة صغيرة : لماذا لا تصلون؟

أفهمتها أنها زيارة عمل وسنعود إلى زيارة أخرى. للمكان هيبة. فهل بدأ الطوفان من هنا؟ أم من الأماكن الأخرى التي تتنازعه؟ خرجت إلى مسجد السهلة الذي كان بيت النبي إدريس؛حيث يخيط فيه ويصلي. ثم إلى روضة "مسلم بن عقيل" أول شهيد للشيعة. سألنا عن بيت سيدنا "علي". دلونا على بيت صغير للغاية لا يزيد عن بيت أحد فقراء الفلاحين في مصر. مبني بالطوب النيء، مكون من حجرة وصالة وبئر ماء. رأيت فوق الجدران ثلاث صور تخطيطية للإمام "علي" وخلفه نخيل العراق الشهير. وقفت وسط الناس وهم ينتحبون بحرارة انتقلت إلى روحي تأسرها. فأسرعت بالخروج ودموعي تتدفق بغزارة.

قلت : رفض سيدنا "علي" النزول في قصر الإمارة، وفضّل عليه هذا البيت المتواضع.

قال : هذا هو العالم الجليل وسط الصحابة.

قلت : أحببت أحكامه وجلساته للفصل بين الناس. أحببت صدقه وتضحيته. على

الرغم من استحالة المقارنة مع "عمر بن الخطاب"، بسبب كاريزما "عمر"، وأسطورته التي وصلت إلينا أكثر إبهاراً في مصر؛ لا أدري لماذا أحب سيدنا "علي" أكثر. بغض النظر عن المشكلة السياسية التي قسّمت المسلمين بسبب الصراع على الخلافة.

قال : وضعت السياسة سمومها كلها على هذه الأرض وكانت النتيجة هي مقتل كل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وانتصار التجار يا نورا.

قلت : هذا هو التفسير الماركسي لأحداث التاريخ الإسلامي.

قال ضاحكاً: سنتكلم في التفسير الماركسي لاحقاً. علينا أن نرى القصر أولاً. ثم الجامع.

على بعد بسيط من المكان قرأت فوق يافطة صغيرة من الخشب كلمة "قصر الإمارة". ورأيت سهماً يشير إلى حفرة كبيرة بها بعض مخلفات أساس بناء. لا أكثر. كان هذا القصر قد بناه "سعد بن أبي وقاص"حينما بنى مسجد الكوفة، ولولا حادث شهير لبقي هذا القصر على حاله، ويروى أن"عبد الملك بن مروان" جلس ووضع رأس "مصعب" بين يديه فقال له "عبد الملك بن عمير" : يا أمير المؤمنين جلست أنا "وعبيد الله بن زياد" في هذا المجلس ورأس "الحسين بن علي" عليه السلام بين يديه، ثم جلست أنا "والمختار بن عبيدة" فإذا رأس "عبيد الله بن زياد" بين يديه، ثم جلست أنا "ومصعب" هذا فإذا رأس "المختار" بين يديه، ثم جلست مع أمير المؤمنين فإذا رأس "مصعب" بين يديه، وأنا أعيذ أمير المؤمنين من شر هذا المجلس. فقال له : لا أراك الله الخامس. وقام من فوره وأمر بهدم القصر.

ذهبنا إلى مجلس سيدنا "علي". كان يعج بعشرات الناس في حالة حركة أو صلاة يحملون معهم قطعة من التربة يضعونها فوق الأرض فتلمس جباههم عند السجود.

قلت : أليست هذه وثنية؟

قال: لا. هي قطعة من تراب مدينة كربلاء تيمناً باستشهاد "الحسين" عليها. مجرد اعتقاد.

قلت: أترى كيف يتمسح الناس بهذه المزولة. لقد تخنصرت على مر الزمان وأصبحت تشبه جسم الإنسان. الحمد لله على انتشار العلم وإلا لصحونا على عبادة وثن آخر.

صلينا ركعتين تحية للمسجد. ورحنا نجوب المكان حيث مجلس سيدنا "علي" وحياته. خرجنا إلى وسط المدينة، اخترنا مطعماً شعبياً للمشويات العراقية من الغنم. يقدمون "التكة" قطع لحم صغيرة مع الأرز وخبز التنور الساخن. جلسنا نأكل مستبشرين بعملنا وعدنا نلتقط الصور، ونتحدث مع الناس حتى تعبنا. وانقضى الوقت بسرعة، ولم يعد لدينا ما يكفي لكي نزور كربلاء أرض المعركة الشهيرة التي أطلقوا عليها كر وبلاء والتي انتهت بمقتل سيدنا "الحسين" رضي الله عنه. قررنا تأجيل زيارتها لوقت آخر. وركبنا السيارة عائدين إلى بغداد. تذكرت أبيات البياتي :

من قبل ألف سنة يرتفع البكاء/ حزناً على شهيد كربلاء/ ولم يزل على الفرات دمه المراق/ يصبغ وجه الماء والنخيل في المساء.

لم أجد "حاتم" في البيت، وحين عاد إلى البيت متأخراً أخبرني أنه ذهب إلى البنك وحوّل أموالاً لأخيه "عماد". كنت متعبة، ولا أريد الدخول في تفاصيل تفسد يومي. دخلت إلى سريري صامتة. جاء ورائي قائلاً :

لماذا الغضب؟ سبق وأخبرتك أنني لن أمتلك مليماً واحداً دون أن يشاركني فيه أخي.

قلت : هذا لم يعد حقك بعد أن رزقنا بـ "ياسر".

قال : حين مات أبي تاركاً لنا خمسة أطفال في أعمار صغيرة ؛ تولى أخي المسؤولية وحده بسبب سفري إلى ألمانيا كما تعلمين.

قلت : ترك لهم والدهم ما يكفيهم وأكثر. وتركت لهم ميراثك حتى يكملوا تعليمهم، وحتى تشعر والدتك أنها ما زالت صاحبة الحق في التصرف. وأنا غير معترضة مطلقاً على هذا.

قال : يستطيع أخي أن يقبل الإعارة إلى أي بلد عربي، ويترك رعاية إخوتي، ولكنه بقي في مصر من أجلهم ؛ لهذا من حقه أن يشاركني فيما أجنيه من أموال هنا.

قلت : لكنك لا تشاركه فيما يكسبه من وراء التجارة التي أقامها اعتماداً على ممتلكات والدك. ولا تشاركه في دخل زوجته الطبيبة، ولا في رزقه من الصحة والأولاد. الله وحده هو الذي يوزع الرزق، وليس أنت.

قال : "نورا"، أنت عاقلة، وأنا لم أخدعك قط. منذ جئنا إلى بغداد قررت أن أقاسمه مدخراتنا فلماذا الانزعاج الآن؟

قلت : أنا وأنت وابننا ندفع ضريبة الغربة، والبعد عن الأهل، وعن ابننا أيضاً، ويأخذون هم نتاج مجهودنا دون تعب. تريد إعطاءه مبلغاً كبيراً كهدية هذا طبيعي. لكن مقاسمتنا في رزقنا مدى الحياة لا. لن يحدث.

قال : اقبلي أن نعود إلى مصر لنرعى إخوتي ونتبادل الأدوار. يسافر هو وزوجته.

قلت : أنا تعبة. اتركني لأنام.

قال : لن تنامي، ولن أتركك.

أنهت المضيفة شرحها لوسائل السلامة. لا أظن أن أياً من الركاب قادر على تنفيذ هذه التعليمات وقت الخطر. سطع ضوء في سقف الطائرة، يسمح بفك الأحزمة، والحركة. قمت لأغسل وجهي، طلبت في طريق عودتي من المضيفة كوب ماء. يدفعني إدرار اللبن إلى العطش، واشتهاء الحلوى. لاحظت استغراق الجميع في الحديث. غطت الممرات أصوات كأكأة، ذكرتني بأتوبيس رحلات المدرسة. أمسكت بمجلة مصر للطيران. قلبت أوراقها، وتوقفت أمام إعلان عن التخييم في معسكرات مفتوحة بصحراء الوادي الجديد الساحرة، وصورة شمس تغرب وهي تسقط فوق بحر الرمال الأعظم، وتعود لتنعكس بلون برتقالي يزداد احمراراً مع كل انحناء لموجات الرمل التي تحيط بالواحة.

سألت "حلمي أمين": وهو يصف لي رسوم الفنان "حسن فؤاد" فوق جدران الزنزانة في الواحات الخارجة: لماذا لا تكتب مذكراتك حتى نعرف ما حدث للشيوعيين المصريين؟

قال : كتبت سيرة ذاتية عن سجن الواحات. نشرت بعض أجزائها في مجلة الزهرة.

قلت : كثير من رجال الحركة الوطنية المصرية كتبوا مذكرات عن الثورة وعن الأحزاب المصرية السرية قبل الثورة. تضاربت الأقوال وضاعت الحقيقة.

قال : الحقيقة لا تضيع. المشكلة الوحيدة ؛ أن كلاً منهم يريد أن يصبح هو البطل. فيحكي الواقعة نفسها باعتباره محور الأحداث. لكن حتى هذا مفيد ؛ لأن الآخرين يستطيعون الرد عليه، وتصحيح الوقائع. وأفضل ما كتب هو ما كتبه "أحمد حمروش"؛ لأنه موثق، وفيه جهد حقيقي، وصدق، حتى مع الاختلافات البسيطة معه.

قلت : ما رأيك لو سجلت معك حواراً عن حياتك؟ سيكون هذا مفيداً، ثم نفرغ الشرائط، وفي يوم من الأيام تكتمل مادة لكتاب يحتاجه الشباب الذي لا يعرف هذا التاريخ.

ـ موافق. نبدأ غداً.

تغير جدولنا الصباحي. استقطعنا منه ساعة يومياً. بعد أن نسجل فيها حياة "حلمي أمين". بدأنا بداية تقليدية جداً عن حياته في مدينة الإسكندرية، وعن نزوح أسرته من الصعيد إليها بحثاً عن عمل، واستقرارهم فيها في حي رأس التين (بحري) بجوار الميناء والجمرك ؛ حيث عمل والده، وأخيه بعد ذلك. هو الابن الأوسط لخمسة أبناء. توقفوا عن التعليم عند المرحلة الإعدادية، وأكمل هو تعليمه. عمل في الميناء طوال الصيف لكي ينفق على دراسته. وأعطته أمه سلسلة ذهبية (شبكتها) كانت تحتفظ بها لغدر الزمان لكي يدفع نفقات الجامعة. لكنه حصل على منحة مجانية لتفوقه. انضم في شبابه إلى حركة الإخوان المسلمين، ثم تركهم إلى حركة "حدتو" من فور دخوله الجامعة. كانت مصر تغلي ضد الاستعمار الإنجليزي. انضم إلى المقاومة. أحب جارته "عصمت"، اتفقا معاً على الزواج بعد التخرج، قاومت أمه إذ مات والد "عصمت"، و كان يمت لهم بصلة قرابة بعيدة. وترك الأسرة بلا عائل. شعر والد "حلمي" أنه مسؤول عنهم، فتزوج سراً من الأم وكانت زوجته تشعر بهذه العلاقة، ولا تستطيع أن تمسك بها. فلما أراد أن يخطبها رسمياً قالت له أمه غاضبة: هذه ليست في مستواك. تزوج من فتاة متعلمة مثلك ؛ طبيبة. معلمة.

تمت الخطبة، ثم قبض عليه عام ١٩٥٤ مع جماعة "حدتو" التي انقسمت على نفسها حيال موقفها من الثورة. أخذوهم إلى السجن الحربي وعذبوهم بشدة وسرى بين المجموعة خبر يقول إنهم ينوون الحكم عليهم بالإعدام. فلما جاء والده ليزوره في السجن قال له:

"استلم مرتبي من الجمرك، وأنفقه على تجهيز بيت "عصمت". زوجها للعريس الذي تقدم لها. أنا لا أنفعها سأظل أسجن من سجن إلى سجن، وهي حبيبتي، أريد لها الخير." ولم يخبره أنه ينتظر حكماً بالإعدام.

قال الأب : ستنتظرك "عصمت" لسنوات إذا أردت. هي لحمنا.

حاولت عصمت أن ترفض بكل الأشكال وانتهت بالطبع زوجة لرجل آخر.

لمعت الدموع في عينيه فتوقف عن الكلام. بكيت. يا إلهي ما هذه الرومانسية؟

سألته : هل مازلت تحبها، على الرغم من زواجك وبناتك وحياتك العريضة، هل تراها؟

قال : هي حب حياتي. لا أراها كثيراً. في الأعياد والمناسبات العائلية فحسب. لأنها تزوجت من ابن جيراننا. حاولت الابتعاد حتى لا أسبب لها مشاكل عائلية، وأن أرعى مشاعر زوجتي التي عرفت القصة.

قربت بيننا الحكايات اليومية عن حياته. تركته يحكي بلا تسلسل، وأسأله أنا عن أدق التفاصيل في يوم آخر حتى أصل إلى الأعماق التي يعبرها متعمداً. يضحك قائلاً :

جستابو؟ أنت محقق فظيع يا أستاذ "نور".

مللت من هذه الجلسة المتعبة. وانتبهت إلى ضحكات قادمة من المقاعد الأمامية، كانت الباحثة "شهيرة العاصي" تحكي قصة طريفة كالعادة. أرجعت مقعدي إلى الوراء، وأخرجت زجاجة ماء كولونيا خفيفة من حقيبتي التي اكتظت بالشفاط والمنشفة، والكريمات، ونثرت منها فوق وجهي، وقررت أن أنام. زارني "بسيوني" بوجهه الطفولي، إن شاء الله ألقاه وأقنعه بالعودة.

لماذا تلح "أنهار" على عقلي بهذا الشكل؟ تصورت في أوقات كثيرة أن سر اختفائها هو قرار إرادي، بعد أن وصلت قصة الحب بينها وبين "حلمي أمين" إلى طريق مسدود. أرادت الابتعاد لفترة حتى تتخذ قراراً نهائياً، فلما طال الوقت لم تستطع العودة، والمواجهة، أو ربما راق لها الابتعاد وبدأت حياة جديدة. هي صحفية ماهرة. سوف تقبلها أي وكالة أنباء. أذكر ابتعادها المؤقت ذات مرة حين سافرت إلى الموصل، دون أن تترك لنا معلومة واحدة، وكاد "حلمي أمين" أن يفقد عقله. وجدتها تقرع جرس المكتب ذات عصر، وتدخل. كنا على وشك إنهاء عملنا. سلمتها بعض الملفات وانصرفت. وعاد الحب يشتعل بينهما من جديد. على الرغم من تعاستها التي كنت أراها في نظرات القلق، والحيرة، وهي تتطلع إليه، وسؤالها المؤرق عن المستقبل الذي يسكن عينيها.

في أيام اختفائها الأولى تصورت لبعض الوقت أنها رحلت إلى الموصل مرة أخرى. أعرف شغفها بأم الربيعين، بشقائق النعمان التي تفترش سهولها وهضابها في الربيع مرة، وفي الخريف أخرى. ثم عدت وقلت لنفسي : بل ستختار مكاناً لا يعرفه. وانقلب خوفي عليها إلى غضب. لماذا تفعل بنا ذلك في هذه الظروف الصعبة؟ كنت مصرة على إبعاد هواجس الخطر عن ذهني. خائفة أن أصدق أن "أنهار" لن تعود إلينا مرة أخرى. جاءت قصة اختفائها الأولى في زمن نعم فيه العراق بالسلام ؛ جبهة ائتلاف حاكمة من خمسة أحزاب، ونمو اقتصادي، وتعاون دولي، ومهرجانات ثقافية. اللحظة الراهنة مختلفة، لحظة مغزولة بالخوف، والكل يعيش في مركب القلق في انتظار العاصفة القادمة، والدماء تلون النهر، والاعتقالات على قدم وساق، والهروب إلى المنفى هو الطريق الوحيد لتذكرة يقطعها العراقي في اتجاه واحد بلا أمل في العودة. لا لن تفعل "أنهار" بنا هذا. لن تتخذ مثل هذا القرار في هذا الوقت. لابد أن لاختفائها معنى آخر. ما زال غامضاً على الرغم من مرور ثلاث سنوات على غيابها. لابد أن أزور أمها خالتي فاطمة، وأن أعرف منها حقيقة الوضع الآن. ربما تصرح لي بما تخشى أن تقوله لغيري.

استسلمت للذاكرة. تركتها تستحلب الأيام على مهل.

استعد "حلمي أمين" للسفر إلى القاهرة. بدت لي فرصة لكي أعود إلى بيتي، وأنجز بعض المؤجلات خاصة في القراءة، وترتيب البيت الذي انشغلت عنه. حددت قراءاتي من الكتب وخصصتها للعراق. لم أخرج من البيت إلا لكي أتسلم المجلات من الدار الوطنية، وقبل أن أغادر المبنى أفتح العدد بسرعة لأعرف إن كانوا قد نشروا لي موضوعاً جديداً، ثم أذهب إلى الصحف التي اعتدنا أن نهديها أعدادنا. توطدت صلتي ببنات مجلة المرأة. يقابلنني وهن يتحلقن حول المدفأة ويدعونني لتناول الطعام.

أقول : لفات* تاني. (اللفة تعني السندويتش)

يقلن ضاحكات : تأتين في الثانية عشرة ظهراً بالتمام.

- متعمدة طبعاً.

أخرج إلى الشارع وقد ازدادت الألفة بيني وبين "نجلاء" و"إلهام" وبدت "ساجدة" مشغولة دائماً.

---

* - لفات : ساندوتشات .

عـاد "حلمي أمين" مـحـمـلاً بالخطابات من الأهل، وبالأخـبـار عن مـصـر، وبدفـعـة جديدة لنشر تحـقـيـقـات المكتب. لاحظت أن النشر يرتبط ارتبـاطاً عـجـيـبـاً بسـفـره إلى القاهرة. وبعد عـودته يقل تدريجياً. تصاعدت صلاتنا وتوثقت بمكتب المراسلين الأجانب في وزارة الإعـلام يسمونه العـلاقات التوجيهية، يحدثنا "هاشم" المرح ـ الذي عـاش في مصر، عن حي الدقي حيث سكن هو و"صدام حسين" نائب الرئيس "البكر" ـ عن المقهى التي كـانوا يتـجـمـعـون بها في الميـدان مـسـاءً، عن البائعين، والمدرسين والزمـلاء، عن حديقة الأورمان. لاحظت سهولة التعامل مع العراقيين الذين عـاشوا في مصر. لسبب ما نتآلف بسرعـة يجمعنا الحنين إليـهـا. "حازم" الهادئ الذي يبلغنا أولاً بأول بردود أفعـال مـوضـوعـاتنا على الجـانب العـراقي، ويتـصل بنا ليـدعـونا إلى الاحـتـفـالات والمؤتمرات. أصبحنا المكتب الصحفي الوحيد الذي يتحرك دون الحاجة إلى تصريح للدخول للمكان الذي يذهب إليـه. يشجعوننا متـفـائلين بنشـاطنا. نقـابل أحياناً رئيسـهم الحـاج "عـبـاس" وهو عـراقي بعثي مفعم بشعـور قـومي حقيقي لـم تصبه ضربة النفط، كـان حريصـاً على تنبيهنا إلى الوجه الطيب للعراق حتى لا نتأزم إذا واجهتنا أية مشكلة.

لم أشعـر بـثـقـل الأمن الذي يحكون عنه سراً قط حتى واجهتـه ذات يوم. كنت قـد دعـيت مع "حلمي أمين" إلى حـفـل رسـمي، وسـألتـه قـبـل أن أعـود إلى البـيـت لأبدل ملابسي: هل الدعوة تتضمن "حاتم" أيضاً؟

قال: إذا أنتِ مدعوة، وأنت زوجة، فمن الطبيعي أن يأتي "حاتم" معك.

سألته مترددة : هل أنت متأكد؟

قال : تتضمن الدعوات دائماً الزوجة. فلماذا لا يكون الزوج؟

قلت : الموقف في العراق مختلف قليلاً.

قال : لا. لا. فليأت "حاتم" حتى تعودي معه بعد انتهاء الحفل.

قـدمت البطاقـة عند البـوابة. لاحظت حـيـرة رجل الأمن. وهو ينظر إليّ ثم إلى "حاتم". وقبل أن يتـخذ أي مـوقف بالإيجاب أو بالسلب، انتبه "حازم" الذي كان يتـابع الضيوف إلينا من بعيد، وجاء مسرعاً وهو يقول: تفضلا.

وقفنا نتحدث إلى أصدقاء في حديقة غناء. دارت صواني الطعام الخفيف. تذكرت "عـبـد السلام النابلسي" في فـيلم "حكاية حب" حين أمسـك بالجرسون قـائلاً: "إيه أنت

جاموسة، مابتشوفش. عمال تلف،تلف، وأنا عصافير بطني بتصوصو". ابتسمت وأنا أحاول أن أبعد ذهني عن رجال الأمن الذين أحاطوا بحركتنا عن بعد. همست لـ"حلمي أمين" بملاحظتي. قال: تصرفي على طبيعتك. "صدام حسين" نائب الرئيس هنا. أنت وضعت قاعدة اليوم. سيعرفون أنهم حين يدعونك فإنهم يدعون زوجك أيضاً، وسيسألون عنه، ويطمئنون أمنيا، ثم سيتركونكما في حالكما بعد ذلك وللأبد.

استطرد ضاحكاً : ربما يسألون عنه الآن في التو واللحظة.

قلت : أكنت تعلم هذا ؟

قال : طبعاً.

أتعجل الخروج إلى الشارع في الصباح الباكر. أستقبل الرذاذ البارد، وأتمتع بأشعة الشمس التي تصعد على استحياء أحياناً. أتابع انصهار نتف الثلج النادرة التي تفترش الحدائق الخضراء وتعلو فوق الأشجار وأسقف السيارات أحياناً. أصل إلى المكتب وقد ابتلت ساقا بنطلوني حتى ركبتيّ بالماء، واتسخت حوافهما بالتراب، وشرب حذائي ماء المطر. تركت في المكتب حذاءً جافاً نظيفاً، أرتديه بمجرد دخولي، وأضع حذائي المبتل في الشمس على سور الشرفة. لم تحمني موضة الأحذية ذات النعل الخشبي (دوبل لاش) التي ترتفع عن الأرض عشرة سنتيمترات من البلل. كنت أجد الصحفيين العراقيين في قمة الأناقة ولا أفهم كيف؟! ثم تنبهت إلى أنهم يتحركون بسيارات العمل، ولا يمشون في الشوارع الغارقة بالمطر. تثير هيئتي هذه التي تعجبهم استيائي. قلت لنفسي ذات مرة : "أنا أعمل وهذه ضريبة عملي. هم يتعجبون أيضاً حين يقرأون موضوعاتي الجميلة. أقفز فوق درجات العمارة، تسمع جارتي "كريمة" صوت خطواتي وتفتح الباب وتقول لي هي وابنتها الصغيرة "دينا": "صباح الخير". عرفت من المدير أن الصدفة وحدها قادته إلى هذا المكان. إذ قررت الحكومة العراقية إخلاء الشقق التي يسكنها العزاب كأحد الحلول لمواجهة أزمة السكن في العاصمة. تقدم عدد من المصريين إلى أقسام البوليس وسجلوا طلباتهم. وفاز بمعظم شقق العمارة أساتذة جامعة ومكتب مجلة الزهراء.

تقول "كريمة" : كل السكان مسيحيون ما عدا شقتي ومكتب الزهرة.

أضحك وأقول : وأسرة عراقية وأخرى هندية.

ازدواج استخدام المكتب بين العمل والسكن، أوقع مدير المكتب في مشكلة طريفة. إذ كان يصعد إلى السطح لنشر غسيله لأنه يخجل من نشره في الشرفة، وكان يلاحظ أن جاره الهندي لا يرد عليه التحية إذا قابله في الطريق، ويمضي عاقداً حاجبيه. في إحدى صباحات الجمعة صعد المدير إلى السطح، وجد حبل الغسيل قد نقل بعيداً من أمام شقة الجار الهندي. فلما التقاه اتجه إليه مباشرة وقال له:لا تغضب من نشر غسيلي في السطح لأنني مضطر إلى هذا.

قال الجار : نحن أسرة شرقية ولها تقاليدها.

قال المدير : ونحن أيضا شرقيون، ولنا تقاليدكم ذاتها التي أحافظ عليها.

ولم يصعد إلى السطح مطلقاً مرة ثانية، وانتهت المشكلة بمساعدة المكوجي.

يتردد على المكتب عدد من الصحفيين العراقيين والمصريين يزدادون شيئاً فشيئاً. دعا منهم "حلمي أمين" مظفر الموصلي" للكتابة النقدية عن الفن العراقي. واحتفلنا بالنشر بعد أيام. أخبرني المدير أن بعض الصحفيين قد دعونا لمصاحبتهم في رحلة صباح الجمعة القادم، وفي أثناء مروري بالنقابة في اليوم التالي قابلتهم وأخبرتهم بموافقتي على الذهاب معهم.

قال أحدهم: سننظم في المستقبل رحلة إلى خارج بغداد كل يوم جمعة وتبدأ الأيام الجميلة.

قلت : نعم. ستكون هذه الرحلات فرصة طيبة لي ولزوجي للتعرف على عائلاتكم.

قال بعضهم في صوت خافت : نعم.

أخبرني مدير المكتب يوم الخميس اعتذار الزملاء عن الرحلة لانشغالهم بالإعداد لأحد المؤتمرات. ولم ندع إلى رحلات اجتماعية أخرى من الزملاء بعد ذلك قط.

قررنا أن نبدأ يومنا بزيارة مجلة المرأة العراقية التي كانت تضم ثلاث صحفيات في مثل عمري هن : ساجدة وإلهام ونجلاء، ومديرة تحرير صحفية مخضرمة هي: "أمل الشرقي". كنت قد ذهبت إليهن للحصول على صور من الأرشيف تساعدني في نشر مقال عن المرأة العراقية التي أتابع بشغف التطورات التي تحدث في حياتها. رحبوا بي، وأهدوني أعداد المجلة لسنة كاملة. رداً على هذه الهدية كتب لهن "حلمي أمين" مقالاً عن المرأة المصرية، وفي أثناء لقاءنا بـ"أمل الشرقي"، اكتشفنا أنهما تقابلا منذ

خمس سنوات في مؤتمر عقد في بغداد. راحا يستعيدان أحداثه، ويتساءلان عن الزملاء الذين شاركوا معهما، ومصائرهم. ونشأت صداقة بينهما. قرر مدير المكتب أن نوطد صلتنا بالمجلة.

سألنا عن "أمل الشرقي". لم نجدها. طلبنا لقاء "ساجدة" أو "إلهام" أو "نجلاء". أدخلتنا السكرتيرة إلى صالة التحرير. رحبت بنا "نجلاء" وطلبت لنا شاياً. أخرجت من حقيبتي نسختين من مجلة الزهرة ووضعتهما فوق مكتب "نجلاء" قائلة: هذه هي حصتكن الأسبوعية.

قالت"نجلاء" : نحن نحب المجلات المصرية. ونحاول أن نطور مجلتنا. ما رأيك فيها؟

قلت: أحببتها.

دخلت "ساجدة"، ومن ورائها "إلهام". قمنا نرحب بهما. لاحظت صمت "إلهام" بينما "ساجدة" تسألنا بعنف: من أنتما؟ ماذا تفعلان في العراق بالضبط؟ أتقومان بتوزيع المجلات؟

سجلت أسئلتها مفاجأة لي. نظرت إلى "حلمي أمين" لأعرف رد فعله. إذ كنت أتصور أننا سبق وشرحنا لهن مهمتنا في العراق، ولا يوجد مجال لكل هذا الغضب من "ساجدة"، هل انتهزت فرصة عدم وجود مديرة التحرير لكي توجه لنا ضربتها؟

ابتسم "حلمي أمين" وقال بهدوء: نحن مكتب صحفي يعمل بالعراق. لا نقوم بتوزيع مجلة الزهرة. والمجلة توزعها الدار الوطنية، ولكن نأتي لكنّ بهذه النسخ على سبيل الهدية. والمكتب الصحفي في أي بلد في العالم تشمل علاقاته المجلات والجرائد الموجودة.

تدخلت "إلهام" و"نجلاء" في الحديث وراح ثلاثتهن يسألننا أسئلة تفصيلية جاءت سريعة وراء بعضها: من يدفع مرتباتكم؟ كم عدد الصحفيين العاملين في المكتب بالضبط؟ هل بينهم صحفيون عراقيون؟ هل تعملون لصالح مؤسسة الزهرة وحدها؟ ما خطة المكتب في التوسع في العمل؟ هل أنتم فرع من المؤسسة؟ ماذا يضم نشاطكم غير كتابة المقالات الصحفية والتحقيقات؟ ما علاقتكم بالأحزاب العراقية؟ وإلى ماذا تهدفون من التعامل مع مجلة صغيرة جديدة مثل مجلة المرأة؟ وهل في نيتكما أن

تهديا المجلة مقالات أخرى؟ أهي منكما فحسب أم ستدعوان صحفيين آخرين لكتابة مقالات للمجلة؟

أجاب "حلمي أمين" عن معظم الأسئلة بسرعة إلقائها. وأجبت عن بعضها أحياناً. خرجنا ونحن نتصور أننا امتصصنا قدراً من الغضب المكتوم في صدور البنات الثلاث اللائي كنت أتصور حتى صباح هذا اليوم أنني قد اكتسبت صداقاتهن. خرجنا على وعد باللقاء في الأسبوع القادم. وقفنا ننتظر تاكسياً. سألته وأنا مازلت في حالة صدمة :

"كنت أتصور أن "ساجدة" بطبيعتها الحادة وطريقتها الجافة عموماً وراء هذا الفعل. لكن اشتراك "نجلاء" الوقور و"إلهام" المرحة جعلني أدرك أن القلق جماعي."

قال : هي أسئلة تعبر عن قلق الفتيات الثلاث من وجودنا. هل سنقوم بالعمل في مجلة المرأة، ونصبح منافسين لهن؟ والمجلة في بداية الطريق بصحفياتها الشابات حتى مع وجود صحفية خبيرة مثل أمل الشرقي ؛ لأنها غير متفرغة كما تعلمين وتكتب في صحيفة الجمهورية. خاصة وأن لمجلة الزهرة خبرة طويلة في الصحافة العربية. أسنلعب دوراً في المجلة أم لا ؟ هذا باختصار ما كن يحاولن الاستفسار عنه.

عدنا في الأسبوع التالي. وعشرات الأسابيع بعد ذلك. وتوطدت علاقتنا أكثر بالمجلة، ودعتني "أمل الشرقي" إلى العمل معهن، قالت في وجود "ساجدة" و"إلهام" و"نجلاء" :

- اكتبي لنا تحقيقات عن كل رحلة من رحلاتك. اعتبري نفسك مندوبة المجلة.

نظرت إلى الصديقات الثلاث. وجدت ابتسامة فوق وجوههن وفتحن أذرعهن لي وهن يشرن لي بالقبول. قلت وأنا أتقبل قبلاتهن :أوافق جداً.

وقعت أمل الشرقي على طلبي للحصول على عضوية نقابة الصحفيين العراقيين. طرت من الفرح وأنا أتساءل : متى أحصل على عضوية النقابة المصرية؟

سمعت حركة. انتبهت إلى الممر. رأيت المضيفات يدفعن عربة الطعام إلى الأمام وأحد المضيفين يغلق ستائر الدرجة الأولى. توقفت كل عربة في بداية ممر وبدأن توزيع الطعام. أعدت رأسي إلى مسند المقعد واستدرت نحو الشباك المفتوح بجوار "سلمى".

السماء فوق السحاب صافية صفاء أكثر من أن يكون حقيقياً واستلمتني الطرقات تدق الذاكرة.

دعانا "حميد مرمرجي" مدير ثقافة "أربيل" إلى افتتاح الموسم الثقافي الجديد. رحلة طويلة هذه المرة. ثمانية أيام. قبل أن نصعد الأتوبيس قال لي "حلمي أمين" محذراً:

"فقدنا في الرحلة السابقة المراسلين الروس كلهم دفعة واحدة، أرجو ألا نفقد في هذه الرحلة غيرهم."

كنت قد منيت نفسي بعمل تحقيقات كثيرة، في الأماكن التي مررت بها مجرد مرور في السابق. سعيدة بقبول "حاتم" لحركتي الطبيعية دون ضيق من السفر، أحاول أن أنسى بُعد أبني عني. نزلت كلمات المدير على قلبي توجعه، وتدخلني إلى خن المراقبة، وليس إلى ساحة المشاركة. لم أعلق. وتابعت طوال الطريق خروج الرعاة إلى الصحراء، وقطعان الإبل والخراف. مررنا بالنار الأزلية فتذكرت أور وسيدنا إبراهيم وكاهنات المعبد اللواتي رحت أقرأ عنهن بشغف. استقبلنا "حميد" بترحاب شديد، وقال لنا :

"المدينة ممتلئة بالأكراد الذين يشعرون بالهزيمة، والحوار معهم شاق، وجرهم إلى ندوة أدبية هي إحدى الطرق التي يحاول الحزب عن طريقها الوصول إليهم وبث الطمأنينة في قلوبهم. وجود صحفي وصحفية مصريين سيكون عامل جذب لهم. خاصة أن الأدباء الأكراد يعتبرون أنفسهم مُهمَلين ؛ لأنهم بعيدون عن العاصمة، ولا يلقى الضوء على أعمالهم.

قال "حلمي أمين": لا تقلق.

قلت : هذا هو الشعور العام لأدباء الأقاليم حتى في مصر. على الرغم من أن البعد عن العواصم يعطي فرصة أكبر للكتابة.

قال : المشكلة أعقد من هذا.

فى المساء، تحدث "حلمي أمين" عن الثقافة المصرية أمام جمهور كردي يفهم اللغة العربية، ويتحدثها بطلاقة. وتحدثت عن موقع المرأة المصرية في هذه الحركة الثقافية. لاحظت أن المثقفين الأكراد متابعون للثقافة المصرية بشدة. امتد بنا الحوار إلى المجلات

العربية. اشتكى الأدباء من قلة نشر أعمالهم بها. دعاهم "حلمي أمين" للنشر في مجلة الزهرة، ثم احتدم النقاش وتطرق إلى معارك الأدب والحرية. قال أحدهم معقباً على حديث "حلمي أمين" :

" ثلاثة فقط هم أعمدة الأدب في مصر في المرحلة الراهنة. وأنتم أربعون مليوناً؟ نحن هنا في كردستان عندنا ثلاثون عموداً للأدب."

ضج الجميع بالضحك، وانتهت الندوة. فاق اعتزازهم بقوميتهم، ومقاومتهم لوجود عالم آخر موازٍ كل حدود الكياسة، والمنطق، فتطرفوا كثيراً.

تعرفنا إلى القاص "جمال" والشاعرة "سلافة" اللذين يعاونان "حميد" في مديرية الثقافة. أخذونا إلى وسط المدينة القديمة لكي نقابل الناس في المتاجر والأسواق الشعبية. لاحظت الفقر الشديد، والطيبة التي تغلف عصبية مستترة لم أفهم سببها. تتكون البيوت في الأحياء الشعبية من طابق واحد مثلها مثل كل المدن العراقية، تفصلها حدائق صغيرة، وتقطع المصارف المكشوفة شوارع المدينة كلها. "لم أكن قد رأيت مثلها من قبل" تأملت اللون الأسود المحمل بالصابون والقذارة. جفلت. لم أفهم كيف يتعايشون معه. حين هطلت أمطار غزيرة، ورأيت الماء ينطلق نحو خطوط المصارف من الشوارع المائلة نحوه ويختفي، عرفت السبب لكنني لم أرتح. تحدثنا مع الناس عن الحكم الذاتي. كانوا يبدأون بالتردد، ثم بإشارة من "جمال"، أو من "سلافة"، يطمئنون ويتحدثون إلينا والنتيجة دائماً واحدة: نريد الحكم الذاتي، لكن لا نعلم ماذا يحمل المستقبل؛ فهذه ليست المرة الأولى التي تتكلم فيها الحكومات عن الحكم الذاتي. كانت هذه المعلومة جديدة علينا. كنا نتصور أن الحكم الذاتي إنجاز جديد للبعث. دخلنا الأحياء الغنية، ولاحظنا الفروق الواضحة في أحجام البيوت واتساع الحدائق بالشوارع. وشعرنا كلما توغلنا في المجتمع الكردي أننا نغرق. في أحد المساءات أخذنا "حميد" إلى بيت "جمال" في إحدى ضواحي "أربيل". دخلنا إلى بيت مؤثث ببساطة ونعومة وجدنا عدداً من الأدباء. واستقبلتنا سيدة كردية بيضاء ممتلئة على غير عادة الأكراد، قال جمال: زوجتي أم سرجون.

وضع يده فوق قلبه واستطرد : أخت الشهيد الشيوعي "أسعد خالص" الذي أعدم في أحداث ثمانية من شباط (فبراير).

جاءت "سلافة" ترفل في فستان أزرق بلون عينيها، تركت شعرها الأسود الطويل يمرح فوق كتفيها. ممتلئة بالحيوية والبهجة. غاص قلبي وأنا أسأل نفسي : ماذا يفعل بنا الحب؟ ما مصير تلك السيدة الطيبة وسط هذا الفوران الذي لا تشعر به؟ من قال لك إنها لا تشعر به؟

أدخلتنا "أم سرجون" إلى غرفة في وسطها طاولة طعام مستديرة رصت فوقها عشرات من زجاجات الشراب العالمية، والبيرة العراقية والعرق.

قال "جمال" بفخر شديد : هذا عرق عراقي مصنوع في البيت سراً.

سألت "حلمي أمين" : أممنوع صناعة العرق في البيت؟

قال "حميد" : جريمة مثل جريمة حيازة الحشيش في مصر.لكنها جريمة مع الرقابة الصحية.

جلسنا حول أصناف طعام كثيرة جهزتها "أم سرجون" بنفسها: صواني كبة، وكبة برغل، وكبة حلب مصنوعة من الأرز. وتعالت ضحكاتنا حتى سألني "جمال" :

-لماذا لا تشربين؟ مثقفة مصرية ولا تشرب خمراً ولا سجائر؟

قلت وقلبي يرتجف وأنا أستعيد مشكلة "إيزاك" : لا أشرب.

قال "حلمي" وهو يضحك: أي نوع من العصير يكفي.

قامت "سلافة" تفتح لي زجاجة البيبسي. تسربت لي مع الوقت الذي قضيته بينهم قصة الحب الناعمة بين "جمال" و"سلافة"، كنت أعرف أن "جمال" متزوج لكني لم أهتم، كان ظهوره يسبب سعادة غير عادية له، وكان هذا يكفي بالنسبة إليَّ. لكني حين رأيت الزوجة. شعرت بأنني لا أستطيع التعامل مع الأمر بسهولة على الرغم من أنه لم يكن شأني.

تحدثنا مع "جمال" عن الحكم الذاتي، ولاحظت أنه قلق على غير العادة من "حميد"، على الرغم من أنه كردي. وهو من قدمه لنا. سألته عن القانون وتطبيقه في الجبهة قال :

"في قانون ١١ من آذار عام ١٩٧٥ صدرت أحكام عفو عن كل المشاركين بالتمرد والذي كان يسمى في ذاك الوقت بالجيب العميل. فنزلوا من المناطق الوعرة في الجبال الذين تمترسوا بها، وسلموا أسلحتهم، وعاد الطالب إلى مدرسته، والموظف إلى

وظيفته. ودخل للمرة الأولى خمسة وزراء أكراد إلى الحكومة و أصبح "طه معروف" نائباً لرئيس الجمهورية.

قال صوت هامس بجانبي معلقاً: تشريفاتي. التفتّ وجدت "سلافة" تضحك، وتشير بعينها إلى "حميد" الذي خرج من الغرفة نحو الصالة لكي يرد على التليفون. عاد "جمال" يقول:

"وزيران أحدهما "إدريس" ابن الملا "مصطفى البرزاني" وأصبح وزيراً للعمل. "ودرويش" أضحى وزيراً للشؤون الاجتماعية. وهي وزارة حكر على الأكراد الآن. ثم ثلاثة وزراء دولة من دون حقائب."

قال "حلمي" : ألم يكن "صدام" هو الذي يدير ملف الأكراد منذ البداية؟

خفف "جمال" حدة صوته وهو يستطرد: جرت عدة محاولات لاغتيال الملا "مصطفى البرزاني" منذ أن أمسك النائب بالملف الكردي.

عرفنا بعد فترة أن الموسم الثقافي قد نجح، وأن العقدة قد انفكت وبقي "حميد" مديناً لنا دائماً بمساعدته على نجاح عمله، ودفع الأكراد للمشاركة وراح يدعونا كلما جهز نشاطاً في أي مدينة كردية، ونلبي نحن الدعوة كلما استطعنا.

طلبت من "حميد" حضور زفاف كردي. دعاني لحضور احتفالات زواج في بيت رئيس المجلس التنفيذي لمنطقة الحكم الذاتي. شرحت لي النساء بمرح شديد عادات الزواج. صورتهن بحليهن الذهبية وملابسهن الوطنية الخاصة. ارتدين مع الفستان المفضض الطويل، "جيليه[1]". خيطت مع حروفه قلوب من الذهب الخالص، ولففن حول خصورهن حزاماً له فصوص حمراء من العقيق أو الياقوت، وفوقه سلاسل من الذهب، وأساور ترتبط بالخاتم في الإصبع الأوسط بشبكة من الذهب أيضاً. كن يتلألأن وهن يستعرضن جمالهن وثرواتهن.كتبت عن الزواج على الطريقة الكردية وقدمته لمدير المكتب. قرأه بهدوء، ثم طلب مني أن أكمل البحث عن الزواج عند المرأة البدوية، وامرأة الجنوب.عدت إلى البحث، وأكملت الكتابة. ثم عدت لأختصر تحقيقي ليصبح الموضوع شاملاً ثم قدمته. قرأه وابتسم. قال: هذا موضوع جميل. مبروك.

---

١ جيليه : صديري .

ازدهرت أعمال المكتب، ولعلت سمعتنا الصحفية بين الصحفيين العراقيين والمكاتب الصحفية، وتحول المكتب إلى بؤرة ثقافية مصرية مشعة تستقبل كل ضيوف بغداد. جمعنا مراجع كثيرة عن تاريخ الأكراد، ورحنا نعمق معرفتنا بالمنطقة، ونجري مقابلات مطولة مع الأحزاب الكردية، والبعثية، وتعرفنا على ملامح نفسيته وحياته ومشاكله.

قال لي "حلمي أمين" وهو يرتب لسفر الغد إلى الموصل لنحتفل بعيد الربيع : نورا. آن الأوان لكي نتعامل مع صحفي عراقي دائم نعينه في المكتب ؛ لكي يساعدنا في بعض الأمور العراقية المحضة. أشعر أن توسعنا يلقي بعبء كبير عليكِ.

قلت : إذا أردت إضافة صحفي للمكتب وتوسعنا أكثر في أعمالنا فسننجح أكثر.

قال : ما رأيكِ في "أنهار خيون" التي تعمل في الوكالة؟

قلت : هائلة. اختيار موفق. لكن هل ستترك الوكالة؟

قال : لا. تأتي فترة المساء.

في الموصل وجدنا "أنهار" قد سبقتنا لكي تكتب عن الاستعداد للاحتفالات. حين نزلنا إلى الغابة، كانت قد بدأت نقاشاً طويلاً مع "حلمي أمين" في السيارة. لم يقطعاه بتوقفنا، ونزولنا إلى كافيتريا تحتل هضبة وسط الغابة. راحا يمشيان معا ويتوغلان حتى اختفيا.

لاحظت التقارب الذى يزداد بينهما كل يوم. كانت "أنهار" فتاة فارعة القوام ولها شعر أسود ناعم، مقصوص بتدرج جميل على الموضة. تعودت أن تترك خصلة تقف باستمرار فوق الحاجبين، ولها عينان سوداوان واسعتان وأنف كبير مثل معظم العراقيات. مليحة على الرغم من وجود ندبة إلى جوار الأنف يقال لها حبة بغداد. حين رآها "حلمي أمين" للمرة الأولى قال لي معلقاً: هذه هي "ليلى" التي ألهبت خيال قيس؟

تأملتها ضاحكة وقلت : نعم. من حقه أن يُجّن.

عيرتني بالشيب وهو وقار   يا ليتها عيرتني بما هو عار

قال ضاحكاً وهو يتابع حديثها مع أحد الصحفيين في الغابة: النجوم تزينها الأقمار.

كانت "أنهار" تأتي بالنشرة المسائية للوكالة بعد أن أترك المكتب، تكتب موضوعات صغيرة يسميها "حلمي أمين": "فيتشر". راح التقارب ينمو، وعبق المكان برائحة لذة الحب المسروقة، والتواطؤ على تجاوز كثير من الأعذار التي راحت تتكرر للانفراد بالعمل معاً. أشفقت عليها، وأنا أرى اندفاعها الذي يتضح لي كل يوم، والذي لم تعد تخشى مع الوقت انكشافه أمامي. وعلى الرغم من أن مدير المكتب لم يكن يظهر عواطفه بهذا الوضوح ؛ ربما بسبب الحنكة، أو الطبيعة، إلا أنني كنت ألاحظ انتظاره لها، وسعادته بوجودها. ماذا تفعل هذه المسكينة برجل متزوج، وأب لثلاث بنات إحداهن في مثل عمرها تقريباً؟ هل تتصور أن بقاءه في بغداد دائم؟ هي في سن الزواج، وتضيع فرصة ارتباطها بشاب مثلها. حتى القوانين العراقية لا تسمح بزواج الرجل من امرأتين. ماذا لو عاد إلى مصر غداً؟ مالك أنتِ بهما؟ دارت في ذهني كل هذه الأسئلة حين لمحت نظرة طويلة متبادلة فيها كل الشوق. كنا في حفل رسمي، وكانا يجلسان بعيدين عن بعضهما. لم تعد في حركاتهما معاً التلقائية التي كانت موجودة من قبل. كانت مخطوبة لابن عمها، هو بعثي وهي شيوعية تتأرجح علاقتهما وكثيراً ما تتبرم من الزواج منه، وتؤجل التنفيذ.

ابتسمت لي المضيفة، وهي تطلب مني فتح طاولة الطعام. شعرت "سلمى" بالحركة. أفاقت قليلاً وهي تستلم العلبة، ثم قالت بعد أن انصرفت المضيفة: لا أحب طعام الطائرات، ومع هذا آكله. أليس هذا نوعاً آخر من القهر العربي؟

ضحكنا. استطردت: ترى ماذا يفعل العراقيون في الطعام؟ هل عندهم مشاكل؟

قلت: حسب معلوماتي؛ المواد التموينية متوفرة، لكن المصيبة في استنزاف موارد العراق وإيران بهذا الشكل العبثي. وأيضاً في أعداد الشهداء.

قالت: لعن الله ديكتاتوريات الأرض كلها. محير هذا الرجل. سنذهب، ونعرف.

قلت: كل شعب يستحق قائده. لعب العراق لفترة دوراً ثورياً في المنطقة، وانعكس هذا على المجتمع العراقي نفسه. لم يمر يوم دون إنشاء مزارع، ومصانع، ورصف طرق، وإعمار لمناطق جديدة، وتطوير تعليم. نهضة حقيقية. ثم حماقة الحرب. ألم يكفنا ما حدث مع عبد الناصر؟ نحن نستنسخ أخطاءنا كالمعتاد.

قالت : أسمع كل يوم عن وفد راح إلى بغداد، ووفد رجع. كل يوم مؤتمر.
قلت: كنت أغطي على الأقل مؤتمراً دولياً كل شهر، غير المهرجانات المحلية.
قالت : سأذهب إلى الحمام.
مشى في الممر فلاح مصري ذكرني بزيارتي الأولى لقرية الخالصة.

لم أكن أتخيل حين دخلت إليها عصر أحد الأيام أنها ستصبح جزءاً من عالمي أهتم به، وأرعاه وأتابع ما كنت أصدقه من أن عالمنا العربي هو وحدة حقيقية يجب أن تتكامل. كنت قد وصلت إلى المكتب كالمعتاد في الصباح الباكر سمعت أصواتاً عالية في الداخل. وجدت في ضيافتنا مجموعة من الفلاحين المصريين قدمهم لي المدير قائلاً :
"عبد البر"، "صابر"، "بشندى"، "مفتاح". من قرية الخالصة. نحن نهتم بتجربتهم كما تعلمين، وننشر أخبارهم بصفة مستمرة.
رحبت بهم قال" عبد البر" : لماذا لم تزورينا حتى الآن يا ست "نورا"؟
قلت : إن شاء الله، وعدني الأستاذ "حلمي" بتدبير رحلة قريباً.
لاحظت أن المجموعة كلها هي نماذج عادية للفلاحين الذين التقيت بهم من قبل في البساطة، الطيبة، والحذر المعتاد. إلا "عبد البر" مختلف قليلاً. هل بسبب طلاوة لسانه واستحواذه على الكلام معظم الوقت؟ ربما. لم أشعر أنه فلاح لسبب ما.
بعد أيام كنا نزور عدداً من المثقفين المصريين يعملون في أكاديمية الفنون ؛ أبدى بعضهم رغبة في زيارة القرية، وحدد المدير موعداً لها عصر يوم الجمعة القادم.
وصلت إلى المكتب مع "حاتم"، وتوالى وصول الضيوف تباعاً. بعضهم كنت أراه للمرة الأولى، الصحفية "درية عوني"، والفنانة "نادية السبع"، و الناقد "أحمد عباس صالح". و"ليلى العطار" الفنانة التشكيلية العراقية، و"ناصر فتحي" مدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط، و"محمود راشد" المخرج وزوجته "سامية". حلمت في الطريق برائحة الفرن، والفطير المشلتت، والقراقيش، والجبنة القديمة والقشدة. ودخلنا الخالصة قبل الغروب بقليل. لم أجد أطفالاً في الشوارع ولا صيحات لعب كرة قدم أو ركض استغماية ولا حطباً فوق البيوت. لا دواب في الطريق. بيوت بيضاء من طابق واحد تتصدرها حدائق واسعة، وصمت قاتل. مدينة أشباح. لم أشعر أنني دخلت قرية مصرية، بل ضاحية من ضواحي المدن، في أية دولة. اتجهنا إلى بيت "عبد البر". تعرفنا

على أطفاله وزوجته "شربات" التي ارتدت فستاناً مشجراً قصيراً، وتركت شعرها يقع على كتفيها مما زاد من إحساسي بأنها ليست فلاحة.

خرجنا بعد أن شربنا الشاي، نمشي في شوارع القرية. طرقت باب أحد البيوت، فتحت لي فلاحة صبوحة، سمراء، ودعتني إلى الدخول قائلة :

أهلاً، أهلاً بالحبايب، من مصر، ورائحة مصر.

جاء زوجها أبو" أحمد". جلست بينهما، وشعرت بصدق المكان، ومذاقه الريفي الصعيدي. حكت لي ووجهها يتدفق بالسعادة قصتها قالت :

تزوجت منذ ثماني سنوات، ولم أرزق بأطفال. زوجي لديه أولاد كبار من زوجته الله يرحمها. عندما وصلت العراق حملت. حمل بعد شوق.

قلت ضاحكة : حملت بعد أن عبرت البحر؟

قالت : نعم. أتعرفين هذا أنت أيضاً؟ لكنك بندرية (من البندر).

قلت : لكني مصرية.

قال أبو "أحمد": صبي إن شاء الله وأسميه "جمال عبد الناصر".

تركتهم ينعمون بأحلامهم. وخرجت إلى بيت آخر. تفرقت المجموعة في أنحاء القرية. طرقت باب. خرج رجل في منتصف العمر دعاني للدخول ومن خلفه زوجته وأولاده، وفتاة ترتدي زياً جديداً من الستان. سألتها : هل أنتِ عروس؟ كم عمرك؟

ابتسمت في خجل وقالت : نعم. ستة عشر عاماً.

قلت: مستحيل أنتِ طفلة، لا تزيد عن إحدى عشرة سنة أو ثلاثة عشر عاماً على أقصى تقدير. لماذا زوجتموها في هذه السن الصغيرة؟

قالت الأم : ظروف يا أبلة. والله.

قلت منزعجة: ما الظروف التي تجعلك تزوجين طفلة في هذه السن؟ هذا حرام والله؟

قالت : سيدنا محمد تزوج من عائشة وهي في التاسعة.

قال الأب موجهاً حديثه للزوجة : مشروع الخالصة يُملّك الأرض لعائلات، وليس لأنفار. ضمن المشروع بعض الفلاحين العزاب. وكان لابد من زواجهم حتى تكتمل شروط استلام الأرض. عدد العائلات هنا محدود. اضطر البعض إلى الزواج من فتيات صغيرات، وكتبوا أن أعمارهن ست عشرة سنة.

قلت : يارب. نقلتم إلى عالمكم الجديد مشاكلكم القديمة.

قالت الأم : لا مشاكل ولا يحزنون خير إن شاء الله.

تركتهم، والأسى يملأ قلبي. مشيت بخطوات واسعة نحو الجماعة. وجدتهم عائدين، قالوا لم يسمح لنا الظلام بالرؤية، والحقول ما زالت بعيدة نراها في زيارة أخرى. خرجنا من القرية.

عدت إليها كثيراً بعد ذلك حتى عرفتهم فرداً فرداً، وحين قررت أن أجمع مادة صحفية لكي أصدر عنهم كتاباً أمدني" أبو دلف" رئيس اتحاد الفلاحين بسيارة، ووفر لي مدير المشروع كل احتياجاتي هناك. كانت زياراتي مبهجة، وودودة، ورحت أراقب نمو الحياة في قرية مصرية عراقية، وقلبي يخفق خوفاً عليها من تقلبات السياسة. أصبحت صديقة حميمة لبعضهم. كانت صورة مصغرة من مصر، بجذورها التاريخية الأصيلة، وفقر أهلها، وحنانهم الذي يختفي تحت ثقل الحاجة للقمة العيش. لكنهم هنا يملكون أملاً في الغد، وأرضاً واسعة نادتهم فلبوا نداءها، يزرعون، ويحصدون، ويتركون مصائرهم معلقة في يد القدر، وأباطرة السياسة.

عادت "سلمى" وجلست في مكانها. قالت : المسافة بين مصر والأردن بسيطة، المشكلة في ساعات الترانزيت في عمان ؛ ربنا يستر.

قلت : نحن أعضاء وفد رسمي يا سلمى، المشكلة يعاني منها المسافرون العاديون، بعد قطع الطيران المباشر بين مصر وبغداد. ذاقوا الأمرين.

قالت: "نورا" أريد أن أسألك : هل صحيح ينام العراقيون فوق أسطح المنازل؟

قلت : نعم ؛ بغداد بصفة خاصة جافة. والليل في الهواء الطلق رائع ؛ لأنه لا يمكن احتمال الغرف في الصيف من دون مكيف. هيأوا منازلهم بإضافة أسوار عالية للأسطح، وقسموها لكي ينعم الجميع بالخصوصية. وصدقيني هو نوم عميق، وممتع. اعتدت عليه وحاولت الاستمتاع به في مصر فلم أستطع، حتى في البلكونة ؛ لأن رطوبة الفجر في القاهرة لاسعة وتدخل العظم مباشرة.

دق جرس، وسمعنا صوت المضيف يطلب إعادة المقاعد للاستقامة استعداداً للهبوط في مطار عمان بعد عشر دقائق. فتحت حقيبتي وأخرجت منها قطعتي لبان لي

ولـ"سلمى"، وربطت الحزام، زارتني ليلة لا أنساها حددت الكثير في قانون العلاقة الحميمة بيني وبين "حاتم".

لم أكن قد اعتدت بعد على النوم في الهواء الطلق الذي لم أسمع عنه من قبل باستثناء أغنية "فيروز" : هل افترشت العشب يوماً وتلحفت الفضاء؟ فوجئت بـ"حاتم" بعد عودتنا من شهر العسل إلى بغداد يصعد بي إلى السطح، ويفتح غرفة ليخرج منها حاشية يضعها فوق السرير الموجود في العراء. دهشت وهو، يطلب مني أن أجرب الاستمتاع بالهواء الجاف. احتضنني ونام، أغمضت عينيَّ حباً في المغامرة، والاكتشاف، لكن النوم لم يزرني قط. لم يكن السبب هو الخوف من كسر الخصوصية، لكن بسبب أي حركة، أو عبور سيارة في الشارع، أو أزيز طائرة تمرق عالياً.

كانت قد مرت قبل تلك الليلة أشهر ثلاثة منذ وصولي إلى بغداد. يسلمني الحمل إلى نوم طويل. القيء المتصل، والجوع الدائم، يهرقان آخر قدرة لي على الصحو، أفرح بالنعاس، وأستسلم له في أي وقت يزورني فيه، وتحملني أي نسمة عابرة إليه. حايلني "حاتم" كثيراً هذا المساء لكي أنتبه إليه، لكن النداء الداخلي للغرق في السكون أقوى مما أستطيع مقاومته. التصق بي، أمسك برأسي، وراح يهوش شعري، ارتفع وجهي ليواجهه ؛ فتحت عيني، وارتعشت أهدابي مع إيقاع يديه، ورأيت أنفه يتضخم حتى ابتلعني، وشفتيه تمرحان فوق بشرتي المنفصلة تماماً عني خلف سحابة بعيدة أراها ولا أستطيع الوصول إليها. دغدغات الصحو تتسرب إلى صدري لكنها لا تقوى على حمل رأسي الذى سقط فجأة أسفل رقبته، وتركني لإغواء النوم. شعرت بالتصاقه وهو يضغط على جسمي، وبأنفاسه وهي تنتظم. استغرق في النوم بعد أن يئس تماماً من إمكانية استعادتي. احتميت بيديه المحيطتين بي، وأنا أترك الصحو ورائي نحو دوائر لا لون لها، تشع أمامي، ثم تهرب عبر سرداب سرمدي طويل، وأنا ألاحقها حتى كدت أن أمسك بها في اللحظة التي تذهب أعضائي كلها إلى الاختفاء.

لسعتني بغتة قوة قاهرة، تحاول اقتلاعي من البئر التي أحس بلذة غامرة وأنا أهوي إليها. فتحت عينيّ بصعوبة، ثم شعرت بهما تغربان بسرعة، وتعيدانني إلى السقوط في الهاوية مرة أخرى. أدركت وأنا أغيب في الظلام، تحرك، اليدين، الثلاث، مئات الأيدي تمزق أردية النوم. تسلط أضواء الصحو على خلاياي عنوة. حاولت

الفلفصة، وأنا أشعر بالاختناق. أردت الصراخ. أين صوتي؟ دق الصحو بابي بعنف، رأيت فقاعات الرغبة في الرفض تقتحم دمي. وتدفق داخلي شعور هائل بالحنق. تصلب جسدي الذي تتمزق ثيابه في هذه اللحظة، وشعرت بيدين تقلبانني بخفة، وتنشران أعضائي لوضع يتيح دخول جسدي، وقبل أن يكمل عقلي صحوه كان كائن هائل يعصف بي، يتلوى مع كل ضربة يكيلها ؛ يضمني ثم يفترق عني، سمعت طقطقة عظامي وهي تنسحق تحت الإعصار وشعرت بثدييّ وهما يفيقان قبلي، ثم ينهرسان. فتتني صراع الشهوة/ النوم إلى ملايين الخلايا، احتشدت آهاتي للطوفان القادم، وسمعت قرقعة تصادم صرخات الرفض والرغبة في طريقها للأتون. لم يستطع الصحو، ولا النوم إعادة تركيبي، وسط دموعي النازفة أعدت نطق اسم كل عضو، ورأيتهم يأتون إليّ صاغرين مثل أفراخ صغيرة تسرع الخطى نحو أمها. في الصباح أمام ملامحي المرهقة وأنا أعيد إليه شريط القصة بعد إلحاح، لم يتذكر "حاتم" أي شيء. وتعلم الانتباه لرغبتي دون كلام.

ثلاث طرقات أخرى

❖ ١٩٧٧

سهيلة باذرجان

دخل "عبد الرحيم منصور" مكتب الزهرة في بغداد في التاسعة صباحاً وهو في حالة ذعر حقيقية. قال مستغيثاً: الحمد لله أني لحقت بكما. صدر أمر بترحيل زوجتي "سهيلة" وعائلتها من العراق.

نزل علينا الخبر كالصاعقة. قلنا، "حلمي أمين" وأنا في صوت واحد: لماذا؟

قال: صدر قرار بالأمس بترحيل العراقيين من أصل إيراني، ترحيلاً فورياً دون أي فرصة للاستعداد، أو لتسوية الممتلكات، إلى الحدود أو المطار.

قال "حلمي أمين" : يا "عبد الرحيم". أ"سهيلة" عراقية أم إيرانية؟

قال "عبد الرحيم" : في الهوية العراقية خانة عن الأصل فيها تصنيفات بأرقام، ورموز تتبع الرعوية. العراقي وحده هو من يملك شهادة الجنسية العراقية في هويته : رعوية عثمانية. باقي الهويات مكتوب فيها تبعية أفغانية، تبعية إيرانية، تبعية هندية أو إنجليزية، أو روسية من جمهوريات روسيا الوسطى. كل العرقيات مكتوبة في الهوية، وكذلك الديانة. "سهيلة" من التبعية الإيرانية وليس العثمانية.

- هي إيرانية إذن؟

- لا. كل ما تعرفه "سهيلة" عن عائلتها في طهران هي خالة عجوز. جاءت أسرة "سهيلة" إلى بغداد منذ أجيال، ولم يتبقَ لها في إيران أحد. والحركة في المنطقة كانت مفتوحة في العصر العثماني لكل ساكني المنطقة. كل أفراد الأسرة يعملون في المصالح الحكومية العراقية، ويمتلكون بيوتاً في بغداد. والد "سهيلة" متوفي، وأخوها الوحيد في المرحلة الاعدادية، وأمها ربة بيت.

قلت : أين باقي أسرتها هنا؟ هل رحلّوا أيضاً؟

قال : خالتها متزوجة من عراقي من أصل عربي، وأعمامها ليسوا على قيد

الحياة، وأبناء أعمامها في الخارج يدرسون. ولها بنات أعمام متزوجات من تجار. أخذ البوليس الرجال إلى المطار، وصدر أمر للعائلات باللحاق بهم.

قلت : يعني يا "عبد الرحيم" هي ناقصة عراقية وتطلع من إيران ؛ كان لازم تدخل موسوعة "جينس" للحب المستحيل؟ ربنا سيفرجها. ماذا فعلت حتى الآن؟

قال : ذهبت إلى الأمن وأبلغت أنها متزوجة من مصري. طلبوا مني أوراقاً مختومة من السفارة المصرية وأخبروني أنه لا توجد استثناءات حتى الآن. لابد من ترحيلها أولاً. لكن أحد الأصدقاء نصحني بالإسراع بإصدار جواز مصري لها، حتى لو أرسلناها إلى مصر. أرحم. جئت لكي تساعدوني.

قلت : لكن المصريين لا يحتاجون إلى تأشيرة دخول إلى بغداد حتى يكون هذا الكلام صحيحاً. وإصدار جواز مصري يستلزم حصولها على الجنسية المصرية.

خرج "حلمى أمين" مع "عبد الرحيم" إلى السفارة المصرية. وذهبت إلى وزارة الإعلام لأحصل على المعلومات الصحيحة للنشر.

وقع "عبد الرحيم" في غرام "سهيلة" لحظة أن وقعت عيناه عليها وهو يتسلم عمله لأول مرة في الجهاز المركزي للتقييس والسيطرة النوعية في بغداد. فتزوجها من فوره وهي حامل الآن في شهرها الخامس. كان "عبد الرحيم" دمثاً، خلوقاً ومثقفاً أيضاً. لاحظت في أثناء جولة المكتبات الأسبوعية في شارعي السعدون والرشيد أن "حلمي أمين" يشتري نوعاً من الكتب التأسيسية في الاقتصاد والسياسة والعلاقات الدولية، وأن هذه الكتب كانت مثار فرح وغبطة "عبد الرحيم" وغيره من شباب التجمع الذي التف حول مكتب الزهرة : "سوسن" و"عاطف"، "داليا" و"راجية"، "مها" و"فتح الله"، وكلهم كانوا من حديثي التخرج جاؤوا إلى بغداد للعمل بعد الزواج مباشرة واستقروا في بغداد، أو في بعض المدن الأخرى.

أخذت من وزارة الإعلام نسخة من البيان الصادر وهو بيان مقتضب أشار إلى حزب الدعوة، ومسؤوليته عن التفجيرات الأخيرة التي حدثت في بغداد، وإلى أن القيادة السياسية لم تجد مفراً من ترحيل هؤلاء الإيرانيين الذين يلعبون دوراً مزدوجاً كجواسيس لإيران. حاولت أن أستعيد وجه سهيلة الصبوحة ذات العينين السوداوين الواسعتين، والحواجب الكثيفة، والجمال الأخاذ. وأن أتخيل كيف تكون سهيلة

جاسوسة. استكملنا باقي الخبر، وانتظرنا حتى تأتي "أنهار" بمعلومات الوكالة المسائية، وترتب لنا لقاء إحدى العائلات المرحّلة، كي نرصد الحالة على الواقع. انشغل المجتمع العراقي بالسؤال عما سيفعل هؤلاء الناس، وما إذا كان العراق سيشهد ما سبق وشهده عند هجرة اليهود، وبيعهم المفاجئ لأملاكهم. وهل يستطيعون العودة. أم أنه ترحيل أبدي؟

أخذتنا "أنهار" إلى مكان تجمعت فيه سيارات لترحيل العائلات. وقفنا أمام سيارة تراكمت فوقها مراتب إسفنجية، وملابس مربوطة داخل ملاءات ضخمة، وأجولة ممتلئة عن آخرها بكل التفاصيل الحياتية في المنزل، وقف بعض الأطفال فوق هذه الكومة وجلست امرأتان إحداهما عجوز، والأخرى في منتصف العمر في مقعد بجوار السائق. اصطف شباب في العشرينيات من العمر حول السيارة، ووقف رجل شبه تائه يحاول الاطمئنان على أشيائه، ويدور حول العربة المتهالكة، الواقفة في صفوف متهالكة أيضاً. سألت "حلمي أمين" مذهولة :

- هل تصل هذه السيارات إلى إيران؟ أين السيارات الجديدة؟
- حالة فوضى يحصل المرء فيها على ما يجده.

اقتربت من إحدى العائلات. سألت المرأة : هل تعرفين أحداً في إيران؟

- جد زوجي. حاج كبير.
- هل لديكم أية ملكية هناك : أراضٍ، عقارات؟
- من أين؟ كان ذاك في زمن آخر. زمن العثمانللي.

قال الزوج : لا نملك هناك فلساً واحداً، لا بيت، لا أرض، لا دكان.

- ماذا تعمل؟
- أمتلك محل بقالة في الكرادة داخل.
- تركته لمن؟
- لجيراني. "خوش أوادم"[1]. سلمت المحل إلى جاري بأوراق بيع "هيك" حتى إذا عدنا إليه وجدنا مصدر رزقنا. أخذت أغراضي من البيت حتى لا تنهب. إن كنا جواسيس يا معودة فماذا يفعلون بأشيائنا ونحن بعيد؟ حملت كل ما سنحتاجه هناك،

---

١ خوش أوادم : ناس طيبون .

حتى يجد الله لنا مخرجاً، وحتى تجد عائلتي ما تعيش عليه. النقود القليلة التي معي لن تكفي لكي نعيش هناك حتى أجد عملاً. أغراضنا تخدمنا.

أشار إلى صبي من فوق السيارة بشريط كاسيت، وراح يلوح لي بيده، وهو يتابع الحوار الدائر بيني وبين أبيه، سألته : شريط من هذا ؟

قال ضاحكاً: "عادل إمام"، في مسرحية "شاهد ماشافش حاجة".

راح يقلد "عادل إمام" : انتو جايبيني هنا ليه؟ خلاص أروَّح؟

بكت الجدة بحرقة، وراحت تدعو الله أن ينجيهم، وأن يقلب الشر الموجه إليهم على فاعليه، واستطردت : من الدعوة هذه يابنتي منو؟ واحنا إيش علينا بيهم. هادولا مو أوادم، منو يقبل تفجيرات؟ والله يا بنتي ما نعرف غير بيتنا ورزقنا وعيالنا. وهادولا الإيرانيين شنو لنا بيهم احنا. احنا في حالنا والله في حالنا ؟

قال الرجل : الله كريم يا أم "علي" هو بيدبرها.

انتقلت للحديث إلى عائلة أخرى يقف شبابها إلى جوار السيارة. سألت أحدهم عن أسباب ترحيلهم الفوري قال : لا أعرف. كنت عائداً من زيارة أبي في المصنع، وفوجئت باعتقالات بين أبناء عمي وأمر ترحيل فوري كما تشاهدين. أنقذني أنني كنت في الأردن للدراسة، وعائد بالصدفة لزيارة أهلي والله يا أختي ما فعلنا شيء. أفرجوا عن واحد من أبناء عمي، والباقي لا نعرف إن كانوا هنا أم سفروا بالقوة. والبنات واحدة متزوجة من عراقي عثماني، والثانية من عراقي إيراني. تشتتنا كما تشاهدين. من كان يسأل عن الزواج والرعوية؟ كلنا أوادم، وكلنا من العراق.

ـ ماذا ستفعل؟

ـ سأذهب معهم للبحث عن أصل العائلة التى نعرف عنها مجرد حكايات سمعناها من الأجداد. أعرف اسم القرية التي قالوا إننا أتينا منها في العهد العثماني. ربما أجد أقرباء للعجوز. وبعد أن يستقروا أعود إلى دراستي في الأردن.

ـ هل تتوقعون مساعدات إيرانية؟

ـ بالله عليكِ. من يقبلنا ؟ إذا كانت الحكومة العراقية تعتبرنا ونحن عراقيون ومولودون لأجيال هنا جواسيس لإيران، فماذا ستعتبرنا الحكومة الإيرانية؟

وصلت مجموعة من الجنود. أمرت بإنزال كل المتعلقات الموجودة بالسيارة.

تعالت صراخات النساء وأخذ الأطفال يقفزون من السيارات. والجنود يفتشونها ويلقون كل ما يجدونه إلى الأرض حتى انتهى التفتيش، وصدر الأمر بالحركة. وعلا النحيب حتى طغى على هدير الماكينات المتهالكة.

لم أجد في الصحافة القادمة من مصر بعد ذلك غير خبر صغير يقول: "ترحيل عدد من العائلات العراقية من أصل إيراني لاشتباه في اشتراكها في التفجيرات الأخيرة مع حزب الدعوة". تذكرت الولد الصغير الذى يحمل شريط عادل إمام، "وسهيلة" التي تم إنقاذها بمعجزة، وبتدخل من وزير الداخلية شخصياً باعتبارها حالة مصرية عراقية استثنائية وحيدة.

سألت "حلمي أمين" عن سبب عدم نشر التحقيقات التي أرسلتها إلى الزهرة.

قال : الحالة حساسة جداً يا "نورا". ضروري هناك تقديرات أخرى. اتركينا ننتظر ما تسفر عنه الأيام.

❖ مارس ١٩٧٧

غرام

تجمعت لدينا معلومات كثيرة عن الأكراد. امتلأ المكتب بالمراجع العربية والإنجليزية عن تاريخهم وثوراتهم وأبطالهم وعاداتهم وتقاليدهم. سافرنا إلى أربيل لكي نستكمل مادتنا الحية. وعدتنا "أنهار" أن تلحق بنا الى "أربيل"، ولم تفعل. لاحظت قلق "حلمي أمين"، وهو يتحدث إليها في الصباح. لم تقطع بعدم حضورها. قال إنه سيحدثها في الغد، وأردف أن رئيسها كلفها بعمل لم تنته منه بعد، وربط حضورها إلى "أربيل" بإنهائه.

قلت : مازالت أمامنا ثلاثة أيام. أريد بعض الإسبرين. أشعر بحرارة.

قال : لا. اعملي معروفاً. أمامنا عمل كثير.

أنهينا عملنا في مصنع السجاد، وحملتنا السيارة عائدين إلى الفندق. مررنا بالمدينة القديمة. أوقف "حلمي أمين" السيارة أمام رجل جلس على الأرض، وكوم فوق قطعة قماش هرماً من حبات الجوز الطازج المقشر. اشترينا كمية منه. دفعها "حلمي أمين" إلى يدي قائلاً : كلي هذا أمامي الآن حتى تتخلصي من البرد.

أعد المطعم شوربة ساخنة قال النادل وهو يقدمها لي : سأضع القدر على طاولة خصيصاً لكِ حتى تطلبيها في أي وقت.

لم يفتتح الفندق رسمياً بعد، ما زال يستكمل تجهيزاته وما زالت خطوط تليفوناته مقطوعة. لم يزد العاملون به على ثلاثة. وصلت " أنهار" في المساء. فرحنا بها بشدة. استأذنت في العودة إلى غرفتي بعد أن شعرت بأن حرارتي قد بدأت في الارتفاع. ونمت نوماً عميقاً.

صحوت في الليل بعد مرور وقت لا أعرفه. قرعت الجرس فلم يجبني أحد. وجدتني أنشع عرقاً. قررت أن أحصل على دش ماء ساخن ثم أبدل ملابسي، وأخرج

للبحث عن النادل ليحضر لي ما أشربه. خرجت من الغرفة وتوجهت إلى الاستعلامات. كـان الفندق غـارقـاً في الظلام، إلا من ضـوء خـافت في الردهة. بحـثت عن عـامل الاستقبال فلم أجد أحداً. عدت إلى غرفتي ضجرة. لمحت شخصاً يتحرك عن بعد، جفلت. اعتـادت عيني الظلام الذي ازداد كلما توغلت في الممر، رأيته يتحرك على أطراف أصابعه وظهره لي. أدركت أنه "حلمي أمين". تحركت بسرعة حتى أقول له : مساء الخير، دون أن أوقظ النائمين. وجدته يتلفت وراءه وهو يطرق الباب. وقفت في مكاني. رأيت "أنهار" تفتح وهو يدلف إليها بسرعة. دخلت غرفتي ورحت أقرع الجرس بغضب. وأنا أعرف أنه لا يوجد من يجيبني. سألت نفسي عن السبب، هل هي غيرة؟ حاشا لله. لكني أخشى من طغيانه عليها، واستغلاله لها. هو متزوج، وهي فتاة صغيرة. هذا شأنهما. أمسكت جريدة الجمهورية ورحت أقرأ. لم أفهم سطراً واحداً. كان العنوان: "الوصفة الأمريكية، والتقاطع المصطنع". مللت القراءة وازدادت حرارتي ارتفاعاً، بلعت أقراص الإسبرين، وأنا أسمع صوت الباب يغلق بهدوء، وصوت باب آخر ينفتح بهدوء أكثر. ولم أعرف كم مر من الوقت، والشمس توخزني بوخزات حادة في عينيّ. كنت قد نسيت إغلاق الستائر. المباني العراقية لا تعرف نظام الشيش الخشبي.

نزلت من سريري، كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحاً. تذكرت "حاتم" وهو يقول: لو صحوت في الثالثة سأجدها متربعة في منتصف السماء. ابتسمت، سأحادثه في المساء. من أقرب تليفون أقابله حين يعود إلى بيتنا. خرجت من حجرتي إلى صالون الفندق. جاء لي النادل بكوب من الحليب الساخن قال :

"اشربيه دفعة واحدة ؛ فسوف يجعلك تعرقين، وتشفين إن شاء الله."

قلت : تتحدث العربية بطلاقة.

قال : نعم. معظم جيلنا يتحدث العربية. تعلمناها في المدرسة. بعض الأمهات مازلن لا يعرفن العربية. لكنهن يتابعن الأفلام المصرية ويرددن بعض الجمل.

قلت ضاحكة : شكراً كاكا أبو "سامي".

قال مبتسماً : أنت "جوان جن". سيدة جميلة.

خرجت إلى المدينة أمشي في شوارعها، كانت الشمس الخفيفة الناعمة ترسل أشعتها لتدغدغ الندى. رأيته يتراقص تحت وخزاتها. ويكشف عن خضَار كثيف لأوراق

أشجار الجوز والصنوبر الهيفاء. رفعت رأسي إلى نهاية الفروع، ورحت أميل مع ميلها للريح الخفيفة التي تهب. مشيت حتى تعبت، وشعرت بعودة الحرارة إلى جسمي. عدت إلى الفندق، وجدت الأستاذ "حلمي أمين"، و"أنهار" ينتظران وصولي الى الصالون لنتناول الإفطار معاً.

قدم النادل لي شوربة لسان عصفور، قائلاً : اشربيها وخذي خافض الحرارة.

قلت : ما يخالف يا دكتور كاكا أبو "سامي". كنت أحتاجها في الليل وليس الآن.

قال : تدللي عيني.

قلت : سأذهب إلى عملي. ضقت ذرعاً بالنوم.

قال "حلمي" : تعالى نمر في طريقنا بالمستشفى ليراكِي الطبيب.

رأيت "أنهار" حائرة. ليست سعيدة سعادة الأيام الأولى لقصة الحب. أهو الخوف من المستقبل، أم الشعور بالذنب؟ نظرت إليه وهو يتحرك بثقة شديدة، رأيته هادئاً يعلو وجهه حبور واطمئنان. بل هي الخيلاء تلك التي يسببها الشعور بالانتصار.

التقينا "جمال" و"سلافة" في قصر الثقافة. حدثني "جمال" عن معاناة الأكراد من النشر خاصة في الأدب. سألته مازحة : ألست منهم؟

قال : لا. أنا سرياني وأعاني أيضاً.

واستطرد : متى ستنشرين مجموعتك القصصية الأولى؟

قلت : أكمل روايتي الأولى أولاً، ثم أنشر مجموعة قصص.

قال : من هو كاتبك المفضل؟

قلت : لا أعرف على وجه الدقة. في كل مرحلة لي كاتب مفضل.

تعجب "حلمي أمين". وقال : "فهمي كامل" هو كاتبها المفضل كما أعرف.

قلت: في مرحلة ما نعم. أتمنى أن أكون مثل "أرسكين كالدويل"، أو "ألبير كامي" الذي كشف عن تفاصيل دقيقة في النفس البشرية. لكن كاتبي الآن هو "شتاينبك" بلا منازع.

لم أستطع وأنا أتحدث أن أفصل الكاتب عن الإنسان. تركت مشاعري تقودني. كنت قد قابلت "فهمي كامل" في بغداد واصطحبته ليزور مرقد الإمام موسى الكاظم،

لكن تصرفاته في ذلك اليوم سببت لي صدمة لم أنسها قط وحين رأيته في القاهرة بعد ذلك لم أقترب منه. حجبته عني غلالة من الغموض والتأفف. حين زار بغداد مرة أخرى لم أهتم.

وحين عدت إلى بغداد لم أذكر لحاتم أي شيء عما حدث.

❖ ابريل ١٩٧٧

بوادر أزمة

استعد مدير المكتب للسفر إلى القاهرة، للمرة الثانية منذ عملت معه. طلب اليوم من "مظفر الموصلي" أن يأتي بالمقالات المطلوبة قبل السفر حتى يحملها معه.

سأل "مظفر" : هل السيدة "نورا" ستكون موجودة في المكتب في أثناء سفرك؟

أجاب بحزم وهو ينظر نحوي بغضب : لا. ستكون في عطلة وكذلك "أنهار".

في المساء أعطاني تعليمات مشددة بعدم فتح المكتب، وتوصيل نسخ مجلات الزهرة التي نحصل عليها كهدايا من الدار الوطنية إلى دور الصحف مباشرة.

قال : هناك احتمال لاحتجازي في القاهرة.

لاحظ اكتئابي، وخطوط الذعر التي ارتسمت على ملامحي. استطرد :

"نورا". تعرفين أنني ماركسي وأن اسمي على رأس قائمة الاعتقالات في أي وقت، عند الطوارئ. وبالطبع المنع من السفر. أمامك خمسة عشر يوماً بعد الموعد المحدد لعودتي، إذا لم أحضر إلى بغداد فتصرفي في المكان. اتصلي بزميلنا الصحفي المصري "جلال السيد". أنتِ تعرفينه جيداً. إنسان محترم سوف يساعدك على تصفية أعمال المكتب وممتلكاته في هذه الحالة.

أصابتني كلماته بحزن، سرعان ما استبعدته. خطر على بالي أن أسأله إذا قبض عليه في القاهرة، فلماذا يغلق المكتب؟ ألا تستطيع المجلة إرسال صحفي آخر؟ لكني خجلت من السؤال. قلت : لا يوجد في مصر الآن سبب للخلاف مع الشيوعيين، والقبض عليك، وأنت تعيش، وتعمل في بغداد.

قال : لا يسألون ساعتها أين أعيش، وأعمل. نفذي ما قلت لكِ.

مضيت إلى بيتي وأنا لا أصدق ما أخبرني به حالاً. لا يمكن بهذه البساطة أن تنقلب كل الأمور رأساً على عقب، وأن ينتهي هذا العالم الذي أحببته، وأنا أضع أولى

خطواتي على سلم النجاح. هو مبالغ كالعادة في الاحتياطات. وإذا أشرت إلى مبالغته فيقول إن صغر سني يجعل تقديراتي غير سليمة.

استغرقتني القراءة عن العراق طوال الإجازة. تأتي جارتي "صباح" لتسألني:

لماذا لا تذهبين إلى المكتب؟ ألن يعود الأستاذ "حلمي أمين" من مصر؟

أقول لها مذعورة : سيعود إن شاء الله.

خشيت أن تعود إلى سيرتها الأولى معي، وتحتل يومي بالكامل. التحاقي بمجلة الزهرة جمد معظم المشاكل التي كانت تسببها لي.

قالت : ما كل هذه الكتب؟ تضيعين فلوسك، وفلوس زوجك على هذا الكلام الفارغ. من يوم استلامك للعمل وأنتِ تقرئين حتى بعد عودته من المصنع. وهو وزوجي "شكري" يا حبة عيني طافحان الدم. أنتِ تهملينه، وهو لا يتكلم.

قلت : تزوجني "حاتم"، وهو يعلم أنني صحفية، عملي لا يتعارض مع رعايته. القراءة التي تزعجك يحبها "حاتم" بشدة، ويقرأ معي، لا تشغلي بالك.

ضقت ذرعاً بكلمات "صباح" التي تُصبحني بها كل يوم. خشيت أن تكون محقة. حكيت لـ"حاتم" ما يحدث، وسألته إن كنت أهمله حقاً؟

قال : هي ترى في عملك مجرد جمع للنقود. ولا تفهم لماذا الاغتراب إذا كنتِ ستنفقين النقود قبل أن تذهبي بها إلى مصر؟ أنا أحبك وأحب عملك.

لم أدرك أن اليوم طويل إلى هذه الدرجة. أبدأ صباحي بجر حاشية إسفنجي. أتنقل بها وراء الشمس في أرجاء البيت. أنام فوق بطني وأضع كتاباً أمامي. إذا توقفت عن القراءة لحظة واحدة دون أن تكون "صباح" وأطفالها حولي، أرى "ياسر" يبكي، ويسأل عني، والأستاذ "حلمي" وراء قضبان السجن، وأجدني أركض وراء تصفية أعمال المكتب في بغداد. أهش الأفكار عن رأسي وأنشغل بصناعة قالب حلوى (تورتة) أفاجئ "حاتم" به. أطلب منه الذهاب إلى مبنى البريد المركزي في شارع الرشيد لنتحدث إلى ماما، ونسألها عن "ياسر".

أقول:لا أفهم. لا تليفون في مكتب المجلة في بغداد، ولا تليفون في بيتكم في مغاغة، في سبعينيات القرن العشرين يا عالم.

يأخذني في حضنه ويقول ضاحكاً : متى تعود يا أستاذ "حلمي"؟!

عـاد "حلمي أمين" من القـاهرة في حـالة غـريبـة. سـعـيـد بصـورة مـا. يرحل وراء أفكاره، لكنه في الوقت ذاته ليس مطمئناً. قـال لي ووجـهـه ممتلئ بالأسى : قـدمت مذكرة رسمية لتعيينك في المجلة رفضها "فهمي كامل" رئيس التحرير.

- ماذا قال لك بالضبط؟

- أجّل هذا الطلب قليلاً.

استعدت في ذهني سخافة الرحلة التي صحبني فيها "فهمي كامل" إلى مرقد مولانا "الكاظم" واحترت في تفسير ذلك. سألت "حلمي أمين" عن تفسيره لهذا.

قال: والله يا "نورا" لا أعرف ماذا يدور في رأسه بالضبط. لا داعي للاستعجال سنعرف. اهتمي بعملك، هو سلاحك وقوتك في الرد عليه في المستقبل.

حاولت أن أفـهم من "حلمي أمين" مـاذا حـدث في القـاهرة؟ أين راحت شكوكه في القبض على الشيوعيين، وإغلاق المكتب دون جدوى، فقد كـان يخرج من النقاش أكثر غموضاً ويقول أحياناً : الموقف متأزم. وأحياناً أخرى : لا أحد يعلم أي شيء.

أقول : لكننا مستمرون. ما الذي يحدد استمرارنا؟

يقول : نعم، إلى حين. لا أحد يعرف. ظروف البلدين.

اكـتـأبت قليـلاً. ثم تخلصت بعد أيام من مـشـاعـر الحزن، وأنا أقـول لنفـسي: لن يبعدني أي تصرف أحمق عن عملي. سأعمل أكثر وأكثر وأكتسب خبرة. وقبلت الكتابة في كل صحيفة طلبت مني تحقيقاً أو مقالاً. ترجمت جريدة "هوكارى" تحقيقاتي إلى اللغة الكردية ونشرتها في زاوية ثابتة بعنوان "ناؤمى تي كورد"[١]. أترقب النشر بفارغ الصبر، وأتألم حين أتذكر موقف فهمي كامل لكني أمضي في طريقي مصممة على النجاح.لاحظت بعد أيام أن "حلمي أمين" في حالة مرح غير عادية. اختفت التكشيرة من فوق وجهه وبدا لي أصغر سناً بكثير.

سألته وأنا أضحك : هناك شيء تخفيه عني. ماذا حدث في مصر والله أعلم؟ قصة حب جديدة؟ وجهك منور وعيناك تلمعان ببريق غير عادي.

---

١ ناؤمى تي كورد : المرأة الكردية .

ضحك واعترف قائلاً : "بس يا بت". وجلس فوق الفوتيل أمام المكتب وقال: ماذا تريدين معرفته يا ست "نورا". فوجئت بتليفون من "عصمت". تعرفينها هه.

قلت: طبعاً. حبك الأول وليس الأخير. ظهرت صورة "أنهار" لامعة في ذهني.

قال ضاحكاً: ما علينا. تريد أن تقابلني. طبعاً كان الوقت ضيقاً جداً. دعوتها إلى الغداء في البيت. جاءت بسيارة من الإسكندرية. انتظرتها في الخارج.

قالت : بيتنا القديم كما تعلم اشتراه صديقك "فريد" لابنه. لكن ابنه لا يقوم بالتزاماته في دفع الأقساط، ولا أرى نهاية لهذه البيعة، ولا أعرف كيف أتصرف. ابنتي تستعد للزواج وأحتاج إلى النقود.

سألتها عن تفاصيل الاتفاق بينهما وتعهدت بأن أستدعي "فريد" وأرغمه على تنفيذ الاتفاق، أو فسخ العقد. قلت لها: كيف حال "جمال"؟ أعرف أنكِ حرصتِ على تربيته أفضل تربية؟

قالت : بخير. بخير يا خوي.

ثم نظرت لي طويلاً، وقبل أن تقوم عائدة إلى بيتها. قالت لي خجلة ووجهها في لون الدم كأنها مازالت في السادسة عشرة : ضاع العمر يا "حلمي".

ربت عليها وقلت : ما في القلب في القلب يا "عصمت". ربنا يخليلكِ أولادك.

رأيت دموعها تنهمر وكاد صدري أن يتفتت. أردت أن آخذها في حضني، لكن لا الزمان ولا المكان كانا يسمحان بشيء. ودعتها ومن حولنا "فائزة" والبنات.

لم أصدق حين صدر عفو عام عنا. وكانت "عصمت" قد تزوجت. خرجت لأجد نفسي مفصولاً من مصلحة الجمارك. عملت في روز اليوسف. كنا "أحمد بهاء الدين"، و"صلاح حافظ" و"حسن فؤاد" و"عبد الغني أبو العينين"، و"صلاح جاهين"، و"هبة عنايت"، و"حجازي" الرسام، ومجموعة كبيرة من الشباب، نريد أن نغير الكون. حتى قبض على معظمنا ورحلنا إلى الواحات لخمس سنوات متصلة. كنت قد تزوجت وكانت زوجتي تعمل في مكتب محامٍ وترعى "ميرفت"، وهو ما أرهقها كثيراً. وانتظرتني سنوات السجن دون كلل حتى خرجت وعدت إلى العمل الصحفي. لكن في مجلة الزهرة هذه المرة.

لمعت دموع. أوقفت التسجيل. وقلت: نكمل التفاصيل غداً.

ترى أين ذهبت هذه المذكرات التي أفرغتها بنفسي، أأخذتها "تانت فائزة"، أم أرسلها إلى إحدى دور النشر؟ تذكرته ونحن نغني معاً موال "وديع الصافي" :

لا أنا عارف لمين أبكي ولا عارف لمين أشكي
يا عيني ع الصبر يا عيني عليه إيه إيه يا عيني عليه
يا ليل الصبر يا مسهر دموع العين أنا ملاح وتاه مني سواد شطين

مسحت دموعاً تقاطرت من عيني ورحت استدعي بالقوة أيامنا المزدحمة بالأحداث.

متن ثاني

ثلاث طرقات على باب الذاكرة أعادت الحياة إلى أيام كانت تتلكأ، وهي تستدير ميممة شطر الاختفاء الأبدي. شددت طرف خيط الزمن الذي اعتاد أن يدجن الجبال والبشر. انهمرت الأيام وسقطت على قلبي. حاولت أن أوقف تدفقها، وأنتبه إلى ما يحدث حولي، ولكني لم أستطع. في داخلي دبيب يسعى لاستعادتها ويستشعر لذة الألم التي تستوعب اللحظة. وأنا أحمل حقيبتي في طريقي إلى بغداد؛ كي أشارك في مؤتمر عن تثقيف المرأة بعد محو أميتها. ولا أصدق أنني بالفعل رتبت ترك ابني ذي الأشهر الستة عند حماتي في مغاغة التي تبعد عن القاهرة ساعتين ونصف الساعة. آملة أن أعرف سر اختفاء "أنهار خيون" صديقتي العراقية، وزميلتي في مكتب مجلة الزهرة المصرية في بغداد، وأن أزور بيتي في حي الدورة الذي أصابته الطائرات الإيرانية، وأطمئن على جيراني، وألتقي "بسيوني عبد المعين" الذي التحق بالجيش العراقي ودخل الحرب مع إيران دون سابق معرفة بأهوال الحرب، وأعطيه خطاباً من أهل يحثونه على العودة.

أخذونا من صالة الوصول الضيقة، إلى منافذ الجوازات. اعترضت عضوات الوفد.

قالت كاميليا صبري : نحن وفد رسمي إلى العراق. وهذا تصرف غير مقبول.

قال ضابط الجوازات : هذا هو النظام. انتظرن في الخارج إلى حين وصول طائرة تقلكن إلى بغداد. المطار صغير لا يستوعب أعداد المسافرين.

قالت "شهيرة العاصي" : نريد مدير المطار.

قال الضابط : غير موجود في الوقت الحالي.

التفتت "سلمى" إلينا. قالت : هل تقبلن البقاء في الشارع لسبع ساعات أو أكثر؟

قلن جميعاً في صوت واحد : لا، مستحيل.

قالت "كاميليا" للضابط : لقد سمعت رأيهن. لن يخرجن. قيل لنا إن إدارة المؤتمر رتبت مع إدارة مطار عمان استضافتنا إلى حين ركوب الطائرة.

جاء ضابط آخر تشاور مع زميله ثم قال لنا: هذا التصرف ليس موجه ضدكن. هذا نظام المطار الذي يطبق على الجميع. ولا توجد لدي أية تعليمات بشأنكن.

قلنا: أين المندوب العراقي؟ من فضلك افتح المضيفة لنجلس فيها.

قال : لا يوجد مندوب عراقي. ولا توجد لدي أية تعليمات بذلك. من فضلكن أفسحن المجال لخروج باقي الركاب، أو قفن في الصف.

ابتعدنا جميعاً عن المنافذ، ووقف نفر قليل من المسافرين، راحوا يتطلعون نحونا دون كلام. ورأيناهم وهم يعبرون صالة الحقائب، ثم يخرجون من البوابة إلى الشارع وهم يتمتمون بغضب. جاء أحد الضباط يطلب منا بصوت آمر: قفن في الصف لختم الجوازات. نزلت طائرة أخرى، ولا يوجد مكان لجميع المسافرين.

قالت "كاميليا" : من فضلك تحدث بأسلوب لائق.

قال: لا أعرف أسلوباً آخر. أطعن التعليمات من فضلكن. انتظرن في الخارج.

قالت "منى عايد": ألستم معتادين على التعامل مع الوفود الذاهبة إلى العراق!

قال: بلى.

قالت : لماذا لا تتعاملون معنا بالطريقة ذاتها ؟

قال : يصل مندوبوهم في وقت مبكر، ويدفعون الرسوم، ويتولون استضافتكم.

قلت متعجبة وأنا أستعيد في ذهني النظام العراقي الصارم : أين هم الآن؟

قال : لا أعرف يا أستاذة.

قالت "تهاني": من غير المعقول ألا يكون مدير المطار موجوداً. هذا وقت عمل.

لم أصدق حالة غياب المندوبين العراقيين هذه. هل تغير العراق إلى هذا الحد؛ ولم يمر على غيابي أقل من سنتين؟ ربما تكون الحرب قد فككت كل شيء.

عاد أحد الضباط وقال : سوف تختمن جوازاتكن، وسوف اصطحبكن بنفسي إلى صالة الدخول. تجلسن بها إلى حين موعد قيام الطائرة إلى بغداد. فتدخلن إلى الجوازات. وتدفعن الرسوم.

تعالت الصيحات : هذا غير منطقي. لن نخرج.

قال الضابط : إذا وصل المندوب العراقي رد لكم ما دفعتموه. دخلت المضيفة.

رحنا نتشاور. لم نجد سبيلاً غير قبول هذا الحل الوسط.

قلت: لا يوجد في الخارج غير المطر، ورياح شديدة، وازدحام على الأبواب. وإذا تأخرت الطائرة وكثيراً ما يحدث هذا، سنجد أنفسنا لأيام في الشارع. ولن يأخذونا إلى فندق المطار. وهم يستخدمون خراطيم المياه لتفريق المسافرين الذين يتكدسون أمام الباب عند الإعلان عن الطائرة.

قالت "منى عايد" : يا خبر أسود، لم أكن أعلم بهذا.

قلت : الضيوف في العادة لا يتعرضون لهذه المهزلة، ولابد أن أمراً جللاً قد حدث، لأن حساب هؤلاء الموظفين العراقيين سيكون عسيراً. المهم أن يرتبوا لنا ركوب طائرتنا. لابد من الاشتراط على هذا قبل أن نوافق على دخول الأردن.

قالت "كاميليا" للضابط : نوافق بشرط أن تعطنا ورقة بالسفر على أول طائرة.

قال : دخولكن صالة السفر مبدئياً معناه عبوركن الجوازات قبل أن يفتح الباب الخارجي للمسافرين الآخرين. وهذا أقصى ما يمكنني تقديمه.

وافقنا على مضض، ختموا جوازاتنا بختم دخول الأردن. سألنا عن حقائبنا.

قال : لا داعي لتسلمها. ستتسلمونها في بغداد.

قالت "سلمى" : أريد حقيبتي. وسط هذه الفوضى لن أضمن أي شيء.

تصاعد النقاش، وانتهى الأمر باستعادتها. وتعالت صيحات الغضب والزهق.

خرجنا إلى الشارع. اصطدمنا بالأعداد الهائلة من المصريين المنتظرين في الهواء الطلق ؛ بعضهم نام وهو يحتضن حقيبته. تكوموا متلاصقين يحتمون من عصف الريح التي فاجأتنا بصفعات قوية فوق وجوهنا. أزاح اثنان من العسكر الناس عن طريقنا باستخدام عصي لها وميض أحمر. قال واحد من العمال المصريين المسافرين : ثلاثة أيام يا كفرة. قال آخر: انتهزوها فرصة ؛ لأننا شعب بلا حكومة تدافع عنه. لماذا لا يفعلون بنا ما يحلوا لهم؟! أدرك الناس أننا في طريقنا إلى صالة المسافرين فمضوا من ورائنا.

قال الضابط آمراً الناس : ابتعدوا. لا توجد طائرات الآن.

نظم عساكر الأمن دخولنا. توقف المسافرون، يراقبون ما يحدث ويضغطون على المساحة الضيقة للدخول في الوقت ذاته ؛ مررنا واحدة، فواحدة، تصاعدت أصواتهم : ارحمونا. ثلاثة أيام "في الطل" يا ظلمة. يا بلد وسخة.

اتجه الضابط إلى أحد الضباط الواقفين أمام منفذ آخر للتفتيش وقال: هذا وفد. يخرج إلى طائرة العاشرة والنصف قبل أن تفتح البوابة الرئيسة. مفهوم؟

التفت إلينا قائلاً : نعتذر. هذه هي ظروفنا.

جلسنا متراصات مثل تلميذات مدرسة مطيعات. نشاهد عن بعد الواقفين خلف الزجاج. غرقنا في الحديث عن أحوال العمال الذين تركوا مصر بحثاً عن لقمة العيش، وما يعانونه من ظلم البلاد التي دخلوها من الكفيل إلى انخفاض أجورهم. نزلت دموعي. رحت أتمتم بكلمات صلاح جاهين :

تمثال رخام على الترعه وأوبرا في كل قرية عربية

دي ما هيش أماني/ وكلام أغاني/ ده جو تاني.

ذهبت إلى الحمام لكي أفرغ اللبن من ثديّ. لماذا لم أكن أشعر في القاهرة بكل هذه الزنقة، على الرغم من أنني كنت أترك "هيثم" لساعات طويلة مع أمي؟ هل نسيت يوم طلب منك سكرتير التحرير سليم أحمد أن تخرجي من الاجتماع بسرعة وعند الباب قال لك: عودي إلى البيت. لم تفهمي.قال: "نورا". أنتِ غرقانة!

نظرت إلى صدري. وجدت البلوزة مبتلة تماماً، والقماش ملتصق بصدري، وكأنني عارية. أشبه تلك السيدات اللائي ينزلن إلى البحر بالجلابية، فتظهر تفاصيل أجسادهن، شكرته، وهربت. لكنها حالة نادرة على أية حال.

وقفت أمام الحوض، وأخرجت من حقيبتي الشفاط، ومنشفة صغيرة بللتها بالماء.

دخلت عاملة لها بشرة مجعدة شديدة الاحمرار، تلف ضفيرتها الحمراء أيضاً حول رأسها المغطى بالإيشارب. نظرت نحوي وسألتني إن كنت والدة وأين تركت ابني وهل هو مع أمي أو مع حماتي؟ ثم قالت اتركي كل شيء على حاله ؛ فهنا أمان.

أخذت احتياجاتي إلى "التواليت". وأنا أقاوم الحنين إلى "هيثم". سألت نفسي: هل تقبّل ثدي "فطوم"؟ هل نام أم يبكي لفراقي؟ تقاطرت دموعي. مسحتها بسرعة. لم أصل بعد إلى بغداد. رحت أستنزف ثدييّ حتى شعرت بالإرهاق. مسحتهما بالفوطة المبللة ثم دهنتهما بـ"اللوشن"، وانتظرت حتى جفا، وأنا أشعر بإعياء. خرجت وأنا أرش قطرات الكولونيا على جسمي. دخلت "سارة بدر". سألتني : ماذا تفعلين يا "نورا"؟

أطرقت. قلت : مازال ابني رضيعاً.

قالت : تجلبن لأنفسكن وجع القلب. تمشين حاملة حقيبة، وفوطة، وشفاطاً، وكولونيا، وكريم. صيدلية. أنا لا تزوجت، ولا أنجبت، ولا أنتوي.

قلت : يا جامد.

خرجت بعد أن أعدت الصيدلية - على رأي سارة - إلى حقيبتي ولاحظت أن الزميلات قد تحلقن حول طاولات. اتسع كل منها لعدد كبير. أشارت لي "كاميليا". توجهت نحو الكرسي الفارغ بجوارها، قالت لي : "نورا" كنا نحكي عن موقف بغداد من قيام الثورة الإيرانية، وطبعاً اختلفنا. أنت كنت هناك في هذه الفترة. نريد أن نسمع منك بالتفصيل. ورأي العراقيين في الثورة. ولماذا الانقلاب عليها خاصة وأنهم شيعة؟

قلت : أولاً الحكم سني على الرغم من أن معظم الناس شيعة. وقصة السنة والشيعة هذه مختلفة عما نفهمه كمصريين تماماً.

قالت "منى عايد" مقاطعة : أولاً بأول وحياة أبوك[1].

ضحكنا. قلت : كنت أجلس في حديقة منزلي ليلاً. أظن في فبراير ٧٩ . جاءني صوت "هيام" تتغنج بدلال : "هنا راديو مونت كارلو".

قالت "منى": أيوه. تتغنج دي حلوة، والنبي الثغي "الإر" أول بأول إحياة أبوك.

ضحكنا. قلت : موسيقى عسكرية. وقرآن[2]. لا. لا. كان الخبر كما أذيع في جميع النشرات كالآتي : استمرت أعمال العنف في العاصمة طهران والمدن الإيرانية كافة للأسبوع الثاني على التوالي. وقد علمت مصادر مطلعة أن شاه إيران قد غادر اليوم البلاد متجهاً إلى باريس مع عائلته. وأعلن راديو طهران أن الأمير "عباس هويدا" رئيس الوزراء قد أمر بنزول الجيش إلى الشارع لقمع المتظاهرين، وتفيد الأسوشيتدبرس أن جميع الأحزاب الإيرانية قد أعلنت حالة التمرد المدني والعصيان التام. فتحت التليفزيون. مر المذيع على الخبر مرور الكرام، مجرد خبر محايد عن أعمال عنف في طهران، بمشاركة أحزاب المعارضة الإيرانية كافة. في الصباح الباكر لم تشفِ غليلي نشرة وكالة الأنباء العراقية. ولم يعلق زملائي العراقيون انتظاراً لإعلان الموقف

---

١ جملة شهيرة للفنان : فؤاد المهندس في مسرحية : هو وهي .

٢ جملة شهيرة للفنان : أحمد زكي في مسرحية : مدرسة المشاغبين .

الرسمي. استقبلني "حلمي أمين" مدير مكتب مجلة الزهرة سعيداً وأضاف لي بعض المعلومات عن كونها ثورة إسلامية تهدف إلى إعادة العدل إلى الشعب الإيراني الذي يعيش في فقر مدقع وتوجه ثرواته المنهوبة إليه. توالت المعلومات كل ساعة تقريباً. اعترفت طهران بمنظمة التحرير وبحق الشعب الفلسطيني في القدس عاصمة له. طلبنا مقابلة "أبي عباس" مسؤول الإعلام الخارجي. لاحظنا أن أنباء طهران تقابل بحذر.

قلت لأبي"عباس": مبروك، أخيراً قوة إيران تنضم إلى قوة العرب ضد إسرائيل.

قال : لابأس. ما يخالف.

قال "حلمي أمين" : تأخر إعلان موقف بغداد قليلاً. أليس كذلك؟

قال أبو "عباس": في انتظار بيان من الحزب. الموقف مع إيران مركب جداً كما تعلم. وعلينا الانتظار حتى تتكشف الأمور.

خرجنا إلى كافيتريا الوزارة في الدور الأول. اعتدنا أن نلتقي بأصدقائنا الصحفيين ورجال الإعلام هناك. التففنا حول طعام خفيف، نتبادل تفاصيل الصورة الواردة إلينا من وكالات الأنباء العالمية، ونحن نستشعر الموقف الحذر.

قال أبو "زياد" : عاش "الخميني" منفياً هنا حتى بعد أن وقعت العراق معاهدة الجزائر مع الشاه. واستمر يعيش بيننا حتى طلبت منه الحكومة المغادرة.

قلت : الشيعة في النجف ينتظرون إشارة من مرجعيات طهران لكي يبدأوا صيام رمضان أو تحديد أول أيام العيد.

قال "جاسم" : لدينا ارتباط عضوي قوي. فالمنطقة واحدة كما تعلمين.

قلت : رأيت الحجاج الإيرانيين يصلون النجف قبل الذهاب إلى مكة، فلما سألتهم عن السبب، سألوني متعجبين : وهل يُقبل الحج من دون الصلاة أولاً على سيدنا علي والحسن والحسين؟

عدنا إلى المكتب ونحن نشعر بمعنى واحد ؛ الحذر.

قال "حلمي أمين" : في معاهدة الجزائر بنود سياسية، وأخرى طوبوغرافية. كان الهم العراقي هو وقف الدعم الإيراني للتمرد الكردي ؛ ولهذا قبل بتوقيع الاتفاقية، على الرغم من أن "صَدام" تنازل بموجبها عن نصف شط العرب، ودخل هذا الساحل في المياه الإقليمية الإيرانية. وبالفعل أوقف شاه إيران دعم التمرد الكردي، وأوقف العراق

بالتالي دعم "الخميني" والثورة الإيرانية. وكان "الخميني" يعيش في النجف وتسجل خطبه على شرائط كاسيت، وتدخل إلى إيران.

قلت لـ"حلمي أمين" : لم أفهم سر هذا التباطؤ في إعلان الموقف حتى الآن.

قال : حين تكون بين البلاد علاقات متشابكة وحدود طويلة لابد من اتخاذ مواقف حذرة، وكما حدث في مصر حينما قامت الثورة في ليبيا عام ٦٩ لتطيح بالملك إدريس السنوسي وعائلته. وكان لليبيا تمثيل دبلوماسي وسفارة في مصر. لم تكن مصر تستطيع تأييد الثورة في اليوم الأول إلا إذا كان لها مصالح مع الانقلابيين. بين العراق وشاه إيران الآن معاهدة مستقرة، والعراق يسير في خطط التنمية بعد أن بدأ يتنفس الصعداء مع ارتفاع أسعار البترول بعد ١٩٧٣، وبالقطع هم لا يريدون أن يدخلوا في مغامرة مثل ما حدث مع مصر عام ١٩٥١، ويقوموا بتأييد الثورة، ثم تقوم أمريكا غداً بعمل انقلابي كما حدث مع مصدق من قبل. والحالة في إيران لا تزال غير واضحة حتى الآن.

قلت له : لكن الشاه ترك إيران بالفعل. وأحزاب المعارضة ؛ من حزب توده الشيوعي إلى الأحزاب الإسلامية في الشارع الآن.

قال لي : لا تغلقي عقلك على الصورة الظاهرة وحدها. هذه علاقات دول وليست علاقات "نورا" مع أصحابها. ولا تنسي الحساسيات الموجودة عند مرجعيات الشيعة، ورجال الدين في إيران، والخميني الذي خرج شبه مطرود من العراق. كلها عوامل لا تسمح بالتهنئة بسرعة، ولابد أن تفهم حكومة العراق أولاً ماذا يحدث في إيران؟ ثم تعلن موقفها.

قلت : هذا معناه أن ننتظر وألا نرسل إلا رسالة بالموقف المبهم.

قال : اتركي هذا لي، فيجب أن تكون خطواتنا حذرة أيضاً، والكتابة دقيقة جداً. ولحسن الحظ أمامنا أيام على الطباعة. وفي الصباح علمت أن الخميني أعلن من الطائرة التي تقله من باريس إلى طهران سقوط الشاه. توقعنا في المكتب أن يصدر العراق بياناً يؤيد فيه الثورة، لكن الأمر استغرق يومين كاملين ثم أرسلت الحكومة برقية تهنئة رسمية تهنئ الشعب الإيراني، وتطالب بحسن الجوار.

وكانت مفاجأة. إذ وصلت برقية من إيران بتوقيع الخميني شخصياً تبدأ كالآتي: السلام على من اتبع الهدى. ثم تبعها باقي السرد.

مرت البرقية بمضمونها وتركيبها دون أن أفهم منها سوى أنها برقية جافة.

قالت "كاميليا" : لا، هي برقية لها معنى واضح، لكنها مرّت عليك.

قالت "سارة بدر" : أنا أيضا لم أفهم.

قلت : علمت بعد فترة طويلة أن هذه الصيغة لا توجه إلى دولة إلا في حالات الحروب أو التحرش. وأصبح من الواضح أن هناك نيات مبيتة من دولة إيران في حكمها الجديد. وسرى المعنى بين الإعلاميين الذين أتحرك في وسطهم دون أن يتحدثوا معنا في هذا.

قالت سلمى : ألم ينتبه "حلمي أمين"؟ غير معقول.

قلت كانت حالة الترقب حالة عامة عزيناها إلى الحساسية بين الشيعة والسنة ؛ فالحكم سني. وهناك تخوف من تصدير الثورة الإيرانية إلى العراق.

قالت "أنجيل رشتي" : ثم ماذا حدث؟

قلت : كنت سعيدة بالثورة وبكيت من الفرح يوم أعلن راديو طهران طرد السفارة الإسرائيلية وإحلال مكتب منظمة التحرير الفلسطينية مكانها في العاصمة طهران. تابعت الأنباء بشغف فقد كان يحيرني كيف ستتصرف الأحزاب الإسلامية الإيرانية مع الأحزاب اليسارية التي خرجت إلى الشارع لتقوم بالثورة؟ أيتفقون؟ أم ستبدأ موجات من العنف بعد ذلك؟ ثم تقلد "أبو الحسن بني صدر" رئاسة الجمهورية. ولم يكن رجل دين. وأصبح المهندس "مهدي بازركان" الذي لم يكن رجل دين أيضاً رئيساً للوزراء، وإن كان ينتمي إلى الإسلام السياسي، وهي ملحوظة أضيفت إلى الملحوظة الأولى فزادت لهفتي وترقبي لما يحدث.

لم تنته الفوضى من شوارع إيران، ثم بدأت المحاكمات الثورية، وبدأنا نضع أيدينا فوق قلوبنا لما يمكن أن تسفر عنه الأحداث. الباقي أنتن تعلمنه ؛ طالب العراق بالأرض التي سبق وتنازل عنها. وبدأت الحرب.

قالت "أنجيل رشتي" : سمعنا عن تفجيرات قامت بها جماعات إيرانية في بغداد نفسها. قبل مغادرتك للعراق. احكي لنا كيف عشت هذه الظروف.

قالت "منى عايد" : أول بأول "إحياة" أبوك. يعني أين كنت؟ وكيف تصرفت؟

قلت: كنت أستعد للعودة النهائية إلى مصر. وكانت ظروفي الشخصية صعبة

جداً. أظن أننا كنا في تموز، أو آب. يقول العراقيون تموز تجفف المياه في الكوز، وآب يفل الحديد من الباب. كنت أتابع عملي وأقوم بكل إجراءات الشحن وحيدة، وأشتري هدايا إلى الأهل والأصدقاء، ثم أعود إلى البيت لرعاية نجاة أخت "حاتم" التي تنزل في ضيافتنا هي وزوجها بعد أن تعرضت لنوبات إجهاض متكررة ونصحتها الطبيبة بالرقاد على ظهرها طوال أشهر الحمل. ولأن "حاتم" لا يستطيع ترك عمله في أثناء ساعات العمل الرسمية لأي سبب، فقد ذهبت في ذلك اليوم إلى جامعة "المستنصرية" لأتابع المؤتمر الاقتصادي العربي.

صرخت "منى" : يا خبر كنت في جامعة "المستنصرية" نفسها.

قلت: نعم. كنت قد تابعت المؤتمر في سنواته الماضية بشعور أنني في قلب أفكاره؛ برعايتي للتجربة الخالصة التي تطبق الأنموذج المطلوب للتكامل العربي.

غادرت قبل نهاية الجلسة الصباحية، حتى ألحق بالوقت قبل ازدحام المواصلات ساعة الذروة. قطعت السيارة الطريق بسرعة لم أتوقعها. فاجأتني "نجاة" بوقوفها تنتظرني على باب الفيلا وبجوارها ابني "ياسر" يلعب. كانت ممتقعة الوجه، ولم أفهم لماذا تركت سريرها على الرغم من تعليمات الطبيبة؟ سألتها : هل أزعجك "ياسر" إلى هذه الدرجة؟

قالت: من أين أتيت؟ أعلن التليفزيون الآن وقوع انفجار في جامعة المستنصرية.

ركضت نحو التليفزيون، وجدت المذيع يعيد إذاعة الخبر. وأنهاه قائلاً : دقائق قليلة أنقذت أعضاء المؤتمر الاقتصادي الزراعي العربي من كارثة محققة، لكن الإصابة الحقيقية هي في بناء جامعة المستنصرية الفريد في نوعه المعماري.

احتلت الشاشة صورة الجامعة بفسيفسائها الجميلة، قبل التدمير وبعده. وصب الخبر غضبه على منظمة العمل الإسلامي، وحزب الدعوة اللذين ينشران متفجراتهما في بغداد عاصمة الرشيد، واتهمهما بالعمالة، وهدد قائلاً : إن يد الدولة ستطالهم في كل مكان.

قالت" سلمى" : هناك كلام كثير على أن هذه الأحداث مفتعلة.

قالت "منى " : "نورا" احكي لنا أكثر.

قلت : كنت، و"حاتم" و"ياسر" في شارع الرشيد نشتري هدايا. مشينا لوقت

طويل، وشربنا الكثير من العصائر. أصبت بنوبة إسهال مفاجئة. دلني "حاتم" على مراحيض عمومية تحت النفق في ساحة التحرير، فاتجهنا إليها. والمغص يلوي أمعائي، لكننا فوجئنا بإغلاقها. لم أحتمل دخلت إلى أحد المكاتب السياحية المجاورة، وقلت للموظفة : أحتاج إلى "تواليت" من فضلك.

امتقع وجهها أمام اندفاعي، وعدم قدرتي على التماسك. نظرت إلى زملائها، وهي تصطحبني نحو الحمام، ووقف "حاتم" ومعه "ياسر" داخل صالة المكتب السياحي ينتظرانني فلما خرجت بعد قليل وجدت كل من كان في المكتب خارجه، وبين رجل متردد في الوقوف داخل بهو المحل، وفتيات واقفات خائفات في الخارج نقلت نظراتي، وأنا لا أفهم شيئاً. لاحظت أن "حاتم" يدخل أوراقاً إلى جيبه سألته عما يحدث. قال : تعالي نخرج أولاً. أصيبوا بالذعر، فأخرجت لهم هويتي، وقلت لهم أنني مهندس وأن زوجتي صحفية، وعلى الرغم من أن بعضهم هدأ قليلاً فإن البعض ما زال متردداً وخائفاً كما تشاهدين.

وضع يده فوق كتفي وأمسك "ياسر" بيده الأخرى ورحنا نصعد سلم النفق. التفتت ورائي ورأيت إحدى الفتيات تدخل إلى الحمام وتشير إلى باقي زملائها بأن المكان آمن. عاد العاملون إلى الداخل، ورأيت وجوههم الممتقعة تنفرج عن ابتسامات غامضة. وقعت الحرب بعد شهرين من تفجيرات جامعة المستنصرية. لا أحد يعرف إلى متى تستمر؟ وإلى أين؟ وسواء كانت التنظيمات أو الحكومة الإيرانية وراءها، أو افتعلتها الحكومة؛ فالنتيجة هي قيام الحرب بالفعل بين البلدين.

استأذنتهم في دخول الحمام، أفرغ اللبن من ثدييّ. وأنا أقاوم الحنين إلى "هيثم" كلما شاهدت قطرات اللبن تختفي في الحوض ولاحظت أن سخونة الماء ساعدت في سرعة إنجاز المهمة. عدت إلى زميلاتي وجلست بينهن.

قالت "سهام فتحي" : ما هذه الرحلة العجيبة؟ أريد فنجاناً من القهوة.

قالت "كاميليا صبري" : القهوة لا تهم. المهم أن نعرف متى نغادر هذا المطار.

قالت "تهاني يوسف" : سوف أذهب إلى مدير المطار. لا نريد منه دعوتنا، بل توفير القهوة، وطعاماً خفيفاً ندفع ثمنهما.

قالت "شهيرة العاصي" : لا يأتي بها إلا ستاتها. "أيوه كده".

سمعنا أحد الموظفين يقول : يا عصفور أنتَ يا جميل!

انتبهنا إليه حين كرر كلماته. اكتشفنا أنه يوجه إلينا الكلمات. ضحكنا. كان شاباً أردنياً في الثلاثينيات من عمره يقلد اللهجة المصرية، ويغازل الفنانة "محاسن توفيق" التي جلست بين صديقاتها تحكي عن أزمة المخرجين. رفعت بصري إلى الباب الزجاجي الذي يفصلنا عن الشارع. رأيت فلاحين مصريين بجلابيبهم الرصاصية والبنية وطواقيهم الصوف المغزولة يلتحفون بشيلان ملونة من البرد، يقفون مثل تماثيل فرعونية صلدة، لكنها حزينة. تذكرت فلاحي "الخالصة".

كنت قد نشرت عدداً من المقالات عن قرية الخالصة. أحببت أهلها وتحمست لتجربتهم بشدة. سألني "حلمي أمين" بعد أن أصبحت مصدر معلومات لكل من يريد أن يكتب عنها: لماذا لا تحولين هذه المقالات إلى كتاب؟ نقدمه ضمن مشروعنا لوزارة الإعلام؟

قلت فرحة : نعم. إذا سألت الفلاحين عن تاريخ حياتهم فستكون هذه مادة إنسانية جيدة، يشبه كتاباً أدبياً اجتماعياً واقتصادياً أيضاً.

ساعدتني شمس فبراير على الحركة. شمس جميلة تقطعها أحيانا زخات مطر، تختفي بسرعة وتترك النهار للضوء. أجمل شهور السنة في بغداد بعد نوفمبر. تبعد الخالصة خمسة وثلاثين كيلو متراً عن بغداد. أدخل إلى بيوت الفلاحين، أسجل معهم قصة حياتهم في مصر، وكيف جاؤوا إلى العراق؟ ولماذا؟ كانوا مجموعة متنوعة من البشر يعكسون الحياة بكل تناقضاتها. بعضهم احتمل صدمة الغربة الأولى وصمد، وتعاون مع المهندسين العراقيين ونجح. وبعضهم لم يحتمل. في الأشهر الأولى غادر عدد منهم إلى مصر، ثم خفتت الصدمة بالتدريج. وراح العدد الذي يترك المشروع يقل حتى استقر من تبقى منهم. الغريب أن الذين صمدوا أرسلوا لأقاربهم لكي يلحقوا بهم، ويكونوا عزوة عائلية. وعادت القرية إلى الاكتمال بمائة أسرة. حاصرني "عبد البر" في كل مكان أذهب إليه. كان يختار لي البيوت التي أدخلها، ويجلس معي حتى أنتهي من الحديث، ثم يصطحبني إلى بيته لتناول الغداء. ضقت من هذا الإصرار على ملازمتي، لكن مدير المكتب قال لي :

-لا تنزعجي. في وسط الفلاحين والعمال هناك دائماً الحالم بالكتابة والصحافة، وهو يأتي لنا بالأخبار على أمل أن أساعده على الكتابة، ولقد قدم لي مذكرات يكتبها عن حياته وعن القرية.

قلت : لماذا لم تخبرني من قبل. أشعر أنه لا يتركني أدخل بيوتاً معينة ويحرجني أمام الفلاحين كأنه يخشى أن أنفرد بهم.

قال : لم أشأ أن أخبرك حتى لا تصطدمي به. في النهاية أنت محترفة، وهو هاوٍ.

دخلت بيت عم وادي. شعرت أنني في أحد بيوت قرية مصرية فعلاً. لم يكن فلاحاً بالصدفة مثل بعض الفلاحين الذين جاؤوا بغرض الانتفاع من المشروع. وراح عملي ينمو ومعرفتي بالفلاحين تزداد عمقاً. وراحوا يحكون ما كان شاقاً حكايته في بداية تسجيلاتنا، ولم تنته مشاكل عبد البر. كل أسبوع يشكو من مدير المشروع لسبب مختلف، وينتظر منا أن نساعده على انتصار وجهة نظره، أو يتعارك مع زوجته "شربات"، أو أحد الفلاحين. كان "عبد البر" في ذاته قصة غريبة، له عينان ضيقتان تشعان مكراً ودهاءً، وضحكة معلقة فوق وجهه على الدوام، لكنها ضحكة مريبة، وأسنان متكسرة غليظة تطل من بين شفتيه. يمسك بطرف جلبابه كلما هَمَّ بالحديث كأنه يهم بالركض، عنيد ولديه قدرة على الإقناع. سألته ذات يوم عن حكايته. ابتسم وهو يهز رأسه بخيلاء قائلاً :

حكايتي يعرفها الأستاذ "حلمي"، وهذا ما قربني منه ؛ لأنه يقدّرها، ويفهم كل ما مرَّ بي. أنا ابن القرية الفقيرة، الفاشل في الدراسة، الذي أحب فتاة من قريته ؛ أكملت هي تعليمها، وانتقلت إلى حياة أخرى، وتعثر هو في اللحاق بها.

استطرد في أسى وهو يهز رأسه هزات أكثر بطئاً. تنقلت في الكثير من الأعمال ؛ عملت طباخاً وحارساً وفلاحاً، ثم تزوجت من "شربات" وحاولت أن أرفعها معي.

ينخفض رأسه ويقول يائساً : لا تفهميني خطأ. حاولت أن أعلمها القراءة والكتابة بكل الوسائل. أقول لها : ادرسي مع أولادك دروسهم البسيطة، لكنها تقاوم.

أتت "شربات" حين سمعت أنه يذكرها. قالت : يضربني يا أبلة "نورا" بقسوةٍ وعنف. أين أذهب بعد أن تركت الجميع وجئت وراءه؟ يضرب الأطفال ولا يكسوهم. ساعديني الله يكرم أصلك.

نظر "عبد البر" إليها نظرة طويلة، وهو يجلس مربع القدمين ويتحرك صعوداً، وهبوطاً. انتظرها حتى أنهت كلامها كاتماً غيظه، قال : تترك البيت في أي وقت. هل تصدقين يا أبلة، أنها تركت بيتها وابنتي "أمل" ما زالت ترضع من ثدييها ؟ أرضعتها بنفسي من زجاجة، ولم تشعر "شربات" أن عليها واجب مقدس اسمه الأمومة.

استطرد قائلاً: هل تصدقين أنها أبلغت البوليس العراقي أنني أحرضها على الفساد ؟ حجزوني لعدة أيام بسببها ، حتى أثبت عن طريق شهود من جيراني أنني فوق مستوى الشبهات. ولم تستطع هي إثبات ما قالته.

قلت: صلوا على النبي يا جماعة. نحن في زيارتكم. وما فات قد مات. والحمد لله أنتم بخير.

قالت : يضربني حتى أطرش الدم.

قال : أرضي ضعيفة لا يصلها الماء اللازم، ومع ذلك أنتج إنتاجاً كبيراً تتعجب له القرية. وأنا فلاح ممتاز. اليوم في الصباح الباكر، جمعت الخيار والبامية، وفصلت الأنواع الجيدة، حتى تباع بثمن غالٍ. وعندما عدت إلى البيت وجدتها قد أعادت خلطها معاً مرة أخرى، وضيعت عليّ عملي وشقائي طوال الصباح.

تحدثنا معهما عن التعاون لمواجهة الغربة واحتمال مصاعبها واحتياجهما إلى التكاتف حتى ينجحا وتبقى الأسرة قوية. ومضينا إلى طريقنا بعد أن شعرنا أن المياه تعود إلى مجاريها.

عادت "تهاني"، ومعها مدير المطار، ووراءه نادل يحمل في يده دلة قهوة نحاسية كبيرة، وعشرات الفناجين المستديرة المتداخلة معاً في يده الأخرى، وراح يصب لنا قهوة مُرة فواحة بالهيل. صفقن فرحات. وزعت "تهاني" علينا قطعاً من الشيكولاتة والبسكويت وهي تقول: "تصبيرة".

انقلب الملل إلى مرح جماعي. تسلل صوت أم كلثوم إلى أسماعنا بعد وقت طويل قضيناه مع صوت "فيروز"، تمايلت "فريدة صبري" مع اللحن، واستعذبت الكلمات وقالت بصوت عالٍ : يا سلام يا ست.

سهران لوحدي/ أناجي طيفك الساري/ سابح في وجدي/ ودمعي ع الخدود جاري / يا للي رضاك أحلام/ والسهد فيه أوهام/ حتى الجفا محروم منه/

انشغل مدير المطار بالحديث مع "أنجيل رشتي" عن دراسته في مصر. لاحظنا الحركة عند الباب الخارجي، وتوالي دخول المسافرين.

قالت "وداد إسكندر" وهي تشير إلى المسافرين خارج المطار: ما ذنب هؤلاء؟

قال مدير المطار: في الوقت الحالي لا نستطيع أن نفعل لهم أي شيء. هناك خطة لتطوير المطار ما زالت تحت الدراسة.

قالت "تهاني الجمال" : لو بنيتم مجرد خيمة من القماش، أو سقف من ألواح الصفيح يحميهم، لخففتم المعاناة ولو قليلاً حتى يفرجها الله.

قالت "سارة بدر" : يحدث أكثر من هذا في أوقات الحج في ميناء العقبة.

قال مدير المطار: أنا في الخدمة. أي شيء أنا في مكتبي.

قفزت الذكريات تلعب فوق كتفيّ، لا تريد أن تتركني أهنأ بالراحة أو الاندماج مع المجموعة التي أجلس بينها، على الرغم من أننا لا نلتقي كثيراً في القاهرة. كان عبد الحليم يغني:

وشيء في الليل متوهني/ وشيء في عينيك بيندهني/ حرام نسكت على قلوبنا/ حرام الشوق يدوبنا/ بلاش نهرب، بلاش نتعب.

منذ أن عدت من بغداد وأنا مستغرقة في البحث عن سكن في القاهرة، والحمل والولادة، ورعاية طفل صغير. لم أحصل على وقت كاف لإعادة الروابط مع زميلات المهنة والأصدقاء. اختلفت حياتي كثيراً في مصر عما كنت قد اعتدت ممارسته في بغداد. لكنها في النهاية فترة مؤقتة، وستنتهي خاصة في وجود أمي وحماتي. حاولت إقناع نفسي بتجاوز الخوف من المجهول الذاهبة إليه. وصوت عبد الحليم ينادي متوسلاً: تعالي نحب ونسلم بأمر الحب.

هذه الرحلة. لن تعيد مكتب مجلة الزهرة إلى الحياة مرة أخرى. ولن تأتي بأفراده من جهات الأرض المختلفة. هي مرحلة وانتهت بحلوها ومرها. إذا كنت سأعرف أين "أنهار" الآن، فسيكون هذا أجمل خبر، وأستطيع مراسلتها من مصر دون أن تخشى ما تخشاه. في أيام اختفائها الأولى دون أثر، رجحت كفة هروبها من "حلمي أمين". وكنت أعرف أنه وحده الذي يمتلك ترمومتر العلاقة بينهما، ويعرف إن كانت في لحظة هروب

منه أم لا. هو الوحيد الذي يدرك أكانت قصتهما وراء الاختفاء، أم أن للاختفاء أسباباً أخرى؟ لم أستطع أن أسأله على الرغم من أنني تصورت أن نوع العلاقة بيننا يسمح بفتح هذا الموضوع، لكنني قررت أن أترك له فرصة اختيار الوقت المناسب لكي يحدثني بنفسه. وسرعان ماغيرت رأيي، وأنا أسمع صوت خالتي فاطمة الملتاع، وهي تستقبلني باكية، وتسألني :

"هل عرفت أي شيء عن "أنهار" "بتي"؟"

مرت شهور طويلة، وتغيرت في النهر مياه كثيرة قبل أن أستطيع تحويل قصة اختفائها إلى غمزة أشير إليها بصوت متسائل : يا ترى إنت فين يا "مرزوق"؟ ثم بصوت مندهش : تاج الجزيرة. ثم بصوت يائس : السلطانية. يبتسم في هدوء ويعبر الحديث.

هززت كتفيّ، أردت أن أنفض عنها الذكريات. تسلقت رأسي واستولت عليها.

كنت قد لاحظت ازدياد حالة التوتر التي يعيشها "حلمي أمين" تلك الأيام ؛ أجَّل موعد النزول إلى القاهرة حتى تتكشف بعض الأحداث. التقينا في أحد المؤتمرات بـ"سمير لطيف" الذي كان يشغل سابقاً منصباً إعلامياً رفيعاً. كان الرجل متحفظاً مع "حلمي أمين" بشدة. لم أشأ أن أنبه مدير المكتب لهذا، ولم أعترض حين طلب منه أن يوصل خطاباً إلى "تانت فائزة". قائلاً: أرجو أن تتصل بها، وتقول لها إن الشال الذي أرادته سوف يتأخر قليلاً.

قال "سمير": أي شال؟

قال "حلمي" : شال عراقي للشتاء. لأنني لن أستطيع السفر إلى مصر قريباً. وسوف أنتهز فرصة لأرسله لها مع أحد الزملاء.

بعد يومين، فوجئت في بيتي باتصال تليفوني من "تانت فائزة" وهي منزعجة بشدة.

سألتني: ما أخبار "حلمي". ما قصة الشال؟ هل هو مريض؟

قلت: لا. لكن الرجل قال إنه يحمل وزناً زائداً ولن يستطيع أن يحمل لك الشال. وأراد أن يخبرك أنه سيرسله لك في أقرب فرصة.

قالت: لقد أثار فزعي، وفزع البنات بشدة. فوجئت به يتحدث عند منتصف الليل. ثم أغلق السماعة دون أن يقول لي من هو. وشعرت من صوت كلاكسات السيارات حوله أنه يتحدث من الشارع وكأنه خائف. بالله عليك يا "نورا" أخبريني بالحقيقة.

قلت وأنا أحاول أن أهدئها : لا تغضبي يا "تانت" وسوف أجعله يحادثك مساء الغد؛ لأن تليفونات الصباح في غاية الصعوبة وإذا كانت الخطوط مقطوعة سيرسل لك تلغرافاً.

أخبرته بما حدث. غضب بشدة، ووعدني بالاتصال بها مساء.

قلت : تستطيع "أنهار" أن تساعدك إذا لم تجد الخط متاحاً. يمكنها أن تستخدم خط وكالة الأنباء العراقية. ونحن لا نطلب منهم أي شيء في العادة. هذا ظرف استثنائي.

قال : إبعدي "أنهار" عن موضوع "فائزة".

قلت لحلمي أمين ونحن في طريقنا إلى قرية الخالصة ألاحظ أنني أحب البيوت التي أدخلها بالصدفة أكثر، وأجد فيها ما أريد من معلومات وقصص إنسانية. ويأتي "عبد البر" مسرعاً إذا ما عرف أنني دخلت بيتاً آخر غير ما أرشدني إليه، ويجلس مثل القرد أمامي، ولا أستطيع بالطبع أن أبعده، وهو يحاصرني بمسألة الطعام هذه. أرجوك لا تقبل. في الأسبوع الماضي كنت أقبل دعوة كل فلاح دخلت بيته إلى الغداء وأنا في غاية الخجل. وأطلب منهم أن آكل معهم قطعة جبن قديمة، وخبزاً مصرياً حتى أبعد عن "عبد البر".

في مدخل الخالصة وجدنا صبياً يقول: المهندس"مهدي" يريد أن تشربا معه الشاي.

حين أنهينا شرب الشاي، انفجر الفلاحون الذين تجمعوا في مكتبه يتساءلون في صوت واحد :لماذا تعرفون هذا الرجل؟ لماذا تساندونه؟ إنه سيئ، يسرق إنتاج الأرض من جيرانه، ويضرب زوجته، ويحرمها من الطعام. مشاكس من دون داع. وحتى، حتى لا يعرف الفلاحة. قالها واحد، وانفجروا في الضحك.

شرح المهندس "مهدي" الكثير من التفاصيل عن المشاكل التي يخلقها "عبد البر"، وأنهى كلامه قائلاً : أود أن أبعد "عبد البر" عن القرية، حتى يستقيم المشروع.

قال "حلمي أمين" : سأضمنه للمرة الأخيرة، وأعدكم أن تختلف تصرفاته.

ذهب إليه في البيت لوقت قصير وعاد. لم أعرف ما دار بينهما. لكني لاحظت مع مرور الأيام تبدلاً في معاملة "عبد البر" معي، وهدوءاً نسبياً في تصرفاته، وأدركت القرية أن تحولاً ما يحدث في شخصية "عبد البر". بدأ الكتاب يتجمع أمامي، كلما أنهيت تفريغ شريط عدت لكي أجمع غيره. ومدير المكتب يشجعني على الانتهاء منه قبل أن تتغير ظروف المكتب، والبلد التي نعيش بها، والظروف المصرية أيضاً. لم أكن أشعر بهذا القلق ولا أرى سرعة التغيير التي يراها، وأتساءل ما الذي يدفع العراق لغلق المكتب؟ وما الظروف التي تجعل المجلة تغلقه؟ نحن لا نكلف المجلة شيئاً. ربما يقومون بتغيير مدير المكتب. أو إلغاء عملي، ولكن النجاح الذي ننطلق إليه يجعله مستحيلاً الآن. "حلمي أمين" يضخم كل شيء.

أخرجتني أصوات مظاهرات الثامن عشر والتاسع عشر من يناير من أحلامي. جعلت كلمات "حلمي أمين" عن سرعة إنجاز بعض المهام قبل أن تتغير الظروف تبدو منطقية. وأصبحت فكرة تجميد أعمال المكتب أو تغيير إدارته والعاملين به واردة على الرغم من كل النجاح الذي نحققه. ظهرت مجلة الزهرة في عددها الجديد تحمل عنواناً مثيراً:

أيام الحرائق

وعلى غلافها صورة لامرأة عجوز تحمل زجاجة ويسكي. وترتدي الجلباب الشعبي الأسود، وظهرت من خلفها واجهات محلات مكسورة ودخان. المانشيتات في الداخل تقول :

الحكومة تفتح مؤسسات الأحداث وتخرج الأطفال ليحولوا انتفاضة الشعب إلى انتفاضة حرامية. تحقيقات : فهمي كامل، صبري حنفي، محمود عثمان.

حريق آخر للقاهرة/ انتفاضة الشعب الجائع المحروم.

سرقة بيت نائب رئيس الجمهورية في الإسكندرية. وجدوا في البيت ستة عشر تليفزيوناً. استخدم الأمن المركزي الغاز المسيل للدموع وسط الجماهير التي خرجت تطالب بحياة كريمة.

أشعر أنني في زورق صغير وسط أمواج عاتية. اختفى اطمئناني الذي زرعه العمل في مكتب صحفي مصري. بحر بلا نهاية. ومصير مجهول. لم تعد مشاكل

عراقية بل مصرية أيضاً. يلتف حولنا الصحفيون العراقيون يسألوننا عن الأخبار. نجيب عن أسئلتهم، ونتهم الحكومة بالتواطؤ. يبدون إعجابهم بالصحافة المصرية، خاصة الأهالي وروز اليوسف والزهرة.

قال "محمد الجزائري" : نعرف من الصحافة المصرية كل ما هو ضد الحكومة.

قال "حلمي أمين" : في مصر ليبرالية متوطنة منذ زمن. وإذا لم تجد آراء المعارضة طريقها عبر الصحف فستجدها عبر وسائل أخرى. لكن هي عموماً مراحل تضطر فيها الحكومة أن تسمح ببعض حرية التعبير، ثم تعود بهجمة مباغتة على الصحف وتعيد قبضتها الشرسة عليها.

همس "محمود بلحاج" في أذني : كانت صحافتنا أكثر حرية من قبل.

اتهمت الحكومة المصرية اليسار بإثارة الجماهير، وسمعنا عن اعتقالات واسعة بين الصحفيين، واتهامات لليسار بالعمالة، والاشتراك في تنظيمات لقلب نظام الحكم. اجتاحت بغداد موجات من شباب اليسار المصري معظمهم أعضاء في حزب التجمع، ترددوا على مكتبنا، يأتون في الغالب ومعهم توصية من "خالد محيي الدين"، أو من "رفعت السعيد"، أو أحد قدامى اليساريين زملاء "حلمي أمين" لمساعدتهم في الحصول على عمل. تم اعتقال بعضهم من قبل في أحداث الحركة الطلابية ١٩٧٢ أو في أحداث الانتفاضة، ومازال البعض مطارداً من البوليس. يزورون المكتب أحياناً لمرة واحدة، وأحياناً عدة مرات قبل أن أسمع عن استقرارهم في بغداد أو خارجها، ومنهم "بسيوني". لكن فتاة بعينها حيرتني طويلاً وتغيرت نظرتي إليها عدة مرات، قدمها لي "حلمي أمين" ذات صباح في المكتب قائلاً : الطبيبة "راجية".

واستطرد بعد خروجها : هي وزوجها عضوان في حزب شيوعي جديد، قبض على زوجها بالصدفة في أثناء مهاجمة البوليس لشقة للإخوان المسلمين في مصر الجديدة. ظنا أنهما المقصودان. حرقا الأوراق بسرعة، تصاعد الدخان بكثافة لفتت الأنظار. هربها زوجها من باب خلفي، وظلت مختفية إلى أن استطاعت السفر. أحضرها لي بالأمس عضو بالتجمع. أخذتها إلى "محمود راشد" لتبيت ليلتها. نعينها في أحد المستشفيات القريبة إن شاء الله.

قلت : هل وافق "محمود راشد" على استضافتها بهذه البساطة؟

ابتسم، وسأل : ألا يكفي أن أقدمها له؟

قلت : لم تعجبني. هل يوجد ما يثبت صحة كلامها ؟ كيف قبض على زوجها دونها ؟ وكيف خرجت من المطار إذا كان قد صدر أمر اعتقال للمجموعة التي تنتمي إليها ؟ ما هذه النظارة السوداء والجاكيت الجلد الأسود ؟

قال : حيلك.حيلك. أنت ضابط بوليس؟

قلت : لم يكن من حقك أن تذهب بها إلى بيت "محمود راشد" ؛ لأنه رجل في حاله، حتى لو كان يسارياً، ولا تستبعد مراقبة الأمن العراقي لها. فلماذا نورط الرجل؟

قال : استضافة أسبوع. لن تلفت النظر، وسوف أتابع بنفسي حركتها.

قلت : أملك حسّاً خاصاً يكشف لي المخبرين. ربما لأن فترة الجامعة امتلأت بالطلبة الذين استقطبهم أمن الدولة لمراقبة نشاطنا، حتى أنني أستشعر وجودهم وراء ظهري.

قال : يا عيني!

استفزتني في كل مرة دخلت فيها إلى المكتب. سألت نفسي : لماذا أنفر منها هكذا ؟ هل بسبب المناقشات النظرية التي تطرحها وتصر فيها على رأيها دون حساب للمشاعر؟ هل لأنها شخصية مركبة يحيط بها الغموض؟ وكيف لا تكون غامضة وهي تعمل في حزب سري ومرّت بكل هذه التجارب، وهي ما زالت في الخامسة والعشرين أو أقل؟

عينت الدكتورة "راجية" بسرعة في مستشفى عام يقع على أطراف بغداد، وتركت بيت "محمود راشد" إلى سكن قريب من عملها. ترددت علينا و اتصلت بـ"عاطف" و"سوسن"، وتعرفت إلى "عبد الرحيم" و"سهيلة"، وانضمت إلى ثلة الأصدقاء الشباب.

أخبرتني في إحدى زياراتها لنا بقصة خروجها من مصر. راحت تحكي. تآكلت خيوط النفور منها رويداً، واقتربت منها بحذر. قالت : أحببت زميلي في الكلية. لكنه لم يكمل دراسته بسبب هروبه المستمر من البوليس وتعرضه للاعتقال، وتخرجت أنا. تزوجنا وعملت في أحد المستشفيات صباحاً وفي عيادة خاصة مساء، وأنفقت على البيت. عشنا وحدنا أحياناً في شقق مفروشة. وأحياناً مع الرفاق. أجهضت نفسي ليلة

سفري إلى بغداد. وطلقني "هاشم" حتى أكون حرة إذا ما تغيرت ظروفي سواء في بغداد أو بيروت حيث يعمل عدد من اليسار المصري في الصحف اللبنانية، أو مع منظمة التحرير الفلسطينية. ناقشنا أين أذهب؟ واخترت بغداد.

قدمت لي "راجية" أنموذجاً مذهلاً لفتاة تعيش حياة جماعية، تتنقل بين شقق مفروشة وتتزوج طالباً مطارداً من البوليس. سألتها غير مصدقة وجود أمثالها حولي: أين أهلك؟

قالت: أخي معي في التنظيم نفسه، أنت لاتعرفين كم زوجي رائع وثوري ويحب مصر.

كانت "راجية" محددة في عرض حياتها : حزب سري، اعتقال، هرب، إجهاض وطلاق. أصابتني بصدمة. لم أستوعب التجربة تماماً. أثّر فيّ كثيراً موضوع إجهاضها، حتى أنني لم أرفع عيني عن بطنها. ولكن بقي في نفسي بعض التوجس. اختلف كثيراً عن توجسي من المخبرين، لكنه ما زال توجساً. كنت أقيس تصرفاتها بما اعتدت من مقاييس، وليس وفقاً لمقاييس أخرى قد تكون موجودة، لكني لا أعرف عنها شيئاً. لاحظت اختلاف تقييم "حلمي أمين" لها. كان يصدقها دائماً، وكنت أصدقها أحيانا، حتى تقوم بفعل ما يربكني. لاحظنا أنها توطد علاقتها "بأنهار"، ورأيت أن هذا طبيعي لأنها شيوعية مثلها ووحيدة وتأتي إلى المكتب مساء.

سألته ذات يوم : تقول لي دائما أن هناك محاولة اختراق للمكتب من الأمن المصري. لماذا لا تكون "راجية" مرسلة من الأمن المصري لنقل المشهد كله هنا في بغداد، خاصة وأنها استطاعت بسهولة دخول كل البيوت، ومعرفة تفاصيل حياة الجميع؟

قال : لا يوجد ما نخشاه وهي شخص غير خطر. من الطبيعي يا "نورا" ألا ترتاح لك "راجية" وأن تتصرف معك بخشونة، لأنها تنظر إليك باعتبارك ابنة البورجوازية اللاهية عن الحياة العامة، السعيدة بما حققته، أنت وطبقتك من نجاح بوصفك بطلة رياضية، ولن ترى فيك النضال الذي تسعين إليه من أجل العدالة الاجتماعية. ولشباب الشيوعيين في مصر قصة طويلة وصعبة. فهم يتهموننا بحل الحزب لصالح جمال عبد الناصر، ويرفضون تعاوننا معه. يحملوننا مسؤولية ما حدث خلال الأعوام الماضية. هي من عالم آخر، لا يراكِ على حقيقتك؛ لأنه مشغول بمحاسبة الأجيال السابقة. ويريد أن

يجد لنفسه طريقاً، يفصل فيه بين الماضي والحاضر، ولا يفهم ما تفعلينه على مستوى العمل العام. ستعتبرك مجرد بورجوازية.

قلت : عفنة - ضحك طويلاً.

انقطعت صلتي بمعظم أصدقاء بغداد. لم ألقهم في مصر، أو في أي مكان آخر، ولا أعلم أين ذهب معظمهم. أما زالوا موجودين في بغداد، أم رحلوا عنها؟ ربما سؤال صغير في الجهاز المركزي للتقييس والسيطرة النوعية يجعلني أعرف أين "عبد الرحيم منصور"، وباقي أخبار الثلة؟ ما زالت القاهرة مناخاً غير مريح لأمثالهم. أعرف أن بعض الزوجات أخذوا الأطفال إلى مصر. اتصلت بي "سوسن" وأخبرتني بعودة "سامية" وأولادها والتقينا مرة واحدة. غدا أتصل وأعرف، ربما عادوا إلى بغداد بعد أن استقرت الأمور كما فعلت "تيتي". لم يتورط أي منهم في الحرب غير "بسيوني عبد المعين".

تلفتُّ حولي. غرقت بعض الصديقات في الحديث، وانشغلت أخريات في القراءة. ظهر التعب واضحاً على الجميع، وسقطت بعض الرؤوس في نوم متقطع غير مريح، مستندات على حقائبهن، وبدأ الضجر والملل يتسللان ويتحولان إلى سحابة غطت سماء صالة الانتظار في مطار عمان. التى ازدحمت بالراحلين إلى لندن. بنات إنجليزيات وشباب يضع حقائب طويلة فوق ظهره. فلسطينيون تبدو عليهم آثار النعمة. بدو أردنيون. أريد أن أنام. طفلة جميلة شقراء تقفز تاركة يد الأب. تذهب إلى أخيها الجالس إلى جوار أمه، ثم تعود إلى أبيها، فأخيها ثانياً. الولد في عمر "ياسر" وقت أن عاد بصحبتي إلى بغداد بعد انتهاء أزمته الصحية.

أنا جندي عربي بندقيتي في يدي/ أحمي هذا وطني من شرور المعتدي

طي طي طا. من جوه الحيطا.

ننفجر بالضحك. يركض "مادو" و"أماني" ابنا "تيتي" وهما يمسكان معاً بعصي صغيرة.

طي طي طا

مالهم والجنود والوطن. أضفوا على النشيد ما يناسبهم. غيّر "ياسر" حياتي تماماً. يستأذن في الدخول من خلف باب حجرة مكتبي وأنا غارقة في الكتابة.

- ماما أريد أن أقول لك إنني أحبك.

-أدخل.

أفتح ذراعي له وأقبله: ألعب قليلاً مع الغزالة "زوزو" حتى أنتهي، ثم نعلب معاً.

- أريد أن أجلس معك هنا دون كلام.

- خذ هذه الأوراق. ارسم بها.

- ماما..

- ياسرررر..

أشعر بنظراته وهو منكفئ فوق الأوراق أمامي. يحاول أن يتابعني دون أن يرفع رأسه. أبتسم من محاولات تخابثه البريئة. أعود إلى كتابة مقالي ثم أرفع رأسي بعد قليل، فأجده مبتسماً ابتسامة رائعة تملأ وجهه. يفرح بالتقاء عيوننا.

ـ رسمت جندياً وبندقية وكلباً.

ـ ارسم "زوزو" حبيبتك. ارسم السفن أو الغابة.

حين شعرت به جنيناً في بطني أصبحت أسعد امرأة في العالم. تمنيت أن يكون الجنين بنتاً. أختار لها أجمل ملامح العائلتين. أريد عيني أبي، وأنف "حاتم"، وبشرة أمي.

يقول "حاتم" ضاحكاً : ستأتي وفي وجهها حبة بطاطس من سوسو وأذن عماد المعووجة.

أضحك : مصيبة لو أخذت أصغر عينين في العائلة، وأكبر أنف. أسميها "إنجي".

جاءت شهور الوحم عنيفة. غثيان مستمر لا يبقي في معدتي أي طعام لمدة ثلاثة أيام متصلة. بعدها يأتي الفرج مع حبة فاكهة، آكلها وأنام. فقد جسمي وزنه باطراد متصل وتحولت إلى شبح هش يعشق النوم. أغرتني جاراتي العراقيات بكل أنواع الطعام من دون جدوى. قالوا: "لأنك بكرية". اختلفت حالتي تماماً بعد أن انتقلنا للسكن في بيت الدورة. كنا في زيارة لعائلة مهندس زميل "حاتم" دعانا للسكن في الطابق الأعلى لبيته. ووافق "حاتم" بعد نقاش طويل إذ كان يخشى الاختلاط، لكني ألححت لأحصل على الونس.

في اليوم الأول لاحظت "صباح" حالة القيء المستمرة، وعلقت على نحافتي الزائدة. وفوجئت بها في اليوم التالي تطرق بابي من فور تحرك سيارة المصنع بـ"حاتم" و"شكري"، وفي يدها طبق من الفلفل الأخضر الحامي المحمر مغطى بقطع من الطماطم. سألتها : ما هذا ؟

قالت : إفطارنا. خبز ساخن بنار الفرن وإفطار يطعم حوتاً! ابلعي دواء مانعاً للقيء.

دخل وراءها ابنها "وائل"، وابنتها "هناء"، و"فتحية" ابنة أخت زوجها وهي مراهقة في الرابعة عشرة من عمرها. فتحوا الثلاجة، وأخرجوا أنواعاً من الجبن والمخللات وراحوا يغسلون خساً ويضعون البرتقال في السلة أمامنا، وجلسنا نأكل بشهية ونحن نضحك.

انقطع القيء. أكلت شطة كل يوم في الصباح مع "صباح" والأولاد. بعدها نذهب إلى السوق معاً. نشتري طعام اليوم الطازج. ونعود لنجهزه معاً. أخطف وقتاً قصيراً للقراءة قبل أن يعود "حاتم". أحببت "صباح" بطيبتها وجفافها أيضا. لكن عاداتها المختلفة كثيراً عني كانت تصيبني أحياناً بصدمات موجعة. كانت تعمل في مصر قبل أن تأتي إلى بغداد في ديوان محافظة الشرقية في مدينة الزقازيق. تزوجت من "شكري" جارها وأنجبت طفلاً ولم تكن قد عادت إلى عملها بعد حين حصل "شكري" على عقد عمل في بغداد. قرر أن يصحبا معهما ابنة أخته التي كانت ترعى لهما الطفل أملاً في أن تجد "صباح" عملاً لها في بغداد، لكن "صباح" لم تجد وظيفة مناسبة لها، على الرغم من أنها قدمت في جميع المصالح الحكومية، وعلى الرغم من وعد إدارة المصنع الذي يعمل به زوجها بتعيينها القريب. فلما يئسا ؛ قررا إنجاب طفلين آخرين حتى إذا ما عادا إلى مصر تكون فترة حضانة الأطفال قد انتهت. كان كل منهما ابناً لأسرة فقيرة، عَلّمت بعض أولادها ولم تعلم الآخرين.

جاءت الرحلة لتحقق أقصى أحلامهما : النقود. كانا قد أسسا بيتاً واشتريا ثلاجة كليفنتور بالتقسيط، وتفوقا على باقي زملائهما الذين اشتروا إيديال ثماني أقدام. قررا من اللحظة الأولى لوصولهما إلى بغداد أن يدخرا مبلغاً من المال يكفي لشراء أرض تقام عليها ثلاجة خضروات وفاكهة. وتمكنا في السنة الأولى بالفعل من ادخار

نصف المبلغ المطلوب. وحجزا الأرض ودفعا مقدمها على أن يسددا باقي الثمن بقسط شهري. وتحولت الرحلة إلى رحلة ادخار. لا حديث إلا عن النقود، و اختصار تكاليف الحياة اليومية لأقصى حد. لم أدرك أنّي و"حاتم" بتصرفاتنا الطبيعية نثيرهما حتى الجنون. كان "شكري" يدفع النقود إلى البنك من فور استلام راتبه، ويترك ما يقدرانه لمصروفاتهم التي لا يحيدان عنها أبداً. تشتري "صباح" الباذنجان والفلفل للإفطار وبطاطس حين يصل سعرها لأقل من سعر الباذنجان، وتعطي لكل طفل من طفليها بيضة كل يوم باستثناء يوم الجمعة إذ يأكل كل فرد في الأسرة بيضة أيضاً في احتفال مهيب، وأسمع صوت "شكري" يأتي من الحديقة وهو يقول لأسرته بنغمة مرحة : كلوا بيضاً يا أولاد. بروتيناً يا أولاد الرفضي لم تحلموا بهذه الهلمة، لا أنتم ولا أجدادكم.

تطبخ "صباح" كل يوم خميس كيلو من لحم الضآن، تقسمه على يومين، وفي بعض الأحيان تشتري دجاجة في منتصف الأسبوع، وحين اكتشفت معي وجود سمك مجمد رخيص في سوق الآشوريين القريب من البيت أصبحت تبدل يوم الدجاج بالسمك. كان يمكن أن تمر حالة احتفالهم بهذا القدر من الطعام طبيعية، باعتبارهم أسرة فقيرة، تتباهى بالانتقال إلى مستوى مالي أعلى. لكن المشكلة أنهم لم يكتفوا بقصر سلوكهم هذا على أنفسهم. واتجهوا نحوي. وهكذا بدأت القصة بسيطة، ثم راحت تنمو بعنف. نعود معاً من السوق حاملتين سلال المشتريات، يأتي الأطفال ليفتحوا باب الحديقة في صخب. يأخذون من سلتي الفاكهة والجبن والشيكولاتة. أعطيها لهم ضاحكة. ألاحظ نظرات الغضب في عيني الأم. مع الوقت أكتشف أن نظرات الغضب هذه تمنعهم من الاقتراب من سلتها هي. هذه الملاحظة أخذت تنمو كل يوم، مع ازدياد طلبات "صباح" من كل ما رأتني أشتريه في السوق، بدءاً من اللحوم، وحتى الأدوية ومستلزمات العناية الشخصية التي ترسل "فتحية" لاقتراضها ثم لا تعيدها مطلقاً. ثم اكتشفت أنها تحسب دخلنا المتساوي من المصنع واستهلاكنا غير المتكافئ من وجهة نظرها ؛ نحن اثنان وهم خمسة. بدأت التصرفات الصغيرة تضجرني. حكاياتنا عن حياتنا السابقة كشف لها عن نوع آخر من الحياة لم تكن قد سمعت بوجوده من قبل. وعلى الرغم من أنني تقبلت اختلاف حياتها عني تماماً فإنها لم تتقبل هذا الاختلاف، وبدأت ردود أفعالها تتصاعد : كلمات طائشة، وتكذيب لكل معلومة جديدة. أسئلة عن

علاقتي بـ"حاتم". استفزاز حين نجلس متجاورين أمامها. تصعد إلى شقتي في الخامسة صباحاً وتضع يدها فوق شعري المبلل، وتسألني مبتسمة : هل تحممت اليوم؟

أقول : نعم. أنتظر أن توضح لي سبب سؤالها، لكنها تزيد من ابتسامتها، دون كلام.

سألت "حاتم" ذات يوم : لماذا تسألني "صباح" عن الاستحمام؟ أليس من الطبيعي أن يستحم الناس؟

ضحك قائلاً وهو يربت فوق خدي : هذا شغل نسوان. تتلصص على علاقتنا الخاصة.

أكتب لأمي عن التفاصيل التي تسألني عنها "صباح"، وأخجل أن أحكيها لـ"حاتم". أبكي من الإحراج. أتوقع اقتحامها لبيتي من فور خروج "حاتم". تحول الإفطار الشهي الضاحك إلى عبء. تغضب إذا ما أمسكت كتاباً لأقرأه، أو إذا ما انشغلت بأي عمل باستثناء الطبخ. رحت أتعلل بالخروج إلى مشاوير كلفني بها زوجي في قلب بغداد. تسألني بحدة :

أين تذهبين؟ ثلاث. أربع مرات في الأسبوع. أسرار هي؟

أبتسم، ولا أجيب. أصحب كتبي إلى حديقة الزوراء، وأجلس هناك للقراءة، ثم أعود فأجدها غاضبة : لم تطبخي لزوجك المسكين الذي سيعود بعد قليل جوعاناً.

أسأل بهدوء : ما أدراك أنني لم أعد طعاماً؟

ـ أعرف كل ما في ثلاجتك.

ـ سأشوي لحماً.

ـ هذا طعام لا يرم العظم. وزوجك شاب ويحتاج إلى الغذاء. أعطني قطعتين من الكبد لأن "شكري" يشتهيها.

دخل الجنين في شهره السابع. حجزت تذكرة طائرة لألد في مصر. حاولت "صباح" أن تثنيني عن السفر. قالت :

ولدت "هناء" في البيت العام الماضي بمساعدة الحكيمة التي تسكن أمام الجسر، وسألد قبلك مولوداً جديداً هنا أيضاً، ولا داعي لتكاليف السفر. سأخدمك أنا و"فتحية" بعيوننا.

شعرت بصدقها، ورغبتها الحقيقية في بقائي. تستطرد : لا تكلفي زوجك أكثر من طاقته. أنتما أولى بنقود "البعزقة" هذه. ادخروها لمشروع في مصر يدر عليكما دخلاً.

ـ لم أشاهد ولادة في حياتي. ولم أكن قريبة من مولود، وأحتاج لمشورة أمي ومساعدتها.

ـ نحن موجودون.

ناقشت الموضوع مع "حاتم". رفض قائلاً : لماذا هذه المخاطرة، دون مساعدة الأهل. عودي لي سليمة مع الطفل، ولا تحملي هماً. معنا من النقود ما يكفي والحمد لله.

خرجت إلى الأسواق كل يوم. أشتري الهدايا للأسرتين، وللأصدقاء خفيفة على الرغم من الحمل. أرتدي ملابسي العادية. اشتريت فستاناً للحوامل. ارتديته وانتظرت "حاتم".

ـ ما هذا؟

دخلت إلى حضنه : أريد صورة بشوال الحمل. أريد أن أشعر أنني حامل حقيقية.

ـ ما زال أمامك شهران طويلان، سيكبر بطنك فيهما، وتشعرين أنك حامل.

راح يلتقط لي الصور في أركان البيت، ويقول : هنا يا أم"عتريس". هنا يا أم "شربات".

خرجنا إلى الشرفة، وضع الكاميرا فوق طاولة وركض نحوي واحتضنني بقوة. سمعنا صوت "صباح" قبل أن تنغلق العدسة ويظهر الوميض : ما كل هذه الصور؟

كانت تقف في الحديقة تحت الشرفة مباشرة. قال "حاتم": تريد أن ترسل الصور إلى صديقاتها البنات.

ـ هل يفرح أحد بالبعجرة؟

ـ غزال أمامك أهيه !

دخلت صالة السفر في مطار عمان سيدة إفريقية فارعة الطول، ممتلئة القوام، تحمل على ظهرها طفلتها في منديل مبرقش بأزهار فاقعة اللون تربطه فوق بطنها. تدلت ساقا الرضيعة من فتحتيه، واستسلمت للنعاس، على الرغم من الزحام وحركة

المسافرين. كانت قد مرت أكثر من ثلاث ساعات دون أن أنتبه. وجاءت الطفلة بوجهها الآمن، وطزاجة بشرتها السوداء اللامعة لتستفز اشتياقي لـ"هيثم" و"ياسر". كنت أشرب قهوتي باستمتاع سارحة في اللاشيء. انهمر اللبن من ثديي دفعة واحدة. مطر مفاجئ دون سحاب، دون برق ورعد. لم أعمل حساباً لهذه المفاجأة على اعتبار أن وجودي في المطار يتيح لي التردد على الحمام بشكل منتظم دون أية معوقات. وقفت ملسوعة قبل أن أغرق، لكن الوقت كان قد فات. تذكرت أني لم أضع "بلوزة" في حقيبة اليد المصاحبة لي. حمدت الله أني لم أترك حقيبة ملابسي تذهب إلى مخزن المطار. فتحتها، وأنا في غاية الخجل - على الرغم من أن زميلاتي كلهن من النساء، إذ تصادف أن أعضاء الرحلة من الرجال سبقونا إلى بغداد. أخرجت بلوزة نظيفة، و"سوتياناً وكومبنيزون" ووضعتهم في حقيبة يدي.

سألتني أبلة "وداد إسكندر" : هل تحتاجين إلى شيء يا "نورا"؟

استدرت إليها، كان اللبن قد افترش مساحة واسعة من القماش. ضحكت قائلة:

أسرعي بالذهاب إلى الحمام حتى لا تصابي ببرد.

قالت "سارة بدر" : والنبي النساء غلابة، حتى المثقفات!

قالت لي العاملة : سأخرج، وأمنع الدخول حتى تخلعي ملابسك.

قلت : لا داعي لمضايقة الناس. بدأ المطار يمتلئ بالركاب. سأدخل التواليت، وحين أحتاج لغسل جسمي سأنادي عليك لتمنعيهن من الدخول لدقائق.

فتحت أزرار البلوزة، وأنا لا أستطيع السيطرة على الرشاش المنطلق بأقصى سرعة. ضغطت على الكرة المطاطية للشفاط فخرج منها الهواء، وأنا ألصق البوق فوق الحلمة، وانطلق اللبن حتى امتلأ التجويف، وسمعت صوت الانفلات. سكبته، وأعدت ضغطه على صدري، وأنا أشعر بتفكك عضلاتي. فرّت دموع هاربة من ازدحام مشاعر الوحشة، والاشتياق لـ"هيثم"، والخوف عليه. تذكرت كلمات جدتي لا ترضعي وأنت تبكين. الدموع تسمم اللبن. هل حقاً يتغير تركيبه وطعمه مع البكاء، كان "ياسر" حساساً للغاية لمشاعري ينفر من ثديي إذا ما كنت حزينة. وفعل "هيثم" أكثر من هذا ينفجر باكياً إذا ما ألقمته ثديي وأنا غير منتبهة له، يأخذه وهو ينهنه، ثم يتوقف فاتحاً عينيه المغرورقتين بالدموع. يسمعني صوت غضبه، دون أن يفلته من فمه، ثم يعود

لمصه مرة أخرى. وتطول المسافة تدريجياً بين كل توقف حتى يستغرق في الرضاعة تماماً ثم النوم. وتكون رسالة العتاب قد وصلت. لا تأخذيني، وأنت مشغولة عني، وإلا فأنا أيضاً لا أريدك. تركت دموعي ترعى على وجهي، وأنا أسأل نفسي إن كان في الحياة فعل يستحق ترك ابني الرضيع؟ نقلت الشفاط احتياطيا إلى الجهة الأخرى. ناديت على العاملة وقلت لها :

"اعطني خمس دقائق".

سمعت دهسات بعيدة، وصوتها يسمح لي بالخروج، غسلت نصف جسمي الأعلى، ثم ارتديت ملابسي النظيفة، وسألت العاملة إن كان لديها كيسا بلاستيكيا لملابسي المبللة؟ قالت : نعم. لملمت أغراضي وخرجت وأنا أتذكر مطارات وأماكن مررت بها في أنحاء متفرقة من العالم تضم صالة لإرضاع الأطفال وطاولات لوضع سرير الطفل المحمول. قلت لنفسي غرفة إرضاع ؛ والمسافرون يعيشون لأيام في الشارع، حتى يلحقوا بطائراتهم! يا "نورا" أنت غريبة جداً.

جاء أحد موظفي المطار يطلب منا الانتظام في صفوف أمام بوابة الجوازات، وطلب منا دفع رسوم الخروج من الأردن. تصاعد أزيز الرفض من عضوات المؤتمر. كنت أعرف هذه التفاصيل، وأعرف أن لا فائدة من المقاومة. قررت الأردن الحصول على هذه الضرائب. رضخن في النهاية. ثم فوجئنا برجلين يركضان نحونا في بدل رسمية أنيقة وشعر أسود وملامح غليظة. قال أحدهما : العفو. اعذرونا رجاءً نحن من السفارة العراقية. تعرض زملاؤنا المسؤولين عن رحلتكن لحادث سيارة على الطريق، ونقلا إلى المستشفى، ولم نعرف بهذا إلا منذ نصف ساعة فحسب. أعطونا جوازات سفركن.

سمعنا أصوات احتجاج من الركاب الذين وصلوا قبلنا. بعضهم كما فهمنا كان ينتظر على باب المطار منذ ثلاثة أيام. تعالت الأصوات، والطرقات فوق الزجاج، ثم سمعنا هرجاً شديداً، ورأينا ونحن نعبر خرطوم الماء الخاص بالمطافىء ينفتح ويغرق المسافرين الواقفين بالباب. انتابني أسى، وصلني شعور الشباب بالبلل في عز يناير وسط سواد الليل. تدافعت الدموع في عينيّ والثلوج تتساقط، والشباب يتعارك بالأيدي، ويضغط على باب الدخول. غامت الصورة فبدوا لي مثل أشباح تتراقص. تقع. ثم تقف متجمعة في كيان واحد مثل ثعبان عملاق مجزأ إلى مئات الأجزاء،

وتتلوى، لكنها لا تترك مكانها رغم خراطيم الماء والإهانة. يا إلهي. جمعنا الأسى فمضينا إلى الطائرة صامتات.

جلسنا في الطائرة الجامبو. دخل بعض المصريين معظمهم من الشباب المتعلم وبعضهم من الفلاحين الذين حفر الزمن على وجوههم أخاديد عميقة جافة. ومن ورائهم مجموعة من الأكراد في زيهم الشعبي. البنطلون المنفوخ، والحزام القماشي العريض، والصديري. والعمامة الكبيرة. سألتني "نهى" : هل هذا زي عراقي؟

قلت: نعم. كردي.

قالت : هل يعبدون الشيطان حقاً؟

ضحكت، قلت : لا. إنهم يعبدون الله. كان "صلاح الدين الأيوبي" كردياً. هم من أصول هندية أوروبية، وسُنة، على الرغم من أن حدودهم واسعة مع إيران. أما من يوصفون بأنهم من عبدة الشيطان فهم طائفة صغيرة جداً يسمونهم اليزيدية، والامر لا يعدو التباساً وإشاعة نتجت عن بعض اعتقاداتهم، فهم يؤمنون أن الشيطان هو أكثر المخلوقات إيماناً بالله تعالى لأنه رفض السجود لغيره.

قالت مندهشة ببراءة : وهل يستطيع مخلوق أن يعصي الله؟

ضحكت وقلت : طلع عيّل نعمل إيه؟ هو رفض الطاعة. الظريف أنهم لا ينطقون حرف الشين مطلقا حتى لا يستدعونه بأي حال. وهكذا فهم يتجنبونه كما نحن نتجنب أفعال الشيطان.

قالت "كاميليا" : هل استطعت يا "نورا" فهم كل الملل المتنوعة في العراق من أكراد وعرب وشيعة وسنة وعلويين وتركمان وأرمن؟

قالت "نهى": هل حقاً يعتقد الشيعة أن سيدنا محمد أخذ الرسالة من سيدنا علي؟

قلت : العراق والشام شهدا الصراع الدموي في بداية تكوين الدولة الإسلامية. وهذه تقسيمات نتجت عن صراع سياسي أكثر من كونها تقسيمات دينية بالمعنى المتعارف عليه. يعتبر الشيعة أن علياً ونسله من زوجته "فاطمة" بنت النبي هم المرجع الرئيس للمسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وهم الأحق بالأمانة والاتباع دون غيرهم.

قالت "سلمى" : لكن هناك طائفة تؤمن بألوهية سيدنا علي.

قلت : نعم. اسمهم "العللهية" وهم موجودون في العراق وكردستان وقد قاتلهم الإمام "علي" وأمر بحرق جثثهم في كردستان وما زالوا واقعين تحت تأثيرات الفلسفات الهندية والشرقية وهم مجموعات قليلة. وهناك مجموعات غيرهم مثل البرجوان الصاوليا، وقد أخرجوا من المذاهب الإسلامية ؛ لأنهم لا يقرأون القرآن ولم يعودوا يعتبرون مسلمين.

قالت "كاميليا" : أليس من الغريب حقاً أن كل ما يتعلق بالدين في التاريخ البشري، هو الأشد تعصباً وعنفاً وخطراً، وأن الإنسان ينسى إنسانيته، وكل ما اكتسبه في الحياة من منطق إذا ما دعا نفير الدين، مستدعياً من القمقم الداخلي مارداً بلا عقل. الدين أياً ما كان هو الوجع الحقيقي للبشر.

قلت : معك حق. يهذب العلم ردود الأفعال لكنه لا يلغيها. ما زلنا لا نعرف الكثير عن النفس البشرية. ربما لأن الدين يمس مناطق الخوف الموروثة من الإنسان الأول، حين كان وحيداً في البرية فبحث بنفسه عن الإله وعبد كل ما خاف منه. النار والريح والحيوان الكاسر.

هيمن الصمت على الطائرة لبعض الوقت. انشغل بعض الركاب في القراءة وبعضهم في حديث جانبي وبعضهم في النوم. جاء الأكراد يدقون باب ذاكرتي.

أبلغتنا وزارة الإعلام العراقية أن السلام قد عم القرى الكردية. وبهذه المناسبة تدعونا لزيارة قرية حرير وسط الجبال، ومصاحبة قافلة صحية واجتماعية وفنية، تضم مطربين ومطربات وفرقة موسيقية وأخرى مسرحية. كنا نعرف من أصدقائنا أن جيوباً متفرقة للتمرد ما زالت تقاوم. مع إصرار الوزارة وافقنا على الرحلة واصطحبنا معنا "ميرفت ورشا"، بنتا "حلمي أمين" اللتين صادف وجودهما في بغداد في هذا الوقت. رفضت تانت "فائزة" الرحلة خوفاً على "رنا"ولم توجه الدعوة "لأنهار". تحركنا مع القافلة إلى مدينة أربيل، وصلناها ظهراً ووجدنا أصدقاءنا من مديرية الثقافة في انتظارنا. فرحوا بنا بشدة وقالوا لي إن مقالاتي في جريدة "هوكاري" قد صنعت لي شعبية كبيرة بين الأكراد. وقد لاحظت تأثير هذه المقالات كلما قابلت مجموعة من الناس وذكرت اسمي. قالت "ميرفت": أيوه يا عم.

قلت خجلة : لم أتخيل رد الفعل هذا في لغة أخرى. أظن أن السبب هو صغر المجتمع.

فى المساء ركبنا مع حميد مدير الثقافة سيارة جديدة "فور ويل" تصلح للحركة في الطرق الوعرة إلى سهل حرير. تحركنا ضمن قافلة صغيرة تتقدمنا سيارات بوليس تقل ضباطاً مسلحين تسليحاً خاصاً، وتحمينا من الخلف عربات مصفحة.

قلت لـ"حميد" : موقعة حرب أم غناء!

قال "حميد" : نحرص على سلامتكم.

قال "حلمي أمين" : وقوع حادث واحد وسط هذه القافلة كفيل بإثارة فضيحة دولية. والعراقيون مصممون على الوصول بالخدمات إلى الأكراد في كل نقطة من الجبل المنيع.

مشيت هذه الطرق الجبلية من قبل. قطعتها مع "حاتم" في بداية حضوري إلى العراق. وقطعتها في أثناء زياراتي لجمع المعلومات، لكن معظم الطرق كانت تربط المدن الأساسية الكبرى. هذا الطريق مختلف. يدخل إلى عمق القرى البعيدة عن العمران. كنت أفرح بالإعلان عن شق الطرق وسط الجبال الوعرة، وأراه تنمية للمنطقة، ووصولاً للخدمات إلى الإنسان العراقي، خاصة الخدمات الطبية، والمدارس، والمصانع، لكن بعض الأكراد أخبروني أن فتح الطرق هو هدف أمني، وليس هدفاً تنموياً. رأيت في هذا الرأي إجحافاً. للدولة الحق في أن تؤمن نفسها، وتنشر السلام. أعترف أنني لم أؤمن بحق الأكراد في الانفصال قط. لأنني إنسان وحدوي بطبيعته، لكني آمنت بحقهم في الحياة الحرة الكريمة، تحت لواء بلدهم العراق، وحقهم في الكفاح من أجل أن ينالوا عدالة اجتماعية. ويطوروا بلادهم كما يحلمون. فكرتي عن الثورة الكردية أخذت في الوضوح يوما وراء يوم، بعد أن قرأت كثيراً في التاريخ الكردي الذي لم يتمكن قط من إقامة جمهورية واحدة في التاريخ الحديث على الأقل. وكانت مفاجأة ظهور جمهورية وحيدة لهم في المنطقة مثار إثارة وسعادة بالنسبة إليَّ. جمهورية محمود أو "مهاباد" التي عاشت لأيام. يومها ذهبت حاملة المعلومة التاريخية إلى "حلمي أمين" بعد أن سهرت ليلة كاملة أختصرها إلى تواريخ محددة ومنظمة.

قلت : أخيراً. وجدت توأماً لجمهورية زفتى.

قال : أين؟

قلت : هنا في كردستان الجميلة. قرأت : في عشرينيات القرن العشرين، كان زعيم كردستان هو الشيخ "محمود الحفيد" الذى كان يسمى ملك كردستان، وقد حاول انتزاع اعتراف بإقامة مملكة كردية في مؤتمر" سان ريمو" الذي وزعت فيه أملاك الدولة العثمانية إلا أن الانجليز فضلوا عراقاً متحداً في حدوده وتم قمع تمرد الشيخ "محمود الحفيد". وفي ثلاثينيات القرن قاد الشيخ "أحمد البرازاني" الأخ الأكبر للملا "مصطفى البرزاني" نفسه تمرداً كردياً كبيراً على طول كردستان بمباركة السوفيت قمعه ملك العراق بمساعدة الإنجليز في الأربعينيات. وفي عام ١٩٤٨أعلن الملا "مصطفى البرزاني" جمهورية "مهاباد" شمال شرق العراق على الحدود العراقية الإيرانية، فقمعها الشاه والإنجليز معاً. فلما سقطت الجمهورية هرب الملا "مصطفى البرزاني"، ومشى مع عشيرته مسيرة طويلة لآلاف الكيلومترات على الأقدام، وبمساعدة البغال، حتى لجأ إلى الاتحاد السوفييتي، فمنحه الجيش السوفييتي رتبة جنرال، وسموه الجنرال الأحمر، وبقي هناك حتى قيام الانقلاب على الملكية في العراق، فتم الترحيب به باعتباره زعيماً وطنياً، واستمرت الحالة هادئة حتى عام ١٩٦٢ حين عاد التمرد مرة أخرى، وبقي مشتعلاً يطالب الأكراد فيه بالمزيد من حقوهم القومية، حتى انقلاب البعث الثاني في عام ١٩٦٨ . وقد أعلن بيان آذار (مارس) عام ١٩٧٠ الذي أعطى فيه للأكراد حكماً ذاتياً على أن تتم انتخابات حرة فيما بعد. لكن الحكومة العراقية لم تلتزم بما جاء في البيان، وحدث تمرد جديد.

قال "حلمي" : الجزء الأخير لم تجديه في الكتب.

قلت: نعم. هذا رأي الأكراد الذى سجلته لأسباب العودة إلى التمرد.

قلت: استمر التمرد متذبذباً بين الصعود والهبوط ثم عاد يعلو مرة أخرى عام ١٩٧٣ في أثناء مفاوضات الكيلو "١٠١" في مصر. حتى وقع العراق اتفاق الجزائر عام ١٩٧٥، و توقف دعم الشاه له. فطبق قانون "آذار عام ١٩٧٥ الثاني، والحكم الذاتي، وصدرت أحكام عفو عام. وكان من ضمن الاتفاق أن تضم الحكومة خمسة وزراء أكراد، ونائباً للرئيس.

قال "حلمي": برافو نورا. عمل رائع. أعلنت جمهورية زفتى استقلالها عن المملكة

المصرية، ووصفوا الملك والأحزاب بالفساد. لكن أجمل ما فعلوه أنهم بنوا كشكاً للموسيقى وسط الحديقة العامة الوحيدة في الجمهورية.

قلت : قمة الرومانسية. وجدت معلومات عنها في كتاب أيام لها تاريخ لـ"أحمد بهاء الدين".

قال : كل الثورات رومانسية. على الرغم من التضحية والاستشهاد، والكتابة في التاريخ تحتاج أمثالنا من غير المؤرخين ؛ لكي نكتبه بعين أكثر إنسانية وأقل رسمية.

تأملته كثيراً. هذا ما يصدق عليه نعت رومانسي وحالم. الحلم يدفع الإنسان للثورة، وللتغيير، والرومانسية تجعله يواجه بطش الأنظمة بالكلمات والفن، وهو أعزل من السلاح.

قرأت لافتة تقول : إلى "حاج عمران". سألت : أهي قرية أم مدينة؟

قال "حميد" : هي آخر نقطة على الحدود العراقية الإيرانية. آخر قرية صغيرة.

تأملت الجبال الشامخة. كم يشبه الإنسان الكردي هذه الصخور الصلدة. يقولون إن الكردي عنيد. لمَ لا؟ أليس الإنسان ابن بيئته؟ لاحظت قطيعاً من الماعز الأسود، أدهشني صغر حجمه وقصره في أول مرة رأيته فيها. يومها تساءلت وأنا أتابع قطيعاً من البقر : كيف تحمل هذه السيقان القصيرة الرفيعة البقرة السمينة؟ يبدو أنها خاصية الحركة فوق الجبال.

لاحظت الزراعة فوق مدرجات الجبال ؛ أشجار العرموط (الكمثري)، والبرقوق، والجوز. أين يزرعون الحنطة والبرسيم والأرز؟ لابد من حنطة ؛ فكل طعامهم من الفريك.

كشفت لي هيبة القافلة والحراسة العالية أن موضوع الأكراد ما زال أعقد مما أظن. استدار الطريق الضيق حول الجبل، وقدم لي مشهداً من أروع ما رأيت في حياتي. فرّت الجبال وتركت للأرض فرصة للانبساط، ثم وقفت تحرسها عن بعد. وتهب للسماء الحق في إرسال أشعة شمس ذهبية. أخذت. واستمر تدفق سيارات القافلة مع الطريق المنحدر إلى السفح. طلبت من السائق أن نقف قليلاً للتصوير.

قال : الطريق ضيق. إذا وقفنا فسيتوقف "الرتل" كله.

قلت : لن تكون هناك فرصة أخرى للتصوير في أثناء عودتنا إذ سيحل الظلام حالاً.

نظر إلي "حميد" وراح يحدثه بالكردية. قال "حميد" : ما يخالف عيني اتدللي.

انتحى السائق بالسيارة إلى منحنى، والتصق بصخور الجبل، وأوقف السيارة لتمر السيارات الأخرى من جوارنا بصعوبة، وقال : انزلي بسرعة يا أختي. بسرعة.

التقطت صورتين أو ثلاثاً لسهل حرير واندفعت عائدة إلى السيارة. وهي تتحرك حتى لا تعبرنا آخر سيارات القافلة التي تباطأت رغماً عنها. لاحظت اضطراب حميد والسائق، رفعت عينيّ إلى الجبال أبحث عن الأشباح. وحمدت الله على السلامة. وصلنا إلى القرية الصغيرة التي تضم بيوتا محدودة للغاية، لها حدائق واسعة، تزرع زراعة تقليدية ؛ حنطة، وذرة، وفاكهة. وتشتهر بأن طيورها تعطي أطيب اللحوم مذاقاً. دخلنا سرادقا ضخما. صعدت إلى المسرح فنانة كردية دقيقة الجسم، حمراء الشعر، لها شعبية كاسحة. رددوا وراءها كلمات الأغاني. وقفت البنات أمامها يرقصن دبكة جماعية بأزيائهن المذهبة البراقة. وتلاصقت أكتافهن مع أكتاف الشباب. استدعى الغناء كل من كان قد بقي في بيته. فازداد السرادق ازدحاماً. وعلمت من حميد أن أهالي القرى في المنطقة المحيطة جاؤوا منذ الظهر في انتظار القافلة. افترشت العجائز حصراً بعيدة عن مقاعد المتفرجين، وانصهر الجميع في الغناء والرقص. نادى أهل القرية على واحد من أبنائها وأحضروه إلى المسرح بالقوة. أمسك بالميكروفون مع المطربة، وراح يغني معها، واشتعل المكان. إذ دخلت مجموعة من الفرسان، بزيها الشعبي الجميل، فوق خيول أصيلة وسط الراقصين. وبدت الصورة أمامي خارجة من كتاب لم أقرأه من قبل. أروع من أي شريط سينمائي، وأكثر حقيقية من الواقع نفسه. بحثت بعينيّ عن رجال الأمن، وسيارات البوليس التي أوصلتنا إلى سهل حرير، فلم أجدهم. لا أحد يمكن أن يتكهن بأية ترتيبات أمنية عراقية. تنبثق فجأة في نظام. وتختفي بسرعة ظهورها. ودائماً ما يحيطها غموض. الغموض يحيط بالحياة العراقية كلها. ربما لأنها حياة أخرى لا أعرفها. ربما لأنني لم أتعامل مع الدولة في مصر، أو في غيرها. حياة طالبة عربية بعيدة عن الرسميات ماذا ستعرف عن السلطات والنظم؟ لكنْ في العراق شيء مختلف. بالقطع مختلف.

سمعت ضربات الدفوف المتتابعة ودقات سريعة فوق الطبلة الطويلة التي أحبها. وانطلق صوت "أنوار عبد الوهاب" مثل الجرس يذكرني بالأغاني الهندية. غناء عربي.

أثارت النجمة عاصفة من التصفيق. لم أصدق أنهم يتقبلون الأغاني العربية بالروح نفسها. لكنه العراق. رأيت عن بعد شابة جميلة تتجه نحوي، عرفتها من فوري: الشاعرة "ناريمان". كنا قد التقينا في زيارة سابقة لي وأهدتني ديوانها الأول المكتوب بالكردية. فلما سألتها كيف أقرؤه؟

قالت : تعلمي عنوان مقالك كل أسبوع في"هاوكاري".

فتحت غلاف الديوان، وقرأت الإهداء المكتوب باللغة العربية في ركن الصفحة: إلى شاعرة مصرية جميلة رأينا في عينيها الحب فأحببناها جميعاً.

هللت من الفرح، وقبلتها. أخرجت من حقيبة يدها عقداً من القرنفل الجاف موصولاً بحبات المرجان الأحمر وطوقت به عنقي، ففاحت رائحته زاعقة. أمسكت العقد الخشن ضاحكة وقلت : ألا يكفي الديوان؟

قالت : هذا من بيئتنا. تلبسه المرأة الكردية التي أحببتها وتكتبين عنها.

يذكرني القرنفل بطبيب الأسنان ويستخدمه العراقيون في الطعام بكثرة. فرحت به جداً، ورحت أتصور الأنامل وهي تثقب الحبات الرفيعة الخشنة ؛ وتنسقها بالخيوط، في مثلثات مثمنة بديعة مرصعة بالمرجان. قلت ربما يثقبون القرنفل وهو أخضر وطري. دعتني إلى مهرجان للشعر يعتزمون إقامته في أربيل حتى ألتقي بالشعراء الأكراد.

قلت لها : فدوة عيني اتدللي.

كنت أعرف أنها تعمل طبيبة في مستشفى أربيل في الصباح، ثم تتطوع للعمل في ورديات مسائية في القرى المحيطة، ومع هذا تحرص على المشاركة في كل الأنشطة الثقافية. سألتها : كيف أتيت إلى هنا؟

قالت : السيارات على الطريق.

قلت : هل هي آمنة؟

هزت رأسها وقالت : ماذا يفعل المواطن؟ لابد أن يعيش ويتحرك. هذه بلادي.

اندمجنا في الغناء مع مطرب يقلد "ناظم الغزالي". اكتشفت أن معظم الموجودين يتحدثون العربية، وانتقلت إلينا حالة الفرح الجماعية. دعينا إلى العشاء فوق طاولات طويلة في الهواء الطلق، وقدموا لنا أكلتهم الشهيرة من الفريك ولحم الغنم والرشتا وهي نوع من أنواع المعجنات يشبه المعكرونة مع البرغل أيضاً.

قال "جمال": تستمر القافلة الفنية في نشاطها ثلاثة أيام، وفي الصباح تبدأ القافلة الطبية والزراعية في العمل، لكنكم ستعودون مع سيارات الشرطة إلى أربيل لتناموا في الفندق.

مرّ الوقت وسط السمر مع الأصدقاء، ثم تفرقت الجماعات التي أعد لها المبيت في سهل حرير، وبقي معنا الموظفون الرسميون من مديرية الثقافة.

سألت "حلمي أمين": لماذا لا نعود بسيارة "حميد" دون انتظار سيارات البوليس؟

قال ضاحكاً وهو يهمس في أذني: "حميد" بعثي كردي، رأسه مطلوب من المتمردين الأكراد ؛ لأنه يعمل مع السلطة، ويعتبرونه خائناً.

أرسل "حميد" أحد مساعديه إلى قسم الشرطة ليسأل لماذا تأخرت السيارات وعاد الرجل يقول إنهم في الطريق. في الثانية والنصف صباحا دخل أحد الرجال وتحدث إلى "حميد" هامساً ببضع كلمات. قال "حميد" :هيا إلى السيارة. ستتبعنا سيارة الشرطة.

انطلقنا إلى الجبل مسترشدين بضوء السيارة وحده وسط ظلام حالك. أحب مغامرة الحركة وسط الجبل. تبدو كل صخرة إذا ما سلط عليها ضوء الفوانيس مثل حيوان خرافي. ما أجمل هذا الهدوء. نظرت خلفي فلم أجد أثراً لسيارة الشرطة. لم تتبعنا بعد. تسلل إليّ مع الوقت شعور بتوتر مكتوم من "حميد". قلت: هو السهر والتعب، وكل هذه المسؤوليات الصعبة. ثم تذكرت كلمة "حلمي أمين" وتساءلت لماذا يعتبرونه خائناً؟ أليس من حق كل إنسان أن يؤمن بفكرة ويدافع عنها ؟ أرى "حميد" مخلصاً لبلاده، يرى مستقبلها في الاتحاد وليس في الانفصال. العراق بلد له سمات خاصة. ما الذي يربط الكردي التركي بالكردي الروسي بالكردي العراقي؟ الشعوب تتجاور وتتعايش. الناس تتحد. يخترعون أسباباً للاتحاد ، للقوة. وهؤلاء يبحثون عن الانقسام. عدت أنظر خلفي فلم أجد أثراً لأي مخلوق. لم يعجبني الصمت المهيمن على العربة. سألت "حميد" : ألن تلحق بنا سيارة الشرطة؟

قال : بلى.

قالت "رشا" التي استيقظت خائفة : هل يخرج لنا الثوار المسلحون ليقتلونا ؟

قلت : انظري خلف هذه الصخرة. كتيبة مسلحة من الأسود والنمور.

قالت : صحيح؟

ثم أدركت المزحة فانفجرت ضاحكة. وتعالت ضحكاتنا كلما لاحت صخرة عملاقة تخيلتها دبابة، أو مصفحة، وتعالت صرخاتنا : ماسورة المدفع. جندي يتحرك. غبار من أقدامهم. صوت مفرقعات. قلدت "سيد زيان" في مسرحية سيدتي الجميلة : شيلوا البيت. شيلوا البيت.

قالت "ميرفت" وهي تقلد "الخواجة بيجو" : يالهوتي ياخرابي. يا لهوتي يا خرابي.

قلت : ودي كانت نهاية فرقة عكاشة المسرحية. أقصد مجلة الزهرة المسرحية.

نزلت دموعنا ونحن نتبادل الأدوار وننتقل من مشهد مسرحي إلى آخر. شعرت بصدمة "حميد" غير المعتاد على تحويل آلامنا المصرية إلى ضحكات. ورأيت ابتسامة "حلمي أمين" الرصينة وهو يتابعنا من المرآة أمامه، والتي انقلبت إلى قهقهات عالية، واضطر "حميد" إلى المشاركة معنا في لعبتنا بعد أن أرغمته ضحكاتنا على تنحية التجهم. لكن يديه المتشبثتين بالمقود كانتا تكشف لي عن عدم استرخائه، حتى لو وصلت ضحكاتنا إلى جحور الثعالب أو أوكار الذئاب فوق قمة الجبل. ألقى "حلمي أمين" نكتة.

قال : عاد هريدي الى قريته في الصعيد بعد أن حصل على الدكتوراه في المنطق. أقاموا له احتفالاً. سأله ابن عمه حسنين : ماهو المنطق؟ قال هريدي : أنت متزوج؟ قال حسنين: نعم. قال هريدي : من عائلة كبيرة؟ قال:حسنين : نعم. قال هريدي : زوجتك طبعاً سيدة فاضلة؟ قال حسنين : نعم. قال هريدي : وطبعاً عندك كلب ترعاه زوجتك؟ قال حسنين : نعم. قال هريدي : هذا هو المنطق. خرج حسنين والتقى صديقه عوضين في الطريق فسأله : هل فهمت ياحسنين المنطق اللي يحكي عنه هريدي؟ قال حسنين : أنت متزوج؟ قال عوضين : نعم. قال حسنين : عندك كلب؟ قال عوضين : لا. قال حسنين تبقى مرتك شرموطة.

قال "حميد" : مرّ رجل على كاكا جالساً أمام نهر. سأله : هل أستطيع عبور النهر ماشياً لأني لا أعرف السباحة؟ قال الكاكا : نعم. اعبر. نزل الرجل إلى النهر، وبعد خطوات، انزلقت قدمه، وجاهد بصعوبة حتى لا يغرق، وعاد إلى الشط، وسأل الكاكا : ألم أسألك إن كان الماء عميقاً؟ قال الكاكا وهو يكور أصابعه أمامه : بطه هالكدوتها توها عابرة من هنا.

قال "حلمي" : واحد كلما مر على ناصية بيته وجد امرأة سمينة سوداء تدْعي قائلة : يرزقك يابني يا "خيشة" وتبقى رئيس جمهورية. بعد فترة وجدها تقف صامتة تشاهد موكب الرئيس. سألها لماذا لم تعودي تدْعي لابنك. ضحكت قائلة: عقبال أمالتك. ابني قدامك أهه.

قلت : يا ترى أنت فين يا "مرزوق"؟

قالت "رشا" : في سهل حرير.

قالت "ميرڤت" : تاج الجزيرة.

قلت: السلطانية؟!

تعالت ضحكاتنا. وهربت السيارة من أشباح لا نعرفها، ولا نعرف متى تظهر لنا. وصلنا إلى "أربيل"، وانطلقنا في صخب إلى الفندق غير عابئين بالصمت وبالمدينة النائمة. لاحظت أثناء نزولي من العربة مدفعاً رشاشاً تحت المقعد الأمامي. لم أصدق. كنا جالسين فوق وسيلة حمايتنا الوحيد من دون أن ندري، وطبعاً كان من المستحيل استخدامه في حال مهاجمتنا بالفعل. فرصاصة واحدة إلى السائق كانت كفيلة بانقلاب السيارة في وديان الجبال.

نمنا نوماً عميقاً، وأخذنا في الصباح التالي راحة طويلة، حتى جاء "حميد" في المساء ليصحبنا مع "جمال" و"سلافة" إلى قرية "عين كاوة" التي هي ضاحية من ضواحي أربيل ومشينا في شوارعها النظيفة. ثم دخلنا إلى بيت واحد من الموسيقيين لنشرب الشاي. عرفت أنه لا يوجد أمي واحد في القرية. التقطت الصور، وكتبت مقالاً أرسلته إلى مجلة الزهرة بعنوان "باريس صغيرة في شمال العراق". كانت هذه أسعد أيام حياتي. أنا أنمو صحفياً.

لم أنسَ قط هذه الرحلة بتوترها، وها أنا أعود إلى العراق، وهي في حالة حرب حقيقية هذه المرة. حرب بجيوش ودبابات وطائرات وصواريخ تنسف المدن على طول البلاد. فالحدود الإيرانية العراقية تصل إلى ١٢٠٠ كيلو متراً وبين التشابك العرقي مع الأكراد والتشابك الديني مع الشيعة، تقع معضلة التاريخ في هذه المنطقة. ونبقى نحن بإمكاناتنا البسيطة نبحث عن أهلنا ومعارفنا ويتردد في قلوبنا سؤال عن اختفائهم المريب. ترى أين أنت يا "أنهار"؟ يا "بسيوني"؟ يا "طارق"، يا "سهيلة"، يا "فتح الله"؟ يا "راجية"؟

جاءت المضيفة العراقية بطعام وعبد الوهاب يغني :

نحن شعب عربي واحد ضمه في حومة البعث طريق

قالت "نهى": لماذا أنا جائعة بهذا الشكل؟ ألم نأكل في مطار عمان بسكويتاً وشيكولاتة.

قالت "كاميليا" : ماذا أكلت طوال نهارك؟ هذا أكل لا يحسب.

قلت : بون ابيتي. ما هذه الرحلة الفالصو من دون غناء : ولا ياسواق ياشاطر ودينا القناطر. ولا ادحرج واجري يا رمان؟

قالت "منى" الجالسة على مقعد ورائي بصوت سمعته نصف الطائرة : آه يا واد يا ولعة حلف ما أنا نازلة الترعة. طالعه أعجن في العجين.. نازله أعجن في العجين.. حلف عليّ ابن المجانين ما أنا نازلة الترعة.. آه يا واد يا ولعة..

ضج الركاب بالضحك. قالت المضيفة : بالعافية.

عم صمت بعدها لا يسمع فيه إلا أصوات حركة أدوات الطعام.

رفعت رأسي وحركتها يميناً ويساراً بكسل. مرت مضيفة قائلة : شاي. وجاءت زميلتها تقول: قهوة. أخذت منها الشاي وأنا أقول: أريد استكانة صغيرة.

قالت : تدللي عيني "هسه أجيب لك".

تذكرت "السماور" الذي اشتريناه في مكتب الزهرة، ووضعناه في الصالة باعتباره تحفة فنية، ونادراً ما استخدمناه لعمل الشاي إلا في أثناء الحفلات. كنا نعتمد على دفاية "علاء الدين" في الشتاء. نضع عليها براداً كبيراً ليغلي الماء للشاي، وإضافة الرطوبة. مددت قدمي في كسل، وغرقت "نهى" تحكي مع كاميليا.

داعبني النوم. تفكك جسمي. دائماً ما أحتمي بأيامي الأولى في العراق بسنوات النجاح والازدهار قبل أن تستدير الدفة.

كنت لا أستطيع ملاحقة أحداث المهرجانات في بغداد. كلما أنهيت تغطية مؤتمر بدأت في تغطية غيره. قرر"حلمي أمين" توزيع المادة المتجمعة لدينا على الصحف والمجلات العراقية. وقعنا اتفاقاً مع الملحق الثقافي لجريدة الجمهورية، ومجلة ألف باء، ومجلة فنون..

في افتتاح مهرجان السينما الفلسطينية، تجاوز الموضوع السينما العربية إلى احتفال بالفن السياسي والذي يحتفي بنضال الشعوب دعا إليه فنانون من كل أنحاء العالم من بينهم الفنانة العالمية "فنيسيا ردجريف" التي تؤمن بحق الشعب الفلسطيني في العودة إلى وطنه.

ذهبت للقائها في فندق دار السلام. كانت ترتدي فستاناً خفيفاً من الموسلين المشجر، وحذاء ذا كعب بسيط، ولا تضع أي مكياج فوق وجهها. تأملت لون عينيها الباهت جداً بين الأخضر والرصاصي ونظراتها الثابتة شديدة النفاذ والتحديد. جلست تجيب على أسئلتي ببساطة. لم تسألني أي سؤال كما اعتادت الشخصيات الأخرى أن تفعل بعد أن أنهي الحديث الرسمي. شكرتني وقامت إلى موعد آخر. ركضت نحو المكتب أحمل أول حوار عالمي لي في حياتي. أي حياة؟ لقد بدأت للتو.

حين قدمت المقال "لحلمي أمين" كتب المقدمة بنفسه مستبدلاً مقدمتي، قال فيها إن قيمة الفنان ليس في فنه ولا اختياراته الفنية الصحيحة فحسب، ولكن في القضايا التي يؤمن بها، ويحارب من أجلها. أحببت مقدمته أكثر. مرت سنوات طويلة بعد هذا اللقاء. التقيت فيها أدباء وفنانين عالميين ورجال سياسة وفكر، لكنني لم أنسَ قط تلك السيدة الراقية التي تحترم أفكارها وفنها، وتقف مع قضية شعب آخر.

عدنا للانشغال بالكتاب الذي نعده عن الأكراد. انتهينا من جمع المادة الميدانية، واستمعنا إلى آراء ممثلين من كل الأحزاب الكردية في الحكم الذاتي المطبق حالياً، وما يطمحون في الوصول إليه. وجمعنا المادة التاريخية وحددنا المعلومات التي سنأخذها، وقررنا أن نراجع ما وصلنا إليه بعد ترتيبه. أشارت معلوماتنا إلى استحالة استمرار التجربة في وضعها الحالي. طلب "حلمي أمين" تحديد موعد مع المسؤول الإعلامي عن مشروع الكتب مع المكتب. وذهب إلى هذا اللقاء وحيداً دوني. ثم عاد وقال: أخفوا عني أن مصطفى طيبة أعد كتاباً عن المشكلة الكردية والحكم الذاتي وأن الوزارة رفضت الكتاب. أحزنني هذا بشدة. وصلت إلى ذات النتائج التي وصل إليها مصطفى. أنا متأكد من هذا حتى دون أن أعود إليه وأسأله. ناقشتهم في كثير من المعلومات التي سيتضمنها الكتاب ويحللها، ويعرض رأيي فيها. انزعجوا بشدة وحاولوا أن يقنعوني بإغفال معلومات بعينها، لكني رفضت، وقررت أن ألغيه. وسنبدأ بكتابك عن الفلاحين ليكون باكورة تعاون مكتب الزهرة مع وزارة الإعلام العراقية.

قلت والدموع تملأ عيني : ضاع كل هذا الجهد؟

بلع ريقه، وأشعل سيجارة ثم قال : لم يضع. لا يوجد في الثقافة ولا في السياسة جهد ضائع. لقد تعلمنا من المادة التي جمعناها، وتعرفنا على ظروف المنطقة الكردية أكثر، وعلى الحكومة العراقية وتجربتها من الداخل وهي تواجه المشكلة الكردية، وكسبنا اتصالنا وصداقتنا مع الأكراد أيضاً. وهي معلومات وتجارب لم نكن لنصل إليها دون إعدادنا لهذا الكتاب. أليس كذلك؟

ثقلت جفوني. تحولت الطائرة إلى سفينة فضاء. تقلب الركاب في الفراغ وأنا جالسة في مقعدي. أرى أعضائي تنفصل عني ؛ ساعدي عند السقف، وساقي عند الباب. رأسي يلف، ويأتيني مقلوباً. تركز عيناي النظر في وجهي، وأنا مندهشة، لا أجد أصابعي لكي أغلق عيني. يبتسم رأسي لي. يتبدد القلق. أسأله عن "أنهار خيون". تأتي خالة "فاطمة" أمها مرتدية فستاناً أزرق في لون السماء والبحر، ترقص مثل راقصة باليه محترفة فوق بلم وسط المسافة بين السقف والأرض. يأتي "حلمي أمين" ليراقصها. أسأله : من قال أن لا أرض للغد؟ يظهر "حاتم" ويحملني من فوق كرسي الطائرة ويلف بي. يغير الموسيقى إلى التانجو. يأكل قلبي الشبق. تنفلت عيون كثيرة تهرب وسط الممر. عيون. عيون. أبحث عن "ياسر". يقول "حاتم" هو في الغابة مع غزالته "زوزو". تقف "رجاء" و"إلهام" و"ساجدة" باكيات، وتهرب "أمل الشرقي". وتختفي "سهيلة باذرجان" على حصان يصعد الجبل ثم يطير، يفتح أبو "لؤي" رئيس "أنهار" فمه مقهقهاً بصوتٍ عالٍ. يمد يده لي. أجفل. يربت جاري أبو "سميرة" على يدي ويعطيني أبو "دلف" سيارة ذاهبة إلى القاهرة. تلف "راجية" شاشاً كثيراً حول رأسها. يمسك "هيثم" ببندقية آلية، ويقف فوق سطح بيتنا في حي الشرطة مع "جاسر" ابن الجيران و"صبيحة" ويطلقون النار ابتهاجاً بفوز فريق كرة القدم العراقي بكأس شباب آسيا. تغني أم "علي" زوجة "البياتي" :

خلي السلاح صاحي/ لو نامت الدنيا صاحي مع سلاحي/

يهديني "سعدي يوسف" زهرة من شقائق النعمان الحمراء ويقول مع السلامة. يأخذها مني المخرج "جواد الأسدي" ويقول لي : الفيل يا ملك الزمان. يدخل "بسيوني

عبد المعين" وهو في الخامسة مرتدياً شورتا قصيرا وفي يده سلة لعب ولوح اردواز وإصبع طباشير يقدمه لي ويقول : أنا كبرت. يأخذ محمد عبد الوهاب الميكروفون ويغني :

نحن شعب عربي واحد ضمه في حومة البعث طريق

الهدى والحق من أعلم به وإباء الروح والعهد الوثيق

أشم رائحة تخمر تمور وهيل وبرغل يغلي على النار في قزانات كبيرة خارج البيوت في "عين كاوة". تظهر امرأة ملتاعة واقفة فوق رف الراديو الخشبي في بيتنا في حي الزمالك بالقاهرة وتسأل : يا ترى أنت فين يا مرزوق؟ أقول : في بار "الفارابي". تبدأ العاصفة من "كابينة" الكابتن، تزيح أمامها كل من في الطائرة. تقوم من فوق المقاعد أجولة حمراء مربوطة تتحرك نحو الممرات بصعوبة. ينفلت رأسي من طرف الجوال. ينظر نحوي مذعوراً. مكان العينين تجويف أسود يعشش فيه نحل يطن، يجاهد جوال آخر لكي يقف على قدميه، ويزيح الغطاء. يفتح فمه ليخرج النحل. تنفلت كل الرؤوس وتتحول إلى أفواه مظلمة وعيون مظلمة تحتلان الأجولة الطائرة ويغطي النحل السماء. قال رأسي المقلوب أمام وجهي : "نورا" أنت تحلمين. قلت : أعرف. قالت: إيشلونش؟ أفيقي. نحن نهبط. نهبط. نهبط. قلت: زينه. زينه. هه.

قالت "كاميليا" : حمداً لله على السلامة. خطفت تعسيلة.

أعلنت المضيفة العراقية عن وصولنا إلى بغداد سالمين. منتصف الليل في العاصمة. درجة الحرارة أربع درجات مئوية. مطر غزير في الخارج. طالبتنا بالسكون وعدم الحركة. نظرت من النافذة إظلام تام. تذكرت قاهرة ١٩٦٧، وزجاج النوافذ المغطى باللون الأزرق. حطت الطائرة فوق أرض المطار بالاستعانة بإشارات خافتة من الضوء. توقفت عجلاتها، وصمتت تماماً. ما زالت المضيفة تشير إلينا بالثبات. سرى بيننا شعور بالترقب والحذر. أدركنا أننا في حالة حرب بالفعل. لسبب ما توقف الركاب عن الكلام. استعدت في ذهني صورة المطار التى أعرفها ؛ أزيز متصل. حركة دخول وخروج واسعة، وجوه متفائلة. شعرت بالتعب. ألقيت برأسي إلى الوراء واستسلمت.

ثلاث طرقات غيرها

❖ نوفمبر١٩٧٦

انفجار

وقع اليوم انفجار في مطار بغداد أسفر عن وقوع خسائر كبيرة في مبنى الركاب، وأدى تهشم زجاج المبنى إلى حدوث إصابات كثيرة بين المسافرين وعائلاتهم. من بين المصابين عدد من المصريين يزيد عن مائتي مصاب إذ تصادف وصول الطائرة المصرية القادمة من القاهرة وقت انفجار القنبلة. نقل المصابون إلى مستشفى المطار. بلغ عدد الوفيات سبعين شخصاً وما زال عشرة مصابين في حالة خطرة.

تسمرت واقفة أمام شاشة التليفزيون حتى انتهاء الخبر. كانت الساعة تشير إلى التاسعة ليلاً، و"حاتم" يستعد للذهاب إلى النوم، ونكاد ننهي يومنا.

قال : ماذا ستفعلين؟

قلت : سأنزل من فوري بالطبع.

قال : سآتي معك.

قلت : لا طبعاً. عندك مصنع في الغد. ولا أعرف إن كنت سأستمر في العمل طوال الليل أو لا. سأتصل أولاً بوكالة الأنباء العراقية حتى أعرف مكان المستشفى الذي نقل إليه المصابون ثم أترك خبراً "لحلمي أمين".

قال : "نورا". سأذهب معك إلى المستشفى ومن هناك تتضح الصورة، وسأتركك بعد ذلك.

قلت: ميخالف على رأي العراقيين.

دخلنا إلى قسم الطوارئ. وجدنا عشرات الجرحى المصابين بحروق شديدة. الأسرّة في أقسام الجراحة والباطنة ممتلئة عن آخرها. باقي المصابين ينتشرون في الردهات فوق كراس. لم يسمح للزوار بالدخول بسبب الازدحام بالمرضى. جلست وسط المصابين أسألهم عما حدث. قالوا قصة واحدة، فبعد وصول الطائرة المصرية بدقائق، وفي أثناء

انتظارهم لوصول حقائبهم انفجرت قنبلة في مكان الحقائب. مات من فورهم كل من كان قريباً منها، خاصة العمال. ونظراً إلى أن تصميم المطار الجديد على الطراز المعاصر مغطى بألواح زجاجية ومواسير معدنية، فقد أدى ضغط الانفجار إلى تناثر شظايا الزجاج وهبوطها على الناس في الصالة، وخارجها لعشرات الأمتار؛ وهو ما أدى إلى إصابة العديدين.

سألت أحد المسؤولين في إدارة المستشفى عن عدد المصابين، فالناس تبالغ بشدة. قال : قابلي مدير المستشفى. لم يكن مدير المستشفى موجوداً حسب كلام الموظفين، وهو كلام غير منطقي في حالة طوارئ مثل هذه. وخشي أي موظف من إمدادي بالبيانات. مصادفة وجدت أمامي الصحفي "عماد البزاز" وسألته. قال : الخبر نشرته الوكالة، وهذا هو ما ستحصلين عليه يا "نورا". لا تحاولي.

قلت : من حقي أن أحقق في البيانات، لا أن اكتفي بأخذها من الوكالة الوطنية.

قال: أنت عنيدة. مدير المستشفى لن يقول لك شيئاً على مسؤوليته، إلا إذا حصل على موافقة من الأمن.

بحثت مرة أخرى عن مدير المستشفى حتى وجدته على مكتبه الذي ذهبت إليه عدة مرات من قبل، وسألته. نظر إلى الأوراق أمامه وقال : أستطيع أن أعطيك بياناً بأسماء المصريين الذين راحوا ضحية الحادث. أرقام المصابين العراقيين هي كما أذيعت بالضبط.

دخلت إلى الناس أسألهم إن كانوا في حاجة إلى أي شيء. أعطاني بعضهم أرقام تليفونات لأبلغ ذويهم عن مكانهم. قابلت بالصدفة جارنا د."مايكل" وتانت "فيوليت" وعرفت أن معظم المسيحيين المصريين في العراق كانوا موجودين بربطة المعلم في المطار في انتظار قس مصري كانوا قد طلبوا من الكنيسة المصرية أن ترسله إليهم بسبب صعوبة الصلاة وراء القساوسة العراقيين. وجدت القس مصاباً في وجهه بحروق فظيعة، كأنه سلخ تماما. ويرقد في سريره محاطاً بالجميع، لكنه كان متماسكاً رابط الجأش. قلت له : حمداً لله على سلامتك يا أبونا. بغداد نورت.

قال: لتكن مشيئة الرب.

وقف "د. مايكل" يقدمني وزوجي له. قلت:هل هناك خدمة أستطيع أن أؤديها ؟

قال الأب "هيدرا" : شكراً يابنتي. الأطباء حولنا. والشافي هو الرب.
قالت "تانت فيوليت" : أتذهبين إلى المكتب الآن؟
قلت : نعم. يجب أن أرسل الأخبار إلى مصر من فوري.
قالت موجهة الحديث إلى "حاتم" : "حاتم" يتركك هكذا. أنت فدائي والله.
قال "حاتم" : الناس في مصر قلقة جداً الآن. ونشر أسماء الضحايا والمصابين سيخفف من توتر الناس. وهذا هو عملها ورسالتها.

انصرفنا بسرعة. عاد "حاتم" إلى البيت، وذهبت أنا إلى المكتب في صحبة "د.مايكل" وزوجته. وجدت "حلمي أمين" ينتظرني. سألته: هل أبلغ وكالة الأنباء المصرية بالأخبار الصحيحة التي وصلت إليها، أم أرسل الخبر إلى مجلة الزهرة وأحتفظ بالسبق الصحفي؟

قال : الإنسانية أهم من السبق الصحفي يا نورا. لقد اتصلت بالسفير منذ قليل وأخبرته أنك ستحصلين على المعلومات، وقد أرسل مندوباً من السفارة هو في طريقه إلى المستشفى الآن. تعالي نملي الخبر على السفارة والوكالة المصرية. ثم نرسل تقريرنا المفصل إلى المجلة على التيكرز، وبعدها أوصلك إلى البيت.

في الصباح وجدته جالسا مع الدكتور "مايكل" وعائلته وبعض الشباب بجوار سرير الأنبا "هيدرا أبادير" وهو يقسم بينهم فطيرة خبز مستديرة. جلست على كرسي أمامه، راح يعطي كلاً منهم قطعة حتى تبقى القلب من الرغيف فقدمه لي مبتسما وقال أبونا مهللاً : تفضلي يا ابنتي أنت تستحقين القلب. عرفنا أنك أرسلت إلى مصر أسماء الناس وطمأنتيهم علينا.

أخذته من يده، ثم أعدته إليه وقلت : أشكرك جداً لكنني صائمة اليوم.
قال : خذيه حتى موعد الإفطار.
قلت : أين سأضعه؟ خذي يا "أماني".

فوجئت بـ"تانت فيوليت" تقفز واقفة أمام ابنتها ذات الأعوام التسعة قائلة : أخذت القلب يا أماني. أخذت القلب.

ابتسمت الطفلة ووضعت قطعة الخبز في فمها، وحركت قدمها في سعادة كأنها تستحلب قطعة من الشيكولاتة. لم أفهم ما يحدث أمامي قال "د. مايكل": فزت به يا"أماني". فزت به.

سألت نفسي : ما الذي تخليت عنه بالضبط؟ نظرت إلى أبينا الذي ازداد احمرار وجهه، على الرغم من الدهانات التي تلمع فوقه وقلت: أنا شاكرة لك جداً.

- أنت بنت مصرية طيبة.

- متى ستخرج إن شاء الله؟

- كما يقرر الأطباء. أنا أريد الخروج بسرعة لمقابلة الرعية.

قلت : هل كنتم تعانون من صعوبة في الصلاة؟

قال أحدهم : وجود كاهن مصري مسألة مهمة. وهي تحدث للمرة الأولى. صحيح أفسد الحادث فرحتنا، لكن الواقع يقول إن أبانا معنا الآن هنا في بغداد يرعى أبناء كنيسته، وسيتعرف على مشاكلهم ويساعدهم.

قلت : كلدان، وسوريان، وآشوريون. أظن أنها طوائف مختلفة قليلاً.

قال أبونا : كلنا في رعاية الرب، حين علم قداسة البابا برغبة الرعية في بغداد في حضور كاهن ليقوم برعايتهم، رحب بشدة، ولاقى مطلبه قبولاً عند العراقيين.

لم يعجبني ما حدث، وأدركت أن المظاهرة التي قوبل بها في المطار ستلفت نظر الأمن، ولن يمر الأمر بخير. فالحال المصرية المسيحية غير الحال العراقية المسيحية كما فهمت من حواراتهم التي تدور أحياناً في مناخ غامض، إذا ما ذكرت العلاقة بين المسيحيين والمسلمين في مصر. وكنت أتعجب من هذا قليلاً ؛ لأني لم أشعر طوال حياتي بأن هناك تفرقة في مصر بسبب الدين، حتى كنا نجلس ذات ليلة في ضيافة الدكتور مايكل مع مجموعة من الأصدقاء، معظمهم مسيحيون من أساتذة الجامعة. كانت الدعوة بسبب وصول تانت فائزة ولسبب ما ذكرت واقعة اضطهاد مسيحية في بغداد.

قلت: الحمد لله لا يوجد عندنا اضطهاد إسلامي للمسيحيين في مصر. وكما أسمع من العراقيين أن أمر الدين لا يهمهم مطلقاً، ربما المشكلة بين الشيعة والسنة أكبر من مشكلة المسلمين والمسيحيين.

ردت "أماني" بحدة : وقتل المسيحيين في عصر الشهداء أليس هذا قتلاً من المسلمين؟

انفجرنا في الضحك، فلما انتهينا فوجئنا بوجوم عام. كانت النكتة التي قالتها الطفلة تنسب ما فعله الرومان بالمصريين المسيحيين قبل ظهور الإسلام بقرون إلى

المسلمين، لكنها كشفت عن مدى ما تمتصه البنت من معلومات خاطئة تدعم الشعور بالاضطهاد الإسلامي للمسيحيين حتى قبل ظهور الإسلام.

قال "حلمي أمين" ضاحكاً : ما هذا يا دكتور؟ صحح لابنتك التاريخ.

قال "د. مايكل" : نعم هي طفلة، واختلط الأمر عليها.

خرجت من المستشفى بصحبة "حلمي أمين". أدليت له بشكوكي فيما يخص التجمع المسيحي المصري على هذا النحو، وموقف الأمن العراقي منه.

ما دام هو في حدود الاحتفال الديني الطبيعي بكاهن مصري يأتي إلى بغداد في مهمة دينية سيكون مقبولاً، لكن هذا ليس معناه أن الأمن لن يهتم به. هذه دولة أمنية وحساسة للغاية. المهم أن يتصرفوا بحذر، وألا يدخلوا أنفسهم في مشاكل.

سألت : أي نوع من المشاكل؟

أجاب : إذا اقتصرت حركتهم عليهم ؛ فستمر الأمور. أما إذا تحركوا خطوة واحدة نحو المسيحيين العراقيين فلن يتركهم الأمن يبتعدون سنتيمتراً واحداً.

قلت : حتى ولا في مجالات دينية؟

قال : يحتاجون إلى المشي فوق قشر البيض. التوازن والحكمة.

قلت : ما هذه الخيوط العنكبوتية السرية التي تسري في المجتمعات؟

قال: في كل المجتمعات شبكات مختلفة من الخيوط السرية، والدين إحداها. تعلمي أن تلاحظي وأن تحللي ما ترينه حتى تكون توقعاتك الصحفية صحيحة.

سألته : أشعر أحيانا بأنهم يتكتمون شيئاً.

قال : هذه طبيعة الأقليات. يحتاجون إلى الالتفاف حول بعضهم البعض لاكتساب قوة الجماعة.

قلت : لكنهم في مصر بالملايين. كيف يكونون أقلية؟

قال : أقلية نسبة إلى عدد السكان الكلي.

التقيت أبانا "هيدرا" عدة مرات بعد ذلك في بيت "د. مايكل" أو في مكتبنا أحياناً. كنا نسلمه التبرعات من الملابس التي لا نحتاج إليها لكي يوزعها على الفقراء في الكنيسة، وكان يتقبلها سعيداً، ويخبرنا في حال احتياج أحد رعيته لأموال أو لحل مشكلته مع أجهزة الدولة العراقية. كان رجلاً حكيماً مثقفاً ووديعاً. أدرك إنسانية

"حلمي أمين" الملحد، واحترم هذا بشدة وكان يدعو له باستمرار. وأدرك فهمي لتساوي الأديان. أعجبتني مرونته. هكذا أتصور رجل الدين.

أعلن العراق أن الذي قام بعملية تفجير مطار بغداد هو "محمد حسن شلتاغ" سوري الأصل. وأن شلتاغ قد وضع عبوة ناسفة في حقيبة سفر. ظهر الرجل على شاشة التليفزيون العراقي في حالة فزع وتشوش، واعترف بكل تفاصيل العملية، وقال إنه مدفوع من النظام السوري وأنهم دبروا للقيام بالعملية في موسم الحج حتى يضمنوا وقوع أكبر قدر من الخسائر في الأرواح واستمر التليفزيون والإذاعة يذيعان هذا الاعتراف، ويقطعان الأفلام والبرامج المختلفة لكي يعيدوا إذاعته.

❖ أبريل ١٩٧٧

زيارة

وردت إلينا أنباء عن حملة اعتقالات واسعة لليسار في مصر. خشي "حلمي أمين" أن يمنع من السفر، وهو عائد من القاهرة، أو يتم القبض عليه إذا ما نزل بالمواد الصحفية كالمعتاد. تلبدت سماء المكتب بالغيوم. افتقد مناخ التفاؤل الذي كان يسوده. كنت أعاني من بعد "ياسر" عني، أحاول أن أخفي ألمي حتى لا يشعر "حاتم" أنه أرغمني على تركه، أو أذكر "حلمي أمين" بعجزه عن النزول إلى القاهرة. سيطرت روح قلقة على ذهني منذ صحوت من نومي. فضلت عدم الكلام. سألني "حاتم" : ماذا بك؟ قلت : لا شيء. ومضيت إلى عملي، أتنقل من خطوة إلى خطوة صامتة، على الرغم من مرور شهور على عودتي من مصر ما زلت لا أستطيع التأقلم على هذا البعد عن ابني. فوجئت بـ"حلمي أمين" يقف أمامي ودموعي تغرق وجهي وأنا أمسك بصورة "ياسر". قال :

ـ سافري.

ـ لم تمر أشهر على عودتي من القاهرة. ولا أستطيع أن أطالب "حاتم" بدفع تكاليف السفر بهذه السرعة.

ـ سافري في مهمة للمكتب. كنت أسافر بالموضوعات، والإعلانات لعرضها على إدارة المجلة. سوف يدفع لك المكتب ثمن التذكرة لتقومي بمهمتي.

توقف عن الكلام، وعيناي معلقتان بالجملة القادمة، قال : اسألي "محمود الموافي" عن ظروف اعتقالات الصحفيين أو اليسار. على الأقل نفهم مدى صدق المعلومات التي تصل إلينا.

قلت ملهوفة : هل هذا كلام حقيقي. هل توافق بالفعل على نزولي إلى القاهرة؟

قال: طبعاً، وهل قلت لك كلاماً غير حقيقي من قبل؟

قلت : يا أحلى "حلمي أمين". متى أسافر؟

قال : غداً. إذا أردت.

وصلت إلى البيت في حالة أخرى. أقفز من الفرح وأغني : سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة/ لسه الحب صافي ولسه الجو دافي ولسه فيه قمر/وبعد المغارب نتلملم في قارب ويطول السهر والسمر والغنا كلنا.

أخبرت "حاتم"، قال: رزقك في رجليك. ستعودين إلى "ياسر" ويبقى "حاتم" المسكين هنا وحده.

قلت : لن أتأخر. أسبوع واحد لا غير. سأحجز في الغد على أول طائرة.

سافرت إلى "ياسر" في مغاغة فور وصولي إلى القاهرة. في الطريق هاجمتني الهواجس : ماذا لو لم يعرفني. لقد تركته منذ أشهر رضيعاً. وتعوّد على جدته وعماته. لن أحتمل هذا. رأيت أمامي طفلاً صغير الجسم، أسمر باسماً. تأملني بعينين فيهما شقاوة وأنا أحتضن جدته. ملهوفة أردت أن أضمه بعنف، خفت أن أزعجه. قبلته. ضحك. حملته. نظر نحوي بعينين متسائلتين لا خوف فيهما. جلست، وأنا مازلت أحمله، وأخرجت من حقيبتي لعبة على شكل سفينة فضاء. وضعتها أمامه على الأرض وحركتها. أضأت سقفها، وعرضت صوراً لأقمار ونجوم وهي تصدر أصوات طقطقة. تركته ينزل من فوق رجلي، ويتوقف أمامها حتى صمتت عن الحركة تماماً. أعاد تشغيلها، وهو يبعد السجادة من طريقها. أدرك أنها قد تدور، بصورة أسرع على البلاط. نادى على عمته لكي تشاهد لعبته الجديدة.

أخرجت سيارة مطافئ من الحقيبة، ووضعتها أمام سفينة الفضاء. فتحت السلم المتحرك، وأنزلت خراطيم الماء، وطلبت من عمته أن تملأ الصندوق بالماء.

وقف حائراً يسألني: آختها.

قلت : نعم.

قال: آني. أنا خت واهدة.

سألته عمته : ما اسمك؟ ماذا يعمل بابا؟

قال: ياسل هاتم. وبابا هندسي كانيكي.

قالت : ماذا تعمل ماما؟

قال: صفيهة. ها ها ها..

خفض رأسه، وهو يلعب بخرطوم ماء المطافئ. وينظر إليَّ بخبث.

قالت عمته : أين هما؟

قال: في بداد.

حملته وعدت به إلى القاهرة. اصطحبنا معنا خادمته الصغيرة "نادية" التي اعتاد اللعب معها في بيت جده. لم يعترض. ركب معي السيارة، وهو يحكي لي عن أصحابه ونام في حضني طوال الطريق. حين وصلنا إلى القاهرة ركض نحو جدته، ودخل بين ذراعيها المفتوحتين له. ولعب في البيت الذي بدا لي أنه يعرفه جيداً. أخبرتني أمي أنها تعود به إلى القاهرة كل فترة لتعرضه على الطبيب. تناول طعامه وهو يلعب حتى جاء الليل. انتبه فجأة وراح يبحث عن عمته. قلت له إنها ستأتي بعد يومين. عاد إلى اللعب، ثم نظر نحوي وفي عينيه سؤال لا ينطق به، وصاح بصوت خافت سدد طلقة مباشرة إلى معدتي :

ناتتية.. ناتتـ.... يااااا

حملته. راح يقلب عينيه بيننا وينتقل من ذراعي إلى ذراعها. ثم إلى ذراعي ويقول ماما. ثم يقول ناتية. انهمرت الدموع من عينيه تغرق وجهه، حتى نام.

ذهبت في الصباح إلى المؤسسة، وسلمت مواد المكتب الصحفية إلى "صبري حنفي". وحكيت له عن شكوك "حلمي أمين". قال: ما هذه الأفكار الغريبة؟ دائماً يستخدم "حلمي أمين" منهج الشك.

قابلني "فهمي كامل"، وأنا أتجه إلى السلم. مددت يدي لأسلم عليه. مد يده ببرود ملحوظ. قال "صبري حنفي" : هذه نورا. ألا تعرفها؟

قال : نعم.

عدت إلى بيتي واتصلت بـ"محمود الموافي". وطلبت مقابلته لأنني لم أجده في المؤسسة صباحاً. دعاني إلى بيته، اتصلت بـ"تانت فائزة" وأخبرتها أنني أحمل لهم هدايا من الأستاذ "حلمي أمين"، وحكيت لها شكوك "حلمي أمين". وزيارتي لمحمود الموافي". أخبرتني أنها ستذهب معي. وجدتها أمام باب العمارة تنزل من التاكسي. لاحظت جمالها الراقي الخادع. إذ بدت لي في نهاية الثلاثينيات، وليس في منتصف

الأربعينيات. شديدة المصرية بعيونها العسلية الواسعة، وشعرها الكستنائي الذي ينسدل بنعومة فوق كتفيها. أنيقة في بساطة تختلف كثيراً عن مظهره. أناقة من تعوَّد على اتباع الموضة منذ زمن طويل. قارنت بين ملابسهما. لماذا لم ينعكس ذوقها الرفيع هذا عليه؟

أدخلتنا خادمة صغيرة إلى غرفة الصالون. وجاء "محمود الموافي" بطوله الفارع وبشاشته، سلم على "تانت فائزة" بحرارة المعرفة الطويلة، ثم قال لم نكن نتوقع كل هذا النجاح بهذه السرعة : يبدو أنكم انتشرتم بشدة في الصحف العراقية، ولهذا نبحث في إمكانات تطوير مكاتبنا في الخارج. ونفكر في فتح مكاتب غيرها.

واستطرد : أنا قلت لـ"حلمي أمين" حين سألني عنك : أن كل من عملت معهم يشجعون انضمامك إلى قوة المكتب، وأنك صحفية شاطرة.

قلت : ربَّى الأستاذ "حلمي أمين" أجيالاً من قبل، ويرعاني بشدة، ويعمل ليلاً ونهاراً. أتركه بعد الظهر، وفي الصباح أجده أنهى أعمالاً أخرى. أي أن المكتب مفتوح أربعاً وعشرين ساعة، كأنه وكالة أنباء وليس مكتباً صحفياً.

"حلمي" وأنا أعرفه يريد أن يحول المكتب إلى مكتب مركزي لشؤون الشرق الأوسط، ومعه حق. المنطقة تحتاج وتستوعب عملاً صحفياً من هذا النوع. قال: التجربة العراقية تستأهل المتابعة، وما تقومون به في غاية الأهمية بالفعل.

سألته سؤالاً مباشراً، هل يستطيع "حلمي أمين" أن ينزل إلى القاهرة دون أن يتعرض للاعتقال أو المنع من السفر؟

دهش وقال : ولماذا يعتقل؟

قلت : في بغداد إشاعة عن التحقيق مع الشيوعيين في قضايا وهمية.

دخلت زوجته "بثينة عامر" تحمل أكواباً من العصير، وقبل أن تقدمها إلينا. نادت ابنها فجأة بغضب وسألته : ما هذه الحقيبة؟

قال الصبي : حقيبة ابن الجيران.

قالت : اذهب بها إليهم.

انتبهت إلى حقيبة سمسونيت من الجلد الأسود، ولم أفهم سؤال "بثينة".

استطردت: آسفة. يسكن أمامنا ضابط أمن دولة، وأنا دائمة الخوف من أشيائهم.

قال "محمود": طمئني "حلمي" أنه لا توجد أي مشاكل تمنع زيارته للقاهرة.

قالت "تانت فائزة": نزوله لنا أسهل كثيراً من سفرنا له. التذاكر مكلفة والبنات في المدارس، والرحلة شاقة. على الأقل حين يأتي إلى القاهرة "يتهوى"، ويفرفش بعيد عن مناخ بغداد، ويرتاح. كما أن تذكرته الصحفية نصف تذكرة.

قال : ينزل القاهرة حتى نراه.

شكرته وخرجنا إلى الشارع، وحين ركبنا التاكسي، قالت لي "تانت": أنا غير مرتاحة للحقيبة تلك.

قلت : أية حقيبة؟

قالت: حقيبة الجيران.

- معقول "محمود الموافي". هذا واحد من أهم الصحفيين الوطنيين.

- قد يكون أرغم. قولي لـ"حلمي" انتظر قليلاً. وأخبريه بكل ما جرى. هو سيفهم. عليه أن يبحث عن المعلومات بطريقة أخرى.

تداخلت خطوط كثيرة في رأسي. قلت : أنا لا أفهم شيئا. ما الذي فعله "حلمي أمين" ضد الحكومة المصرية، وهو يعمل في الخارج لكي يعتقل؟

قالت : حين تبدأ الحملة، لا يحسبون إن كان في مصر أو في الهند يأخذون كشف الأسماء دون تفرقة، ويسمونها حملات وقائية، وأحياناً يلفقون تهماً بالانتساب إلى تنظيمات لقلب نظام الحكم. عموماً السادات لم يفتح باب الاعتقالات.

قلت : يا ساتر يارب.

قالت : انتبهي لنفسك يا "نورا". كوني في عملك الصحفي فحسب.

قلت : أنا أدافع عن رأيي بكل الطرق، والعمل الصحفي يعطيني هذه الفرصة.

قالت : لم يستقر في حياته مطلقاً. عاش مهدداً مع كل سلطة. وجاءت بغداد كفرصة للراحة يحصل فيها على هدوء بال، مع زيادة قليلة في المال تساعد في زواج "ميرفت".

نزلت من التاكسي في ميدان التحرير لكي أشتري بعض احتياجات السفر من وسط البلد، وتركت "تانت فائزة" تمضي إلى بيتها بعد أن وعدتني بالزيارة، هي والبنات. قلت لنفسي وأنا أعبر الطريق أمام مقهى "إيزافيتش" مكان لقاء المثقفين :

تعلمت "تانت فائزة" الحذر من الأستاذ "حلمي". هما مجنونان قليلاً. أليس كذلك؟ ما كل هذا الخوف؟ ما هذا العالم الغريب الذي وقعت فيه؟ "لكن اللي يتلسع من الشوربة ينفخ في الزبادي". ما زال شبح السجن ماثلاً أمامها. تربية أطفال من دون عائل تجربة لا يمكن نسيانها.

تنقلت بين المؤسسة والبيت. حاولت أن أقضي معظم الوقت مع ابني، وأنا ألعن الدنيا والظروف التي جعلتني أتركه. أخذته إلى الطبيب. كان يعاني من حساسية شديدة في الجلد. غيَّر له الدواء لكنه رفض عودته معي إلى بغداد.

خرجت أبكي. حجزت تذكرة العودة، وأنا أسأل نفسي عن الخسائر التي نخسرها. أنا وهو بسبب عملي في بغداد، وعدم قدرتي على اصطحابه أو البقاء معه. أعدته ليلة سفري إلى جدته في مغاغة. قلت له : أنا وبابا "حاتم" نحبك جدا.

قال : عالف.

هربت إلى الطريق. وقضيت ليلة لم يغمض لي فيها جفن، وأمي تحاول أن تسألني ساخرة عن أخبار "صباح" جارتي في السكن في الدورة وتقول : أخيراً وجدت من يعلمك الحذر.

عدت إلى بغداد. إلى المدينة التي أحبها وعرفتها ربما أكثر من القاهرة التي ولدت فيها. في قلبي جرح أعرف أن العمل وحده هو الذي سيشغل عقلي عن التفكير في بعدي عن ابني "ياسر". وجدت "حاتم" يخبئ لي هدية صغيرة رقيقة في أماكن متفرقة؛ في فازات الورد، مع فرشاة الأسنان، في علبة السكر. في الصباح حملت الطعام الذي أرسلته معي "تانت فائزة" والبنات وذهبت به إلى المكتب. وجدته قد نشط بشدة في غيابي. أقام "حلمي أمين" معرضاً لثلاثة من المصورين العراقيين، في قرية الخالصة، بالاشتراك مع مجلة صوت الفلاح. أصبحت لدينا في بغداد أرض مصرية ندعو إليها العراقيين.

تعجب "حلمي أمين" من رأي "صبري حنفي". قال: "صبري" مخطئ في تقديراته دائماً. ماذا فعلت مع رئيس المؤسسة؟

قلت: طلبت من سكرتيرته تحديد موعد للقائي به. وبعد أسبوع طلبت مني أن اتصل به في البيت لأنه مريض، فلما شرحت له ظروف تعييني في المؤسسة، والتي لم

تتم رسمياً حتى الآن قال: سافري، وسوف يعرض الموضوع على مجلس التحرير في الأسبوع القادم.

قال "حلمي أمين": ولماذا لم تنتظري إلى الأسبوع القادم؟

قلت : انتهت إجازتي، ولم أشأ أن أبدو أمامك غير مسؤولة. وجودي أو عدم وجودي لن يغير من قراراتهم شيئاً. كما أن مادة كتاب الخالصة على وشك الانتهاء، وأريد أن أذهب إلى القرية غداً حتى أقابل أعضاء الفريق السينمائي.

سأل : ما آخر أخبار القاهرة؟

وضعت شريطا لـ"أحمد عدوية" في جهاز التسجيل:

السح الدح امبو \ادي الواد لابوه \الواد لسه في اللفة \وعامل له زيطه وزفه \ وده خلى العقل في كفه اكمنه شبه ابوه \السح الدح امبو..

❖ ديسمبر ١٩٧٧

الأستاذ جمال

جلست أكتب موضوعي بعد أن خرج الأستاذ "حلمي مع أنهار"، وأنهى "أبو غائب" تنظيف المكان. سمعت صوت جرس الباب. لم أتوقع رجوعهما بهذه السرعة. وجدت شاباً مصرياً طويلاً بشكل لافت للنظر. قال :

ـ هل الأستاذ "جمال" موجود؟

خيل إلي أنني رأيته من قبل، لكنني لم أعرف أين. قلت: "جمال" من؟ لا يوجد عندنا أحد بهذا الاسم.

قال: "حلمي". "حلمي أمين".

قلت: لا. هو غيرموجود. من هو "جمال" الذي كنت تسأل عنه؟

قال : لا أحد. متى يعود؟

قلت : بعد الظهر. بعد الخامسة. من حضرتك؟

قال : أنا "فوزي المليجي". هو يعرفني.

قلت : هل تترك له رقم تليفون؟

قال : لا. سوف أمر به.

حين عاد "حلمي أمين" أخبرته بزيارة "فوزي المليجي" وسألته من هو "جمال" هذا؟

صمت قليلاً، وراح يشعل سيجارة، وقال: هذا اسمي الحركي في حدتو قبل يوليو ١٩٥٢ . صفيه لي بالتفصيل. قلت : شعره أسود، وبشرته بيضاء، ووجهه غير مريح، مع طول فارع.

علا صوته فجأة، وتدفقت كلماته بسرعة : لا أعرف أحدا بهذه الأوصاف هل أدخلته المكتب؟ قلت لك من قبل : ممنوع أن يدخل أي شخص المكتب في أثناء غيابي. أين كان الفراش؟ هل رآه؟

قلت : أخبرتك أنني لم أدخله. أبو "غائب" كان يأتي بطلبات السكان. وكنت وحيدة، وهو شخص غير مريح، ولا أفهم سر غضبك ؛ على الرغم من أنني لم أفعل ما يغضبك.

عدت إلى مكتبي، وفتحت الأوراق، وجلست أكتب تحقيقي الصحفي دون كلام. وجلست "أنهار" صامتة ممتقعة الوجه، وهي تتشاغل بقراءة مجلة.

خرج "حلمي أمين" من الغرفة، وسمعت صوت كركبة في المطبخ، وعاد بعد قليل وفي يده كوب من القهوة. لاحظت تغير نبرة صوته. قال بهدوء: آسف يا "نورا". تعرفين أن "السادات" قد قرر الإجهاز علينا. نحن في كل مكان معرضون للاغتيال.

قلت : لا أعرف. لا أفهم السبب الذي يجعل "السادات" يغتال اليسار المصري. يسجنه، نعم. لكن يغتاله لماذا ؟ أيمثل اليسار كل هذه الخطورة على الحكومة المصرية حتى يرسل مندوباً ليغتال صحفياً أو حتى صحفياً شيوعياً يعيش في بلد آخر. أم أن هناك شيئاً لا أعرفه يجعل هذا التصرف طبيعياً؟

قال : أنت تعرفين عني كل شيء. هؤلاء الحكام مجانين بالسلطة، ولا يفهمون معنى المعارضة الوطنية. وبلغ بهم الغرور والخيلاء حدّ أنهم لا يقبلون أن يكون هناك معارض واحد لما يقومون به، والرجل كما ترين أصيب بلوثة.

قلت : "عيدي أمين"؟ هو ليس "عيدي أمين". ومصر غير أوغندا. حتى الآن هو يطبق القانون. لا يوجد في مصر معتقلون سياسيون ولا معتقلات، بل متهمون في قضايا سياسية. هو مجرد حاكم ضعيف لا يستطيع أن ينافس "عبد الناصر" في كاريزمته. أو حب الناس له، ولا يستطيع أن يملأ الفراغ بعده. كان لابد أن يأخذ طريقاً مختلفاً، وربما عكس الطريق لكي يلفت النظر. لأنه لا يستطيع أن يلعب الدور نفسه. حسبها بطريقته. الحصان الصاعد الآن هو أمريكا، فلماذا لا يتحالف معها، وينفذ لها مخططاتها في المنطقة؟ أما القتل فلا أظن. لأنه يستطيع أن يغير المنطقة بطريقته التحتية الخبيثة دون أن يظهر أمام العالم باعتباره قاتل المعارضة بل رجل السلام.

قال : خبرتك بهذا العالم السري والعلاقات مع السلطات الدكتاتورية في العالم الثالث ضعيفة جداً. أتمنى أن أكون مخطئاً، وأن تكوني على حق.

قلت: يا ليتك ترتاح قليلاً وغداً نتحدث في هذا الموضوع.

قالت "أنهار" فجأة : أنا لا أثق في الحكام. في كل الحكام العرب. إنهم

يستطيعون تصفية أي واحد بقلب ميت. يسحلونه إذا أرادوا. أو يذيبونه في الحامض فلا يظهر له أثر.

قلت : مصر غير العراق.

قال "حلمي" : صحيح أن مصر غير العراق، لكن الزمن اختلف أيضا والصراع أصبح حتمياً.

قلت : لا ضرورة لهذا معك. لأنك لا تمثل خطراً كبيراً حقيقياً. ولن أعيد هذا الكلام مرة أخرى حتى تهدأ الأمور ونبحثها معاً.

قالت "أنهار" : إذا توقف المكتب عن العمل كما تخبرنا من حين إلى حين، وأصبحت منفياً ومطارداً هنا في بغداد فهل ستفكر في الرحيل إلى أوروبا ؟ وأيهما أكثر أماناً لك؟

قال "حلمي" : إذا كانت الظروف هنا جيدة، فسوف أفتتح وكالة صحفية وأحصل على إجازة من دون مرتب من الجريدة. ونستطيع في هذه الحالة التوسع؛ لأننا وكالة خاصة، والعراق يرحب بمثل هذا. وهنا سيكون الموقف أكثر ضماناً؛ لأن المكان قريب من بيروت ومن اليمن ومن الوطن. وحياتي فيه ليست غربة حقيقية.

استطرد: لا أخفي عليكما. أنا لا أستطيع احتمال الاغتراب في بلاد تتحدث بلغة أخرى وعادات وتقاليد مختلفة. ستكون أوروبا بالنسبة إليَّ سجناً آخر.

قلت : وإذا تأكدت أن المكان ليس بآمن؟

قال : أنا ونصيبي. قد أذهب إلى اليمن، وليس إلى أوروبا. لأن السادات إذا فكر في اغتيال المعارضين له، فلن يفرق المكان كثيراً. سيطولنا.

قالت "أنهار" بدلال: أفضل الذهاب إلى باريس. مناخ حر.

قلت: باريس أم البرازيل؟

قالت: البرازيل مسألة عمل. لديّ صديق يعمل في وكالة أنباء هناك، ويتيح لي دائماً فرصة اللحاق بالعمل. وهي أيضا بعيدة عن الدنيا العربية كلها. لكن باريس قبلة المثقفين.

توقفت "أنهار" عن الكلام فجأة. ونظرت إلى "حلمي أمين" نظرة طويلة فيها الكثير من التساؤلات والرجاء. شعرت بأنني موجودة في المكان الخطأ. قلت : جاء وقت الرحيل. أراكما غداً.

قالا : مع السلامة.

متن ثالث

ثلاث طرقات على باب الذاكرة أعادت الحياة إلى أيام كانت تتلكأ، وهي تستدير ميممة شطر الاختفاء الأبدي. شددت طرف خيط الزمن الذي اعتاد أن يدجن الجبال والبشر. انهمرت الأيام، وسقطت في قلبي.

حاولت أن أوقف تدفقها، وأنتبه إلى ما يحدث حولي، ولكني لم أستطع. في داخلي دبيب يسعى لاستعادتها، ويستشعر لذة الألم التي تستوعب اللحظة، وأنا أحمل حقيبتي في طريقي إلى بغداد، ولا أصدق أني بالفعل رتبت ترك ابني ذي الأشهر الستة عند حماتي في مغاغة التي تبعد عن القاهرة ساعتين ونصف الساعة؛ آملة أن أعرف سر اختفاء "أنهار خيون" صديقتي العراقية، وزميلتي في مكتب الزهرة المصرية في بغداد، وأن أزور بيتي في حي الدورة الذي أصابته الطائرات الإيرانية، وأطمئن على جيراني، وألتقي "بسيوني عبد المعين" الذي التحق بالجيش العراقي، وأعطيه خطاباً من أهله يحثه على العودة. وأن أزور مكتب مجلة الزهرة لكي أكمل تصفية أعماله، والبحث عن مقالات "حلمي أمين". كل هذا في إطار قبولي دعوة للاشتراك ببحث في مؤتمر عن ثقافة النساء بعد محو أميتهن.

سألت نفسي وأنا أضع قدمي فوق أرض المطار: كنت تريدين إحضار "هيثم" إلى بلد في حالة حرب ؛ لمجرد أن ترضعيه لبناً طبيعياً.

استقبلنا موظفو المراسم، وهم يعتذرون بشدة عما حدث في عمان. تبادلنا النظرات مندهشات لسرعة وصول الأخبار. طلبوا منا الصعود إلى صف السيارات المنتظر في الخارج. قالوا :" تجدون حقائبكن في الفندق. العاصمة هادئة. لا أحد يعرف متى تبدأ الصواريخ بقصف المدينة. المناوشات على طول الحدود. وكلما انفجر بناء أعدنا تشييده بسرعة. مبنى واحد تركناه مدمرا كما هو في وسط المدينة في شارع الرشيد كشاهد

على ما تفعله بنا إيران. ستشاهدونه في الغد". هكذا وصف لنا المرافق في السيارة الحالة باختصار. سارت القافلة دون بهجة بسرعة وسيولة في الطرق التي يضربها المطر. أعرف صمت الموظف الرسمي العراقي. يظهر للضيف احتراماً شديداً، ويضع مسافة عازلة، وسوراً لا يمكن اختراقه. لا يبادر أبداً بخطوة ودودة. يسأل في أدب شديد عن الصحة والعمل ثم يصمت. تعلمت أن أفهم معنى نظرة السائق في المرآة، وهو يتأمل الضيوف دون أن يلاحظوا، نظرة فاحصة شاملة بحياد. تسري التعليمات عادة من موظف إلى آخر بإشارة صغيرة، والكل في غاية التهذيب والجمود. هذه بغداد التي عشت فيها أجمل سنوات العمر. جسور لم أركبها من قبل وبوابات شاهقة الارتفاع لحي جديد في قلب المدينة القديمة. كنت قد شاهدت حصاره بأسوار الصفيح ونسفه بالكامل، ثم إعادة إعماره وتركت بغداد دون أن يكتمل. بغداد جديدة تنبثق، تحل فيها العمارات محل البيوت الصغيرة في حي الصالحية العريق. صورة ضخمة للرئيس "صدام حسين" بحجم بناء من خمسة طوابق. لم أسمع عن صورة بهذا الحجم إلا لـ"ماوتسي تونج". انعطفت السيارات ناحية اليمين من ميدان "جمال عبد الناصر"، عبرت دجلة، ومبنى اتحاد الإذاعة والتليفزيون، وانطلقت بموازاة شارع أبي نواس. تذكرت السمك المسكوف المشوي على صهد نار الحطب، ومطاعم النهر الشهيرة، وليالي الصيف، وفندق بغداد. الفندق الراقي الوحيد في العاصمة حتى غادرتها عام ١٩٨٠ . ظهر فندق المنصور شامخاً عن بعد. انعطفت السيارات فجأة إلى بناء لم أدخله من قبل: فندق الرشيد. فخامة رخامية بيضاء، محسوبة. أبواب حرارية. قال المرافق وهو يفتح باب السيارة : أكثر فنادق العالم تقدماً تكنولوجياً. "اتوماتيكي" بالكامل. مفخرة بغداد.

وصل إلينا ضوء خافت من المدخل، وساد الحديقة ظلام دامس. تسربنا إلى الفندق في صمت، استقبال سريع لتوزيع الغرف ووجدنا أنفسنا في كافيتريا تعمل أربعاً وعشرين ساعة نتناول العشاء.

انتبهت إلى دقات الساعة الثانية صباحاً وأنا أفتح باب غرفتي. قفزت إلى الحمام وفتحت قميصي، وقبل أن أخرج الشفاط من الحقيبة، كان اللبن قد انفرط من صدري، وغرقت في بحر من السائل الدافئ. تركته يمضي إلى حال سبيله ويبلل ملابسي، وأنا في غير عجلة لخلعها. فتحت الدش ونزلت إلى البانيو ورحتُ أرقب قطرات الحليب

وهي تذوب بين الماء فَتُغير لونه وتنتهي إلى البالوعة. توقف التدفق العنيف. أمسكت بالشفاط وكبسته على الثدي بقوة فأمسك به. شعرت باسترخاء العروق وخفوت النبض السريع تدريجياً حتى اختفت السخونة. تعجبت من الألم الذي تسببه أصابعي وهي تضغط على جسمي. تذكرت فم "هيثم" الذي أشعر به في البداية، ثم أنساه حين تهدأ السحبات وتنتظم. لم أفكر قط في أن ثديي وعاء. على الرغم من معرفتي بطبيعة جسم المرأة وتكوينه فإن الصورة الذهنية تختلف عما نشعر به. لم أشعر أن طفلي يرضع اللبن من وعاء خارج جسمي، بل من جسمي كله. كأن اللبن يأتي من عروقي الداخلية كلها من ينبوع منتشر في الخلايا يستجيب لما يحتاجه ابني. لكني ها أنا هنا أنتبه إلى الوعاء.

* * *

قررت أن أبدأ يومي في الصباح الباكر بشفط اللبن وتجميعه في كوب حتى أعرف الكمية التي يجب أن أحافظ عليها كل يوم. أيقظني صوت بكاء "هيثم" في موعد رضعته الأولى. وخزني صدري وهو يتفتح عن حركة ناعمة، لكنه لم يكن قد وصل إلى حد الأزمة بعد. مجرد نغبشة خفيفة تسمح لي بالحركة داخل الحجرة، وتفريغ حقيبة ملابسي التي اكتفيت في الليل بإخراج بدلتي منها حتى يعود قماشها الصوف إلى طبيعته قبل افتتاح المؤتمر. توصلت إلى قناة الموسيقي، وتركتها تنساب. أصبحت الحجرة لي: أوراقي، وكتبي فوق المكتب. عطوري وأدوات ماكياجي فوق التسريحة. كوب فارغ فوق الكومدينو. فرشاة الأسنان وكريمات الجسم، الفوطة والخف في الحمام. خلقت عالمي، وسرعان ما سأتكيف معه، على الرغم من أنني أصحو في الفنادق عادة مع كل همسة خلف باب حجرتي، وكل حركة بين ردهات الطابق.

سألت نفسي وأنا ذاهبة إلى الإفطار: لماذا لم أخشَ سقوط قنبلة، ولم أفزع من كوني في مدينة تحت القصف؟ ألأنني كنت أعرف بغداد الآمنة طويلاً؟ استدعيتها إلى عقلي باعتباري واحدة من أبنائها يجري عليّ ما يجري عليهم، أم لأنني أعرف، أن رحى الحرب الحقيقية ليست في العاصمة. اندمجت بسرعة مع الأحداث. أريد أن أضع برنامجي الموازي لنشاط المؤتمر على أقصى تقدير في المساء. سألتقي من فوري بصديقاتي في الاتحاد ومجلة المرأة، وأيضاً ببعض السياسيين والصحفيين، وعليّ أن

أدبر مواعيد أخرى للقاء الأدباء، وزيارة المكتب، والخالصة والأصدقاء. متى؟ اقترب مني أحد عمال الفندق. قال: صباح الخير يا أستاذة، أنا "سعيد الشيخ" من الشرقية. أعمل في هذا الفندق مُذ افتتاحه. حضرتك صحفية من مصر؟

قلت : نعم. أي خدمة؟

قال : نحن في خدمتك أنا أو أي من العاملين المصريين هنا. إذا أردت تغيير الدولارات فأنا تحت أمرك. الدولار في السوق السوداء سعره أعلى كثيراً من البنك. أنا طالب من حضرتك خدمة.أريد أن توصلي مبلغاً إلى أهلي في الشرقية. سأعطيك رقم تليفون عائلتي في الزقازيق وسيأتي أخي لكي يستلم منك المبلغ، وكتر خيرك. عندي أولاد في المدارس وأنت تعلمين الباقي.

قلت : لكنك يا "سعيد" لا تعرف عني أي شيء.

قال : العفو. الجنيه المصري هنا سعره غالٍ ؛ لأن ضباط الجمارك لا يسألوننا عند السفر عن الجنيه المصري. ويمنعون خروج الدولارات والدينارات. لهذا نبيعها بأي ثمن. لماذا تغربنا إذا لم نكن نستطيع إرسال المال لأهلنا؟

قلت:من حقهم أن يحافظوا على اقتصادهم، ومن حقكم أن ترسلوا مدخراتكم إلى بلدكم. لكن أنتم تعلمون القانون هنا قبل أن تأتوا. جهز المبلغ الذي تريد إرساله.

تذكرت حواراً صحفياً لي مع وزير العمل العراقي في نهاية عام ١٩٧٦ أي منذ نحو ست سنوات تقريباً. وكانت بغداد تفتح أبوابها للعمال المصريين من دون تأشيرة دخول، وتدفق عليها ملايين الشباب حتى قدر قبل نهاية الثمانينيات بخمسة ملايين مصري. سألت الوزير: لماذا لا يسمح للعمال المصريين بتحويل نقودهم إلا بنسبة ضئيلة لا تتناسب مع ما يحصلون عليه من أجر؟ (٢٥٪ من المرتب للمتعاقدين في داخل العراق، و٥٠٪ للمتعاقدين من خارجها).

قال: يأتون بعائلاتهم إلى هنا. وينفقون باقي مدخراتهم في شراء الأرض أو الاستثمار في التجارة أو العقارات مثلهم مثل أي عراقي.

قلت : لا يستطيع كل مغترب أن يحضر أسرته. وحتى إذا كان هذا ممكناً، فإنه لن يستطيع أن ينقل كل من هو مسؤول عنهم، وهذا ما يخلق سوقاً سوداء للدينار العراقي والدولار. والتهريب يتم بسبب الاحتياج، وليس لأنهم مجرمون.

قال ببساطة مذهلة : نحن أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة.والقوانين تعطي للمتعاقد الحق في تحويل نصف المرتب، وهذا يكفى للإنفاق على أسرته في مصر.

كان شاباً في الأربعين يرتدي حلة بيضاء، وقميصاً مقلماً على أحدث خطوط الموضة وقتها. أنموذج الموظف الرسمي العراقي القح. ابتسامة نادرة الظهور، وهدوء أعصاب، وثقة مطلقة في النفس، وسياج خفي يحدد المسافة بينه وبين من يحدثه. "طارق عزيز" وحده هو من اكتسب شعبية وسط المثقفين والصحفيين.

مازالت الحالة كما هي. وما زال العامل المصري يهرب نقوده إلى مصر حملتنا السيارات إلى نصب الجندي المجهول. صعدت الدرجات لأجد ساحة كبيرة واسعة يصطف على جانبيها ضباط وجنود جيش، وفي صفوف أخرى رجال ونساء من غير الضباط يرتدون زي الجيش الأخضر الزرعي. هالني عدد النساء الكبير اللائي يتشحن بالسواد. اندفعت نحو صديقاتي أصافحهن، والأسئلة تعجز عن الخروج من لساني. لأول مرة أرى الاندياح العاطفي لصديقات كن يبدون لي في حياتهن العادية قويات، لا يظهرن مشاعرهن الحقيقية بسهولة، بل يعبرن عنها باختصار، كثيراً ما صدمني. بين أحضانهن سمعت قصص الاستشهاد تتوالى؛ لم يبق بيت عراقي واحد لم يفقد أحد الأبناء. على غير العادة غلبتهن الدموع، وهن يوجهننا إلى التقدم إلى الأمام لكي نقرأ الفاتحة على أرواح الشهداء. خرجت بعضهن إلى المقدمة بعد أن استعدنا السيطرة على أنفسهن، واستلمن زمام حركة الوفود. أعرف أنهن ينظمن هذه الزيارة كل أسبوع تقريباً، لعرض وجهة نظر الدولة، والدعاية لقضيتها. اقتربت مني "إلهام" وأخبرتني هامسة أنها سمعت في برنامج الصليب الأحمر من الإذاعة هذا الأسبوع رسالة من أخيها الذي أعلنوا من سنة ونصف عن استشهاده رسمياً، وعاشت زوجته وأولاده الحداد. لكنها لم تعرف أي معلومة أخرى بعد ذلك، وأنها تتعشم أن يصل سليماً في وقت قريب مع تبادل الأسرى.. انتهت المراسم. حاولت أن أركب معها سيارة كبيرة تقل الصحفيين العراقيين. جاءني صوت هادئ آمر: تفضلي إلى هذه السيارة رجاءً.

أطعت الأمر حتى لا أعرض صديقتي للوم ما. هي هنا موظفة تؤدي دورها، والنظام يضعني في سيارة خاصة مع ثلاثة من الضيوف. بدت القاعة مثل خلية نحل. أشارت يافطة أن المؤتمر تحت رعاية رئيس الوزراء. ثم دخل الوزراء القاعة بهدوء.

لاحظت الزي العسكري والخصور المحددة، والأحذية الخشنة والتجهم. تناولت الكلمات كفاح العراق ضد الإمبريالية، والإحتلال الإيراني، للأرض، وقدرة الشعب على الصمود. ثم دعينا إلى الغداء في ضيافة وزير الدفاع.

قالت الباحثة المصرية "شهيرة العاصي" ضاحكة : "وزراء إيه اللي متاكلين قبل كده دول؟ "

ضحكت "منال الألوسي" رئيسة الاتحاد قائلة : قانون الترشيق !

"شهيرة" : وماله يااختي ترشيق.. ترشيق.. لكن برضه متاكلين قبل كده.

كلمات قليلة عن عدالة القضية، وأحقية الدفاع عن الوطن على الرغم من أن العراق لا تريد الحرب. تعجبت ولم أنطق. نظرت إلى العراقيات الجالسات إلى الموائد من حولي. نساء عربيات، وكرديات بعثيات، وقوميات. بعد انهيار الجبهة التي كانت تحكم العراق من خمسة أحزاب من بينهم الحزب الشيوعي، اختفت تماماً الشيوعيات من المؤتمرات العراقية. واعترضت الرقابة على الكتب على ذكرهن في كتابي عن المرأة العراقية، وشطبت على أسماء الرائدات، حتى الممثلات، وعازفات البيانو أصبحن فجأة من الأعداء.

سمعت من صديقاتي أن الرئيس "صدام حسين" كان جاراً "لشهيرة" و"نعيمة العاصي" في بيتهما في الدقي أثناء دراسته في القاهرة. وأن علاقة إنسانية تربطه بهما. ملأت ضحكات "شهيرة" قاعة الطعام. سيدة مرحة وقوية. أعجبني منطقها وثقافتها. تتعامل مع المكان بثقة. لكن هل تعرف الناس هنا بدرجة كافية؟

عدنا مباشرة إلى الجلسات. وتوالى عرض الأبحاث. كنت سعيدة لأنني أكثر أعضاء المؤتمر من غير العراقيين معرفة بتجربة محو الأمية. عاصرتها منذ بداية تنفيذها، وتابعتها بالمقالات. كانت خطة المشروع قائمة على محو أمية الرجال والنساء تحت سن الخامسة والأربعين خلال ثلاث سنوات. صدر قرار جمهوري بانتظام الجميع في فصول الدراسة مساء وعقاب كل من يتخلف. كان الرجل يستدعى إلى قسم الشرطة في منطقة سكنه إذا تخلفت زوجته عن الحضور حصة واحدة. انتظم الجميع ونجح المشروع. الصدفة المضحكة المبكية أنه أخذ عن تجربة إيرانية سابقة. لكنهم نجحوا في التنفيذ بمعدلات أعلى بسبب الصرامة.

تسللت عدة مرات من الجلسات إلى الحمام، وأنا أحمل في يدي كوبا فارغا أضفته إلى حقيبتي؛ تحسباً لضيق مكان التواليت الذي سيخفيني. وانتظمت بدقة في تفريغ ثديي كل ثلاث ساعات. شعرت بالحرج من انتظام خروجي من الجلسات، خاصة وأن اسمي كان موضوعا أمام الميكروفون تحت عنوان مصر.

لم أذهب إلى مكتب الزهرة حتى الآن ـ "نورا" ما زلنا في يومنا الأول ـ قالت لي "تانت فائزة" إنها باعت الشقة بما فيها لشاب مصري ليستخدمها سكناً، ولما سألتها عن أوراقنا وكتبنا وما إذا كانت قد شحنت كل شيء، قالت : شحنت معظم الأغراض الشخصية، وبعض الأوراق، ولم أشحن معظم مكتبة الكتب. تركتها له مع الأثاث. وقلت له إنني سأرسل له أحد الزملاء ليراجع الأوراق والكتب مرة أخرى لربما اكتشف أهمية بعض ما تركت.

قررت أن أطلب من سائق السيارة في أثناء عودتنا من أي نشاط خارج الفندق أن نعرج على عمارة الشيخلي، وأن أترك لأبي "غائب" الحارس ورقة باسمي وتليفون الفندق لكي يتصل بي صاحب الشقة ويحدد معي موعدا للزيارة.

أخذونا بعد الغداء مباشرة إلى شارع الرشيد ؛ لكي نرى عمارة فخمة دمرت من القصف. أصلحوا كل ما حولها وتركوها على حالها كشاهد على الدمار الذي تقوم به إيران. في الطريق سيارات التاكسي التويوتا بيضاء على أحدث طراز، والسيارات الخاصة الفارهة، معظمها من الفولفو التي يعشقها العراقيون، وبعض السيارات المرسيدس القليلة، التي زاد عددها حين سمح الرئيس البكر بدخولها من دون جمارك مع العائدين "أصحاب الكفاءات" ليشجع الحاصلين على درجة الدكتوراه على العودة إلى وطنهم. اختفت من الشارع السيارات الصغيرة، والسيارات القديمة التي كانت منتشرة من قبل. الأتوبيسات الحمراء ذات الطابقين ذكرتني بركضنا لصعود الطابق الثاني أنا و"حاتم" في بداية وصولنا إلى بغداد، منتهزين فرصة الصباح الباكر ذات جمعة قبل أن تطلع شمس تموز، وتجف مياه الكوز. تنبهت لصوت مرافقتي ليلى وهي تشرح الغارة التي دمرت جزءا من الجسر، وبعض الأبنية. ازددت اكتئابا وعبأت معدتي بالغضب. قلت لنفسي : ضربني وبكى وسبقني واشتكى. لا أستطيع تبرئة العراق من حماقة هذه الحرب. ربما أكون مخطئة. لكن ماذا أفعل بكل ما رأيت من مظاهر التربص السابقة.

وقفت السيارة. حددوا لنا موعد العودة إليها، وتركونا نتجول بحرية في المكان. اقتربت سهام ومن ورائها ثلة صديقات. قالت : لن نتركك. تعرفين كل خرم إبرة في بغداد. ماذا نشتري؟

قلت: انخفاض سعر الدينار أمام الدولار وحتى الجنيه المصري يجعل أي شيء رخيصاً. اشتري أكلمة عراقية، وبطاطين من الصوف الخالص، وسجاداً يدوياً أعجمياً، إذا استطعت حمله ؛ لكن بالطبع أشتري كتباً من إصدارات دار المأمون على الأقل. سعر الكتاب جنيه وأحيانا نصف جنيه مصري.

قالت : جئت للفائدة. هي الكتب وحياتك.

تحركنا. أشرت إلى بناية الصحاح. قلت : كان "صدام حسين" يسكن هنا هو وعروسه ساجدة، وابنهما الرضيع "عدي" في نوفمبر ١٩٦٣ . اجتاحت قوات "عبد السلام عارف" المبنى للقبض عليه. لكنه لحسن الحظ كان قد ترك المكان هاربا قبل دقائق ثم قبض عليه بعد وقت طويل.

قالت "سارة بدر": هرب إلى مصر، أليس كذلك؟

قلت: هروبه كان أكثر من مرة. ما تتحدثين عنه كان في أكتوبر ١٩٥٩ بعد اشتراكه في محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم، ثم هرب من بيت خاله "خير الله طلفاح" الذي تزوج ابنته بعد ذلك قبل نصف ساعة من مداهمة البيت، ولم يجدوه، وقبضوا على عدنان ابن خاله، وتنقل هو من مكان إلى مكان حتى عبر الحدود السورية ومنها إلى مصر.

قالت "سلمى" : قالوا لي هنا سوق حرة رخيصة.

قلت: هذه هي السوق الحرة، ثم محل الأجهزة الدقيقة، وبعده أكبر محلات بغداد : "الأورزدي باك"، وعلى الرصيف المقابل مقهى المربعة.

قالت "كاميليا" : يقولون إن المصريين حولوها إلى ثكنة مصرية.

قلت : من كله. هنا يستطيع أي مقاول أن يأتي للاتفاق مع كل التخصصات. وتحولت الأزقة المفتوحة على الشارع إلى حي للعمال المصريين، وسوق للدعارة، والراقصات، وبعضهن لبنانيات، ويدعين أنهن مصريات ؛ على اعتبار أن الراقصة المصرية أكثر شهرة. وفيه مومسات صغيرات السن بصورة مذهلة. أما حي البغاء

الرسمي الذى اشتهر في الثلاثينيات فهو في الباب المعظم وكان مشهورا باسم زقاق "رجينه مراد" وأخذ اسمه من غانية اشتهرت في أثناء الاحتلال الإنجليزي، وهى أخت مطربة العراق الأشهر "سليمة مراد" زوجة "ناظم الغزالي". ويُحكى قصة طريفة عن غانية عراقية أخرى، اسمها "حسنة ملص" جرت أحداثها أثناء محاولة انقلاب الشواف على حكم عبد الكريم قاسم ١٩٥٩ والتى كانت مدعومة من حكومة جمهورية مصر العربية مصر وسوريا. إذ أغرقت السفارة المصرية بمنشورات تندد بحكومة "قاسم" وتحيي نضال "حسنة ملص" و"عباس بيزا" وقرأ المذيع "أحمد سعيد" التقرير في صوت العرب، ووصف بطولاتهما الرائعة. وكانت فضيحة في طول العراق؛ لأنها أشهر غانيات العصر وهو أكبر قواد في المدينة. وكان هذا نكاية في إعلام "عبد الناصر" الذي كان على خلاف مع "عبد الكريم قاسم". الشارع الرئيس يمتد حتى الشورجة وهو سوق عربية مكتظة بالتوابل، تستطيعون شراء حبهان يسمونه هنا هيل. ويتفرع منه شارع النهر موازياً لدجلة ؛ حيث سوق الملابس العصرية، حتى يصل إلى سوق الذهب.

ضحكت قائلة : تستطيعون شراء أسد بابل من الذهب.

قالت "منى" : صورة رسمية للأسد وهو أ أ أ رجلاً؟

قلت: نعم. يأكله بأحد المعاني. ضحكنا واستطردت : الشوارع المحيطة فيها أسواق متعددة : سوق الصفافير الذي يبيع الأدوات النحاسية، والأكلمة الصوفية، ويشبه خان الخليلي، ثم أسواق أخرى متفرعة من المكان ؛ الصابونجية، والعبخانة، وهي سوق للمنجدين، والبزازين، وسوق للطيور يبيعون فيه أقفاص الحمام، والعراقيون لا يأكلونه، وطيور الزينة، والأرانب التي لا يأكلونها أيضاً لأنها تحيض، ولا يأكل الشيعة السمك القرموط ويسمونه الجري.

قالت "كاميليا" : لماذا ؟

قلت : في أحد الأيام سأل عامل شيعي أصله من منطقة الأهوار زوجي إن كان المصريون يأكلون الجري؟

قال "حاتم" : نعم.

قال الرجل: هذا الجلب ما ياكله[1] .

---

١ هذا الجلب ما ياكله : حتى الكلب لا يأكله .

حاولنا أن نفهم السبب من أصدقائنا الشيعة. أخبرونا أنه عكّر الماء على سيدنا "علي" وهو يتوضأ.

قلت : أنقذ جنسه كله من الصيد في العراق!

أشرت إلى بناء كبير. قلت : هذا هو مبنى البريد المركزي. تستطيعون الاتصال بمصر إن أردتم. سأدخل لأرى إن كانت في صندوقي أية خطابات.

دخلنا معا، وجدت أبا "وسام" في مكانه خلف الزجاج.

قال : "إشلونج[1]. عيني ست "نورا". صار لنا زمان ما شفناش"؟!

قلت: كنت مسافرة. صديقاتي من مصر، ويردن الاتصال.

قال : يتدللوا قلبي.

قلت : أريد أن أفتح صندوقي البريدي لأعرف إن كانت قد وصلتني أية خطابات.

قال: تفضلي. أبو "ميرفت" دفع الاشتراك لسنتين قادمتين. وينه مسافر؟

أثارت كلماته ألمي، لكنني تماسكت بسرعة، واتجهت إلى الصندوق وأنا أهز له رأسي. وجدت أوراقاً متنوعة معظمها بخط "حلمي أمين" الذي أعرفه جيدا، وخطابات لصق فوقها شريط كتب عليه فتح بمعرفة الرقابة. ودفتر صغير بني اللون لـ"أنهار خيون". وضعتهم في حقيبتي بسرعة حتى لا ألفت نظر الرجل الذي راح يتكلم مع زميله ويشير نحوي. ورأيت يد الرجل وهي ترتفع بالتحية.اتصلت ببيتي لم يرد أحد. كلمت جارتي "سلوى مندور"، وقلت لها إن الحالة في بغداد مطمئنة وإنني لم أتصل بأخيها "طارق" بعد، وأنني سأعيد الاتصال بعائلتي غداً.

سألتني "سهام" ونحن نستقبل الشارع : هل وجدت شيئاً في الصندوق؟

قلت : دعوات قديمة. فات موعدها بالطبع وبعض منشورات الدعاية.

رحت أصف لهن المكان، وذهني مشغول بالأوراق. توقفنا أمام المكتبات واشترينا الكثير من الكتب القيمة الرخيصة جداً، وربطناها بخيوط الدوبارة، ونحن نفكر كيف سنحملها معنا إلى القاهرة.

---

١ إيش لونش : كيف حالك .

ماشفناش :لم نرك

الخطابات مفتوحة من الرقابة. معقول. لكن أوراق "حلمي" ودفتر "أنهار" هل فتحا أيضاً؟ ولماذا وضعها "حلمي أمين" في صندوقي؟ أكان يريد إبعادها عن المكتب لسبب ما. أم كان يريد إيصالها لي؟ ولماذا؟ أكان يريد مني قراءتها أم المحافظة عليها؟ هل كان يريد إنقاذها حين شعر أنه يموت؟ ولم يكن يريد من "تانت فائزة" أن تراها، وتتصرف بها أو ربما تجرحها؟ ولماذا يضع في رقبتي هذه المسؤولية يا إلهي؟ هل تكون مذكراته التي كان يسجلها معي؟ تذكرت كلمته وهو يتحدث عن رواية الشيخ والبحر لـ"هيمنجواي" : أنت الصبي في هذه الرواية. أنت عكازتي التي أتوكأ عليها. لا تخذليني.

هل فيها ما يدل على مكان "أنهار". أو ما إذا كانت على قيد الحياة أو معتقلة؟

هل وضع هذه الأوراق في مكان تحت سمع الرقابة وبصرها، حتى لا يرونها على اعتبار أنهم يراقبون الخطابات أولاً بأول قبل وضعها. ويكون بهذا قد حماها من الجميع؟ "نورا" اتركي هذا حتى تعرفي ما هي أولاً.

انتبهت لصوت "منى" وهي تسألني : ما رأيك في هذا الجلد؟

قلت : تصميم عراقي قح، يوضع على الحائط. اشتريه.

أكملنا شراء بعض الهدايا الشعبية. تركتهم يركبون الأتوبيس ومشيت في اتجاه مكتبنا مروراً بوزارة الإعلام، فساحة التحرير، فسوق البتاوين، حتى شارع المشجر. كانت بغداد تمضي إلى النمو فوق صاروخ البترول الرابح. ماذا حدث لها؟ لماذا نحن العرب غير محظوظين؟ أيكون البترول سر نكبتنا؟ لم أجد "أبا غائب". صعدت درجات السلم التي أعرفها جيداً. ما زالت الدرجة الثالثة بعد البسطة في الدور الأول مكسورة. دمعت عيني. قرعت الجرس. لم يفتح لي أحد. كتبت بطاقة بمواعيدي وأرقام تليفوناتي في الفندق، ودفعتها تحت الباب. نظرت إلى الأبواب الخشبية لشقة "كريمة" والمهندس "علي"، و"تانت فيوليت" و"د. مايكل". لم أستطع أن أطرق أي باب، ومضيت هاربة. لا أعرف لماذا ألح عليَّ "محمود السعدني" في زيارته الأولى لنا في المكتب. ربما لأني في احتياج إلى بسمة.

سمعت الصخب وعرفت صوته. أخبرني "حلمي أمين" في الصباح عن التقائهما مساء الأمس في فندق بغداد، ووعده بالزيارة. ترك الخليج بعد أن اختلف مع الجريدة.

لم يحتملوا قلمه اللاذع. وقف في وسط المكان يفحصه بدقة، وحلمي أمين يقول له مشيراً إليَّ : زميلتي. نورا.

قال : عفارم. عفارم يا ولد. والله مكتب بصحيح. عملتوا مكتباً بهذه السرعة؟ هيه. التفت نحوي قائلاً : هل العمل في صحيفة مصرية أفضل أم العمل في صحفكم العراقية؟

أدركت أنه لم يتذكرني. التقينا في دار الزهرة بالقاهرة مرة واحدة منذ فترة طويلة. أحب مقالاته وخفة دمه. قررت أن ألعب معه باللهجة العراقية. قلت : الأستاذ "حلمي" خوش آدمي. وعدكم الصحافة حرة. موهاي الصحف الخشب.

قال مقهقهاً: صحف خشب. خوش آدمي. ما هذه اللهجة الخشب؟ يعاكسك "حلمي أمين" طبعاً. أنا أعرفه جيداً. نمس.

قلت وقد رسمت الوقار على وجهي : لا والله. يعاملني مثل أبوية تمام.

قال : من خيبته. من خيبته. أنا عاوز زيها يا "حلمي". فاهم زيها.

قلت : إذا تريد أجيب لك صاحبتي تشتغل وياك.خوش بنية.

لم يحتمل "حلمي أمين" الاستمرار، وانفجرنا في الضحك معا، وهو ينظر إلينا مذهولاً. قال حلمي : ألا تذكر "نورا" يا "محمود"؟ "نورا سليمان" زميلتنا من الزهرة. الرياضية يا أخي.

قلت : إزيك يا أستاذ "محمود" أوحشنا كلامك، وضحكك. بغداد نورت. وجودك سيغير بغداد تماماً. يمكن يعلمهم يضحكوا.

دخلت إلى صالة المؤتمرات، والوفود تستعد للجلوس في أماكنها. ذهبت إلى مكاني. وضعت الحقيبة بجواري، وأنا أشعر أنها تشع طاقة لا مرئية. استجمعت قواي لكي أركز ذهني فيما يدور.

* * *

بدلنا ملابسنا في الفندق بسرعة بعد عشاء سريع ؛ لكي نذهب إلى المسرح لحضور عرض أزياء شهير تقدمه دار الأزياء العراقية، تستعرض فيه العارضات اللائي تخرجن في معهد الباليه تاريخ الأزياء النسائية العراقية على إيقاعات راقصة. استخدمت

المصممة "فريال الكليدار" في صناعتها أحدث ألوان الموضة، وأقمشة الموسلين، والجورجيت، والحرير الناعم لتظهر اختلافات تعاقب الحضارات على أرض عشتار. كنت أحب هذا العرض منذ رأيته للمرة الأولى في منتصف السبعينيات، وكتبت عنه بشغف. حولت المصممة العارضات إلى فراشات يتنقلن بخفة من الحضارة السومرية، إلى الأكادية، والآشورية، يعبرون الزمن متشحات بالأقمشة الرقيقة الناعمة، أو المغزولة يدوياً، والمطرزة بموتيفات كل حضارة. يطير صوابي أمام تطريزها للوحات "الواسطي" لمقامات "الحريري" فوق أقمشة الموسلين بألوان الموضة في كل عام رأيت فيه العرض. أزياء تقول إن المنطقة تأثرت بالرومان، فانحسر القماش عن كتف واحد، وترك عاريا. وأزياء تقول إن الفرس مروا من هنا، وتركوا بصماتهم في ألوان الفيروز، وشكل الزهرة المبسطة. ومن ملابس البدو وعباءاتهن العربية الفضفاضة إلى الملابس السوداء للفلاحات فوق القامات المشوقة، بدت العارضات مثل آلهة تهبط بخفة من السماء على إيقاع موسيقى عراقية ناعمة مع أشعار"عبد الرزاق عبد الواحد" التي حولت العرض إلى فتنة خلبت الألباب، معلنة أن الحضارات التي تعاقبت على هذه الأرض تقاوم لتحيا.

تبدو لي فكرة الحرب دائما حماقة لا يدفع ثمنها الجندي وحده، بل ومن حوله أيضاً. الدفاع عن الأرض شيء والدخول في معركة خائبة لإثبات الغرور شيء آخر. معلومات كثيرة تراكمت في أثناء فترة عملي السابقة هنا لمستها بنفسي، لم أقتنع أبداً بحتمية الحرب على الرغم من أنني أعرف سر التعصب الخفي العراقي الإيراني. درست التاريخ، وتعرفت على التزاوج الذي عاشته المنطقة التي لم تشهد تكوين دولة العراق إلا مؤخراً. الاشتباك بين الفرس والعرب، بين الشيعة والسنة، بين الحضارة المجوسية والبابلية الأكادية الآشورية. حركتي في العراق شمالاً وجنوباً تعطيني الحق في تفسير الأحداث بحسي لا بعقلي ومعلوماتي وحدها، وأن أرى وأحلل ما يقال أمامي بعين أخرى. اختصرت زميلاتي الصحفيات الأمر كله في تقارير مختصرة : يريدون دعاية لقضيتهم. لإنهاء الحرب. لم أعلق. عدت إلى حجرتي مزدحمة بالأفكار والمشاعر، منهكة الجسد، مضطربة الروح. أريد أن أترك نفسي تستمتع بعذوبة العرض الذي حملتني فراشاته إلى سماء عشتار، ويريد سرب نمل من الفضول والرغبة أن يأكل قلبي،

ويدفعني لفض ختم خبيئة "حلمي أمين"، ومعرفة أسرارها. أدرت الموسيقى، ثم قلبت حقيبتي فوق السرير. ارتعشت يدي وأنا أقلب الأوراق. كما توقعت. هذه دعوات لحضور معارض فنون تشكيلية. كم كنت أحب ملصقاتهم. ثورة البوستر كما أطلقت عليها. دعوات لعروض مسرحية، ندوة عن دور إيران في المنطقة، إعلان عن مطعم كباب سوري، ومحل "جيبس وكرزات"[1]. خطاب من "طارق مندور" يخبرني فيه باستقراره في السليمانية كتبه في الأول من أغسطس ١٩٨٠ أي قبل سفري إلى مصر بشهر كامل. خطاب من هيئة البريد والهاتف يقول : إشارة إلى خطابكم السابق نأسف لعدم قدرتنا حالياً على إدخال هاتف لمكتبكم لصعوبة مد خطوط في المنطقة. خطاب من "تانت فائزة" أرسلته من مصر قبل وصولها إلى بغداد بأيام ولم يتسلمه، ولم تبحث هي عنه. ربما تعمد "حلمي أمين" ألا يعطيها المفتاح.

أوراق أنهار

لمحت دفتر "أنهار"وسط الأوراق، تأملته وأنا أقلبه. كان الأستاذ "حلمي أمين" قد أهداه لها، وأهداني مثله. أحضره من باريس بناء على طلبي الخاص. دفتر من الورق الخشن بلونه الطبيعي. أوراقه مثبتة معاً بخيط من الدوبارة معقود عند الكعب بدلال. عملي اليومي مع الورق يجعلني أعشقه في كل أشكاله. فرحت لبدائيته، تفوح منه رائحة الزمن الماضي ؛ ولأنه مقصوص باليد، من دون تلك الدقة التي تسيطر على حياتنا الآن. فتحت الغلاف الكارتون الذي ألصقت عليه "أنهار" أول صورة ملونة لها. كان من الأفضل أن تضع عليه صورة بالأبيض والأسود حتى تتمشى مع لمسة القدم تلك. كتبت تقول في الصفحة الأولى :

هذه أيامي إن أنكرتها فقد أنكرتني إلى الأبد. أفعل هذا من أجل أمي.

أنهار خيون

---

١ جيبس وكرزات : شرائح بطاطس ولب .

هذه أوراق خاصة كما توقعت، لم أكن أستطيع أن أتركها في مكتب البريد، ولا أعرف إن كان من حقي قراءتها؟ متى وصلت إلى صندوق البريد؟ أتركتها "أنهار" "لحلمي" لكي يقرأها. أم أنها كانت تحتفظ بها في درجها الخاص، فلما رحلت اكتشفها؟ وهل وقعت في يد تانت "فائزة" بعد رحيله؟ وهل قرأتها؟ ولماذا تركتها وراءها في صندوق البريد؟ هل تكون "أنهار" قد أرسلتها إليه بالبريد بعد سفرها؟ لكن "حلمي" لم يذكر لي في خطاباته أنه يعرف مكان "أنهار". فتحت الصفحة الأولى وقرأت:

"تبدأ قصتي قبل أن أولد بسنوات طويلة، في مكان يشبه الأحلام، مغلف ببخار يخفي البيوت، والبشر، والزرع، ويجعل الأحداث كأنها ما كانت. يغمر الماء المنطقة بلا نهاية، وتظهر الصباحات في الأفق مغبشة، وتظل كذلك حتى تظهر الشمس فتمسح عن النهار قدسيته ونداه، وتعطي فرصة لكائنات هذا العالم أن تحدد ملامحها. تظهر بيوتنا وسط الماء كأنها أعشاش لطيور كبيرة مصنوعة من أعواد البوص وفروع الأشجار وسعف النخيل. تنمو الحشائش في طرقات مياهنا وترتفع مثل أسنة رماح قوية ترسم خريطة عالمنا ويكون علينا أن نكافح نموها، وأن نطعم مواشينا، وأن نفسح الطريق للبلم والمشاحيف والكعود لكي نتحرك بأحداها. بيوتنا جزر صغيرة، إذا ارتفعت المياه أكلتها؛ لكن المياه وقعت ميثاقاً بيننا وبينها يكفل لنا الحياة معاً. فهي لا تفيض دون إنذار، وقد تعلمنا أن نقرأ شيفراتها منذ أن تعلمنا الحياة. نجبش الجزر بطبقات من البردى والقصب حتى ترتفع عن مستوى الماء.

قصتي تشبه المكان في غموضه وسحره، في غدره وحنوه، في بساطة الحياة فيه ومشقتها حتى القتل. نعم القتل. لا تتعجب فمن لا يحترم إرادة الهور يضيع. قصتي التي بدأت قبل أن أولد هي قصة الحب والبغض، النشوة، والدم، والسلام. سأعود إلى الوراء سنوات كي تعرف كل التناقضات التي صنعت بوتقة حياتي، والتي جعلتني أدرك حين رأيتك أن دخولك إليها لم يكن صدفة كما توهمت أنتَ. لأن القدر الذي خط لي خطوطه البيضاء، والسوداء، وغزلهما مثل شبكة عنكبوت محكمة لم يكن ليأتي بك إلى عالمي هذا من دون داع. وقد تصورتك منذ لقائنا الأول مُخَلّصاً. وهذا ما جعلني أعود إليك كلما طردتني الدائرة إلى الخارج. إذ كنت قد وقعت بالفعل في هذا الجزء من الشبكة الجنونية للحياة.

ولدت لأم من عشيرة كبيرة، تعيش في الجبايش إحدى قرى ولاية العمارة، وسط الأهوار. وهي عائلة من الفلاحين الذين يمتلكون عدداً من الجاموس والبقر، ويشتغلون أيضاً بالصيد؛ إلى جانب بعض زراعات القصب والأرز على الأرض اليابسة للجزر المتناثرة في الأهوار. هو مجتمع فقير في معظمه تحكمه عادات وتقاليد أبدية وحاسمة، لكنه مجتمع متآلف يعتمد على بعضه البعض بشدة. صحت قريتي ذات يوم على نبأ مصرع "مهدي آل خيون"، وهو شاب صغير يحكى أنه كان من أجمل شباب القبيلة، وأكثرها فتوة. على يد صديقه عباس خاطر؛ إذ كانا يتنافسان على فتاة رائعة الجمال اسمها "خلود". ولأن "مهدي" هو ابن رئيس عشيرة بني أسد وهو من السادة*؛ فقد تصور أنه الأجدر بقلب الفتاة وعزم على الزواج منها وراح يكتب لها الشعر، ويتابعها في كل مكان تذهب إليه على الرغم من أنه يعرف أنه لابد من الحصول على موافقة صديقه "عباس"؛ لأنه ابن عمها والأولى بزواجها. وهو يعرف حق المعرفة أن "عباس" يحبها ولن يقبل. أنذره عباس أكثر من مرة دون جدوى، وفي أحد الأيام رآهما معاً فتقاتلا، ومات الشاب وهو لم يكمل العشرين من عمره بعد. ودخل صديقه السجن. إذ اعتبرت القضية مشاجرة. لكن القصة لم تنته. اجتمعت العشائر، وقررت أن تزوج أخ القتيل من أخت القاتل كما هي العادة؛ حتى تنجب ولداً يحل محل المقتول، وهي عادة نشأت من فكرة نبيلة، وليس من فكرة الانتقام التي تحولت إليه مع مرور الوقت. لأنها تجمع بين العائلتين المتقاتلتين في نسب ينشأ عنه طفل هو ابن العائلتين معاً؛ فتعود الحياة إلى مجراها الطبيعي. ويعطى العرف لرئيس العشيرة الحق في اختيار أخت القاتل، فإذا لم تكن له أخت عذراء يختار ابنة عمه، وهكذا حتى يصل إلى أصغر فتاة في العشيرة كلها، ولا تستطيع الفتاة أو أهلها أن يرفضوا هذا الأمر.

هكذا ذهبت أمي وهي في التاسعة من عمرها إلى عائلة القتيل ؛ أخذوها وسط نواح. عاشت وسطهم حتى نضجت، وتزوجت من أبي ؛ الأخ الأصغر لـ"مهدي". يقضي العرف أن تستمر الزيجة حتى تنجب الفتاة صبياً فيحق لها العودة إلى أهلها، أو البقاء مع ابنها. أما إذا أنجبت بناتاً، فإنها تبقى مع تلك الأسرة حتى تنجب الصبي. ونحن

---

* السادة هم سلالة السيدة فاطمة ابنة الرسول محمد (صلعم) وعلي بن أبي طالب .

نسمي هذه المرأة فصلية، ويضرب بها المثل في الامتهان والذل، فتقول المرأة : إذا ما تعرضت للقهر من زوجها أو من أهله : "شنهي آني فصلية؟!".

سقت جدتي أمي كل ألوان العذاب، أسندت إليها كل الأعمال الشاقة في البيت والحقل، وتحملت أمي كل الإهانات. ولم يكن من حقها الشكوى أو العودة إلى أهلها بأية حال. لكن ما تحملته من مصاعب جعل منها أمهر فتيات القرية في فنون الطهي والخبز، والزراعة، والنسج، ورعاية الحيوانات، وصناعة الألبان. وكشفت الأيام عن فتاة رائعة الجمال على الرغم من كل الكراهية التي كانت تسمعها كل يوم منذ غبشة الصباح في غناء جدتي التي تبكي ابنها القتيل وتقول :

"والأسواق كلها مجللة باسود/ تدك وتنوح/ وتزيد المآسي والجروح اجروح/
جرح ينزف على الماضي/ وجرح مفتوح عَ الحاضر وما يسمر جرحنا وطاب/
لا فاده الدوه وعطاب/ جرح البينا لو بالله؟/ كفر واحنا بعدنا انجاب".

وعلى الرغم من محاولات جدتي تأصيل هذا البغض في قلب ابنها الصغير، نحو تلك الطفلة، فإن رعاية أمي له باعتباره الشخص الوحيد القريب لها في هذه العائلة؛ جعل أبي يرتاح إليها، فلما حان موعد الزواج انفجرت أنوثة أمي وأصبحت مثل زهرة برية يانعة، يهفو إليها كل شباب القرية. لكنها مع الأسف كانت تشبه خلود ابنة عمها التي قُتل مهدي من أجلها، وهو ما زاد من بغض جدتي لها، حتى أنها كانت تدفعها بقوة كلما مرت بجوارها فتسقط وتصاب بكدمات وجروح ظل بعضها غائراً في جسمها مدى الحياة.

اتخذت بشرة أمي لون البرقوق الأحمر بسبب وهج الشمس، الذي تعمل فيه نهاراً. ألبسوها جلباباً أسود وأخفوا شعرها الطويل تحت عمامة كبيرة سوداء تنتهي بشراشيب من الخيوط الناعمة، وهو رداء الفلاحة في هذه المنطقة، وكنا نراها في طفولتنا خارجة من وسط النباتات وراء شبورة الصبح فوق المشحوف* مثل إشراقة شمس جميلة تشبه حوريات الجنة بجمالها الأخاذ، وروحها السمحة. أتذكر تلك الأيام، وأشرق بدموعها،

* قارب صغير .

وأعي عطف أبي السري عليها، إذ كان يخشى أن يوجه إليها أدنى قدر من الاهتمام، أو العواطف أمام عائلته التي تعيش معنا في نفس البيت. خاصة وأن أمي أنجبت أربع بنات دون أن تنجب صبياً واحداً يعيد إليها حقها في العودة إلى أهلها. كانت تحمل كل سنتين بعد أن تنهي إرضاع طفلتها، وراحت جدتي تلح على أبي أن يتخذ زوجة جديدة تنجب له الولد، وأن يسخّر أمي لخدمتها؛ حتى تنجب الولد هي الأخرى، وتذهب إلى حال سبيلها. لكن أبي قرر أن يتقدم لوظيفة في بغداد وأن يهرب بأسرته الصغيرة بعيداً عن مناخ الكراهية الذي يعيش فيه. فلما جاءته الوظيفة؛ ذهبت جدتي إلى أسرة جيراننا وخطبت له فتاة، وزوجته بسرعة، ودفعته دفعاً لاصطحابها معه إلى بغداد، وأبقتنا نحن في بيتها. ولك أن تتخيل ما جرى لنا حتى أنجبت أمي أخي الوحيد، وبعد عامين أخذته جدتي، وطردت أمي. كنت أراها في الصباح والمساء تتلصص علينا من بين أعواد البوص، ولا أجرؤ على الحديث إليها حتى مرضت جدتي بعد شهور طويلة من العمل الشاق الذي كانت تقوم به أمي، ورقدت على الفراش لا تقوى على خدمتنا. ظهرت أمي في حوش البيت في مشهد لن أنساه مدى الحياة قائلة للعجوز :

- لا أعرف أماً غيرك. أنتِ أمي. فلماذا تبعديني عنكِ؟

- ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟

- أنت. أطفالي ترعاهم أسرتهم. هم أولادكم. أعرف، ولا أخاف عليهم. لكني لا أستطيع البعد عنك. أريد أن أخدمك في شيخوختك.

- لن أسامح أخاك أبداً.

- بل ستسامحينه ذات يوم؛ فقد ضاع شبابه هو أيضاً.

صرخت جدتي وطردتها شر طردة قائلة: لن أسامحه مهما طال الدهر. وستحرمين من ابنك الرضيع كما حرمني أخوكِ من ابني؛ يا عيني يا قلبي يا مهدي.

"والله يا جابر ما جرت/ هيجى مصيبه ولا سدت/
ما تدرى بالكوم اشكصت/ حركوا خيمنا علينا".

خرجت أمي باكية لكنها عادت في صباح اليوم التالي. أخذت المواشي إلى المرعى، ونظفت البيت، وجهزت الطعام، ثم مضت دون أن تتحدث إلى أحد. أذكر هذا اليوم جيداً كأنه بالأمس، كان الوقت شتاء، وفي كانون الثاني ترتفع المياه كالمعتاد، وجدتي وأبناء عمومتي يجبشون الجزيرة تحت بيتنا بالبردي والقصب، لكنهم في شباط (فبراير) حين زادت المياه بصورة غير عادية راح أهل الجبايش يزيلون المعابر القصبية، وجذوع النخل التي يستعملونها كقناطر بين جزرهم. وفي منتصف الشهر الذي يليه، ارتفع النهر والهور ارتفاعات سريعة، وانغمر وجه كثير من الجزر الواطئة، وبدأ الجيران يغادرون البيوت. كنت أنظر في عيني جدتي فأرى الخوف، وأرى الكبرياء أيضاً. أريد أن أقول لها : لماذا لا نستدعي أمي؟ ثم أتراجع وأنا أسمع بكاءها في الليل تبكي مهدي كأنه مات بالأمس. وأمي تأتي وتذهب وأسمع دعسات أقدامها في الخارج ترفع الصوابط، وحين يأتي الصباح نعرف أننا نجونا ليوم آخر. هل تعرف جدتي أن أمي تفعل ذلك؟ حيرني السؤال. وإذا كانت تعرف، فلماذا لا تدعوها إلى الدخول؟ ونعاونها جميعاً؟ عجز الكثير من أهلنا عن الاستمرار فوق جزرهم، بعد أن استمر الماء يرتفع طيلة الوقت، وتركوها ليشاركوا عوائل أخرى مساكنهم ريثما ينحسر الماء، وتذكروا الفيضان الكبير الذي حدث، وغرقت فيه دكاكين السوق، ودوائر الحكومة، والمدرسة والبيوت المبنية بالطابوق على ساحل النهر. أنشأت العائلة ممرات ضيقة من القصب والبردي. وكنت أشاهد أمي، وهي تركب المشحوف، وتدفعه بالمردي حاملة القصب إلينا فأتجاهلها؛ حتى لا تنهرني جدتي. نتبادل النظرات خلسة، وتغرق الدموع وجهها لكنها تستمر في الحضور، وتستمر في العمل، ثم ارتفع الماء فجأة في العشرين من آذار ووصل الفيضان إلى أعلى مناسيبه. وقد فرحنا، وعرفنا أن فرج الله قريب؛ إذ إن أعلى المناسيب تحدث بين بزوغ نجم الثريا. وهي مدة عددها خمسة وعشرون يوماً؛ فإذا غرب هذا النجم، فلا زيادة تحدث في منبع النهر. تقول جدتي : إن ماء الفرات يحتاج إلى اثني عشر يوماً ليصل من منبع النهر إلى الجبايش. وإنه لا زيادة في مستوى الماء إذا ما انصرمت هذه الأيام الاثنا عشر على غياب الثريا. لكن النجم غاب، واستمر وصول الماء الزائد في اليومين السابع والعشرين، والثامن والعشرين.

قالت جدتي وهي تبكي : هذا موش ماي هدا بلوة[1]. يا مه يا وليدي يا المهدي أويلاخ يا بوي يا وليدي يا كلبي لو أنك هنا.

رفعت رأسي، كانت أمي تقف بسواد ملابسها، وعمامتها الكبيرة خارجة من غبشة الصبح كأنها كائن مهيب لا يقهر. قالت تأمرني : "أنهار". اجمعي إخوتك. واحملي كل ما تستطيعين في البلم الواقف بالخارج، هيا يا أمي. امسكي بساعدي.

رأيتها تحمل جدتي في حركة سريعة خاطفة، وتخرج بها إلى البلم. وفي دقائق كنا أشبه بفصيل جيش يجمع معسكره بسرعة خوفاً من هجوم الأعداء. كانت قد جمعت الكثير من أعواد القصب والبردي. ورحت وإخوتي نجبش جزيرتنا، والماء تعلو، وأمي تتحرك بطاقة لم أرَ مثلها في حياتي. وعادت أمي في اليوم الثاني والرابع والأربعين، حتى استسلمت جدتي، وتركتها ترعى البيت. ورجعت حياتنا إلى ما كانت عليه. وجاء أبي مع زوجته الجديدة، وعرف بما حدث، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً. قضى بيننا يومين، وبعد سفره بيوم واحد ماتت جدتي. فعاد إلينا، وحملنا إلى بغداد. ولأول مرة، أرى لأمي ابتسامة على الرغم من أنها كانت ترعى زوجته الجديدة كما لو كانت ابنتها، وترعى أولادها كما لو كانوا من صلبها هي، وتعيش نفس الحياة التي كانت تحياها في الأهوار لا تعرف غير العمل، ولا تعرف غير ملابسها السوداء، ولا غير طعامها الخشن، على الرغم من تحسن أحوال أبي المالية، بعد أن شارك أبناء عمومتي في تجارة عادت عليه بربح وفير. وهو ما انعكس على حياتنا وتعليمنا. ومن حسن حظي أن أبي أصر على تعليمنا، على الرغم من اعتراض جدتي. ومن حسن حظي أيضاً أو من سوئه لا أعرف، أنني انتبهت إلى كل ما جرى لأمي، وأقسمت ألا تكون حياتي ملكاً لأحد، وألا أقع بأية حال تحت نصل التقاليد. لهذا حين خطبني ابن عمي ولم يكن لي اعتراض عليه، أخبرته بأنني سوف أجرب هذه الخطبة فإذا نجحنا كان بها، وإذا لم تنجح فلن يتم الزواج. غضب عمي بشدة، لكن أبي طمأنه قائلاً: إن هذه فكرة طيبة، وستفيد ابنه أكثر مما تفيدني، وإنه، أي أبي في النهاية، هو صاحب القرار. هكذا، وجدتني مرة أخرى بين فكي التقاليد، أعيد تكرار ما حدث لأمي دون قدرة على تغيير حقيقي،

---

[1] هذا ليس بماء. هذا بلاء.

على الرغم من تعليمي، وموت جدتي. إذ وقفت أمي في صف ابن عمي تحثني على الزواج منه وتقول إن ما قدره الله يجب أن يتم. طلبت أن أكمل تعليمي الجامعي أولاً وأن أعمل قبل الزواج، ووافق ابن عمي على مضض، وقالت أمي غاضبة إنني "زودتها كثيراً". وعلى الرغم من أن قرار قيادة قطرية قد صدر بعدم زواج الفتاة رغماً عنها من ابن عمها، وطالبت الحكومة البنات أن يذهبن إلى قسم الشرطة لكي يبلغن عن هذا الزواج الإجباري معلنة فسخ هذا العقد من فورها، فإن فتاة واحدة في بغداد هي التي ذهبت إلى قسم الشرطة وأبلغت عن أبيها وأعمامها وإخوتها، وكانت فضيحة لا أظن أن فتاة عراقية أخرى قادرة عليها.

قررت أن أحاول جادة الاقتراب من ابن عمي "مُهند"، وكنت أعرفه منذ طفولتي، ذا أخلاق طيبة، وناجحاً في دراسته وعمله، لكني مع الوقت رأيت هذا الحاجز الشفاف الموجود منذ كانت أمي تسحق تحت الكلمات التى تنعتها بأفظع الألفاظ. لم أستطع الهرب من تلك البغضاء التى حملتها عائلة أبي، والتي تظهر فجأة دون مقدمات. لم أستطع أن أكون صافية، ذلك الصفاء الذى يسبق الحب، ويسمح له بالميلاد. لم أجد سبباً كافياً لإقناع أبي وأمي بفسخ الخطبة، لذلك قررت أن أواجه مشكلتي بنفسي. في البداية لم أفهم سبب هذا الجهد الكبير الذي تبذله أمي لكي أوافق على الزواج ؛ تستحثني للاقتراب من "مُهند"، تحبه، وترعاه، وتدعوه إلى العشاء، على الرغم من أنه يستطيع دخول بيتنا في أي وقت يشاء. شككت في أسباب قبولها له : هل لأنها تظن أن ابنة الفصلية لن تجد لها زوجاً، إذا لم يتزوجها ابن عمها ؟ لكن اثنين من أخواتي تزوجن من خارج العائلة بسرعة شديدة، هل مازالت تشعر بذنب عمي الذي قتله أخوها ذات يوم؟

انتميت إلى الحزب الشيوعي العراقي. اتسعت ثقافتي، وعملت بالصحافة حتى أزداد التصاقاً بالمجتمع . ساعتها ظهر لي معنى كان غائباً عن ذهني تماماً، معنى أن تعيش النساء حالة الاستلاب، وأن يُرسخّن لما يقهرهن. تجربتي الأكثر وعياً جعلتني أدرك حجم المأساة التي تعيشها أمي التي تحافظ بنفسها الآن على التقاليد التي دمرت حياتها من دون ضغينة، وتريد مني أن أكون صورة منها، وأن أنجب "رجالاً". قلت لنفسي: سأكون ملكاً لمن أحب ؛ لأنه سيكون ملكاً لي أيضاً. هذا ما شعرت به أمام

نظرات عينيك العميقتين اللتين أخبرتاني بأن الحب هو الهدف الأول في حياتك. أتدري متى أحببتك؟ ولماذا؟ ليس حين التقينا في حفل الحزب، وليس بسبب المصالح كما يتبادر إلى ذهنك، وتنعتني به في بعض الأحيان، وأنتَ سكران، بل حين أخبرتني ذات صباح بأن لا فائدة من التضحية من أجل الوطن إن لم تكن مسؤولاً عن عائلتك أولاً. ساعتها لم أكن أعرف وضع الخالة "فائزة". كنت أتصورها زوجتك، وأحببتك أكثر وأنا أدرك مسؤوليتك نحوها. لكنني وجدت نفسي في فخ أكبر من الفخ الذي وقعت فيه أمي وهي حائرة بين واجب العشيرة، التي ضحت بها، وبين واجبها نحونا ونحن أطفالها.

أتدري؟ اعترفت لي أمي ذات مرة بأنها كانت تحلم بالحرية، على الرغم من أنها أحبت أبي، وأنها كانت تحصي الأيام حتى تحمل بطفل آخر، وتتعجل ولادته. فربما يكون صبياً، فتعود إلى أسرتها، ولم تفكر لحظة واحدة في أن حريتها تعني تركنا وأبي، قالت لي:

لقد أبقيت على الطفلة ذات الأعوام التسعة في داخلي تفكر وحدها في طفولتها التي تم قطفها فجأة، في صباها الذي ضاع، في بيت أهلها حيث تركض وراء الدجاجات الصغيرات وتمسك بالبيض في "الخن"، فلما وصل الصبي، فرحت بقدومه، وتعجلت فطامه، ومرور سنتي الإرضاع. جاءت لحظة الانعتاق فانكشفت أمامي فجأة تلك الصلة بين الطفلة التي كنتها والمرأة التي أصبحت، وحين طردتني عمتي "أم زوجي" وعيت المعنى، واكتشفت أني ضحية في كل الأحوال. وعرفت أن جدتك لا تكرهني كما تتصور؛ فقد نما بيننا نوع ما من الألفة، وعدم الاستغناء.

قلت لها: يا أمي هذا الخيط هو خيط الحب بين الضحية والجلاد؛ لأن الجلاد لا يكون جلاداً من دون ضحية.

قالت أمي: لكن جدتك أيضاً ضحية. لم تكن ضحية أخي قاتل ابنها وحده، بل ضحية ابنها نفسه. ضحية طمعه في امرأة يعرف تماماً أنها ليست له.

قلت: من أدراكِ أن "خلود" لم تحب عمي "مهدي"؟ هل تقطعين بعدم وجود قصة حب بينهما؟

ارتبكت بشدة. يبدو أنها لم تفكر في هذه الفكرة البديهية من قبل، أو أنها استبعدتها؛ لأن معناها أن حياتها قد ضاعت من أجل فعل طائش لرجل يدافع عن

شيء ليس ملكاً له وأنه حرم ابنة عمه من حبيبها وقهرها مرة أخرى حين خرج من السجن ليتزوجها، فلم يجرؤ واحد من القبيلة على الاقتراب منها باعتبارها خطيبته. أو باعتبارها شؤماً. قالت أمي :

كانت العائلتان قد قرأتا فاتحة "العباس"* وتعهدتا أن يزوجا الطفلين "خلود" و"مهدي" حين يبلغان رشدهما. شر كبير يا بنتي يحيق بوالدي الفتاة والفتى، إن هما نقضا تلك الخطبة. اتركي الماضي لحاله. لقد أحببت جدتك، وأشفقت عليها حين أدركت معنى أن يكون لي ولد أربيه بدموعي، وشقائي. بفرحي، وعزي، ثم يختفي في ريعان الشباب قبل أن يزف إلى عروسه. فهمت آلامها، فرحمتها ؛ وهذا ما أعادني إليها حين طردتني.

قلت : أحبك يا أمي لكني لن أكون مثلك أبداً. سأكون ما أريد لنفسي أولاً.

قالت : حين تركت البيت وقفت خلف الباب حائرة، لا أعرف إلى أين يأخذني "البلم". جرحتني أعواد السافانا التي وقفت في طريقي لأول مرة، أعاد لي النزف إحساس الحياة، أخيراً بكيت من الألم كما يبكي البشر. لم أهتدِ إلى طريق بيت أبي الذي أحفظه في الظلام. كانت أمي قد ماتت منذ زمن طويل بعد أن سجن أخي، وزواجي. وتزوج أبي من خالتي لتربي أولاده. عرفت ساعتها أنني لم أعرف في حياتي غير السجن الذي نشأت فيه، ولم أستطع التعرف على ملامح تلك الطفلة التي كنتها. في بيت أبي واجهت نفسي، وأخرجتها وأجلستها أمامي فوق حافة البلم الذي يخترق شعاب البوص الحادة وقلت لها: أخيراً عدتِ إلى الحياة. نظرت الطفلة طويلاً نحوي وسألتني: من أنتِ؟

بكيت. أتدرين لماذا؟ افتقدت حياتي الحالية. وصلت إلى بيت أبي محطمة تماماً. قبلت يديه المرتعشتين بالإهانة وقلت له : لا تغضب، سأعود إلى أطفالي في الصباح. وراحت الصباحات تتقاذفني حول البيت. أراكن في ذهابكن إلى المدرسة، وعودتكن منها أجمع الحطب وأكومه إلى جوار الباب. أحش الزرع، وألتقط ثيابكن من فوق الحبال، أرتبها، وأتركها فوق البرميل الخشب. وأعود في الليل إلى بيت أبي لأستمع إلى وخزات خالتي "مرت بوي"، وعوائها الذي لا يرحم، حتى اقتحمت البيت على

* الإمام العباس .

عمتي ذات صباح حين علمت بمرضها وفيضان النهر. كنت أعرف أنها تفتقدني، وتحاول أن تصدق أنها حققت الغرض من وجودي : طفل صغير يحل محل ابنها، لكن يا ابنتي صدقيني ؛ لا أحد يحل محل أحد ؛ فهذا الطفل الذي انتظرته طويلاً هو ابني أنا، وليس ابنها. لقد شاخت جدتك لحظة أن رأت الطفل؛ لأنها أدركت هذا، ولم تستطع أن تواجهني ولا أن تواجه العائلة بإدراكها هذا، فكان قرارها بطردي هو الحل العملي الوحيد لكي لا يبقى الفشل ماثلاً أمامها ليل نهار. لكنها حين هدأت ؛ انقشعت الغمامة من أمام عينيها. عرفت أنها أحبتني كما أحببتها فقد تشاركنا حياتينا، حتى لو كان ظاهرها الكراهية ؛ ذلك أن أياً منا لا تملك في ذاكرتها صورة واحدة من دون الأخرى منذ مقتل ابنها. كنت ظلها، وكانت ظلي.

قلت: هذا أشد أنواع الاستلاب إيلاماً، مهما ضم من مشاعر نبيلة. سأبحث عن رجل يعطيني نصيبكِ، ونصيبي من الحب المفقود، وسأجده. وقد يعطيني بقدر ما بُخل عليكِ به.

قالت : أغرى جمالي أباكِ. وهو يحبني ؛ بيننا عشرة وأولاد، فلا تبتئسي من أجلي. فقد عشت حياة سعيدة.

أحببتك يا "حلمي" حين أدركت حبك لأسرتك، ووطنك. وأقول لك إنني أنا التي اخترتك. أنا التي قررت أن تكون لي قبل أن تعرفني، وتحبني ؛ أنا ابنة عشتار."

أغلقت دفتر مذكرات "أنهار". لا أعرف كيف وصل إلى الصندوق، لكني أعرف أين سأبذل الجهد في إيصاله لها. كيف ستعرفين مكانها في أيام قليلة؟ إذا لم يستطع "حلمي أمين" بكل اتصالاته أن يعرف؟ ربما عرف. وقد يكون لديها تفسير لما يريده مني. انتبهت إلى صوت الماء الذي تركته يتدفق في البانيو قبل أن أفتح الأوراق. انزلقت داخله. سخونة الماء خدرت أعصابي ومسحت التعب عن عضلاتي، وأنا أستدر اللبن من ثديي بحركة آلية نصف واعية حتى انتهيت وخرجت منتعشة لا رغبة لي في النوم، ولا في إضاعة دقيقة واحدة من وقتي في بغداد. أريد أن أستنشق هواءها وأعيد الحياة إلى كل ما مر بي على أرضها. تأتيني وجوه وابتسامات وأماكن وموسيقى في شريط طويل متتابع للأدباء العراقيين الذين أحببتهم."الجواهري أبو فرات"، "البياتي"،

"سعدي يوسف"، "غائب طعمه فرمان"، "فؤاد التكرلي"، "جليل حيدر"، "حسب الشيخ جعفر"، "عائد خصباك"، "ياسين النصير"، "محمد الجزائري"، "كامل الشرقي"، "حميد سعيد"، "مظفر النواب".نصب "جواد سليم" في ساحة النصر. "ضياء العزاوي"، و"ضياء حسن"، "ليلى" و"سعاد العطار"، "لطفية الدليمي"، مرقد مولانا "الكاظم"، النجف وكربلاء والكوفة، ملوية سامراء، نار بابا كركر، أهوار البصرة، و"أنهار خيون"، جبال حمرين، "جمال وسلافه"، و"حميد"، "ناريمان"، "نافعه وليلى وجوان". جيراني في حي الشرطة، "أم صفاء وأم سامي" وجيراني في حي الدورة : "أبو دلف" و"أم جمال"، وأم "سميرة".

قمت لأتصل ببيت "أنهار خيون" في الكاظمية. طلبت الرقم. سمعت صوت جرس طويل استمر لبعض الوقت. سألت نفسي هل تأخر الوقت إلى هذه الدرجة؟ قد يكون الشباب في الخارج، وخالة فاطمة سيدة مسنة، لا داعي لإزعاج الناس. غداً أعيد المحاولة بعد الإفطار. غيرت قناة الموسيقى العالمية في الراديو. سمعت "ناظم الغزالي" يصدح بموال عراقي :

تيهي على عاج الورد والنور وعلى عناقيد الكروم خمورا
وتمنعي فالشعر وحي تمنع واللحن يطلب إن وقعت أسيرا

اتصلت بـ"فتح الله" في الموصل: كيف حالك وحال مها؟ أنا هنا في بغداد. لمدة أسبوع وأريد أن أراكما.

- أهلاً يا "نورا" أوحشتنا جداً. نحن بخير، و"مها" غارقة في مشروع التخرج. وهو ما يجعلني صابراً على البقاء في هذه الظروف حتى تنتهي من دراستها.

- هل الظروف صعبة إلى هذه الدرجة؟

- هنا في الموصل أمان، لكن الظروف اختلفت كثيراً. ضغط العمل بسبب الحرب، وتجنيد كل الشباب في الجيش جعل حياتنا مرتبكة، ولا نكاد نلتقي. و"مها" في حالة طوارئ دائمة. السفر الآن معناه البحث عن جامعة جديدة، وإجراء معادلات دراسية نحن في غنى عنها. ومشاكل أوراق سبق وخضناها من قبل.

- في الدول الاشتراكية جامعات كثيرة تقبل التحويل.

- اكتظت الآن الدول الاشتراكية بالشيوعيين العراقيين بعد أزمة الحزب. مع الأسف مازالت "مها" في الكلية. سأجعلها تتصل بك من فور عودتها.

- أتعرف أين"بسيوني؟ معي رسالة من عائلته.

- في منطقة قريبة من البصرة يعمل في إحدى الورش التابعة للطرق.

- جميل جداً. في برنامج المؤتمر زيارة إلى البصرة بعد ثلاثة أيام. ليتك تخبره أنني سأكون في الشيراتون. ويستطيع تأكيد الموعد معي على تليفون فندق الرشيد ومواعيدي بعد الثانية عشرة مساءً وقبل التاسعة صباحاً.

قال: حاولت كثيراً إقناعه بالعودة إلى مصر، لكنه متردد. يقتنع أحيانا حين تثقل عليه ظروف الحرب، وتصله رسالة من أمه أو خطيبته، وأحيانا تغريه المال بعد أن تضاعف أجره ثلاثة أضعاف دفعة واحدة. ربما تستطيعين إقناعه بالعودة.

- هل هناك فرصة لأراكما أنت "ومها" قبل سفري؟

- سأبذل قصارى جهدي لكي أحصل على إجازة. ستفرح "مها" كثيراً.

تذكرت "مها" بطيبتها الشديدة وروحها التلقائية، وتمنيت أن أراها، وأن تسمح ظروفهما بالحضور إلى بغداد. اتصلت بـ"طارق مندور". أحمل له رسالة من أخته أيضاً. يعمل الآن في السليمانية بعد قصة فشل طويلة في بغداد انتهت بالاستقرار في الشمال الجميل. قال صاحب الكازينو الذي يعمل به: في الصباح أبلغه باتصالك عيني.

أجلت الاتصال بـ"عبد الرحيم" و"سهيلة" إلى الصباح حتى يصل "عبد الرحيم" إلى عمله وأعرف منه باقي أخبار الشلة. فتحت باب الشرفة. تطلعت إلى الظلام. بحثت عن الطيور النائمة ببصري. تذكرت جلستي في شرفة بيتي في حي الدورة أتطلع إلى سماء بغداد. وأكتب:

يا ليل الشتاء أحبك
أنظر من خلف النافذة
إلى الأشجار.. إلى الشوارع الخالية
أنتظر أن يأتي القمر
وتهدأ الريح
أبحث عن الطيور النائمة ببصري

أرى الزهور ترتعش في الظلام
لكن تصمد
لا يشعر الكون أني أتلصص عليه
أحبه في صمته
في ثورته
أحب الكون كما هو.

أردت أن أستعيد أيامي في بغداد. سحبت كليماً صوفياً كان مفروشاً على أرض الغرفة. وضعت وسادة وراء ظهري، ورحت أتأمل الفراغ أمامي. أحاول اختراق الجدار المطاطي للظلام. سطعت في ذهني أيام لم تنمح من ذاكرتي قط، وبقدر ما حملت لحياتي القلق بقدر ما أغنتها بالنجاح والسعادة. تذكرت زيارتي إلى الخالصة بعد عودتي من زيارتي الأولى إلى القاهرة.

كنت على وشك الانتهاء من جمع مادتي حين علمت أن فريقاً سينمائياً مصرياً يصور فيلماً تسجيلياً هناك. وأخبرني"حلمي أمين" أن "عبد البر" قد عرض علي المخرج "هادي النحال" مذكراته، لكنه رفضها. وقال أن "هادي" لن يخضع لابتزاز عبد البر بالطبع.

دارت كاميرات التصوير في أنحاء القرية. وفجأة اتهم "عبد البر" بسرقة بعض المقاعد الخاصة بالعمل السينمائي، ضبطت في بيته فعلاً. لكن المخرج ذهب إلى البوليس وأخرج "عبد البر" من الحجز مدعيا أنه طلب منه حماية الآلات والمعدات في وقت غياب فريق العمل.

قضى "حلمي أمين" ساعات يحدثه عن البداية الجديدة والحلم الذي يعيشه الآن والذي سيضيع بالصغائر، و"عبد البر" ينفي كل ما يقال عنه. جاءت زوجته لتؤكد ما حدث : هو يفعل كل ما يتهمه الناس به، ولن أزيد أكثر من هذا.

قال "عبد البر" : ماذا تفهم امرأة عملت خادمة في البيوت؟ ما زالت تعيش بنفسية العبد، ولذة العبودية. ولا تستطيع أن تتصرف في دارها باعتبارها سيدة الدار.

أنهيت جمع مادتي العلمية، ورتبتها في جداول الإنتاج الزراعي، وموعد احتفال الخالصة بمرور سنة على إنشائها يقترب. ثم فكرت وأنا أكتب تاريخ المائة أسرة أن أكتب تاريخ الفلاح المصري نفسه. سألت نفسي : هل أستطيع أن أستعرض هذا التاريخ في فصل صغير؟ رحت أبحث عن مراجع، و أعطاني "حلمي أمين". بعضها، وبحث معي في المكتبات عن بعضها الآخر. ثم أحضرت معي من القاهرة باقي احتياجاتي، ورحت أكتب.

تركني "حاتم" أنقطع للكتابة بعد عودتي من المكتب. اخترع لنفسه مشروعاً لعمل تغييرات في الحديقة، وانشغل به تماماً. كنت أذهب إليه والفأس في يده، يقول : ستدهشك النتيجة.

اتسعت الحديقة وأصبحت أكثر بساطة وبهجة. بعد أن هدم "حاتم" عشة الطيور غير المستعملة، وزرع حوضاً للزهور من لون واحد، وانتهى كتابي و قدمته إلى "حلمي أمين". وفي اليوم التالي وقعه بالموافقة، وقدمناه إلى وزارة الإعلام فقبلته.

رحت أتأمل حال القرية وهى تدخل عامها الثاني مع فصول السنة الثانية. كان الفلاحون قد حصلوا على الأبقار المحسنة التي قدمها لهم المشروع، وبدأ خير البقر يدخل حياة كل دار. ويضع لمسة كانت غائبة عن صورة الحياة الريفية هي قطعة الجبن ووعاء الحليب، والقشدة والزبد. وكان الإنتاج يزيد، والأرض تلين أكثر تحت الفأس، والسوق تتسع أمام الحبوب والخضروات. والديون تلغى والراتب الشهري يستمر بقرار من اتحاد الفلاحين. وأصبح الاتصال بين القرية والعاصمة ميسراً بخط أتوبيس جديد. وتقدمت الصحة العامة وانعكست على الوجوه والأجساد، وبدت زيادة دخل الفلاح على أثاث بيته وفنائه. واكتسبت الحقول حيوية بما أقامه الفلاحون عليها من أكواخ العمل، وما يرتع فيها من دواب. وكانت عملية جمع الشمل وتكامل العائلات تسير سيراً طبيعياً. صادق الفلاح الأرض والتصق بها بعد أن شربت عرقه.

طالعتنا الصحف المصرية فجأة بخبر تنحي "عبد الصمد البحراوي" عن عمله.

قلت لحاتم : كان مرضه سياسياً إذن. كان يعرف أنه سيعزل من منصبه.

ترقب الوسط الصحفي صدور قرارات أخرى بتغيير رؤساء تحرير بعض الصحف المصرية، ومع سرعة الرياح التي تهب على المكان، وقلق "حلمي أمين" من القبض عليه

إذا ما عاد إلى القاهرة، خاصة بعد أن ثبت صدق رؤيته، وخطأ تقدير "صبري حنفي"، و"محمود الموافي"، قررت السفر إلى مصر بسرعة لمعرفة ماذا سيصير إليه وضعي في المؤسسة، وما سيؤول إليه وضع المكتب.

قال أبي ضاحكاً وهو يراني متعجلة الذهاب إلى ابني في مغاغة قبل أن يهبط الليل : ليس أكثر من خنزير صغير.

تعمدت أن أسلم عليه كما سلمت على باقي العائلة، وأن أجلس أمامه دون أن أخطفه، وأغرقه بقبلاتي وقلبي يتمزع. أشرت إلى جدته وعماته ألا يقلن له شيئاً. لم يأخذ وقتاً طويلاً حتى يأتي إلى حضني. كنت قد جلست أمامه واضعة كل اللعب الملونة الجديدة، التي اشتريتها له على الأرض. ملأت "زمبلك" النحلة، راحت تزن، وهي تحرك أجنحتها وترتفع عن الأرض قليلاً، ثم تهبط إليها. لعبت وحيدة دون أن أدعوه، وأنا أشعر بعينيه اللتين ترقبانني. جاء والتصق بكتفي، ومد يده إلى النحلة، وأعاد ملء الزمبلك دون كلام وابتسم. لعب، ثم ألصق فمه على خدي، وقبلني. نزلت دموعي، وجاهدت ألا يراها. قضينا وقتاً ممتعاً معاً. تكفلت الإجازة الماضية بإعادة تعريفه بي. فرحت أنه لم ينسني. بقيت ليومين في بيت حماتي. كنت قد لاحظت من قبل تحول لهجته تدريجياً إلى لهجة صعيدية قح. ليست لهجة أهل البيت، ولكن لهجة الفلاحين العاملين في الحقول. أظنه تأثير الشغالة نادية، وأيضاً أطفال الجيران. أمسكت به وهو يركض وراء الكلب العجوز بالعصا، والكلب يلهث. قلت: حرام يا "ياسر".

قال: ألأب مهاه.

أفلت من يدي، وركض وراء الكلب الذي تباطأ أمامه هازاً ذيله.

تاألى نه.. نه (تعالى هنا)..

ابتسمت. أخرجت علبة بسكويت من حقيبة يدي، وناديت عليه ليأكلها. أخذها من يدي، وذهب بها إلى الكلب المستلقي في الشمس، ووضع قطعة بسكويت في فم الكلب الذي فتح له فمه عن آخره. لاحظت تساقط أسنانه. ورأيت ساعد ابني يختفي. توقف قلبي. استسلم الكلب يهز ذيله سعيداً، وابني يرمي بجسمه عليه.كيف أقنعه؟ وبماذا؟ هو يعيش حياته، ومتعه المتاحة. تذكرت كلمات "حلمي أمين" وهو يقول لي : يرسل

العرب أبناءهم إلى مضارب أخرى مع المرضعات لكي ينفتحوا على العالم. يركضون وراء الأغنام، والإبل في العراء. هذا "أصح". ويرسل الإنجليز أبنائهم إلى مدارس داخلية. لست أول من ترك ابنه في مكان آخر. تتقاطر الدموع من عيني. أسأل الطبيب: متى يا دكتور؟ متى؟

يقول : اصبري. هانت.

أمسكت بالمسجل ورحت أحدث "ياسر"، وهو يجيبني بلهجته التي يتحول فيها حرف القاف إلى جيم، والجيم إلى دال في بعض الأحيان. أغني معه دون أن يفهم ما يجري.

بيبه عم حمادة/ بيبه جابلي طبق/ بيبه مليان نبق/ بيبه جالى كولي/ بيبه قلتله ما كولش/ بيبه وديه لامك/ بيبه. أمي بعيد/ بيبه. آخر الصعيد/ بيبه. والصعيد مات/ بيبه. خلف بنات/ هيه. خلف بُنيه/ بيبه. جبت القطيه/ بيبه. خدها عليا/ هه. خدها بدبايح/ بيبه والسمن سايح

حملته هو والشريط إلى القاهرة. قابلت "صبري حنفي". كان هادئاً كالمعتاد. أخبرني أنه سيبذل كل جهده لمساعدتي. دخلت إلى مكتب "أحمد حرفوش" الذي رحب بي بشدة، وجاء "فهمي كامل". قال بترحيب شديد، وابتسامة تملأ وجهه : ما أخبار "حلمي أمين"، وأخبار المكتب؟

قلت ببرود وأنا أشعر أن ابتسامته لا معنى لها : بخير.

دق جرس الهاتف. رفع "أحمد حرفوش" السماعة. تغير لون وجهه وقال : نعم. هكذا. هل هناك أسباب؟ شكراً.

وضع السماعة، ونظر إلينا صامتاً. ثم قال: تم إيقاف الحلقات التي أكتبها عن ثورة يوليو، ومن دون تعليق.

قلت : بدأ التغيير فيما تنشره المؤسسة إذن.

لم يعلق أحد. استأذنت في الانصراف يملؤني التشاؤم. قابلت رئيس مجلس الإدارة الجديد بعد أيام. أخبرني أن وضع المكتب كله سيناقش في اجتماع خاص لمجلس الإدارة، وأن وضعي سيناقش ضمن أوراق المكتب. عدت لـ"صبري حنفي". قال : الخوف على المكتب من الحكومة العراقية نفسها، بعد التغيرات التي حدثت في مجلة الزهرة ؛

فقد يطلب العراق إغلاقه. لم أدرك بالضبط من أين استقى هذه الفكرة، وهل لها مصادر عراقية؟ ولم أعلق. تتغير الأحداث بسرعة أكبر من قدرتي على اللحاق بها.

قال "حلمي أمين" معقباً: "صبري" دائماً متفائل حتى وهو مضروب.

أيامي

فردت ذراعيّ على آخرهما. أحتاج إلى تمرينات ليونة تعيد عظامي إلى مكانها. تثاءبت، وأنا أغلق باب الشرفة، فلما دخلت فاجأتني صدمة الدفء اللذيذة. لمحت ملف" حلمي أمين" فوق المكتب. أخذته إلى السرير وقلبت أوراقه. يبدو أنه أفرغ الشرائط التى كنت أسجلها معه وأكمل كتابة الناقص منها. قرأت :

"حين كنت أملي هذه الأيام على "نورا" حسب اقتراحها. كنت أعرف بطبيعة الحال أن هناك الكثير الذي لن أسجله معها، ويحتاج إلى كتابته مباشرة بنفسي. شجعني الاستمرار اليومي على التسجيل على إنعاش ذاكرتي وجاء سؤالها لي اليوم، وهي تتخابث ضاحكة عن النساء، ليفتح شهيتي للكتابة. تتحاشى "نورا" السؤال عن "أنهار"، وأقدر لها هذا على الرغم من أنني أعرف تماماً أنها تلاحظ. كنت قد حكيت لها عن "عصمت"، لكني لم أذكر له شيئاً عن متعة الاكتشاف الأول لجسد المرأة، وقد آن الأوان لتكون هذه المذكرات سيرة ذاتية حقيقية.

كنت أزور القاهرة في أول رحلة مدرسية. أعطتني جارتي علبة كرتون وضعت فيها بطة وشعرية محمرة وعدداً من أرغفة الخبز وبرتقالات وموز لكي أوصلها إلى ابنتها المتزوجة في القاهرة. وعلى الرغم من أننا كنا في ديسمبر فإنها جعلتني أقسم لها أنني سأوصل الطعام من فور دخولي القاهرة. خجلت من الاعتذار، على الرغم من أنني أريد الالتزام ببرنامج الرحلة مع زملائي. بحثت بعد المغرب في حدائق شبرا عن العنوان حتى وجدته. بيتاً من طابقين تقطن العروس شقة صغيرة في طابقه الأول. قرعت الجرس فسمعت صوتاً رقيقاً والشراعة تفتح يتساءل : من؟

قلت : أنا "حلمي". "حلمي أمين" من كوم الشقافة.

قالت "سنية" وهي تفتح الباب : أهلاً أهلاً. "حلمي" ما شاء الله أصبحت رجلاً.

أعطيتها العلبة، وشكرتها واعتذرت بضرورة عودتي لزملاء الرحلة، لكنها

أقسمت بكل الأيمانات أن أدخل وقالت إن زوجها "عبد الفتاح" غائب في مهمة لمدة ثلاثة أيام. وإن الله قد أرسلني إليها من السماء. تركتني في الصالة، وسمعت أصوات الأواني وهي تتخبط، ثم دخلت بصينية كبيرة عليها الطعام الذي أحضرته لها من الإسكندرية. فلما اعتذرت، قالت :

في الصباح سنرمي كل هذا للقطط.

جلست وأنا في غاية الخجل، ثم استأذنت في الانصراف. أخبرتني أن المواصلات صعبة الآن. تشبثت بي، واصطحبتني إلى غرفة نومها.

قلت : سأنام فوق كنبة الصالة.

أنزلت مرتبة في غرفة المسافرين وأعطتني بطانية وقالت : تصبح على خير.

لم أكن قد غرقت في النوم بعد، حين شعرت برائحة بنفسج تدغدغ أنفي وانتبهت إلى دخولها المتسلل تحت الغطاء. تسمرت من المفاجأة، وهي تضع يدها فوق عضوي الذي انتفض منتصبا تحت كفها. راحت تزيح ملابسي الداخلية التي نمت بها. لم أعرف ماذا أفعل. رحت أبحث في عقلي عن دعسات أقدام خلف باب الشقة. نظرت في عينيها أستغيث. انقلبت على ظهرها، وسحبتني مثل غطاء.

قالت : اتركه هو سيعرف طريقه.

بالطبع لم يعرف أي شيء. كل ما كنت أملكه ذاكرة عن فتوحات الأصدقاء في عالم النساء، وصوت سرير يئن في غرفة أخي المتزوج معنا في البيت. أخذته بيدها إلى فتحة غارقة في البلل، وانقبضت عليه، وشعرت أنني فوق موجة من نار ترتفع بي، وتنخفض، وأنا أتشبث بها، وأعوم فيها بسلاسة غريبة. سقطت في لجة تفور، وعالم جديد ينفتح أمامي، لا أريد له أن ينغلق أبداً. زارني ضجيج وازدحام يريد الانطلاق ثم ارتعاشات قوية وسريعة أركبتني فرساً جامحاً ركض بي، وأنا أسمع صوت ثغاء ماعز حتى أوقعني على الأرض مغسولاً بماء الحياة والعرق. همدت ورحت أبحلق في سقف الحجرة غير قادر على الكلام. قامت نصف قيام وقبلتني فوق شفتي، ثم عادت لتنام فوق ظهرها عارية، ويدها على صدري.

قالت : يا غشيم.

وصلني صوت تنفسها لدقائق، ثم قامت وأشعلت سيجارة ومدتها لي لندخنها معاً، فلما انتهينا، انزلقتُ تحت الغطاء كي أنام.

قالت : بدري

اعتلتني، وهي تمسك رأسي بكلتا يديها. أدخلته بنفسي فيها. تعالت ضحكاتها قائلة :

أيوه كده يا نمس.

جلست تهتز وهي تدلك جسمي بيديها، وتقبلني في وجهي كأنها امرأة أخرى. تستثيرني على مهل، والرغبة تتقافز في شراييني مفعمة بحيوية جوع لا يشبع لفرج أعرفه للمرة الأولى في حياتي. يعتصرني ببطء ويتركني. استسلمت لحركة أصابعها الناعمة فوق صدري. أمسكت بكف يدها ورحت أقبلها وأنا أستعيد في ذهني صورة "فيفيان لي وكلارك جيبل" . قالت : على مهلك.

وضعت يدي فوق ثديها، وألقمتني الثاني في فمي. تلوت وهي تغرقني في قبلات طويلة عميقة، وتصاعدت حركة قيامها وقعودها حتى انفجرت وشعرت بها تتمسك بي أكثر فأكثر ثم سمعت صوت ثغاء رفيع حاد، وعيناها تغربان نحو لا شيء. ورأيتها تنسحب إلى الحاشية في هدوء، والدموع تغرق وجهها .سألتها وأنا بين الغياب والحضور:

ماذا بك؟ هل آذيتك؟

ربتت فوق جسدي، وأخذتني في حضنها قائلة قبل أن تنام : ربنا يحميك.

دخلت في الصباح حاملة صينية فطور. قالت : آسفة. أيقظتك مبكراً حتى تلحق بأصدقائك قبل أن يتحركوا إلى الهرم.

لم أنس "سنية" قط. حالة سرية سكنت ذاكرتي، استحضرتها كثيراً كلما عانيت من حالة برود عاطفي أو من وحدة. كانت الشرارة التي تشعل في نار الشهوة.

* * *

هل يحق لي مواصلة القراءة؟

وكيف سأعرف ما أراده مني إذا لم أعرف ما بها؟ أغلقت الضوء.

صحوت في الخامسة صباحا كالعادة. أنهيت تفريغ اللبن، وحمامي، وجلست أراجع بحثي الذي سأقدمه اليوم في جلسة الصباح الأولى. كنت قد أعددت برنامجا تثقيفياً مكوناً من كتب الأدب، والفكر المبسطة، ومبادئ في كل فروع العلم مرتبطة بحياتهن مباشرة. نزلت إلى المطعم مبكراً، ووفرت وقتاً بعد الإفطار للاتصالات التليفونية. قبل الذهاب إلى الجلسة جاءني صوت الهاتف في بيت "أنهار خيون"، تركته لمدة طويلة يدق حتى انفصل آلياً. اتصلت بعاملة البدالة، وسألتها إن كان يمكن التأكد من صحة رقم التليفون وسلامته؟ أجابتني بعد دقائق بأن الرقم صحيح، وأنه لا يوجد أحد بالمنزل. رجوتها أن تعاود الاتصال بهم، وتخبرهم أني في بغداد، وأريد زيارتهم. اتصلت بـ"عبد الرحيم منصور" في الجهاز المركزي للسيطرة النوعية، وتركت له خبراً كي يتصل بي.

مرت الساعات بسرعة. وتوقفت إحدى المتحدثات طويلاً عند طرح أسماء مفكرين آخرين غير المفكرين العراقيين.

قلت : حين تسألون متخصصاً من دولة أخرى فإنه لن يقول لكم ما عندكم. وإلا فما الداعي لدعوتنا إلى النقاش؟

هربت إلى الحمام قبل أن ينفجر ثديي باللبن وتكون فضيحة. وحين عدت إلى القاعة جاءت "ليلى" مرافقتي الرائعة تحمل في يدها كوبا من الشاي بالحليب. ابتسمت "منى عايد"، ثم علت ضحكتها. سألت "ليلى": لماذا تضحك مني؟ أرى في عيونكن ابتسامة خبيثة.

قالت "منى" : تذكرت نكتة "أبيحة" تقول إن أحد زبائن مقهى طلب شاياً بحليب، وذهب الجرسون بكوب الشاي إلى المعلمة كي تحلب له اللبن من ثديها. صرخ الرجل: ما هذا؟ قال الجرسون : اللبن خلص، واحمد ربنا إن المعلم ليس هنا.

نظرت "ليلى" نحوي طويلاً، ثم نحو "منى عايد" لا تستوعب، ثم انفجرت في الضحك حتى كادت تسكب الشاي من يدها.

خصصت الندوة الثانية للحديث عن محو الأمية عند الفلاحات، وعند النقاش سألتني أبلة "وداد إسكندر"عن التجربة في الخالصة فأكدت لها نجاح الفلاحات.

جلسنا متحلقات حول الطعام بدعوة من وزير التخطيط، وجاء صديقي "عماد البزاز" من وكالة الأنباء العراقية ليجلس إلى جانبي. قلت: ابن حلال. كنت سأتصل بك اليوم.

قال: صار زمان أم "ياسر".

غرقنا في حديث طويل عن مصر والعراق، وأحوال الدنيا ثم سألته عن "أنهار".

قال : لا أعرف إن كانت قد حصلت على عطلة طويلة من دون أجر أو استقالت، سمعت أنها في البرازيل. وقال لي أبو "لؤي" رئيسها في العمل إنه قابلها في "شسمه"[1] ديترويت في الولايات المتحدة.

قلت : هل هي على قيد الحياة؟

تلعثم قائلاً : ولماذا لا تكون على قيد الحياة؟ نعم. في الخارج فحسب. تعلمين كيف يتحرك الشيوعيون.

قلت: هل لحقت بها أمها؟

قال : لا أعرف. هي صديقتك "مو؟"[2] أتذكر. كنت أراكما كثيراً معاً.

قلت : كانت تعمل معنا في مكتب الزهرة. ثم اختفت فجأة.

قال : خليني أسأل. كثيرون راحوا لأوروبا ، ولأمريكا ، وحتى اليمن وبيروت.

قلت : أريد الاطمئنان عليها. مع الأسف لا توجد معي أرقام تليفونات أقاربها.

جاءت "ليلى" تقول : سنذهب إلى مسجد الامام الكاظم. هل تأتين؟

قلت : بلي. هسه أجي[3]. خمس دقائق؟

قالت : نعم. تدللي قلبي، يا وردة.

اختفيت في الحمام أفرغ ما أستطيع بسرعة من ثديي حتى ألحق بالسيارات، وبعد عشر دقائق كنت أصعد الأتوبيس لاهثة. جلست في نهايته أتابع الشوارع التي أحبها، ونحن نعبر الجسر المعلق، مازالت الشوارع مزدحمة بالسيارات. توقف المطر، وأرسلت الشمس أشعتها تحسو الماء النازف المكوم بجوار الأرصفة. أسندت رأسي على زجاج النافذة، ورحلت إلى حادثة جرت وقائعها عند مرقد الإمام موسى الكاظم، وظلت تطاردني كثيراً.

---

١ شسمه : . . ما اسمه .

٢ مو ؟ : أليس كذلك ؟

٣ هسه أجي : سآتي حالاً .

كانت بغداد قد أقامت ضجة كبيرة عند انعقاد المؤتمر الفكري حول الصهيونية في خريف ١٩٦٧، وكان هذا أول مؤتمر أتابعه كصحفية مراسلة لمجلة الزهرة. وصل وفد مصري رفيع المستوى من شخصيات بعضها التقيتها، وبعضها سمعت عنها، وبعضها رأيتها في التليفزيون منهم "محمود أمين العالم"، و"أبو سيف يوسف"، و"أحمد حمروش"، و"فتحي غانم".

سألت "حلمي أمين" : من هو "أبو سيف يوسف"؟

ابتسم وقال : كان رئيساً للحزب الشيوعي المصري في فترة، وعند إلقاء القبض عليه في الإسكندرية أظلمت الشوارع ورُحّل في حراسة مشددة.

التقيت بهم في صالون فندق بغداد. بحثت في وجه أبي "سيف يوسف" عما يخيف، ويستدعي إظلام شوارع الإسكندرية حتى يخرج منها. لم أجد شيئاً. كنت سعيدة وأنا أقارن بين الصورة التي رسمتها لكل منهم في خيالي والواقع أمامي.

أطلت من صباي صورة "محمود أمين العالم"، وأنا أراه في التليفزيون كل أسبوع بشعره الأبيض الذي يحيط بوجهه، وهو يقدم تحليله السياسي للأنباء. رأيت أمامي إنساناً بسيطاً مرحاً على الرغم من أن الزمن قد ترك الكثير من مداعابته الثقيلة عليه. حكى لنا عن باريس والمنفى. المفاجأة كانت مع "أحمد حمروش" الذي كنت أقرأ له باستمرار ولم ألقه من قبل. بتلقائيته الشديدة ورقة تصرفاته التي تذكرني بأعمامي وانطلاقهم وحبهم للحياة. كنت دائماً ما أقع في غرام أشباه أعمامي. أخبرني أن أنتظر زوجته لأتعرف إليها، فلما وصلت قام الجميع يرحبون بها بحب خالص، وطلبوا مني أن أصحبها للمشي في المدينة لأنها تحب الشمس. دعوتها إلى رحلة على الأقدام، كانت رقيقة، وناعمة وحنونة وعرفت لماذا قابلوها بهذا الحب.

حين عدنا إلى الفندق، وجدت "فهمي كامل" يجلس بينهم. كنت قد قابلته في أثناء عملي في القسم الرياضي. قدمني له رئيس القسم قائلاً : إنها تريد أن تصبح أديبة. قال : ما شاء الله. ما شاء الله. فلما علمت بقدومه إلى بغداد قررت أن أحاوره وأن أجلس معه وقتاً طويلاً، ووافق "حلمي أمين" أن نجري هذا الحوار لجريدة الجمهورية العراقية.

كان "حلمي" قد اصطحبه ليلة أمس إلى المكتب، وتعرف على الجانب العملي من نشاطنا بصفته رئيساً للتحرير. قدمني إليه قائلاً : تقول "نورا" إنك كاتبها المفضل.

ابتسمت وأنا أسمعه يقول : هل قرأت رواية زيزي والتاج؟

قلت : لا أحب متابعة المسلسلات. سأشتري الكتاب بمجرد صدوره.

قال : أنصحك بقراءتها.

بدا لي سعيداً بمعرفته بي. قال : أتعلمين أنني ووالدك كنا زملاء دراسة؟

قلت : نعم. أخبرني أبي بمقابلتكما هذا الأسبوع.

قال وعلامات الدهشة على وجهه : هل تصل الأخبار إلى بغداد بهذه السرعة؟

قلت : كان أبي يحدثني تليفونياً بالأمس.

قال "حلمي" : وصل السائق. هيا إلى الكاظم.

أخبرت "فهمي كامل" في طريقنا أن منطقة الكاظم منطقة شعبية مزدحمة؛ لأن العراقيين يعشقون الإمام موسى الكاظم ويتبركون بمرقده، وقد بني الجامع على طراز إسلامي فريد بالقيشاني والفسيفساء الملونة، وقبته من الذهب الخالص، وزينت جدرانه من الداخل بالمرايا، وأبوابه من الفضة والذهب.

توقفت السيارة.استأذنت منهما أن أحضر عباءة من أحد المحلات المفتوحة أمام الجامع. فلما عدت بعد دقائق. سمعت صوت "فهمي كامل" الغاضب وكان ظهره لناحيتي يقول لحلمي أمين : لماذا أتت معنا؟ لا وقت عندي لأضيعه. أصبت بضيق، حاولت التخلص منه قبل أن أحدثهم. قلت : تفضلا إلى الجامع أولاً.

لاحظت امتقاع وجهه وعدم قدرته على السيطرة على الغضب وازدادت ملامحه امتعاضاً ونحن نعبر الشارع. وخرجت الكلمات متتابعة وهو يكز على أسنانه من الغيظ. فلم أفهم ما يقول. بدا لي ينفجر. سألت نفسي : أيكون السبب هو هذه الدقائق التي غبتها للحصول على العباءة. أم موضوعاً يخص "حلمي أمين" والمكتب؟ وقف داخل الجامع لدقائق معدودات، وخرج من فوره إلى الساحة، قائلاً : أقترح أن نذهب إلى السوق. السوق هي المكان الحقيقي. أما الأضرحة فقد بنيت لتكون في خدمة السوق ؛ من أجل جلب الزبائن.

وأضاف متبرماً بثقة شديدة : يفهم التجار هذا. وهو ما يجعلني أحترمهم؛ لأنهم واقعيون.

قال "حلمي أمين": ليست المادية ولا المنهج العلمي بهذا الشكل. نبدأ بحب الفقراء

أولاً، ونتفهم لماذا يبدون على هذه الحال؛ مرضى أو أسرى للجهل. إن هؤلاء التجار الذين تحترمهم هم السبب وراء فقر الفقراء. ينظر الفقراء إلى الأضرحة على أنها مثوى زعماء العدل. وهذا أيضاً يدعونا إلى احترام أحلامهم؛ لأنهم يسعون إلى تأكيد قيم معينة. وعلى الرغم من أن هؤلاء الأبطال ماتوا منذ قرابة خمسة عشر قرناً فإن الفقراء ما زالوا على ولائهم لمبادئهم.

قلت: السوق من هذه الناحية.

مشينا في شارع يشبه شارع الموسكي في القاهرة؛ مكتظ بالناس والبضائع. محلات صغيرة متراصة للملابس والمشروبات الغازية ومحلات الكيك واللبن، وشواء على الطريقة العراقية (معلاك) كبد وقلب ولحم. علا صوت "فهمي كامل" ونحن نتجنب الاصطدام بالناس: هذا أقذر مكان في العالم. إنه الجهل، والتخلف. قذر. قذر.

لم نعلق على كلماته. رحت أتبعه صامتة. كان يتحرك بقوة الدوران شبه تائه وبدا لي رأسه في عالم آخر. يتابع بعينيه تفاصيل الصورة ينظر إلى الماء الراكد على الأرض فيزداد وجهه امتعاضاً. ينقل البصر بين وجوه الناس، وتعلو ملامحه مشاعر الاحتقار الشديدة، ثم يهدئ من خطواته كأنما ليثبت الصورة في ذهنه. مشيت وراءه مذهولة. أريد أن أدافع عن المكان الذي أحببته، ليس بسبب الطراز المعماري الفريد للجامع، ولا فنون زخرفته، ولكن بسبب أهله البسطاء الطيبين الذين يذكرونني بأهالي حي السيدة زينب والحسين وكل الأحياء الشعبية في القاهرة. ورحت أسأل نفسي عن هذه الكراهية غير المبررة.

مضيت أنتقل وراءهم من شارع إلى شارع، دون أن أنطق حرفاً حتى عدنا إلى الفندق. واستأذنت في العودة إلى بيتي. وأبلغت مدير المكتب بأنني سأذهب مباشرة إلى ندوات المؤتمر. ومضيت أفكر في الخديعة التي وقعت فيها ببساطة، حين تصورت أنني استطعت من خلال قراءتي لرواياته أن أمسك بطرف الخيط لشخصيته. اختلفت الصورة الذهنية التي كنت قد بنيتها له عن الواقع الذي رأيته. لم أتحمس لمصاحبته إلى أي مكان في بغداد، وأعلنت لـ"حلمي أمين" امتعاضي لآرائه.

قال : يحب الروائي أن يرصد تفاصيل الأماكن والناس؛ لأنه يحتاجها في الكتابة بعد ذلك.

قلت : وليكن. صورته عندي من صنع خيالي وحده.

انشغلت بضيوف المؤتمر، وعضواته، وأجريت تحقيقات قصيرة قدمتها لمجلة المرأة. سألت نفسي : هل سأخرج أنا أيضاً إلى هذا العالم الرحب؟ مكسيكية رئيسة تحرير، ولم تتزوج. وألمانية سعيدة في بيتها ومع أولادها. كلهن نساء محددات الهدف ناجحات مطمئنات. ترى متى أستطيع العودة بـ"ياسر" من مصر؟ وأعيش كما تعيش الأمهات الطبيعيات. تقاطرت دموعي.

وها أنذا أعود إلى مرقد الإمام موسى الكاظم أزوره مع الضيوف وكأني غريبة عن المكان. تسبب هذا اللقاء في عدم تعييني في مجلة الزهرة، وعندما تغيرت الظروف ونحي "فهمي كامل" عن رئاسة التحرير طالب "موسى شافع" رئيس التحرير الجديد أن أترك بغداد وأعود إلى مصر لكي أثبت ولائي كما قال لي، فلما سألته لمن؟ قال: "للسادات". قلت: أنا ولائي لمصر وليس لـ"سادات". وزوجي لم ينه إعارته للعراق. لن أقسم أسرتي. حين يعود سأعود معه.

التفتت لـ"ليلى" وهي تقول: مختفية في نهاية السيارة؟ هل تعبت؟

قلت : لا. لم أكن لأترك زيارة الكاظم.

دخلنا إلى الساحة الواسعة أمام المسجد. قسمنا أنفسنا حتى نستطيع ارتداء العباءات التي اقترضناها من المحلات المجاورة. وقفت مع باحثات من الاتحاد السوفييتي والهند، وجاءت أنيسة بزيها الباكستاني ولفت ذراعها حول خصري.

قالت: هذا طراز فريد.

دخلنا معاً إلى المسجد. رأيت نساء عراقيات يبكين، وهن يمسكن بالقضبان المذهبة المغلفة للقبر. جاء عسكري ينهرهن. وقعت امرأة على الأرض وهي تبكي ابنها الشهيد. قال الجندي : "ولك يا مره روحي. روحي لأهلك روحي".

أمسكت فتاة بيد الأم الثكلى قائلة : خلي نروح بيبي. خلي نروح فدوة[1].

جلست الأم على الأرض غير عابئة بما يحدث حولها تنادي : يابي يابي ياولدي. يا حبة الكلب[2].

---

١ بيبي : جدتي . . هيا نذهب يا جدتي أنا فداؤكِ .

٢ الكلب : القلب .

انهمرت دموعي. سألتني أنيسة : ماذا تقول؟

قلت: يريد الجندي أن يبعدها عن القبر، وهي تبكي ابنها الشهيد، وتشكو حالها للإمام "الكاظم".

نزلت الدموع تغسل وجوهنا، قالت ليلى : لا يقبل السيد الرئيس البكاء على الشهيد ولا إقامة العزاء. الشهداء ملك للوطن.

لعنت في قلبى كل ديكتاتوريات العالم. وخرجت أجهش بالبكاء. أريد أن أختفي. سمعت صوتاً يقول: "نورا"، ألن تأتي معنا؟ كانت "سهام فتحي" تناديني.

احتضنتني "رجاء" قائلة : لم أعرف أنكِ رهيفة إلى هذا الحد؟

تذكرت "حلمي أمين"، وهو يقول : ينظر الفقراء إلى الأضرحة على أنها مثوى زعماء العدل. أين أنت يا "حلمي"؟ لماذا تركتنا بهذه السرعة؟

تجولنا في المكان. تلفتت "أنيسة" حولها، جاء "جون" وأمسك بيدها، ضحكت "منى عايد" قائلة : يا عيني على الحب!

لم تفهم "أنيسة" اللغة العربية، لكنها أدركت المعنى وابتسمت حتى أشرق وجهها. واختفت دموعنا جميعاً. صحبنا المصور "جون" القادم من النرويج مع شبكته التليفزيونية ليقع في غرام "أنيسة" لحظة أن رآها في المؤتمر. ودخل بنا محل صاغة. اشترى حلية يدعونها "تشف العباس" وهي عبارة عن كف يد منحوتة على شكل نبات يسمى العفص في وسطه خرزة، ووضعها في سلسلة وألبسها إياها ونحن نصفق. لفنا شعور جميل. لم تسأل واحدة منا عن مصير هذه العلاقة وأظنهما لم يشغلا بالهما بالسؤال. سقطا في فخ المشاعر وتركاها تحملهما إلى البعيد. اخترت قطعة من القماش ملفوفة في سلوك ذهبية. أردت أن أسأل البائع إن كانت رمزاً شيعياً، لكني أحجمت عن السؤال، وعلقتها في رقبتي ومضيت. كان الليل قد هبط بسرعة، ولم يمنعنا عن مواصلة تجوالنا في المنطقة المزدحمة بالبشر والحياة. عدنا إلى السيارات التي حملتنا إلى الفندق.

فتحت تسجيل التليفون، وجدت رسالة من "بسيوني" يقول فيها إنه سيأتي للقائي في فندق شيراتون البصرة. حمدت الله. وجدت رسالة من "مها" تخبرني بمواعيدها في البيت. اتصلت بها من فوري، قبل أن أستعد للذهاب إلى العشاء في بيت "فؤاد التكرلي" صديقي الكاتب العراقي الشهير.

قالت : مبروك يا "نورا". عرفت أنكِ رزقت بطفل آخر. ماذا أسميته؟

قلت : "هيثم". عقبالك. أم أن هناكَ "عتريس"، وأنا لا أعلم؟

قالت : لا. نؤجل إنجاب الأطفال حتى أنهي دراستي. حدد "فتح الله" أهدافنا منذ زمن طويل كما تعرفين. ونحن وحدنا هنا، ولا يوجد في عائلتي، أو عائلته من يستطيع الحضور إلى العراق لمساعدتنا. ربما بعد أن تنتهي الحرب نعيد التفكير. للأسف حاولت تدبير عطلة مع زملائي في مشروع التخرج فلم أنجح. لكن فتح الله سيسافر لكِ إن شاء الله. رأيت ما حدث لـ"حلمى أمين"؟

- نعم. أين "عبد الرحيم" و"سهيلة"، و"عاطف"؟ هل مازلتِ تزورينهم؟

- طبعاً. لكن الظروف اختلفت بعد سفركِ، والحرب. سافرت "سوسن" إلى مصر، و"داليا" مازالت موجودة. لا أراها كثيراً. و"راجية" أنتِ تعلمين ما حدث. سأكلمك كل يوم.

اتصلت ببيتى في القاهرة، جاءني صوت الجرس، واستمر دون أن يجيب أحد : أين أنتم؟ عاودت الاتصال. أعطاني نغمة مشغول. اتصلت بعاملة البدالة

قالت : خط القاهرة عاطل لليوم الثاني.

انشغلت بتفريغ صدري، والاستحمام حتى سمعت جرس الهاتف. قالت فتاة حلوة الصوت : لديكِ ظيوف*. المهندس "عاطف".

قلت : أهلاً "عاطف" نازلة حالاً.

وجدته بصحبة "سهيلة" و"عبد الرحيم"، ومعهما طفلاهما: "علي" "وعمر". قلت ضاحكة : لا توجد في العراق كلها أسرة تُسمى "علي" و"عمر" في الوقت ذاته ؛ لأن الأب مصرى سُني، والأم شيعية عراقية.

قالت "سهيلة": كثيرات من صديقاتي الشيعيات متزوجات من رجال من السنة. وكذلك كرديات وعرب وإن كانت قليلة. لكنها تزداد مع الوقت بعد تعليم البنات.

سألتهم عن الأحوال قال "عاطف": تفكر "سوسن" في العودة إلى بغداد، بعد انتهاء العام الدراسي في القاهرة ؛ حتى تعيد نقل البنتين إلى مدرسة عراقية.

---

* يستخدم العراقيون الظاء محل الضاد .

قال "عبد الرحيم": اختلف العراق كثيراً يا "نورا". اختفى الزهو، يشعرون أنهم متورطون. وعلى الرغم من استمرار برامج التنمية كلها على قدم وساق، فإن البهجة بهتت، والناس يعيشون حزناً شديداً.

قلت : هذا بالضبط ما لاحظته.

تحدثنا كثيراً في التفاصيل اليومية، تجنبنا متعمدين الحديث الحرام. لم نذكر حتى اسمه. لم يجرؤ أي منا. رأيت "فؤاد التكرلي" أشرت إليه وقدمته لهم. استأذنوا في الانصراف حتى أذهب معه، ووعدوني بزيارة أخرى. قال "عبد الرحيم" بصوت خافت: هل عرفت ما حدث؟

قلت : نعم. هل كنتم معه؟

قال عاطف : لآخر دقيقة. ليلة سفره إلى فرنسا.

قلت: هل وصلتكم أخبار جديدة عن "أنهار"؟

قال "عبد الرحيم": ولا الهواء.

ودعتهم على أمل لقاء آخر قبل سفري. وأعطيتهم جدول مواعيدي المعروف حتى الآن، وذهبت مع "فؤاد التكرلي".

اعتذرت زوجته المترجمة التونسية "رشيدة" عن ضيق المكان قائلة : تركنا البيت الكبير لأولاد "فؤاد" من زوجته الأولى رحمها الله.

كانت هذه هي المرة الأولى التى أزور فيها عراقياً في شقة. اعتادوا السكن في بيوت محاطة بالحدائق حتى يستطيعوا النوم فوق الأسطح في الصيف. ترجمت "رشيدة" روايته الشهيرة "الرجع البعيد" إلى الفرنسية، ثم تزوجته. وهي رواية من أنضج الروايات العراقية، وأحبها إلى قلبي، وكان قد أخبرني من قبل أنه كتبها في ثمانية عشر عاماً. لكن سؤالاً محيراً ظل يراودني كلما التقيته : لماذا لم يتم القبض عليه بعد أن جعل بطل روايته البعثي رمزاً للفساد في العمل كله؟ نجحت الرواية نجاحاً مدوياً في العالم العربي كله، وتخوفنا جميعاً من اعتقاله، أو إقالته من منصبه الرفيع بالقضاء على الأقل. جاء وجلس إلى جانبي. كان ودوداً مهذباً كعادته. فسألته إن كان يعرف تفسيراً؟

قال : لا أعرف. وقد طرح هذا السؤال نفسه على الأدباء والمثقفين في العراق كلها. إذ وجدتهم بعد صدور الرواية، يرسلون لي في كل يوم أحد الشباب للتأكد من

وجودي على منصة القضاة. ألاحظه دون كلام بالطبع. أظنهم فضلوا الصمت، وعدم إثارة فضيحة حتى لا تنتشر الرواية أكثر، إذا ما قبضوا عليَّ. لا أعرف. حقيقة لا أعرف.

تحركت "رشيدة" في سعادة من حولنا. جميلة، وصغيرة في السن وتعشقه. دعوة العشاء ضمت عدداً قليلاً من الأصدقاء. بعد الطعام، قال "جاد إبراهيم جاد" الكاتب الفلسطيني : "نورا". اتخذت من كتابيك عن الفلاحين المصريين في الخالصة أساساً لمادة فيلم تسجيلي عن القرية.

سألته : هل ذكرت في مقدمة الفيلم أن المادة تعتمد على كتابي؟

قال: في الحقيقة لا.

ثم تحدث إلى الفنانة التشكيلية الفلسطينية "لطيفة يوسف" في موضوع آخر وكأن لم يكن. كانت صدمتي فيه لا حدود لها. أجهزت على مشاعر الألفة والدفء التى كانت تلفني منذ قليل.

قالت "لطيفة" ضاحكة : هنيئاً يا "نورا". الأستاذ "جاد" معجب بأعمالك جداً.

ابتسمت لها ولم أستطع الرد. كنت قد أخبرته في أول لقاء لي به في فندق دار السلام أني أحببت روايته "البحث عن وائل مرسي" فسألني : ألستِ أنتِ التي تكتبين عن الفلاحين المصريين؟

قلت : نعم. وسيظهر كتابي عنهم قريباً.

أهديته له حين صدر، ثم أهديت له كتابي الثاني الذى يرصد تجربتهم بعد مرور أربع سنوات، والتقيته في القاهرة، وفي عواصم أخرى وأهديته قصصي ورواياتي، ولم أتصور أن يفعل هذا !

دخلت إلى حجرتي في ليلتي الثالثة في بغداد، وقد أطار الإرهاق صوابي. وفي حلقي شعور بالمرارة بما فعله بي "جاد إبراهيم جاد" الذى أحبه، وأحترمه. لا أستطيع الفهم. وفتحت التليفزيون. أمسكت بالشفاط. ظهر الرئيس القائد يقابل عشيرة في الصحراء، ويشكرها على تطوع أولادها قبل السن الإلزامي للحرب.

قال : يكملون دراستهم. والله كريم.

غيرت القناة. سمعت مطرباً يغني: سيدي يا سيدي يا سيدي. بحثت عن أغاني

الصخب العراقي، والآلات النحاسية: يا شميسه شويه شوية. لم أجد. نشرة الأخبار، وتسجيل للمؤتمر. غيرت القناة. أبحث عن دبكة عراقية. تذكرت فرق الفنون الشعبية الكردية، وأنا أرقص معها فوق الجبل في أيام بعيدة خلت. دمعت عيناي: أهن يابغداد.

جاءت أغنية تعدد أسماء الرئيس الحُسنى تسعة وتسعين اسماً. أغلقت التليفزيون وفتحت قناة الموسيقى، جاء موال عراقي ليوجع قلبي.

اويلاه/ اويلي يا ويلي اه/ اقول وقد ناحت بقربي حمامة/ معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى/ أيا جائر أما أنصف الدهر بيننا/ تعالي.

لا أحب هذا الفندق. فيه شيء غير مريح. ربما شدة التحديد. دقة الخطوط الواضحة. لا شيء يكسر الأنموذج. لطشة فن يا ناس. رفاهية تحتاج إلى لمسة إنسانية مفقودة هنا تماماً. لا توجد متعة في الجمال البارد. خبرت الإيقاع السريع للمؤتمرات في بغداد، والاهتمام بالضيوف. في المساء يأتي الأصدقاء، والصديقات، لم يكفنا الوقت لكي نستعيد ذكرياتنا الماضية معاً، لكن البنات لم يضيعن وقتاً. حكين كل شيء عن الفقد في نوبة اعتراف مؤلمة.

لاحظت أن عدداً كبيراً من صديقاتي حوامل. ظاهرة كان يمكن أن تمر دون الالتفات إليها. لأن المرأة العراقية محبة بطبيعتها لإنجاب الأطفال، وإنشاء أسرة كبيرة، بغض النظر عن تعليمها أوعملها. كانت تدهشني بقوتها الجسدية، وحملها المتكرر، ورعايتها لبيت وأسرة كبيرة ؛ فهي تسكن في الغالب مع أهل الزوج حتى يبني زوجها بيتاً مستقلاً. بعض صديقاتي كن قد اكتفين بعدد من الأطفال، وبعضهن زوَّجن ابناً، أو بنتاً من قبل. ماذا حدث؟ ترددت المعلومات أمامي. في أثناء تناولنا لطعام الغداء أخذت منال الألوسي تسأل العضوات عن حملهن، وعن الأنباء على الجبهة. قالت لي ليلى مرافقتي : دعا الحزب العراقيين للإنجاب بعد استشهاد عدد كبير من الشباب. ويقوم اتحاد النساء بتبني الدعوة. هل تعرفين أن "منال" رزقت بابنة جديدة بعد سفرك.

قلت : معقول، وسط كل هذه المسؤوليات؟

كان تعداد العراق حين غادرتها اثني عشر مليوناً. النسبة الأكبر فيه من الشباب. التحق كل من في سن الجندية بالجيش، وتطوع الباقي. فوضعوا تحت الاستدعاء رجالاً ونساءً، ولهذا يرتدون الزي العسكري. خلقت الحرب بين النساء نوعاً آخر من العلاقات لم أكن ألمسه من قبل بين الأوساط التي أتحرك فيها. جمعهن الخوف من المجهول المنتظر. استسلمن للقرارات السيادية التي ضربت مكتسباتهن السابقة. قرار بحصول أي رجل يتزوج من أرملة شهيد على عشرة آلاف دينار، وسيارة وقطعة أرض لبناء بيت، والسماح للرجال بالزواج الثاني بعد أن حرم بقوة القانون إلا بإذن من المحكمة بعد أن يثبت أن زوجته عاقر، أومريضة مرضاً لا شفاء منه، أو عاجزة كلياً عن أداء متطلباته الزوجية. قالوا للناس هي قوانين للطوارئ لكي تقاوم إبادة الشعب العراقي. أخبرني بعض العاملين في الفندق أن زواج الشباب المصري من أرامل الشهداء يجري بالعشرات على قدم وساق في أنحاء العراق كلها الآن، وأن إغواءات كثيرة تتم لإقناع الشباب المصري بالانضمام إلى صفوف الجيش العراقي نظير أجور عالية جداً، خاصة وأن معظم هؤلاء الشباب قد حصلوا على تدريبات سابقة في الجيش المصري وأن مقهى المربعة في شارع الرشيد تشهد هذه الاتفاقات يومياً بين السماسرة والشباب. بالإضافة إلى الإغواءات المباشرة من البعثيين للعمال في المصانع والشركات.

سألت "عماد البزاز" وهو واحد من أصدقائي الصحفيين البعثيين الذين أثق في دقة معلوماته ونزاهته عن هذه الموضوعات، قال : توجد زيجات مصرية لأرامل الشهداء، لكن ليس بالصورة التى أخبروكِ عنها. العائلات العراقية تقلق من الغريب بشكل عام. كما أن الجيش العراقي لا يدخله المصريون. وما سمعته يخص لواء "لوجستي" مساعد يقوم بعمليات تطوير الطرق وتعبيدها وإصلاحها لمساعدة قوات الجيش في الحركة.

سألت صحفي عراقي آخر قال : لا يوجد تطوع للعرب في الجيش، ولكن يوجد تطوع في ميليشيا اسمها المهمات الخاصة. يخضعون لتدريبات الفدائيين.

قلت في نفسي: يا إلهي من أصدق؟

تذكرت أن الشيف "سعيد الشيخ" قد وعدني بأن يأتي لي في الغد بواحد من المصريين العاملين في الفندق الذين تزوجوا من أرملة شهيد عراقي ليحدثني في

الموضوع. نظرت إلى الكوب فوق الكومودينو. لاحظت أنه لم يمتلئ عن آخره على الرغم من أن صدري توقف تماماً عن الإدرار. قلت : ربنا يستر. وقفزت إلى الماء فتراخت عضلاتي حتى كدت أن أغرق في النوم. تكاثف البخار، والتصق ببلاطات "السيراميك"، ثم تقاطر في نقط صافية تلألأت على الحائط، تشبه لمبة سحرية تتلون بألوان الطيف السبعة حملتني إلى عالم آخر.

استعد "حلمي أمين" لوصول أسرته بشراء أنواع مختلفة من الجبن. كانت بغداد قد شهدت انفراجه بسيطة في استيراد المواد الغذائية. كانوا يوزعون منتجات الألبان بحصصٍ قليلة لا تزيد عن علبتين في كل مرة. راح "حلمي أمين" يجمعها ويطالب أصدقاءه بمساعدته في الوصول إلى أنواع أخرى يذهب لشرائها من مناطق بعيدة. لم أره بهذا النشاط من زمن طويل. يطالب أبا غائب بنظافة أكثر ويدقق في شراء أنواع من التفاح والموز والشيكولاتة.

ذهبت و"حاتم" إلى المطار لاستقبالهم. لديه ثلاث بنات جميلات إحداهن في مثل عمري. تابعناهن من وراء الزجاج دون أن يرونا. انشغلن بمحاولة إقناع ابنته الصغيرة بالجلوس في سيارتها دون جدوى. أصرت على المشي والإمساك بيد الأم. أشار لهن "حلمى أمين". ركضت البنتان الكبيرتان وتعلقتا برقبة أبيهما. حاولت الصغيرة أن تترك يد أمها، فلم تتركها الأم. صرخت :"ميمى". "شاشا". تعالي.

جاءت الزوجة في خطوات بطيئة حاملة الطفلة، تدفع العربة أمامها. وقفت أمامنا بوقار. صافحها وقبلها فوق خدها قبلة رسمية.لفت انتباهي تحفظه. خطف الطفلة من بين يديها ،صرخت : ماما. "ميمي". "شاشا".

قبلها وهو يحتضنها بشغف. مدت الأم يديها إليها. أخذتها وهي تضحك قائلة : بعد قليل لن تتركك كما يحدث كل مرة.

قدمهن إلى "حاتم": "فائزة". "ميرفت". "رشا". "رنا". طبعاً تعرفن "نورا". - قفزت البنات إلى حضني- و"حاتم" زوجها حدثتكن كثيراً عنه.

قطعنا بغداد حتى الباب الشرقي وتركناهم عند باب البيت على أن نلتقي على العشاء بعد يومين في بيتنا. وأن يعود العمل إلى المكتب في صباح اليوم الثالث.

وصلوا في المساء ؛ أسرة جميلة ومرحة. لم أره قط بهذه السعادة. تساءلت بيني وبين نفسي إذا كان يحب "أنهار"؟ تذكرت قبلته الرسمية لفائزة في المطار : هل هو الوقار أمامنا؟ هل وصلتها أخباره مع "أنهار"؟ كيف يستطيع أن يتوازن بين المرأتين؟ وماذا ستفعل "أنهار"؟ أستعمل في المكتب في فترة وجود الأسرة. أم ستختفي حتى تنتهي إجازتهن؟ ألن تكتشف الزوجة هذا الخيط الذي يربط "أنهار" بـ"حلمي"؟ للمرأة رادار موجه يكشف المنطقة المحيطة بالزوج. ورادار "فائزة" يعمل بوقت إضافي لأن "حلمي" في الغربة بعيد عنها.

جاءت "ميرفت" تساعدني في تجهيز الطعام في المطبخ. انسجمنا معاً بسرعة، وقبل أن ندعوهم للجلوس حول طاولة العشاء، كنت قد عرفت أنني أكبرها بسنتين، وأنها تحب زميلها في الكلية، وأنه سيتقدم لخطبتها في الصيف القادم. وجدنا "رشا" واقفة وراءنا. قالت بعنف : ما هذه الأسرار؟

انفجرن ضاحكات. ألقت "رنا" بجسمها فوق ساق "رشا" وهى تضحك. حملتها "ميرفت"، وتحلقنا حول الطعام. راح "حاتم" يحكي "لتانت فائزة" الصامتة قريباً، عن طرائف بغداد. أرجعت تحفظها إلى فارق السن بيننا. دعوتهن للتعرف على البيت.

قال "حلمى أمين" :اذهبن. سأشرب سيجارة.

درن حول الحديقة، والطابق الأول، ثم صعدن إلى السطح. قلت : ينام العراقيون فوق الأسطح صيفاً.

سألت "تانت فائزة" بانزعاج : وأنتِ تنامين فوق السطح أيضاً؟ ألا تخافين من أن يكشفك الجيران؟

قلت وأنا أبتسم : لا نسمع، ولا نرى أي شيء. السماء فحسب.

قالت "رشا" : تسمعين أو ترين ماذا؟

قلت : السيارات والناس في الشارع والجيران.

قالت "ميرفت" : اسكتي جتك خيبة أنتِ، ولا فاهمة حاجة.

اختفت الابتسامة من وجه "تانت فائزة". نزلنا إلى الطابق الثاني، وجدنا "حاتم" قد جهز الشاي. أمسكت "رنا" من إبطيها ودرت بها في الصالة وهي تصرخ، كان في عينيها مكر رائع، تركتها. ركضت نحو أبيها، ثم عادت تبحث عني. ذهبت إليها وأنا

أزوم، وخطفتها، وفتحت غرفة "ياسر"، وأعطيتها لعباً كثيرة. صفقت بيديها، جاءت "ميرفت" و"رشا" قلت: أخيراً وقعنا عقد اتفاق غرامي.

استحلفت الأستاذ "حلمي" أن يترك لي البنات. على الأقل "ميرفت"، و"رشا". شكرني قائلاً أن "فائزة" تحتاجهما في رعاية "رنا". ووعد أن يرسلهما لي في وقت آخر.

فى الصباح فتحن لي الباب صارخات، قلت : أخفضا صوتيكما. المدير يفصلني.

دخلت إلى المكتب الذي تصاعدت منه رائحة القهوة قوية على غير المعتاد. واعتذرت لـ"تانت فائزة" بأننا سنعمل لوقت قصير، ولن نشغل الأستاذ "حلمي" عنهن.

قال "حلمي" وهو يتابع حالة الإثارة المستمرة مع البنات: هن يعلمن أنني لست في عطلة.

قدمت له النشرة، والأخبار. قلت: هذا عمل قسم الاستماع لإذاعة مونت كارلو ولندن.

قالت "ميرفت" : متى؟ تركناكِ بعد منتصف الليل.

أخذنا "ميرفت" و"رشا" إلى الوزارة. تقاطر الزملاء يرحبون بالبنتين، ويدعون الأسرة إلى بيوتهم. راجعنا مواعيد المؤتمرات والرحلات القادمة وآخر الأخبار. خرجنا إلى شارع الرشيد، واشترينا هدايا، ثم تركتهن إلى بيتي على أن نذهب في الغد إلى الخالصة.

اشتريت من سوق البتاوين بعض أكياس الحلوى للفلاحين، وطرقت الباب. ابتسم "حلمي أمين" حين رآني، وراح يحكي لهن كيف قضيت الشتاء كله مبللة الملابس، ويصف كيف حكى لأبي في مصر منظري وأنا أدخل المكتب كل يوم صباحاً وساقا بنطلوني مبللتين بالطين. وراح يسعل وهو يضحك دون أن يترك السيجارة، حتى اغرورقت عيناه بالدموع.

قلت : شاهدين. الخالصة قرية أذهب إليها كل يوم، وتغرق ملابسي بماء المطر والتراب.

قالت "تانت فائزة" متأففة : لن أذهب إلى مكان من الصعب السيطرة فيه على نظافة "رنا".

قال "حلمي أمين" : هيا أكملن استعدادتكن. نحن الآن في الصيف، ولا يوجد مطر.

استقبلنا "عبد البر" في مدخل القرية. أراد أن يأخذنا إلى بيته. قلت له:الحقول أولاً. نريد أن نرى الحمير.

أرسل ابنه إلى بيت عم "وادي"، وأحضر لنا بغلاً كبيراً. صرخت "رنا". وساعدنا "رشا" على الصعود فوق ظهر البغل، فلم تنزل من عليه طوال النهار، ورفضت تناول الطعام معنا، وظلت تأخذ من "ميمي" الساندوتشات. وتحتفظ في الوقت ذاته بعصا تضرب بها ساق الحمار وهي تصرخ.

تقول "تانت فائزة" : خائفة. انزلي.

تقول "رشا": لا.

تذهب "رنا" إلى الحمار مترددة، وتطلب من "رشا" أن تأخذها. تضعها "ميرفت" أمام "رشا"، وقبل أن تعود إلى مكانها تنادي: ماما. ماما. تعود إليها "ميرفت" وتنزلها إلى الأرض.

انهمرت دموعي. ما أصعب هذه الذكريات على الرغم من حلاوتها.

لففت جسمي بفوطة كبيرة وخرجت إلى الحجرة. سمعت ناظم الغزالي يغني :

فوق النخل فوق   يا ابا فوق النخل فوق   والله ما اريده بالييني ببلوة
ما دري لمع خدك يابا   ما دري لمع فوق   مالي أمل بالروح
بعدك يا حبيبي   وصلك وصفه للناس   هجرك نصيبي
والله معذبني   ما عنده مروة   يا با فوق النخل فوق

أمسكت بورقة وحاولت أن أرتب جدولي الخاص بالتوازي مع أوقات الراحة في برنامج المؤتمر. اعتدت أن يفاجئوني بمواعيد غير مدرجة في البرنامج بسبب احتياطات الأمن. يجب أن أذهب إلى مكتب الزهرة بسرعة أولاً، ولكن بعد أن أضمن وجود الرجل في المكان. ما زلت أحتفظ بالمفتاح يا إلهي. أوحشني "حلمي أمين". فتحت الشرفة. لأول مرة أرى المدينة من هذا الارتفاع. وتذكرت كلماته: بغداد تتغير يا "نورا". جلست

أنظر إلى الفراغ أمامي، وأنا أتخيل البيوت. يلفني هدوء عاصمة تنتظر وقوع الغارة.

تذكرت كل الأصدقاء المصريين الذين عشت معهم في بغداد ؛ شباب اليسار. زملاء المكتب وجيرانه. "أنهار"، ترى أين أنتِ الآن؟ هل أستطيع الوصول إليكِ؟ هل يستطيع "عماد البزاز" أن يأتيني بخبر يقيني عن مكانكِ؟ لقد بدا واثقاً من أنكِ على قيد الحياة. جيران حي الشرطة، وجيران الدورة، زملائي الصحفيين. وهل أستطيع أن أرتدي عقد القرنفل، وأعثر على "ناريمان" التي أهدتني إياه قبل الغدر بالحزب الشيوعي العراقي. هل أستطيع الاتصال "بأربيل"؟ هل سأرى أصدقائي العرب والأجانب الذين تركتهم في بغداد قبل أن أرحل. ناسها الذين تركوها؟ ليتني أستطيع أن أعيد تلك الأيام، وأضم بغداد بكل أهلها إلى حضني.

توقف المطر. أحكمت لف الروب الصوفي حول جسمي، وتخيلت بيوت بغداد المختفية وراء الظلام تتلألأ كما كانت دائماً، وكما عرفتها.

تذكرت زيارتي إلى سوريا ومادتي الصحفية التي جمعتها عن فرح الشعبين بإعادة العلاقات. حاولت أن أفهم تاريخ العلاقة بين الحكومتين فوجدته معقداً للغاية. وكلما وصلت إلى معلومات عن علاقة فرعي الحزب فاجأتني معلومات أخرى تعقد لي خيوط الغزل. حاولت أن أستفيد من معلومات "حاتم" الشعبية. لكنه كان يعرف بعض أجزاء القصة المعلنة فحسب. لم أجد كتابا في المكتبات يخبرني بهذا التاريخ تفصيلاً. عدت إلى موسوعة الحضارة العراقية، ووجدت أن الجزء الحادي عشر المُصادر هو ما يضم هذه الفترة. رحت أجمع المعلومات من البعثيين، والشيوعيين العراقيين، ومن بعض منشورات الحزب، كما عدت إلى المنشورات الثورية عن حزب البعث السوري التي جئت بها معي من دمشق.

أصر "حلمي أمين" أن أقوم بهذا المجهود دون مساعدة "أنهار". وحين سألته : لماذا لا تقدم لنا "أنهار" تقريراً مفصلاً؟

قال : المجهود هو الذي سيعلمك. ولن تنسي بعد ذلك معلومة تعبتِ في جمعها.

فكرت في أن ما يقوله ليس الحقيقة كلها، فقد كنت ألاحظ المتاعب التي تمر بها قصة الحب. لكن ما علاقة العمل بالعلاقات الشخصية؟ سهرت ليالي طويلة أحاول فيها تجميع الخيوط، وجدت أن حزب البعث قد تأسس أولاً في سوريا عام ١٩٤٧،

وكان يقوده "البيطار"، ثم توحد مع الحزب العربى السوري، و يقوده "أكرم الحوارني" و"ميشيل عفلق"، وأصبح اسمه حزب البعث العربي الاشتراكي.

سألت صديقي "هاشم" أحد موظفي العلاقات التوجيهية بوزارة الإعلام، وكان قد عاش في مصر ودرس مع "صدام حسين" كيف دخل حزب البعث إلى العراق لأول مرة؟ قال: انتقل الحزب إلى العراق عن طريق الطلاب في أوائل الخمسينيات و"فؤاد الركابي" هو مؤسسه. وقد عملوا على قواعد حزب ليبرالي قومي قديم اسمه حزب الاستقلال وكان يرأسه "محمد مهدي كبه"، مع وجود الحزب الوطني الديمقراطي، اليساري الذي يرأسه "رفعت الجادرجي". أما الحزب الشيوعي العراقي فقد كان في ذلك الوقت حزباً سرياً يعمل تحت الأرض. عام ١٩٤٦أثار الحزب الجديد انتباه الشباب باعتباره حزباً ثورياً، لا يؤمن بالقنوات الشرعية، ولا بالانتخابات الليبرالية، ويروجون للواقعية الثورية التي تقيم التغيرات في البلاد بالانقلاب.

واستطرد: ثم فجأة بعد انقلاب الشيشكلي في سوريا، تسبب دخول "ميشيل عفلق" الانتخابات في حدوث بلبلة بين قواعد الحزب. ثم حدث انقلاب جديد، واعتقل "ميشيل عفلق"، فقام بعمل نقد ذاتي، وأعلن أن تجربة الانتخابات هي تجربة خاطئة، ولم يكن يصح أن ندخلها.

حاولت أن أفهم شيئاً عن المرحلة بين اعتقال "ميشيل عفلق"، وعودة الحزب إلى الحياة السياسية في سوريا والعراق في زمن متزامن تقريباً عام ١٩٦٨. وجدت أن من القصص المهمة في ذلك الوقت واقعة اغتيال "عبد الكريم قاسم"، والتي نفذها شباب بعثيون عام ١٩٥٩ . وكانت الوحدة قد قامت بين مصر وسوريا، وسربت حكومة الوحدة إذاعة تبث إرسالها على الحدود السورية العراقية، وتذيع بيانات الثورة. بدأت في الموصل حركة تمرد عسكري بقيادة "عبد الوهاب الشواف". وقعت معارك ضارية قتل فيها الشواف، وتم القبض على باقي الضباط ونفذ فيهم حكم الإعدام. تذكرت ساحة "الشواف"، وعرفت لماذا سميت بهذا الاسم.

عدت لقراءة رواية "الأيام الطويلة" التي كتبها الشاعر "عبد الأمير معلّة"، وحكى فيها قصة حياة "صدام حسين" ومحاولة اغتيال "عبد الكريم قاسم". وانتهزت فرصة زيارة أبي "خالد" للمكتب، وهو أحد الشيوعيين ومن أساتذة الجامعة المتخصصين في

التاريخ والسياسة من أصدقاء "حلمي أمين" وسألته: لماذا لم يقبل اليسار العراقي في أعلى فترة للمد الشيوعي في العراق الوحدة مع "جمال عبد الناصر" وسوريا؟ وماذا كانت مبررات "عبد الكريم قاسم"؟ وقد كان بطلاً شعبيا حسبما فهمت.

قال أبو "خالد" : ضمت ثورة "عبد الكريم قاسم" عدة اتجاهات سياسية وكانوا يسمون أنفسهم الضباط الأحرار تماماً كما حدث في ثورة يوليو ١٩٥٢ في مصر."عبد السلام عارف" كان قريباً من القوميين، والإسلاميين معاً. وعبد الكريم قاسم كان قريباً من اليسار بشكل ما. وكان "عارف" مع المد القومي العربي، طالب الناس بوحدة اندماجية مع مصر وسوريا. لكن اليسار كان رافضاً لأسباب مختلفة، أولها تعرض الحزب الشيوعي المصري للقمع. وكان معظم الشيوعيين المصريين في المعتقلات. أظن في سجن الواحات.

قال "حلمى أمين" : كنا في كل السجون المصرية.

قال أبو "خالد" : تم حل الحزب الشيوعي في سوريا، وقُبض في لبنان على "فرج الله الحلو" رئيس الحزب الشيوعي اللبناني. وقيل أن "عبد الحميد السراج" رجل "عبد الناصر" في سوريا، قد أمر بتعذيبه حتى مات، ثم وضعت جثته في حامض "الأسيد" حتى ذابت.

قلت : يا ساتر يا رب. لم يفعل "عبد الناصر" أي شيء من هذا.

قال أبو "خالد" : كانت في مطالب "عبد الكريم قاسم" نوع من العقلانية في الوحدة. أراد اتحاداً فيدرالياً على أن تحافظ كل من مصر والعراق وسوريا على دولها وكياناتها المستقلة. كانت الشعارات في الشارع العراقي تعكس التناقض بين الآراء - ضاحكاً - يقول القوميون : وحدة. وحدة اندماجية. يرد الشيوعيون : اتحاد فيدرالي، والوحدة جواً نعالي.

قلنا معا : لم نفهم.

قال : الوحدة تحت الحذاء.

قلت : يا ساتر إلى هذه الدرجة؟

هز "حلمي أمين" رأسه دون كلام. واستطرد أبو "خالد" : تصاعد الاحتقان فولد عند مجموعة من شباب البعث الرغبة في قتل "عبد الكريم قاسم"، ولم يكن في ذهنهم

الاستيلاء على السلطة حتى بشهادتهم بعد ذلك، وكانوا يعرفون أن "عبد الكريم قاسم" يمشي من دون موكب هو والسائق المرافق فحسب. انتظروه في شارع الرشيد وضربوه بالنار؛ فأصابوه في يده. سحب "عبد الكريم قاسم" الطبنجة، وقاوم فجاءت الرصاصة في قدم "صدام حسين". وقاوم عسكري مرور، فجاءت رصاصة في صدر "سمير النجم". حدث هرج في الشارع، وأمسكوا ببعضهم وهرب "صدام حسين" إلى سوريا. أحيلوا إلى محكمة "المهداوي"، وكانوا شبابا، صغيري السن، يؤمنون بالحلول الثورية، وهو ما أكسبهم أثناء المحاكمة شعبية كبيرة بين الناس، وصورتهم المحكمة على أنهم أبطال. ثم أصدر "عبد الكريم قاسم" عفواً عنهم وقال مقولته الشهيرة : "عفا الله عما سلف".

استطرد : في عام ١٩٦٣، كان الحزب قد أصبح قوياً، وقام بانقلابين متزامنين واستولى على السلطة في سوريا والعراق معاً. ولأنهم وحدويون، شكلوا وفداً مشتركاً، وقيادة مشتركة. وجاء "ميشيل عفلق" وزار بغداد، وبارك الثورة، وزار "عبد الناصر" وطالبوا بوحدة اندماجية ثلاثية.

قال "حلمي أمين" : لكن "عبد الناصر" كان مشغولاً بموضوع اليمن. وكان قد اتلسع من حكاية الوحدة، وخرج من تجربته معها بشعور بالمرارة الشديدة فلم يأخذ الموضوع على محمل الجد. وقد لاحظ أن كل جهة تزايد على الجهة الثانية.

قلت : كيف؟

قال أبو "خالد" : السلطة في سوريا كانت من البعثيين العسكريين، والسلطة في العراق كانت من العسكريين والمدنيين معاً. ثم قام القسم العسكري منهم أو ما يسمى بيمين البعث بقيادة "أحمد حسن" البكر بانقلاب على يسار البعث، وكان "أحمد حسن البكر" في عام ١٩٦٣ رئيساً للوزراء، وكان "عبد السلام عارف" رئيساً للجمهورية. وحينما قام القوميون بانقلاب على البعثيين، اتحد الضباط القوميين مع الضباط البعثيين ضد المدنيين الموجودين في السلطة آنذاك. وكانت للمدنيين ميليشيا يسمونها الحرس القومي. قامت طائرات الجيش بضرب هذه الميليشيا في حضور "ميشيل عفلق". ثم حدث أن تم القبض على أعضاء القيادة القطرية السورية، ونفوهم إلى مدريد مغضوباً عليهم، وألقي القبض في العراق على البعثيين، ووضعوا في السجون.

أمسكت برأسي وقلت : الله يخليك. توقف قليلاً. لم أعد أستوعب أي شيء. من انقلب على من؟ كل يوم انقلاب؟

قال : سمي زمن الانقلابات : ثمانية انقلابات في اثنتي عشر سنة؟

قلت : ما لا أفهمه أن الفروق كانت بسيطة، وأن معظمهم كانوا يعملون معاً: قوميون مع بعثيين، بعثيون مع بعثيين. نقف قليلاً. لأن المعلومات تداخلت في رأسي.

قال أبو خالد : سوف أحكي لكِ قصة طريفة. بالطبع تعرفين "نزار قباني". وربما تكونين قد حفظتِ أشعاره.

قلت: إني خيرتك فاختاري \ما بين الموت على صدري \أو بين دفاتر أشعاري.

طبعا أحبه. هذا شاعر صبانا وشبابنا المبكر.

ضحك "حلمي أمين" قائلاً : ماذا أنتِ الآن؟ في الشيخوخة، كان "نزار" سفيراً لسوريا في ذلك الوقت في مدريد.

قال أبو "خالد" : نعم. رتب "نزار قباني" مع أعضاء القيادة القطرية الذين نفوا إلى مدريد طريقة للعودة إلى بيروت. في هذه الفترة اتخذ حزب البعث السوري خطا مغايراً عن خط حزب البعث العراقي. وكرس هذا الخط بعد أن قام "حافظ الأسد" بانقلاب سمي في سوريا "ثورة التصحيح" وأصبح رئيساً للجمهورية وذلك عام ١٩٧٠، وأصدر أحكاماً بالإعدام على أفراد القيادة القومية، ومن بينهم كان "ميشيل عفلق" الأمين العام للحزب، ونوابه الثلاثة: "شبلي العيسمي"، و"منيف الرزاز" وهو أردني، و"إلياس فرح" وهو سوري. بالإضافة إلى مستويات أخرى سورية، فهربوا جميعاً إلى بيروت.

قلت: أظن أن هذه الضربة كانت نقطة مفصلية في تاريخ الحزب هنا وهناك.

قال : نعم. بعض الهاربين استمروا في الحياة السياسية، والبعض خرج منها، ويئس "ميشيل عفلق" وقال : أنا رميت طوبة السياسة، وهاجر إلى البرازيل.

قلت: ماذا حدث في العراق بعد اعتقال البعثيين في ١٩٦٣ وحتى عام الثورة؟

قال : أعادوا تنظيم صفوفهم حتى قام عسكر البعث بالانقلاب الشهير في تموز ١٩٦٨ بقيادة اثنين من غير البعثيين أحدهما قائد الحرس الجمهوري، والآخر رئيس المخابرات العسكرية.

قلت : الحمد لله. أخيراً وصلنا، وتستحقون أن تشربوا شاياً مصرياً في أكواب كبيرة. وليس شاياً عراقياً في الاستكانات.

قال أبو "خالد" ضاحكاً: لم تنتهِ القصة. لابد من مفاجآت عراقية من "هاي[1] التمام".

قلت : "فيه إيه تاني. كافي يا أبو "خالد". وداعتك ما أكدر أفتهم شي لاخ[2]".

قال : بعد ثلاثة عشر يوماً انقلب أحمد حسن البكر وصدام حسين على الانقلابيين بانقلاب ٣٠ تموز.

قلت : وتوتا توتا خلصت الحدوته؟! "دي ملتوتة" جداً. جداً.

قال "حلمي" : منذ هذه اللحظة، أي منذ عام ١٩٦٨، والبعث في العراق يسيطر على السلطة، والبعث في سوريا يسيطر على السلطة، وكل منهما يتهم الآخر بأنه منشق وعميل وخائن وأنه هو البعث الحقيقي. واستمر الصراع الخفي شغالاً.

قلت : Take Five. الشاي أفضل. لا تدخلا في موضوعات أخرى.

سمعت صوت جرس الباب ودخلت "أنهار" ورحبت بأبي "خالد" بشدة.

قال أبو "خالد" وهو يقضم الكيك : هذا الكيك شغل بيت. لا تقولي لي إنه من صناعتك يا أم "ياسر"؟

قلت: بالهنا والشفا. وسألت : أريد أن أعرف الفرق بين شقي الحزب في سوريا والعراق، باختصار؟

قال : يوصف البعث السوري بأنه يسار البعث، والعراقي بأنه يمين البعث.

قالت "أنهار" : هذا توصيف صحيح تماماً.

قلت: لماذا عاد"ميشيل عفلق" إلى العراق وإلى السياسة بعد أن طلقها بالثلاث؟

قال : كان العراقيون يريدون شيئاً يدعم الشرعية في بعث العراق. أرسلوا "عمر العلي" وزير الإعلام، عضواً بالقيادة القطرية إلى البرازيل برسالة لـ"ميشيل عفلق" تقول: إن العراق هو الذي سيبني دولة البعث. عاد "ميشيل عفلق" أولاً إلى بيروت، وفى عام ١٩٧١ جاء إلى العراق. واستدعوا القيادات القومية التي كانت قد صدرت ضدها أحكام الإعدام من البعث السوري وضموهم إلى القيادة القومية. وأصدروا قراراً

---

١ هاي : هذه .

٢ أفتهم شي لاخ : أفهم شيئاً آخر .

بأن يكون "ميشيل عفلق" الأمين العام للحزب، و"أحمد حسن البكر" الأمين المساعد. واستمر بهذا صراع النفوذ بين شقي الحزب في سوريا والعراق.

قلت: طوال هذا الوقت ألم تشهد العلاقات أي انفراج؟ معلوماتي أن حزب البعث العراقي حارب مع الجيش السوري في حرب ١٩٧٣ . لماذا لم ينعكس هذا بالإيجاب على العلاقة بين شقي الحزب؟

قالت "أنهار" : حين قامت الحرب أرسل العراق ألوية مدرعة إلى سوريا على الرغم من أن الاختلاف السياسي كان لا يزال مستمراً. وكانت دمشق مهددة بالسقوط، لأن المسافة بينها وبين القنيطرة حوالي ستين كيلو متراً. وأخذت الدبابات الإسرائيلية بالفعل طريقها إلى دمشق، وقطعت ثلاثين كيلو متراً. فتصدى لها اللواء المدرع العاشر العراقي، وقام بصد الهجوم، واستشهد من اللواء عدد كبير من الشباب العراقي، ودفنوا هناك في مقبرة باسمهم.

قلت : كانت هذه بادرة طيبة من العراق. لماذا لم يلتئم الشمل إذن؟

قالت "أنهار": الصراع الطويل حفر جرحاً كبيراً بين الحزبين، والموقف العراقي جعل الجرح يلتئم قليلاً، لكنه لم يندمل فعلياً. بنت سوريا سداً على نهر الفرات، وفي موسم انخفاض النهر، أغلقت كل البوابات فجفت المياه في مجرى النهر الذي يمر بالعراق ؛ ما أدى إلى أزمة سياسية كبيرة.

قلت : لكنها حسمت في النهاية، وعادت مياه النهر تجرى بين البلدين.

قال أبو "خالد" : نعم. والمناخ ملائم الآن للتصالح ؛ لأن بعث العراق له الآن توجه يساري، ومنفتح على الاتحاد السوفييتي، ويوجد في الحكومة اثنان من الشيوعيين. ولهذا استطاع "ميشيل عفلق" و"أحمد حسن البكر" فتح مجالات التشاور على الوحدة بين شقي الحزب، وهناك تيار في الحزب يرى أنه لابد من الاستفادة من تجربة "عبد الناصر" في الوحدة مع سوريا. لأنها كانت قائمة على كاريزما "عبد الناصر"؛ لهذا يريدون أن تقوم على أسس أيديولوجية سليمة، وأن تبدأ أولاً بين قواعد البعث الحزبية، ثم مع الوزارات، ثم الوحدة الشعبية الكبيرة في النهاية. واتفقوا، على أن "أحمد حسن البكر" يكون الرجل الأول في النظام الجديد في القيادة القومية، بحكم أن رتبته العسكرية أعلى من "حافظ الأسد" الذي يصبح مساعداً له.

قلت : أين "صدام حسين" في هذه الحسبة؟

ابتسم أبو "خالد" ولم ينطق حرفاً. أدرت وجهي نحو "أنهار" لم تنطق حرفاً أيضاً. وكذلك فعل "حلمي أمين". قلت : أتصور أن "البكر" يعدّ "صدام " لكي يخلفه. وأن هذا يوشك أن يتم على اعتبار أنه ابن أخته، وأن "البكر" متعب صحياً. ولهذا يقوم نيابة عنه تقريباً بكل المهام. أي أن خيوط السلطة الفعلية في يده.

ضحك أبو "خالد" و"أنهار" معاً وقالت "أنهار": "صدام حسين" ليس ابن أخت "البكر". هو ابن أخت "خير الله طلفاح" أبي زوجته "ساجدة". ولكن "صدام"و"البكر" من عشيرة البيجات.

قال أبو "خالد" : مسألة الاستعداد لتحول السلطة إلى "صدام " مسألة لا أحد يعلمها. ثم أريد أن أنبهك لشيء يا ست "نورا". يا أم "ياسر": خفضي اندفاعك، واحتفظي برأيك وتخميناتك ؛ فقد يرسلك هذا الرأي في أي وقت إلى أبو "غريب".

زفرت "أنهار" زفرة طويلة حزينة وقالت : أي والله.

قلت : أنا صحفية مصرية، وتحليلي للأخبار التي تصلني مهم جداً.

قال "حلمي أمين" : عمل "نورا" في المكتب يتلخص بالفن والتحقيقات الاجتماعية. وأشكرك نحن نفهم ما تريد أن تقوله لنا، ولابد أن تكون الصورة قد وضحت لها الآن. وقد قصدت من هذا الحوار مساعدتها لأنها بذلت جهداً كبيراً في كتابة تقرير كان كافياً حتى بدأت مشاورات الوحدة، وأصبح من الضروري أن نعرف باقي التفاصيل، لأننا نريد أن نغطي المنطقة صحفياً، ولا نريد الوقوع في أي أخطاء ولو بالصدفة.

قلت : أنا متفائلة. فالعراق يتقدم، وهناك فائض في ميزان المدفوعات، وجبهة ائتلاف تحكم، والمواطن بدأ يشعر بتدفق أموال البترول إلى حياته. وأول ملاحظة لي على الشارع العراقي هي اختفاء الطوابير في "الأورزدي باك" لشراء "الفرفوري"[1]، وأكواب الشاي. أستطيع أن أشتري من السوق الآن الكثير من الخضروات والفاكهة بدلاً من البامية والباذنجان في الصيف، والسبانخ، والكرنب في الشتاء. وقد وجدت في السوق منذ أيام قليلة عنباً في عز الشتاء.

---

١ الفرفوري : أطباق الطعام الخزفية .

قال أبو "خالد" : هذا صحيح، وإن شاء الله يعم الخير على العراق كلها، وعلى سوريا أيضاً.

قالت "أنهار" : إن شاء الله يا رب.

قلت : لو نجحت هذه الوحدة، فستنطلق المنطقة كلها مثل الصاروخ.

قام أبو "خالد" مستأذناً، على وعد بلقاء قريب بعد أن يعود "حلمي أمين" من دمشق، ومعه زجاجة عرق سورية. أغلق "حلمي أمين" الباب، وتوجه نحوي مباشرة قائلاً بغضب : أنتِ مجنونة؟ كيف تسألين الرجل مثل هذا السؤال؟

قلت منزعجة: أي سؤال؟

قال : "أنهار" انتظري في مكتبك حتى أنادي عليكِ. واغلقي الباب وراءك من فضلك.-التفت نحوي -عن وضع "صدام حسين" في حسبة الوحدة بين الحزبين؟

قلت : خطر على بالي أن هذا الوضع الجديد لن يعجب "صدام حسين" ؛ لأنه سيجعله يتراجع، ويضع "حافظ الأسد" قبله في الترتيب.

قال : هذا واضح لنا جميعاً يا ست "نورا"، لكنه لا يستطيع أن ينطق بمثل هذا الكلام هنا فقد يكلفه حياته. هذا شيوعي عراقي، وحتى إذا كان العراق تحكمه جبهة يشترك فيها الحزب الشيوعي، فهذا ليس معناه الأمان بالنسبة إلى الشيوعي على الإطلاق. في ظروف بلد يقوم فيها انقلاب وذبح في ثانية، وعلى الرغم من أن صدام حسين يبدو مباركاً للوحدة، فنحن لا نعلم بماذا وعده البكر بالضبط؟ وكيف تم التكييف الحزبي؟ ولا نعرف شيئاً عن العلاقة بين أعضاء القيادة القطرية العراقية، أو بينهم وبين أعضاء القيادة القومية. وماذا ستكشف عنه الأيام القادمة من صراعات سلطة، ومن تقاربات لم تكن منظورة. وأبو "خالد" مثله مثل أي عراقي لن يتحدث في هذا أبداً حتى إن كان يثق بنا، فهو لن يثق في المكان الذي هو متأكد من أن المخابرات العراقية قد ألغمته بأجهزة تصنت تستخدم تسجيلاتها ضده فيما بعد. "نورا" أرجو أن تخرجي من هذه الجلسة أكثر حذراً بكثير من ذي قبل، وألا تسألي أي عراقي عن صراعات السلطة، ولا علاقاتها أبداً حتى لا تعرضي المكتب للخطر، هل هذا مفهوم؟ هذا أمر. مفهوم؟

لم أتوقع هذا الغضب على الإطلاق. يبدو أنني دخلت دون قصد إلى منطقة الخطر.

قلت: نعم. مفهوم. سأذهب الآن. أتمنى لك رحلة سعيدة ولا تنسى جاكيت "رنا" وجاكيت "ياسر"، أريده أحمر اللون.

قلت "لأنهار": سأمر بك غداً في الوكالة، لنراجع أعمالنا. خرجت إلى الشارع. مررت بالسوق، لم أصدق ما أرى : خضروات وفاكهة الصيف والشتاء معاً. دخلت إلى شارع ضيق مزدحم بعربات الكارو. رأيت جذوراً تشبه جذور البطاطس لكنها رفيعة وغير مستوية. قلبتها بين يدي.

قالت سيدة آشورية : خذيه هذا أطيب من اللحم.

قلت : شكراً. لا نعرفه في مصر لكني سأجربه.

سمعت ضجة خلفي. رأيت سيارة تحاول المرور من الشارع الضيق، وأخرى تقف في مواجهتها لا تسمح لها بالمرور. تبادل السائقان الشتائم. نزل أحدهما، وأمسك بباب السيارة الأخرى يفتحها عنوة.

- إيش تريد يا نايك أختك.

- أنا ؟ أنا نايك أختي يا سرسري. وداعة أهلي راح أكتلك.

تصاعد السباب، وتجمع المارة من الرجال والنساء يحاولون فض المعركة.

زعق رجل : الشرطة. الشرطة.

قفز كل سائق إلى سيارته، وتراجعت إحدى السيارات إلى الخلف بسرعة ووراءها السيارة الأخرى، وعربات الخضار تفسح لهما الطريق حتى استطاعا العبور معا. وقبل أن يصل الشرطي إلى المكان كان الرجال والنساء قد عادوا إلى البيع والشراء. شعرت بحاجتي إلى ماء بارد.

قال البائع : هذا برتقال مصري يا مصرية.

قلت : صحيح. أعطني خمسة كيلوات.

حملتها وأنا سعيدة ومرتبكة من ذعر "حلمي أمين"، وعدت إلى البيت، تمنيت وأنا أعبر السوق أن أسمع نداء البائع في شوارع القاهرة، وهو يغني ويدلل بضاعته : البرتقال. الحلو. البلدي يا أبو دمه يا بتاع الشربات.

لن أفهم العراقيين أبداً. حتى لو بقيت هنا لسنوات. حتى الكلمات العربية لها معانٍ نفسية مختلفة تماماً عما تعنيه لي. الغريب أن الألفاظ التي تتعلق بالعنف لا تحمل قدر العنف ذاته في لهجتنا المصرية. تواترت أمام ذهني عدة مواقف نبهتني إلى هذا الاختلاف. تذكرت مشهداً جرى على باب منزلي في حي الدورة. كنت أفتح باب الحديقة عائدة من السوق، مرت أم "تايه" فوقفنا نتحدث وفي أثناء مداعبتي لابنها "محمود" قالت : ابني سحقته سيارة.

أمسكت الباب من هول المفاجأة. وسألتها وأنا لا أصدق البساطة والهدوء في صوتها وهي تصف الحادث. كيف؟ أين هو الآن؟ في البيت أم في المستشفى؟

أشارت إلى الطفل الواقف بجوارها متسخ الملابس وقالت : ليس "تايه" بل "محمود". منذ قليل، وأنا عائدة من عند الخباز. ألا ترين ملابسه؟

نظرت إلى الطفل الذى يلعب أمامي مثل الجن الأزرق سليماً معافى، وفهمت أن سيارة مرت بجوارهما ومست الصبي، فوقع على الأرض، واتسخت ملابسه وأدركت أن المعنى النفسي مختلف. ترى كيف اكتسبت لغتهم اليومية هذه المعاني؟ أأخذتها من هول الأحداث التي مرت بهم، أم أن الأحداث هي نتاج هذه المعاني؟

دخلت إلى سريري. مددت يدي إلى زر المصباح كي أغلق الضوء. وقع بصري على دفتر "حلمي أمين". دققت النظر إليه، وأنا أسأل عن أحقيتي في القراءة وعن سر وجوده في صندوق بريدي؟ غداً أقرر إن كنت أستمر في قراءته، أو أحتفظ به مغلقاً إلى أن يشاء الله. وربما بعد زيارتي إلى المكتب أستطيع اتخاذ القرار.

ثلاث طرقات جديدة

❖ أغسطس ١٩٧٧

رشا حلمي أمين

قال "حاتم" ونحن نتمشى في شارع أبي "نواس" معلقاً على حالتي المرحة : لم أتصور أن رحلة أولاد "حلمي أمين" ستنعكس عليكِ بهذا الشكل.

قلت : بنات إحداهن في مثل عمري والثانية طفلة في سن "ياسر".

قال : هذا مطعمنا المفضل. تعالي ندخل.

ابتسمت. أعرف أنه يحبه بسبب مناخه الشاعري. الأنوار الخافتة، والهدوء على نهر دجلة، يذكرنا بشارع الجبلاية ؛ شارع العشاق في الزمالك القريب من بيتنا، ومطاعمه، وصالات الرقص المنتشرة به، والتي كنا نرتادها في فترة خطوبتنا. كانت "أنهار" تجلس مع شاب عراقي في حالة انسجام شديدة، وهو يمسك بيدها. اتجه "حاتم" ناحيتها. قلت : لم ترنا. دعنا ندخل دون أن نزعجها. تقدمنا نحو طاولة في الداخل. رفعت "أنهار" رأسها فشاهدتنا. تركت كف الشاب، وارتبكت. حييناها ومضينا إلى طاولتنا. بعد دقائق رحلت، وهى تشير إلينا بالسلام.

فى الصباح قلت لـ"حلمي أمين"، وهو يسألني بشكل عابر عن "أنهار"، إنني التقيتها بالأمس في مطعم أم الجرة.

قال: كيف؟ لقد اعتذرت عن العمل بالأمس لتعب أمها.

أدركت أنني أخطأت.

قلت : أرجوك لا تذكر لها شيئاً. هي تعلم أنك مشغول بعائلتك.

سألني: كانت مع من؟

قلت: لا أعرف. مجموعة من الأصدقاء العراقيين.

رحت أؤنب نفسي لتسرعي. لكني كنت سعيدة بوقوعها في الحب، وانهيار شكوكي حول علاقتهما (تذكرت ليلة أربيل). الحمد لله كانت مجرد علاقة عابرة.

"تانت فايزة" لا ينقصها غريمة شابة. مرت عطلة أسرة "حلمي أمين" بسرعة شديدة لم تبقَ غير أيام على عودتهن إلى مصر. دعا الأستاذ "حلمي" كل الأصدقاء الذين سبق ودعوا أسرته إلى عشاء في فندق رمسيس المجاور للمكتب. جلست "رشا" إلى جوار أبيها. كلما طلب زجاجة بيرة، صب القليل منها في كأسها. لاحظت و"ميرفت" ارتفاع صوت ضحكاتها، حاولنا أن نجذبها للجلوس معنا دون جدوى.

قالت "ميرفت" : "رشا" شديدة التعلق ببابا. اكتسبت الكثير من طباعه الحادة، ولم تأخذ من المرحومة ماما أي شيء.

قلت : المرحومة ماما؟ من "فائزة" إذن؟ أهي زوجة أبيكن وأم رنا؟

قالت : لا. "فائزة" هي خالتي. جاءت تعيش معنا بعد وفاة ماما خاصة وأن ماما تركت "رنا" قبل أن تكمل شهرها الأول.

قلت : تقولون لها : ماما.

قالت: رفضت خالتي الزواج بعد استشهاد زوجها في ١٩٦٧، ولم تكن قد أنجبت منه. لهذا كنا نقول لها : ماما، ولأنها أخت أمي الوحيدة وكل عائلتها.

قلت : لا أعلم شيئاً عن هذا بالطبع. تصورت ملابس "تانت فائزة" الرسمية لأنها تعيش في المكتب، ولم يخطر ببالي قط أنها ليست زوجته. لكن لماذا لم يخبرني بوفاة زوجته؟ تصوري حكى لي الكثير عن حياته، ولم يأت على ذكر هذا الحادث على الإطلاق. ربنا يعوض عليكن. فهمت الآن لماذا يردد كلمة: "الحزن رفيقي" دون سبب. كنت أترجمها لحياته غير الآمنة، والسجون.

قالت "ميرفت" : أرجوكِ لا تخبريه أنني قلت لك.

سمعنا ضحكات "رشا" وهي تسأل أباها : أنتَ تحبني أنا. أليس كذلك؟

قال : طبعاً يا حبيبتي.

لاحظت نظرات "فائزة" القلقة. وضعت يدها فوق كتف "رشا"، وضمتها بشدة. سحبت "رشا" كتفها، وعادت تصب البيرة في كأسها.

اقتربت "ميرفت" من أذني، وقالت هامسة : "نورا". أشعر أن هناك شيئاً خفياً بين أبي و"أنهار".

فاجأتني الملاحظة، قلت : لا. حرام عليكِ يا شيخة. هي صحفية جيدة، وتساعدنا على فهم معضلات المجتمع العراقي، وهي مخطوبة لابن عمها.

قالت "ميرفت" : أعرف. لكنه مجرد إحساس. نريده أن يتزوج "تانت فائزة".

قلت : ما "تحسيش واتلمي".

قالت "ميمى" بصوت عالٍ سمعته "أنهار" : "أي سنتي بتوجعني"!

قلت : "علشان تبطلي تاكلي جلاس وتدوبي في قلوب الناس".

قالت "أنهار" : حكيم روحاني حظرتك؟

قلت : اسمها حضرتك، وليس حظرتك يا عراقية!

قالت "ميرفت" : أحسن شيء إني أخلع أسناني كلها مثل بابا، وأرتدي طقماً، بدلاً من وجع القلب كل يوم عند دكتور "الأشنان".

نظرت نحو مدير المكتب، وجدته غارقاً في الحديث مع "تانت فيوليت" وسددت النظر إلى "ميرفت" فوجدت عينيها باسمتين بمكر. قلت لـ"أنهار" وأنا ألاحظ اصفرار وجهها وأدرك أن "ميرفت" لاحظته أيضاً: الحمد لله أسناني جيدة، على الرغم من أن ضرس العقل يقاوم الظهور، ومطلع روحي.

قالت "تانت فائزة" : لابد أن يظهر العقل أولاً.

فوجئت وسمعت "حاتم" يقول : موجود وزيادة يا مدام.

قلت بصوت خافت : يا ساتر. مدب.

قالت "ميرفت" : بابا Take care "رشا" سكرت.

قال "حلمي" : لا تخشي شيئاً. الهواء المنعش في الخارج، سيعيدها إلى حالتها الطبيعية. قليل من المرح لا يضر المرء.

قلت : وعدتني بأن تذهب البنات معي.

قال : أوافق. لكن "رنا" من الصعب أن تترك فائزة.

صاحت "رشا" وهى تقفز، وتمسك برقبة أبيها : شكراً يا أجمل بابا في الدنيا.

انتصف الليل. خرجنا من الفندق في طريقنا إلى البيت، ورحنا نغني والسيارة تبدد الظلام أمامنا.

مين قالك تسكن في حارتنا   تشغلنا وتقل راحتنا
يا تشوف لك حل في حكايتنا   يا تعزل وتسيب حتتنا

- رأيك يا "ميمى" يعزل؟

- لا والنبي.

يا خارجة من باب الحمام وكل خد عليه خوخة.

لا برتقالة. خوخة. بطيخة.

قال "حاتم"، والسيارة تستدير لتدخل الشارع : خفضن أصواتكن.

ارتفع صوت "رشا" صارخة : خوخة خوخة خوخة خوخة.

قالت "ميرفت" : فضحناكم، والحمد لله.

وضعنا أكفنا فوق أفواهنا، ونحن نكمل الأغنية، ونتسرب بهدوء إلى البيت؛ حتى لا يصحو الجيران. ساعدن "رشا" على صعود السلم فقد بدا عليها الإنهاك. فتح "حاتم" البـاب، وأضـاء النور. انفلتت "رشـا" من بين أيدينا تركض حـتى وصلت إلى باب الشرفة، وفردت ضفيرتيها لآخرهما وصرخت : يا لهوي ي ي ي.

توقفنا عن التنفس من المفاجأة. ثم انتبهنا، وركضنا وراءها وأمسكنا بها. أخذتها في حضني : ما بكِ يا حبيبتي؟

قالت مذهولة تتأملني بقلق : لا شيء. أنا كويسة جداً. أنا أحسن منكم كلكم.

قال "حاتم" : خذيها لتبدل ملابسها. واسقيها فنجاناً من الحليب الساخن.

مشت بيني وبين "ميـمي" دون أن تقاوم، ثم وضـعت يدها فـوق وجـهي ومسحـته قائلة : أحبك يا "نورا".

قلت : طبعاً يا حبيبتي، وأنا أيضاً أحبك.

انفلتت من بين أيدينا وركضت نحو الشرفة وهى تمسك بضفيرتيها : يا لهوتي

بكت "ميرفت" قائلة : ماذا بكِ يا حبيبتي؟ هل تتألمين من شيء؟

نظرت إليها "رشا" متعجبة : لماذا تبكين يا حبيبتي؟ أنتِ تعبانة؟

دخلنا إلى غرفة النوم، وأبدلنا لها ملابسها، وذهبت لأحضر لها الحليب.

قال"حاتم" : شربت الكثير من البيرة. كان عليه أن ينتبه إلى ما يعطيه لها.

- تصورت أنها معتادة على هذا معه. وأظنها كانت تأخذ من زجاجته في أثناء انشغاله بضيوفه.

ـ البيرة العراقية أقوى كثيراً من البيرة المصرية. ستنام حالاً.

ـ يا رب. صوتها يسري في الليل، ويصل للجيران على الرغم من أن بيتنا محاط بالحدائق من كل جانب.

ـ لا تخافي سيتصورون أنكِ تلدين.

ـ من أين يا حسرة؟ يقابلونني كل يوم ويعرفون أني فاضية.

ـ معتادون على هذا. المرأة العراقية تلد كل يوم.

ـ يا مفتري. حرام عليك. أمك مازالت تلد حتى أول أمس.

ـ لأن أبي كان "راجل جدع". ألا تريدين مولوداً بعد تسعة أشهر؟

ـ بل سبعة. ليت النهار يظهر على خير.

حملت الحليب إلى "رشا" سمعتها تقول لـ"ميرفت": نشتري غداً البلوزة الحمراء من المحل القريب من المكتب.

قالت "ميرفت" : أي بلوزة حمراء؟

قالت "رشا" : البلوزة الحمراء. قلت لكِ.

قدمت لها الحليب. قالت : لا أحبه.

ـ اشربيه لأجلنا.

شربت شفطة، ثم قفزت من فوق السرير وهي تصرخ: يخرب بيتك يا حكومة.

قفزت في الهواء، طار كوب اللبن من يدها. صرخت: يخرب بيتك يا حكومة.

راحت تقفز، وهي تقول مع كل قفزة: يخرب بيتك. يخرب بيتك. قفزنا وراءها نحاول اللحاق بها، وجاء "حاتم" إلينا. أخذها في حضنه، وربت عليها، بكت "ميرفت" بشدة، قائلة : "شاشا" أفيقي. أفيقي الله يخليكي.

تركت يد "حاتم"، وركضت. ثم عادت إلى "ميرفت" ودخلت إلى حضنها ونظرت نحوي وسألتني :

ـ هل تعرفين خالتي "فائزة"؟

قلت : طبعاً. نعم يا "رشا".

قالت : لا. أنتِ لا تعرفينها على حقيقتها. هي تاجرة مخدرات. تهرب من البوليس، وتخفي المخدرات في بيتنا. أقول لكِ سراً.

قلت، وأنا أربت فوق ظهرها : قولي لي أي شيء.

قالت : كانت تفعل هذا مع أمي. مع ماما "فوقية". ألم تلاحظي أنها نسخة منها؟ فولة وانقسمت نصفين، لكن المعلمة هى "فائزة". رئيسة العصابة.

قلت : اهدئي يا "رشا". تعالي نشرب اللبن ونأخذ دشاً ساخناً حتى تنامي وفي الصباح نحكي عن كل شيء.

صرخت : الحكومة. الحكومة وراء الباب. "فايزة" أحضرت الحكومة هنا. أقفلوا الأبواب. جاءوا يأخذوني بدلاً من "فائزة". خذوا "فائزة" زعيمة العصابة.

أجهشت "ميرفت" بالبكاء : لا أستطيع أن أراها بهذا الشكل. لا أستطيع. من فضلك أحضر لها طبيباً يا أبيه "حاتم"، أو نتصل ببابا.

قال "حاتم" : لا. سوف تنام. ولن يحدث لها أي شيء. Exlaration عالٍ قليلاً. لا تخشي أي شيء.

قالت "ميرفت": "رشا" حبيبتي.

قالت "رشا": من "رشا" هذه؟ رشا قبيحة، وبنت كلب. لا تكلميها. أبعدي ذراعيك عني. ابعدي. يا لهوتي ي ي ي.

احتضنتها بقوة، وجذبتها إلى الكنبة التي أجلس فوقها. نامت من فورها بوداعة كأن شيئاً لم يكن. جلستُ بلا حراك. أخاف أن أصحبها إلى السرير فتصحو مرة أخرى، أو أنسحب من جوارها، فتفيق، وتعود إلى ثورتها. أشعر بجسمها "يتفزفز" ينتفض كل فترة، وأسمعها تقول، وهي غارقة في النوم: الحكومة. الحكومة يا بابا. العصابة. ثم تغرق في الصمت. جاءني "حاتم" بعد ساعة. ساعدني على الانسحاب ووضع وسادة مكان فخذي الذي كانت ترتكن عليه. فردت ساقيها، وخلعت الشبشب من قدميها، وغطيتها ببطانية. لاحظت تكور "ميرفت" حول رأسها مثل جنين. ساعدتها على الاعتدال، غطيتها، وخرجت و"حاتم" فوق أطراف أصابعنا. أخذني "حاتم" إلى السرير ومسح دموعي قائلاً : الله يكون في عونكِ.

بكيت.

في الخامسة صباحاً جهز "حاتم" الإفطار، ودخل يضرب نفير الصباح المعتاد، وظل يضربه دون جدوى. فتحت عيني. قلت: حرام اليوم عطلة، وسوف نذهب إليهم بعد الغداء. ارحمني.

قال ضاحكاً وهو يقبلني : ستتعودين الكسل يا أم "ياسر"، وتسمنين. جهزت لَكُنَّ إفطارا ملكياً لعله يثمر في جثتك. الجو رائع. قومي.

قلت : ربنا يخليك. اتركنا قليلاً.

قال : إذا استطعت إعادتي إلى النوم. تركتهما في حالهما.

تناثرت أعضاؤنا في الفراغ وتشابكت، ثم انفصلت، ولم أعِ مكان أي منهم، حتى سمعت المؤذن يؤذن لصلاة الجمعة عند الثانية عشر ظهراً وصوت "حاتم" المنغم يصيح في صالة البيت : الغداء يا كسالى.

خرجنا ثلاثتنا بأردية النوم إلى الصالة ؛ لنكتشف أن المؤذن يؤذن لصلاة المغرب، وأن الساعة تشير إلى الخامسة والنصف.

قالت "رشا" ببراءة : كيف نمنا كل هذا الوقت؟

قالت "ميرفت" : يخرب بيتك يا حكومة.

قالت "رشا" : حكومة من؟ مصر أو العراق؟

قالت "ميمي" : حكومة العصابة. ألا تعرفين العصابة؟

قالت "رشا" : لا أفهم ما تتحدثين عنه. والنبي قولي.

قال "حاتم" : الشواء على وشك الانتهاء. جهزي السلطة يا "ميرفت". واغسلن وجوهكن الجميلة.

ضحكنا ووقفنا صفاً أمام باب الحمام. صعدت إلى حمام السطح. وجاء "حاتم" ورائي قال : لا تضغطن على البنت. أظنها لا تذكر شيئاً.

قلت : بالطبع لا. نداعبها فحسب.

قال : وأنا. ألا أستحق المداعبة؟

قلت : البنات تحت.

قال: اليوم عطلة. هل افترشت العشب يوماً، وتلحفت السماء؟

قالت "ميرفت" وهي تنادي : اللحم يا أبيه "حاتم" .

جلسنا حول الطعام في الشرفة، قالت "ميمي" : عصابة يا مفترية. ماما "فائزة" رئيسة عصابة مخدرات. سأقول لها.

ضحكت "رشا"، وراحت تستحلفنا أن نحكي لها القصة كلها، بعد أن وصلتها

منها شذرات و"ميرفت" تعاندها. لاحظت أن ضحكتها غير صافية، وأنها تبهت رويدا مع تعليقاتنا الساخرة، حتى تحولت إلى ضحكة صفراء من قناع مطاطي، وليس من وجه طفلة بريئة، في الحادية عشرة من عمرها. التف خيط من الأسى حول مشاعري وأحكم وثاقي "ترى يا ابنتي، ممَ تعانين؟ وماذا يدور في عقلك الصغير حتى يوصلك إلى هذا؟ "هل تخافين من أن تحل "فائزة" محل أمك؟ لكن "فائزة" تؤدي لهم خدمة جليلة، تربي طفلة يتيمة، وتعيش معهن في القاهرة، وقد رفضت الزواج منذ أن استشهد زوجها، فلماذا تصفها "رشا" بزعيمة العصابة؟ ولماذا تخلط بينها وبين البوليس والحكومة وأمها؟ ولماذا تصف نفسها بالقبح؟

قالت "ميرفت" : "نورا". أين ذهبتِ؟ أبيه "حاتم" يكلمك.

قلت : يبدو أنني لم أحصل على وقت كاف من النوم.

انفجرنا في الضحك قال "حاتم" : تاني. ياطماعة؟

اتصل بنا "حلمي أمين" بعد قليل. طلبنا منه أن يتركنا يوماً آخر. فقال إنه سيمر غداً، بعد الظهر، ليصطحب البنات. وافقنا بفرح شديد.

ورحنا نعد خططاً للغد. قررنا الذهاب إلى حي الآشوريين والسوق لشراء متطلبات الرحلة إلى شاطىء دجلة على بعد أمام البيت ثم نعود لإعداد العشاء.

تركتهما ينامان طوال الصباح بعد خروج "حاتم" إلى العمل. جلست لأكتب مقالي حتى استيقظا، وجاءتا إلى غرفة مكتبي. أخذت "ميرفت" تقلب في أوراقي. ووقفت "رشا" أمام المكتبة تبحث عن كتاب مغامرات. قالت ميمي : حرام عليكِ يا شيخة. عينيكِ. بشرتك. الله يكون في عون "أبيه" "حاتم". أنا لن أفعل مثل أبِي. الزواج، والرفاهية.

قالت "رشا" : أريد أن أكون مثل أبي تماماً.

أعددنا إفطاراً سريعاً قلت: الحياة تبدأ هنا في الفجر يا كسالى. كنت أريد أن أطعمكما لحمة رأس "باچة".

قالا في صوت واحد : يا خرابي!

هذا إفطار عراقي معتبر. أو "شلغم" يعني لفت بالعسل الأسود "الدبس".

قالت "ميرفت" : نويتي أن تقتلينا؟

- لا. أغذيكما يا معصعصين، يا جلد على عظم. لا سوق الآن. نذهب بعد الغداء عند العصر. لأنهم يأخذون ساعة الظهر راحة. نظام إنجليزي يا غجر.

نزلت إلى الحديقة لأسقي الزرع وسحبت الخرطوم إلى الدور الثاني لأغسل التكعيبة والأشجار من فوق. دخلت "رشا" إلى الشرفة. أرادت أن تسقي معي الزرع. رحت أغني لها وأنا أضع الخرطوم أمام فمي بدلاً من الميكروفون. والماء يدخل إلى فمي:

سمعنا يا ريس حنتيرة   للصبح معاك السهيرة

سمعنا... سمعنا...   يا غزال يا غزال العشق حلال

خلاني خيال......   يا ليل.......................

أخذت "ميرفت" الخرطوم وغنت، والماء يندفع إلى وجهها

يا رب يا عالم بالحالتهدي حبيبي ويصبح عال.

قلت: كمان.

قالت "رشا" : إن أنكر الأصوات. أعطني الخرطوم.

تعاركا. ابتلا. صرخا. خلصت الخرطوم من أيديهن بالقوة فوجها الماء نحوي. أخذته عنوة، وأغرقتهما بالماء حتى وقعتا على الأرض. أثرن فضيحة في الشرفة، وجاءت جارتي "صباح" إلى الحديقة تحت الشرفة ووقفت تسأل : ما بكن؟

قلنا لها : لا شيء. نلعب. اصعدي لتلعبي معنا.

قالت : يا اختي أنتن رائقات. من كان عندكم بالأمس. هل كان عنكم كلب؟

ضحكنا، وقالت "ميرفت" : نعم. كلب. لا. قطة.

قلت : حنشٌ!

❖ يوليو ١٩٧٩

خيانة

ارتدت بغداد هذه الأيام ثوباً مختلفاً وغير عادي. انتشرت مظاهر الفرح دون سبب معلوم لنا على الأقل. وسائل الإعلام تذيع الأغاني بمصاحبة الفرق الموسيقية النحاسية، وبين الحين والآخر تسمع أغنية : هلهولة للبعث الصاعد. هلهولة. وكأننا على وشك إعلان حدث مهم. ارتدت المذيعات آخر صيحات الموضة وارتسمت البشاشة على وجوههن أكثر من المعتاد. حركة "صدام حسين" نائب الرئيس تثير حيرة الناس في الأشهر الأخيرة. يتوقعون أن يجدونه في أماكن عملهم بشكل مفاجئ؛ في المصانع، في المدارس، في الدوائر الحكومية، يكافئهم، فتنطلق الزغاريد، أو يفصلهم وينقل رئيسهم. بعضهم تحول أمام كاميرات التليفزيون من رئيس مؤسسة إلى عامل، دون أن ينطق حرفاً. تحول "صدام" إلى أسطورة في طول البلاد وعرضها في بغداد، وفي البصرة، وفي السليمانية، وفي العمارة، كأنه يقف فوق خريطة العراق كلها ولم يعد للناس إلا سيرته خوفاً. وفرحاً.

قال "حلمي أمين" وأنا أنقل له تشبيه "صدام" بأبي طويلة : ألم تفهمي المغزى؟

قلت : أشعر أنهم يريدون أن يقولوا لنا شيئاً. هل هو فعلاً على وشك الوصول للسلطة؟ لقد لاحظت حالة الفرح والانتشاء التي تعيشها "منال الألوسي" رئيسة اتحاد النساء ومعها عضوات الاتحاد. أعرف أنها شديدة القرب منه، لكني لا أستطيع أن أسألها ـ ضحكت ـ منذ واقعة أبي "خالد" الشهيرة.

قال: اسأليني عما تريدين، ولا تسألي عراقياً واحداً قبل أن أعرف الموضوع الذي ستسألين عنه خاصة في السياسة. نعم، أتوقع أن يتقلد السلطة هذه الأيام. ولم لا ؟ كل الظروف مهيئة تماماً، وهي ظروف موضوعية بالفعل ؛ الرجل الكبير متدهور الصحة، ولم يعد يظهر في معظم المناسبات. التهديد الإيراني الشيعي أصبحت له أسماء

واضحة ومعروفة، من حزب الدعوة إلى منظمة العمل الإسلامي، ولها، حسب ما فهمت، جناح عسكري قوي بما يكفي ليقلق العراق.

الثورة الإيرانية تعتبر العراق والسعودية والخليج أرضاً خصبة وممهدة لتصدير الثورة. كما أن "صدام" بدأ بالانفتاح نحو فرنسا، بشراء المفاعل النووي العراقي منها، وتطوير الصواريخ، واتفاقيات تسليح سمعنا عن بعضها. وهناك توجه نحو اليابان. وهذا معناه تحجيم التوجه نحو الاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقية.

قلت : ألن يقاوم أعضاء القيادة القومية والقطرية هذا الانتقال إلى السلطة بعد الوحدة مع سوريا؟ لقد سمعت بعض الإشاعات التي تفيد أن هناك تيارين ورأيين في الحزب في موضوع سوريا، و"صدام" تحديداً.

قال : هذا أدعى إلى سرعة إعلان وصول "صدام" إلى السلطة.

قلت: ألاحظ أن الزينات في الشوارع استعداداً للاحتفال بالسابع عشر من تموز ليست عادية هذا العام، حتى أنني سألت "حاتم" عن احتفالات الأعوام السابقة فقال إنها تبدو مضاعفة هذا العام. وأخبرني أن العمال يتوقعون إعلان خبر جلل، ربما تنحي "البكر" وصعود "صدام". كلام "حاتم" هذا معناه أن الإشاعة وصلت إلى الشارع. أو أنها مجرد بالونة اختبار.

قال "حلمي" : يا ولد. والله وأصبحتِ تحللين بالونات الاختبار.

قلت: تعلمتها عمليا، وانتبهت إليها منذ فيلم الصعود إلى الهاوية. أتذكره؟

قال : بالطبع. إن غداً لناظره قريب. وأذكر كيف فاجأ الناس الحكومة بأنهم في وادٍ آخر لحظة القبض على "عبلة" التي تعاملت مع اليهود. صفق الناس بجنون وقالوا رأيهم بصراحة في التطبيع وفي ذهاب "السادات" إلى القدس.

استلم "صدام" السلطة، وانطلقت الرشاشات تعلن الفرحة في سماء بغداد. لم أر في حياتي هوساً أكبر من هذا الهوس. ورحت أسأل نفسي: هل يعقل أن يكون هذا مدبراً من الحزب؟ لكن لا. هي كاريزما "صدام" التي تجعل الناس يلقون بأنفسهم أمام عجلات السيارات، ويستقبلونه بالهتافات في كل أنحاء العراق. ألا تذكرين ما سمعته بعد نكسة ١٩٦٧ في مصر من أن الحشود التي كانت تنتظر مسيرات "عبد الناصر" نظير خمسة جنيهات وزجاجة لبن؟ هذا كلام المغرضين. عشق المصريون "عبد الناصر"

على الرغم من أنف اليمين. وجنازته المهيبة أكبر دليل على هذا. ترى ما رأي اليسار؟ وما رأي الحزب الشيوعي العراقي فيما يحدث وأين هو الحزب حتى يكون له رأي؟ إن معظمهم قد حوكم أو أعدم، أو هاجر. لا شيء يقف أمام قوة "صدام حسين"، التي كانت واضحة، وهو نائب لرئيس الجمهورية. فماذا سيحدث الآن وهو رئيس؟! تذكرت أن "أنهار" عضو في الحزب الشيوعي العراقي، وحمدت الله أنه لم يتم القبض عليها، ولم تهرب إلى الخارج. أحبها، وأحب عملها معنا. نستطيع التفاهم بسهولة لأن التفاهم مع "حلمي أمين" يبقى دائما يتخطى حاجز الرئيس والمرؤوس مهما عظمت الصداقة. فارق السن يا "نورا".

وصلتنا أخبار أن الاحتفالات التي أقلقت السماوات السبع في بغداد لم تنته على خير وهناك مصيبة كبيرة على وشك الإعلان. ويتم الإعلان عنها يومي ١٨ و١٩ من تموز أي بعد يوم واحد من وصول "صدام حسين" إلى السلطة.

تصدرت عناوين الصحف العراقية كلمة واحدة :

المؤامرة

محاولة فاشلة لقلب نظام الحكم

أعلنت تفاصيل الخبرعن اكتشاف خيانة داخل حزب البعث العراقي، وتنظيم سري يضم بعض أعضاء مجلس القيادة القطرية في العراق، بالتعاون مع بعض أعضاء مجلس قيادة الحزب في سوريا يهدف إلى قلب نظام الحكم في العراق والاستيلاء على السلطة. وأن الدولة وضعت يدها على أسماء الخونة المشاركين في التنظيم على كل المستويات الحزبية، وتليت بعض أسماء المتهمين وجاء على رأسهم "عدنان حمداني" وزير التخطيط وعضو القيادة القومية والقطرية، أكثر الرجال قرباً من الرئيس "أحمد حسن البكر" وأشد المتحمسين للوحدة مع سوريا، و"غانم عبد الجليل" عضو القيادة القطرية، والمسؤول عن الجبهة الوطنية، و"محمد عايش" رئيس اتحاد نقابات العمال، أمين سر المكتب العمالي في تنظيمات الحزب، و"محمد محجوب" وزير التربية، وقائمة طويلة من المتهمين من كبار القادة.

ضربت بغداد حالة من الوجوم، ولم أجد في الشارع أي تعليق عما يحدث. صمت العراقيون بخوف شديد. وتحدث البعثيون بالصيغة التي يعلنها راديو بغداد.

التفاصيل ستأتي بعد قليل حين تبدأ المحاكمة.

أعلن "صدام حسين" رئيس الجمهورية العراقية أن المحاكمة ستكون علنية، وأن القصاص سيقع على الخونة من الأعضاء المناظرين لهم في كل مستوى حزبي.

تحركنا بسرعة نتابع الأحداث بين وزارة الإعلام ووكالة الأنباء العراقية. يقتصر عملنا في العادة على التحقيقات والتحليلات السياسية نسبياً، والتي يكتبها "حلمي أمين" من حين إلى آخر بحساسية شديدة محسوبة. كنت أرصد حيرته بعد أن تحول المكتب إلى مكتب صحفي خاص. أسمع تحليله اليومي الحقيقي لما يحدث حولنا من أحداث وصراعات داخلية وخارجية، وما يراه بوصفه عضواً سياسياً في جماعة مصرية، خاص بالشأن الداخلي العراقي كما يسميه. ألاحظ حالة الحزن والخوف التي تمر بها "أنهار" ؛ فقدها شهيتها، انخفاض وزنها. أرجع هذا لموجة اعتقالات الشيوعيين وعلاقتها بـ"حلمي أمين" معاً. أربت عليها وأقول: انتبهي لنفسك. تدمع عيناها وتقول: الله كريم.

أعلنت الأحكام. الخيانة العظمى لثلث أعضاء القيادة القطرية.

عطلة رسمية غداً بسبب ارتفاع درجة الحرارة.

وصلتنا التفاصيل السرية من داخل بيوت القادة المتهمين بالخيانة ؛ إصابة زوجة "غانم عبد الجليل "بحالة انهيار عصبي حادة، وهيستريا نقلت على أثرها لمستشفى مدينة الطب. ترحيل عائلات القادة المتهمين ومصادرة أملاكهم. نبهني "حاتم" إلى قراءة العلاقات العشائرية وراء هذه الأسماء، وكيف ستتسبب هذه الأزمة في مشكلة مستقبلية كبيرة؛ لأن عشائر هؤلاء القادة من أكبر العشائر العراقية. سألته : هل قوة العشيرة أكبر من قوة الدولة وعلى رأسها حاكم جديد؟

قال: نعم.

قلت: لا أظن. العراق يتغير.

أعلنت النشرة الجوية أن درجة الحرارة اليوم تصل إلى اثنتين وخمسين درجة مئوية، ونبهت إلى خطورة التواجد في الشمس.قلت:يا فتاح يا عليم. هي ناقصة.

قال : المبردة مفتوحة.

انطلقت الرشاشات الآلية توجه الذخيرة الحية نحو عنان السماء واستمر التليفزيون يذيع أغاني الانتصارعلى أعداء البلاد ويغني : هلهولة للبعث الصامد. هلهولة. بقي

الناس محبوسين في البيوت، وفتحوا التكييفات والمبردات كلها في وقت واحد، ما أدى إلى انقطاع متواصل للكهرباء منذ الصباح الباكر الذي بدا حزيناً على الرغم من أنف الأغاني المذاعة. تسمرنا أمام الشاشة نتابع الأحداث.

قال "حاتم" : ما هذا؟ كيف؟

امتلأت طرقات العاصمة بالحشود التي تحمل الأعلام. اصطف أعضاء حزب البعث على جانبي الطريق. ظهرت السيارات المصفحة للجيش والشرطة معاً تمشي في طابور طويل تعقبها سيارات نقل مكشوفة رصت في داخلها أجولة حمراء.

سألت "حاتم" : هل هذه حجارة؟ أين المتهمون؟

قال : قد يكونوا في السيارات المغلقة. الأجولة تهتز بخفة. ربما هي أسلحة.

استمرت اللوريات في التدفق، ثم جاءت وراءها الدبابات والسيارات المجنزرة. دخلوا إلى مبنى يشبه مبنى الاستاد الرياضي، وتراصت في صف طويل بلونها الزيتي الغامق، المبطش ببقع بنية. وتوقف هديرها مرة واحدة. وسط صيحات جمهور كبير يرتدي زياً موحداً. لم يعلن عن اسم المبنى. حاولنا أن نتنبأ به وانتهينا إلى افتراض أنه إستاد بغداد. خرجت من الطابور سيارة نقل مكشوفة تحمل أجولة حمراء وتقدمت إلى الأمام، ثم توقفت. نزل السائق يفتح البوابة الخلفية لها. صعد عدد من الجنود المرصوصين على جانبي الطريق إلى سطح السيارة ودفعوا الأجولة الحمراء المربوط طرفها العلوي بعصي غليظة. تحركت الأجولة. انكفأت ثم عادت تحاول الاعتدال. صرخنا : المعتقلون داخل الأجولة.

دفع بهم الجنود إلى الأمام، فتحركوا دون أن يروا نهاية حافة صندوق العربة، وقعوا مكومين فوق بعضهم. حاولوا الوقوف، وقعوا مرة أخرى. انهال الجنود عليهم ضرباً بالعصي. تقافزوا في كل الاتجاهات بفزع. ردتهم العصي. تكوم واحد لكزه جندي. قام مترنحاً. اصطدم بزميله. وقعا معاً على الأرض.

زعق المذيع : خونة الوطن. أعداء الوطن. القصاص يا بغداد. خيانة البعث السوري. لقد أكلتم وشربتم من ماء هذا الوطن. من خيره. فلماذا الخسة والخيانة؟

أوقفت الأجولة وفك أحد الجنود الحبال المربوطة ببعضها. استطاع عدد من المتهمين تخليص رؤوسهم بشكل ما. ثم توالى فتح الأجولة، وربطها تحت العنق حتى يظهر

الرأس واضحاً جلياً. ركزت الكاميرات على الوجوه العابسة، والشعور السوداء المشعثة والعيون الحمراء، والكدمات التي تملأ البشرة. تقدم أحد الرجال يعلن أولاً أسماء المتهمين من أعضاء اللجنة القومية، ويطلب من باقي أعضاء اللجنة أن يتقدموا لإعدامهم. أوثقوا المتهمين فوق أعمدة، وظل بعضهم معصوب الرأس يختفي وجهه تحت كيس كبير (عرفنا في اليوم التالي أن المتهمين الذين فقأت أعينهم ارتدوا أكياساً خاصة فوق الرأس حتى لا تظهر عيونهم). سمعنا طلقات الرصاص. ووقعت الأجولة مضرجة بالدم وسط صراخ الجماهير التي تطالب بالثأر. انقطعت الكهرباء، نز العرق من جسدينا، ونخرت الحرارة في أعصابنا ولكمنا المشهد المريع بضربة قوية إلى معدتينا. وضعنا المناشف فوق أفخاذنا نجفف بها العرق الذي يسيل كالمطر. فتحنا الراديو الترانزستور.

- أليس من المفروض أن أكون داخل هذا الحدث؟

- كل شيء على الشاشة أمامك. ماذا تريدين أكثر من هذا؟

- على الأقل كان يجب أن أكون وسط الناس وأسمع ما يقولون مباشرة.

- لن يستطيع واحد أن يقول لك أكثر مما تسمعينه هنا. والذي سيقول لك الحقيقة هم أصحابك، وقد استمعت إليهم بما فيه الكفاية في الأيام الماضية.

امتدت يده تحضنني. قال: لا أستطيع الاستغناء عنك يا أم "ياسر". من حقي أن أحمي حبيبتي. احمدي الله أنك لم تخرجي. سيكون قلب بغداد جحيمًا.

عادت الكهرباء، وعاد معها الإرسال التليفزيوني. لم يتغير المشهد كثيراً. مستوى حزبي آخر تتم محاكمته. أعضاء القيادة القطرية. تليت مواقف المتهمين، والدور الذي لعبوه في محاولة قلب نظام الحكم. حملوا الأجولة فوق الأعمدة، وأطلق أعضاء المستوى الحزبي نفسه الرصاص. توالت الإعدامات، وراحت الرتب الحزبية تتناقص والأسماء التي كانت تملأ سماء بغداد عنفواناً وزهواً وخيلاء تسقط وينطفئ بريقها ويلطخ بالعار. نبهني "حاتم" إلى خيوط الشبكة المعقدة بين الحزب والدولة. قال:

لاحظي. كل مسؤول حزبي هو مسؤول عن إحدى المؤسسات الكبرى. خصوصاً في أجهزة الدولة الحساسة : الأمن والتخطيط، والصناعة والإعلام.

تأملته، تزداد خبرته بالمجتمع العراقي كل يوم، ربما أكثر مني وأنا أعمل

بالصحافة بسبب اتصاله بالعمال، واقترابه من حياتهم الشخصية والعائلية. لم يكن المهندس أو العامل العراقي يخفي رتبته الحزبية أو اسم عشيرته. ظهرت الشبكة السرية للعلاقات في المصنع واضحة أمام عينيه تماما، ولأنه من مجتمع آخر؛ فقد فهم هذه الارتباطات، لكنه أصر على أن يحول إدارته إلى مجموعة من القواعد، والأوامر الإدارية حتى يتجنب صدامات معينة. لهذا أحبه زملاؤه، ووثقوا فيه، ودعوه مرات عديدة للانضمام إلى حزب البعث، وأغروه بتقلد منصب حزبي عال لأن الحزب يسعى للوحدة العربية. قال لهم ببساطة : أنا مصري في مهمة عمل، ولن أنضم إلى الحزب. تقبلوا رأيه في النهاية، وتركوه دون ضغوط. لكنهم أتاحوا له رؤية الواقع على حقيقته.

أشارت الساعة إلى الثانية ظهراً. وصلت الحرارة إلى الذروة. اثنتان وخمسون درجة في الظل، وما زالت تصعد. وما زالت الكهرباء على حالها. افترضنا أنهم يقطعونها عن مناطق ويوصلونها إلى مناطق أخرى بالتبادل حتى يخف الضغط على الشبكات. وكان هذا هو المنطق الوحيد في هذا المشهد الجنوني الذي دمر كل منطق. ما زال أجهزة الراديو والتليفزيون تردد أسماء المتهمين، ثم تذيع مارشات عسكرية وصراخاً، وتنتقل بين الناس في الشوارع والمحاكمة في الاستاد. تسلل "حاتم" إلى المطبخ ووضع أسياخ اللحم فوق الشواية، وعاد يحمل لي زجاجة عصير. قلت : هل تظن أنني أستطيع ابتلاع أي شيء؟

قال الساعة الرابعة الآن. بعد قليل سيقرصك الجوع.

تنقلت منذ الصباح الباكر بين الكنبة والأرض التي أبعدت سجادتها لأستشعر البرودة دون جدوى. جمعت ما طالت يداي من أوانٍ وملأتها بالماء ووزعتها في أرجاء الغرفة، وفتحت المراوح السقفية حتى إذا جاءت الكهرباء أوجدت أشكالاً أخرى من التبريد تساعد المبردة التي تلهث من التعب. تحركنا كل ساعة بين "الدُش" وغرفة المعيشة، ونحن نرتدي أردية قطنية خفيفة، دون أن نبعد آذاننا عما يحدث. تحول مشهد خروجنا مبللين من الحمام إلى مشهد كوميدي، بعد أن لاحظنا اختفاء قطرات الماء التي تتساقط من فور وصولها إلى الأرض الملتهبة بالحرارة. كنا أشبه بكائنات بحرية من القطب الشمالي تلهث فوق جزيرة صخرية تحت خط الاستواء.

حين دقت الساعة الخامسة أحضرت الطعام أمام الشاشة، لم نستطع أن نمضغ حتى

لقيمات قليلة. اكتفينا باللبن المخثر البارد. وحملت الطعام عائدة إلى المطبخ. أردت أن أغفو قليلاً. كانت الاتهامات موجهة إلى الشبان الصغار من المستويات الحزبية الأدنى. رصوا في أجولتهم وتقدم أعضاء الحزب الشبان وفتحوا نيران الرشاشات الآلية وسقطت الأجولة تتخبط في دمائها. قلت: شنو هذا؟ شنو هذا؟

قال "حاتم" يحاول أن يخرجني من هذه الحالة: نطقتِ بالعراقي يا بنت سلطح ملطح[1]؟!

تعالى بكائي، قام يساعدني في العودة إلى الكنبة. قلت: أخرجني من هنا. أخرجني من هنا. لا أريد أن أعيش في هذه المدينة القاسية التي تقتل أبناءها بهذه الطريقة. هل تتخيل حياة هؤلاء الشباب الذين نفذوا في زملائهم حكم الإعدام؟ كيف سيعيشون بعد هذه التجربة؟ من قُتل فقد قُتل. أما الذي سيعيش فقد دُمر تماماً.

ازداد احتضانه لي. لف ذراعيه حول جسمي وأنا أحاول أن أفلفص. قلت: لماذا هذه الطريقة؟ الانقلابات السياسية تحدث في كل مكان في العالم، والمحاكمات تتم بالحق وبالباطل، والسجون في كل الدنيا ممتلئة عن آخرها بالمعتقلين السياسيين، لكن لماذا كل هذه الوحشية؟ لا أريد البقاء هنا. لا أريد أن أعمل بالصحافة، ولا بالعمل العام. لا أريد أدباً ولا فناً. أريد أن أكون حماراً صغيراً. بقرة. طيراً. لا أريد أن أكون متورطة إلى هذه الدرجة في كل أحزان البشرية.

- "نورا". أفيقي أرجوك. أرجوك يا "نورا" يا حبيبتي.

- أين الأمهات؟ أين الزوجات؟ أين الأبناء يا "حاتم". أين؟

- هم يتحملون نتيجة أفعالهم يانورا. ماذا تناقشين؟

- ليس بهذه الوحشية. هؤلاء ثلث أعضاء القيادة. معنى هذا أن ما ينادون به عليه إجماع كبير.

- تخيلي ما يحدث إذا نجح هذا الانقلاب؟ كانوا سيتبادلون المواقع. القاتل والقتيل.

- لماذا يتم هذا في الشارع يا "حاتم". أنا لن أفهم العراق أبداً. لن أفهمه حتى وأنا أحبه بشدة الآن. لن أفهمه.

---

[1] نطقت بالبلدي يا بنت سلطح ملطح . . جملة شهيرة من فيلم "إشاعة حب" .

ـ مال العراق؟ مال الشعب وما يحدث؟ هذا صراع سلطة.

ـ كل شعب يستحق قائده. أليس هذا ما آمنا به طوال العمر.

ـ إذن هي محاولة لكي يختار الشعب من يقوده، والثورات لها ضحاياها.

احتضنني بقوة. أفهم منطقه وأعرفه. يستطيع استخلاص النتائج بسهولة. يصل إليها وينتهي، وأظل أدور في التفاصيل، وحين يجدني وقعت في فخ الحيرة يأخذني في حضنه، أو يتركني أهدأ وحيدة بالساعات أتأمل سماء بغداد. يغلق الباب ويمضي. ثم يدعوني إلى نزهة في حديقة الزوراء، نمشي معاً متشابكي الأيدي، يدعوني إلى عشاء في الخارج ويعود بي بعد أن يتغلب على مزاجي الذي تعكر فتقوقعت داخله صامتة.

في الواقع لم يكن يستطيع إخراجي قط من حالتي، إلا إذا توصلت بنفسي إلى توازن ما ـ أظنه يعرف ذلك. يأتي التوازن لسبب غير متوقع، مجرد صدفة التقاء غريب، نتقاطع معه، يذكرني بمصر، أو تأتي إلينا صديقة قديمة، أو حتى جارة. يفاجأ "حاتم" بي، وقد خرجت إلى الدنيا ثانية، وقلبت الصفحة. لكني اليوم أريد أن أغمض عينيّ إلى الأبد، وأن أمحو من ذاكرتي كل ما رأيت بأي صيغة حتى أستطيع أن أعيش في هذا البلد، وأتواءم مع المكان، وأعود إلى عملي.

ذهبت في الصباح إلى المكتب. إذ أن بقائي في البيت وحيدة بعد ذهاب "حاتم" إلى المصنع كان سيصيبني بالجنون. حين فتح "حلمي أمين" الباب هطلت دموعي مثل سيول الأمازون وتحولت إلى طفلة صغيرة ملتاعة. أخذني في حضنه.

قلت: هل رأيت ما حدث؟

قال : نعم. أذيع هذا الشريط في كل مقرات الحزب بالإضافة إلى التليفزيون. أي أن الرؤية إجبارية!

قلت : تقول شريطاً. هل هو مسجل؟

قال : بالطبع. هل تتصورين أن حدثاً مثل هذا يترك للصدفة. لقد تم بالفعل، وسجل، وأذيع بعد أن تمت السيطرة على كل العراق.

قلت: هل تظن أن صعود "صدام" إلى السلطة كان مدبراً في هذا الوقت بالذات؛ وأن اللعبة كانت لعبة سرعة من يصل أولاً ليأكل الثاني؟

قال : لا شيء معروف حتى الآن. لكن على الأقل انتصر جانب الحزب الذي يتهم الآخرين ببيع العراق لسوريا. وكما وصلنا في تحليلنا من قبل إلى أن "صدام" لن يقبل أن يكون الرجل الثالث في منظومة البعث العراقي السوري.

قلت : لماذا لم تناقش العلاقات السورية العراقية بوضوح ؛ ويصل الجميع إلى نتيجة حاسمة، بدلاً من محاولة الانقلاب، والاتهام بالخيانة.

قال : كل الأسباب التي ساقها المتهمون في أثناء المحاكمة للاختلاف في وجهة نظرهم عن الحزب غير مقبولة ؛ لأن الحزب يسمح كما علمت داخل لجانه بمناقشة كل شيء مهما كان صغيراً؛ لذلك اعتبر هذا الطرح خيانة ؛ لأنه لم يناقش داخل اللجان، وإنما تم التوصل إليه سراً مع الجانب السوري.

قلت : من يدري. هذه بلدان انقلابات.

قال : معك حق. من يعلم أين سيكون في الغد أي واحد في السلطة الآن؟ واستطرد : لا أظن يا "نورا" أننا سنرى مرة أخرى تعاونا سورياً عراقياً على الأقل في أثناء فترة عملنا الحالية هنا.

أغلق الملف البعثي العراقي السوري، وأغلقت الحدود أمام العراقيين والسوريين معاً، وعاد نشاطنا ينحصر في بغداد وحدها.

❖ أغسطس ١٩٧٧

القدس

نادى "حاتم" منزعجاً: "نورا". "نورا". أين أنت؟

- فوق السطح. ماذا بك؟

- ماذا تفعلين فوق السطح الآن؟ انزلي بسرعة.

قلت وأنا أنزل متوجسة : أدخل الفرش إلى المخزن. كل سنة وأنت طيب. بردت الدنيا. لماذا أنت متوتر بهذا الشكل؟

- أعلن "السادات" في جلسة مجلس الشعب أنه مستعد للذهاب إلى القدس.

- يا نهار أسود. متى؟ وكيف؟ هل اتصل "حلمي أمين"؟

- جاء الخبر في النشرة. ووصفوا الزيارة بالخيانة.

أمسكت بالتليفون ورحت أطلب فندق رمسيس وأنا غاضبة. لم أسمع في حياتي عن مكتب صحفي من دون تليفون.

قال "حاتم" : انتظري للصباح.

قلت : من يعلم كيف تكون التداعيات في الصباح؟

سمعنا طرقات على الباب. دخل "شكري" و"صباح" وسألا منزعجين عن انعكاس هذا الإعلان الغريب على المصريين في العراق.

قال "حاتم" : لا أحد يعرف. معلوماتنا هي معلوماتكم بالضبط حتى الآن.

لم يكف التليفون عن الرنين. اتصل بنا كل المصريين الذين نعرفهم، توجسوا إن كانت هذه الزيارة ستؤدي إلى طردهم من العراق؟ وصل الشارع العراقي خلال ساعات النهار التالية إلى قمة الغليان بعد أن حشده الإعلام ببيانات حماسية. انتقلت بين العراقيين والمصريين إلى أقسام الشرطة. ركضنا نتابع تداعيات الأحداث. لم تعلق السفارة المصرية. كتبنا تقاريرنا نصف رد الفعل على المستوى الشعبي والحكومي. في

أثناء عودتنا من وزارة الإعلام سمعنا مجموعة من الشباب العراقيين يعلقون على سيدة مصرية حامل تعبر الشارع قائلين : زمال وتريد تجيب زمال[1].

قال لهم "حلمي أمين" : عيب. الرجال لا يهاجمون سيدة لأي سبب.

قال أحدهم : عودوا إلى بلادكم يا خونة يا عملاء إسرائيل.

قال "حلمي أمين" : هذا كلام خائب. دفع الشعب المصري آلاف الشباب للدفاع عن فلسطين. بدلاً من الوقوف على الناصية. اذهبوا إلى مدارسكم.

أخذته من يده، وعبرت الشارع، وأنا أقول : لا تغضب هؤلاء مجرد شباب متحمس. لم أرك في حياتي عصبياً بهذا الشكل. كان بعض هؤلاء الشباب حين أمر بجوارهم يقولون لي : الطشت قاللي يا حلوة ياللي قومي استحمي.

ضحك قائلاً يغازلونك؟!

قلت : حبك نار، ونهارنا عسل، وازيك يا جميل. هذا هو ما سيبقى. أما الخيانة والذي منه فهذه حماسة الحشد الذي يسمعونه طوال اليوم من الراديو والتليفزيون.

ذهبنا بعد يومين إلى قرية الخالصة لنطمئن على الفلاحين المصريين. كنت خائفة بشدة على التجربة من الانهيار. استقبلنا الناس بحفاوتهم المعتادة. بعد دقائق ترجل المهندس "مهدي" مدير المشروع من السيارة. سألته قبل أن أسلم عليه : ما الأخبار؟

قال بهدوء : كل شيء تمام، وتحت السيطرة. دخل مذيع تافه إلى القرية متحمساً وطلب من الفلاحين أن يشجبوا الزيارة، ويسبوا "السادات". طردته من فوري. قال : هذا عمل حزبي. قلت : أنا المسؤول. قال : سأبلغ القيادة. قلت : أبلغ. ولم يستطع أن يفعل شيئاً بالطبع، ورحل غاضباً، ولن يعود أحد غيره. مسؤوليتي حماية القرية من كل الأهواء. هذا ليس مشروعاً دعائياً. تجربة تحتاج إلى الرعاية والاستقرار، وليس إلى السياسة وتقلباتها.

واستطرد بعد أن قال "حلمي أمين" : عندك حق.

- ما علاقة الفلاحين وزيارة "السادات" إلى القدس؟

قال "حلمي" : لم يستأذنهم أحد في الذهاب من عدمه.

---

[1] زمال وتريد أن تجيب زمال : حمارة وتريد أن تنجب حماراً .

قلت : ولم يسألهم أحد عن أي قرار من قبل.

نظرت إلى المهندس "مهدي" طويلاً. لا يعرف هذا الرجل كم أحببته في هذه اللحظة وكيف اعتبرته صديقاً مخلصاً لي، على الرغم من أنني لا أعرف عنه أي شيء شخصي، أتابع عمله،أراه يحب الفلاحين، ويعرف مشكلة كل شبر على هذه الأرض المستصلحة. اكتشف قدرات كل فلاح وأعطاه من خبرته الغنية ما يساعده على الوصول إلى أعلى إنتاج لها. تابع احتياجاتهم، وعدَّل من التخطيط وفقاً للواقع العملي، ودفع الإدارة لإعطائهم مكتسبات أخرى. تعرَّف على أسرار نجاح بعض العائلات في البقاء والاستقرار، وفشل بعضها الآخر، فساعدهم على التكيف، بمعاونة فريق ممتاز في الوحدة الزراعية. هكذا تسلم الفلاحون بعد البقرة والدجاج، مناحل العسل. وحين بدأ جنيهم لثمار التعب أرشدوهم إلى طريق الحصول على قرض لشراء سيارات لنقل المحاصيل إلى السوق، وخدمة القرى المجاورة أيضاً. نمت القرية وراحت تتجذر في الأرض الجديدة، ويظهر لها كيان وشخصية مميزة.

أدركت والمهندس مهدي يحدثنا عن مشكلة السادات أن العاقلين وحدهم هم الذين يغيرون المجتمع. وأن الثائر يأتي أولاً بشجاعته واندفاعه، ثم يحتاج إلى من يسنده بهدوئه. أردت أن أسأله إن كان بعثياً أو لا؟ ترددت. ما أهمية أن يكون داخل الحزب أم خارجه؟ المهم أن يؤدي دوره بما ييسر نجاح المشروع.

صدر قرار من الحكومة العراقية بالسجن ستة أشهر لمن يتعرض لأي مصري بالإهانة بسبب زيارة السادات إلى القدس. جاء القرار ليهدئ نفوس المصريين القلقين على استقرارهم في البلاد ، وأخرس كل الألسنة التي تطاولت على العمال بصفة خاصة. لأول مرة تنام بغداد بهدوء، لكن تداعيات الأحداث لم تكن بسيطة. تصاعدت الرغبة لدى المثقفين البعثيين لنفي مصر، ونادت النقابات العراقية بقوة بسحب الاتحادات العربية من مصر، ونقلها إلى العراق.

تابعنا بقلق ما يحدث في مصر. قرر الصحفيون المصريون المنتشرون في الخارج عمل الاجتماع في باريس لمناقشة الأوضاع. واستعد "حلمي أمين" للسفر. ذهبنا بالصدفة إلى نقابة الصحفيين لكي نجدد اشتراكينا قبل أن يسافر. التقينا ببعض الزملاء الذين بادرونا بالحديث عن فعل الخيانة، وتأثيره في المنطقة، وقالوا لابد أن ننقل اتحاد الصحفيين العرب من القاهرة إلى بغداد.

قال "حلمي أمين" : تناضل نقابة الصحفيين المصريين الآن ضد السادات وبدلاً من دعمها تطالبون بذبحها ؟ أليس هذا غريباً ؟

تصاعدت صيحات الغضب : نعم لابد من نقل الاتحاد.

قال "حلمي أمين" : وجود اتحاد الصحفيين العرب في القاهرة يدعم موقف نقابة الصحفيين المصريين التي من المتوقع ضربها، واعتقال الصحفيين بسبب آرائهم.

قال أحدهم : لا نترك الاتحادات العربية في بلد تخون القضية.

قال "حلمي" : نقابة الأطباء تناضل ضد "السادات". نقابة المحامين كذلك. هي نقابات حرة. يتعرض أصحابها في هذه اللحظة للبطش من رئيس الدولة، وأنتم تعلمون تفاصيل هذه الأخبار مثلي تماماً.

قال واحد : لماذا لم يصدر اتحاد الصحفيين العرب من القاهرة بيانات تشجب الخيانة التي فعلها السادات؟ لابد من نقله إلى بغداد.

قال "حلمي" :لا تتشدقوا بالوطنية. أزيلوا اللثام عن حقيقة الانتهازية الواضحة. أنتم تريدون الحصول على ما كسبه المصريون بكفاحهم الطويل، وريادتهم.

- هذا غير حقيقي. لابد أن نلقن "السادات" درساً لا ينساه. لابد أن تُقاطع مصر، ويتم إفقارها حتى تثور عليه، وعلى خيانته.

اختنق صوت "حلمي أمين" : قصة إفقار مصر هذه قصة ساذجة ولن تحدث.

قلت : الثورة لا تصنع خارج البلاد.

- نطرد العمال المصريين من كل الدول العربية حتى يثوروا ويقتلوه.

- يقتلون من!؟ المصريون لا يفعلون شيئاً. نحن من سيدفع ثمن الخيانة.

قال "حلمي": هذا طق حنك. لن تدفعوا شيئاً قبل أن يصل الجندي الإسرائيلي إلى دجلة.

قال اثنان من الصحفيين : رجاء النقيب في انتظاركما.

استقبلنا النقيب أمام الباب. وأمر لنا بالشاي. ثم سألنا عمن سيحضر اجتماع باريس؟

قال "حلمي أمين" : أعضاء نقابة الصحفيين المنفيين في الخارج فحسب.

قال النقيب : بعض الصحفيين المصريين الموجودين هنا مثل الأخت "نورا سليمان"،

و"أحمد عزالدين"، و"هالة البدري" وغيرهم يريدون الحضور، ولديهم عضوية اتحاد الصحفيين العرب، وهم يمارسون المهنة لماذا منعهم؟

قال "حلمي أمين" : لو فتحنا هذا الباب فسندخل في مشاكل كثيرة. هذا اجتماع مهني يحضره مهنيون أعضاء نقابة محددة، ولابد أن يتم وفق قواعد تحفظ له قانونيته حتى تكون قراراته ملزمة لنقابتهم.

قال النقيب : إذا أردتم أي مساعدة فنحن حاضرون. "ست نورا". أرجو أن تفهمي حماسة الإخوان. هناك تجاوزات بالطبع، ودور مصر لاينكره أحد، ولن يستطيع مخلوق، لا عربي ولا أجنبي التشكيك فيه. واتخاذ قرارات المقاطعة ستؤدي إلى نتائج سيئة على المدى الطويل، والله كريم، لا تغضبا، وامسحاها فينا على رأي المصريين.

شكرنا الرجل وخرجنا يملؤنا الأسف من عدم الفهم. شعرنا أننا أمام هواة سياسة. اختلف موقف البعثيين عن موقف الشيوعيين بشكل لا يصدق. أهي السلطة. أم تركيبة الحزب نفسه؟ أم كون الحزب في السلطة، وشعوره بالقوة والعجرفة؟ نظرت إلى اليافطات المعلقة فوق جدران البنايات العالية في شوارع بغداد، والتاكسي يقطع بنا الطريق. قلت لـ"حلمي أمين" : خنقتني أفعال التفضيل. ما أكثر ما يستعمل هؤلاء الناس أفعال التفضيل : الأكبر. الأعظم. الأكمل. يا إلهي. أهذه سمة داخل النفس العراقية. أم أنه جنون الثروة والسلطة والعظمة؟ _

قال "حلمي" حانقاً: فرحين بأنفسهم قليلاً، يريدون السيطرة على كل مؤسسة اتحادية عربية ووضعها في جيوبهم. لكني لن أتركهم. نحن في لحظة حرجة، ومن غير المعقول أن تتلقى الحركة الوطنية المصرية الضربات من كل جانب.

قلت : وكيف ستفعل ذلك؟

قال : لا تشغلي بالك. ولا تخشي شيئاً.

متن رابع

ثلاث طرقات على باب الذاكرة أعادت الحياة لأيام كانت تتلكأ، وهي تستدير ميممة شطر الاختفاء الأبدي. شددت طرف خيط الزمن الذي اعتاد أن يدجن الجبال والبشر. انهمرت الأيام، وسقطت في قلبي.

حاولت أن أوقف تدفقها، وأنتبه لما يحدث حولي، ولكني لم أستطع. في داخلي دبيب يسعى لاستعادتها، ويستشعر لذة الألم التي تستوعب اللحظة، وأنا أحمل حقيبتي في طريقي إلى بغداد، للاشتراك في مؤتمر عن ثقافة النساء بعد محو أميتهن، ولا أصدق أني بالفعل رتبت ترك ابني ذي الأشهر الستة عند حماتي في مغاغة التي تبعد عن القاهرة ساعتين ونصف الساعة؛ آملة أن أعرف سر اختفاء "أنهار خيون" صديقتي العراقية، وزميلتي في مكتب الزهرة المصرية في بغداد، وأن أزور بيتي في حي الدورة الذي أصابته الطائرات الإيرانية، وأطمئن على جيراني، وألتقي "بسيوني عبد المعين" الذي التحق بالجيش العراقي، ودخل الحرب مع إيران. وأعطيه خطاباً من أهله يحثه على العودة، وأن أزور مكتب مجلة الزهرة لكي أكمل تصفية أعماله، وأبحث عن مقالات "حلمي أمين". في اليوم الأول للمؤتمر فوجئت بوجود دفتر مذكرات لكل من "حلمي أمين" و"أنهار خيون" في صندوق بريدي. تركت بطاقتي وعنواني للمستأجر الجديد لشقة مكتب الزهرة وغرقت في أعمال المؤتمر دون أن تكف الذكريات عن ملاحقتي وها أنذا أبدأ يوماً جديداً في بغداد.

أيقظني صراخ "هيثم" في الخامسة صباحاً، بحثت عنه بيدي حتى أجذبه نحوي، وألقمه صدري، ثم أعود إلى النوم. اصطدمت بالملمس البارد للمساحة الفارغة من سريري. قمت نصف قيام، ووضعت وسادة صغيرة خلف ظهري وفتحت ضوء

"الأباجورة" وأنا أضع الشفاط فوق ثديي. تمنيت أن أنام قليلاً. ساعة واحدة إضافية تدفعني لقمة النشاط. أغمضت عيني. لم يتركني "هيثم". ضربة كفه الصغيرة فوق خدي أعادتني للانتباه. فتحت الراديو وأطلقت موسيقى ناعمة في الحجرة ورحت أستكمل إجراءات الصحو. لفت نظري دفتر "حلمي أمين". ما زال فوق الكوميدينو منذ قراءتي لبعض أوراقه أول أمس. فتحته بعد تردد لم يطل. كتب يقول :

عصمت

أطلقت "عصمت" إلى السماء. حررتها لأني عشقتها. كنت يائساً حتى الموت أخضع لتعذيب يومي شاق بالكرابيج، وتعذيب آخر بأصوات تعذيب المساجين. أتوقع حكماً بالإعدام. وسارع أبي بقبول ارتباطها برجل آخر كان يتردد عليه. عاشت في خيالي على الرغم من زواجي، وإنجابي لطفلة جميلة أسميتها "ميرفت". لم أحاول رؤية "عصمت" قط حتى تم القبض عليّ مرة أخرى، واعتقلت في الواحات. رتبت في خيالي لقاءً يومياً بها، لكسر الزمن، والمسافات وفراقنا. حددت لها ساعة أهيئ نفسي لها منذ استيقاظي الصباحي، وخروجي في طابور إلى المزرعة التي طالبنا أن نفلحها، فلما وافقت إدارة السجن حولناها إلى جنة. أنتظرها وأنا أتابع دوران قرص الشمس حتى ينحدر، وحين ينسحب الجميع من حولي، وتغلق علينا الزنازين. أنادي عليها : "عصمت". تأتيني مثل طيف ناعم، تحكي أيامنا، عشقنا. تسأل : ألا تمل حديثنا؟ أقول لها : هو كل ما أملك في هذا القحط. أسمع ضحكاتها المتقافزة، أستعيد ركضنا فوق رمال البحر، وفي حضن الموج حين كنت أتسلل عند الفجر لكي أراها مع أخواتها وصديقاتها، وهن يلقين بأجسادهن إلى الماء، ويتحولن إلى حوريات. تشعر بي، تتركهن عابثات، ضاحكات وهن يلقين بكبشات الرمل المبلل وراءنا. ونمضي نحو أفق الشاطئ حتى نغيب. موعد يومي حافظنا عليه منذ صبانا المبكر.

تأتي زوجتي إلى السجن مرة كل شهر. تصل بالقطار إلى مدينة أسيوط. ثم تركب سيارة حتى واحة الخارجة، ثم السجن. تحكي لي أخبار ابنتي "ميرفت" التي تشكل شعرها على هيئة ضفيرة الآن. وتخبرني عما يجري في مصر، والعالم. أشتاق إلى بيتي، لكن "عصمت" تملك بندولاً يضوي، يتحرك أمامي، ويذكرني بالعمر الذي يضيع وافتقادي لها. لم أسأل نفسي كيف سأراها بعد خروجي. كنت أعرف أن موعداً قد حدد

بيننا على الرغم من أنها لم تكتب لي قط. وصلتني منها مع زوجتي مجرد رسالة شفهية : ربنا يفك ضيقتك.

بعد أيام من خروجي كنت أقف أمام أمي فاتحاً ذراعيّ لها. بكت كثيراً قبل أن تأخذني في حضنها. وعلا صوتها وهي تنادي أهل الحارة فرداً فرداً: يا "محمد". يا"علاء". "حلمي" وصل. يا "يوسف" يا "فاطمة". يا أبو "محمود". يا "سلوى" يا"فتحية" يا "زينهم". "حلمي" وصل. جاءت وسط الأهل والجيران. لم أنظر في عينيها، ولم أتبادل معها كلمة واحدة. لكننا كنا نعرف ماذا سنفعل. هدأ الضجيج، انطلقنا إلى مكاننا المفضل خلف البيت، حيث الأرض ما زالت تُزرع. اختفينا في حضن الظلام، وخشخشة أوراق الذرة. كنت قد تعبت من الكلام معها لسنوات وتركت يدي ترعى وجهها، وشفتي تبحثان عن كل خلية من خلاياها لتقبلها. وامتدت يداي تعصران ثدييها، وتمران فوق جسدها، وتتأكدان من حقيقة كونها موجودة بالفعل. جلست فوق حجر قديم مستنداً إلى حائط بيتنا، وأجلستها فوق فخذي، وأنا أمرر يدي فوق امتلاءات جسمها، وأكتشف تغيرات الأنوثة التي أدخلها الزواج عليها.

قلت : فاتني الكثير.

قالت : أنا ملك يديك.

اعتصرتها في قبلة حتى ذاب ريقانا معاً، والتقطت أنفي رائحة شهوتها، فزادت من جنوني، ورغبتي في الاختفاء في جسدها إلى الأبد، وراح جسدي يتفكك ويتداعى وأنا أحس بها تتلوى فوق فخذي حتى لم نعد نستطيع السيطرة على رغبتينا. وامتدت يدي تعري نصفها الأسفل، وتقبض عليه. استدارت فاتحة ساقيها لتواجهني، ولتنزل فوقه حتى قبل أن أحرره بالكامل لينطلق إليها فتصرخ، وهي تدفن وجهها في صدري مكممة فمها بكفها حتى لا يكتشف الناس وجودنا. تشبثت بها، وأنا أرى ارتحالها إلى الداخل. هي الآن لا تراني. انفتح أمامها كل ما يجري في أعماقها، فغرقت فيه بكل وعيها.

واصلت طعناتي، وأسرعت الخطى إلى أفق بعيد من الشبق الذي يفتك بنا. صوبت طلقاتي إلى هدفي الذي أعرفه على الرغم من ارتجاجات جسمها. انفتحت لي واتسعت الحياة أمامي. أرى نجمة تبرق. أمد أصابعي إليها. أشعر بطراوة ردفيها، وهما عائدان

إلى فـخذيّ. طار صـوابي. شعـرت أني دخلت بين قطبي دائرة تمتـصني بإيقـاع منظم أحدهما في فـمها والآخـر في فـرجها؛ حتى ذبت فـيـها ، وتوقف الزمـن، ونشع جسـدها بعسل ولبن يزحمان أنفي.

اكتشفت أني أعرف رائحة انعتـاقها على الرغم من أنها المرة الأولى التي تبيح نفسها لي: رائحة العشق، وضربات الموج فوق صخور تسكنها الطحالب. رائحة خشب متعطن في الماء. رائحة صباح شتوي، ونسمة صيف طرية، وفلفل أسود حريف. رائحة وردة الصبار المُرة التي عضضتها بأسناني ذات عصر معها. رائحة ضحكتها ، ونعومة جلدها ، وحرماني.

لم نكن في حاجة إلى أن نتعلم كيف نضبط إيقاعنا ، حلمنا به منذ سنوات طويلة. جاء انسجام العزف من ليالي الشوق والرغبة وتمنيت أن يصبح كل إصبع لي قضيباً ، وألا أتوقف أبداً عن طعنها. هبطت هي تعتصرني، وتسمح بانفجارنا معاً. ارتمت في حضني، واستكانت، على الرغم من أن عطشي لها كان مستحيلاً. انسلت إلى بيت أمها ، وتركتني حتى الصباح لا أقوى على إغلاق جفوني، أمد البصر نحو الخضرة أمامي، ولا أريد أن أستعيد نظراتي، حتى زارني الفجر، فلملمتها على مهل غير مصدق لحريتي. دخلت إلى البيت لأنام ساعات طويلة حتى أيقظتني أمي، وهي تقول ضاحكة :

أجائع أنت إلى النوم؟

عدت إلى القاهرة، وحين رأيت على ذراعي "عصمت" بعد فترة طفل صغير تهدهده في إحدى مناسبات العائلة. عرفت دون لحظة تردد واحدة أنه ابني.

هل حدث هذا؟ أحقاً حدث هذا؟ أم أنها أضغاث أحلام الوحدة، والشيخوخة، والخرف، واستدعاءات المستحيل في هذه الشقة المغلقة في هجير بغداد؟

سمته : "جمال". اسمي الحركي.

أغلقت الملف وأنا أقول : منك لله يا "حلمي". هي ناقصة استفزازات جنسية على الصبح. أخذت حمامي بسرعة وأنا أقدر الوقت في القاهرة حتى أتصل ببيتنا لعل حظي في الصباح يكون أفضل.

جاءني صوت أمي من القاهرة يطمئنني على "هيثم" و"ياسر" و"حاتم" : تمام وبخير، انتبهي إلى عملك وأرجو أن يستحق التعب. ما أخبار الحرب؟ هل أنت آمنة؟

ـ الحالة محزنة هنا. أود أن أبقى ؛ لأجمع أكبر قدر من المعلومات، لا أنام ليلاً أو نهاراً؛ حتى أستطيع أن أنقل المشهد. اتضح أن فكرة اصطحاب "هيثم" إلى بغداد كانت فكرة جنونية، ومستحيلة، وليست فضيحة كما كنت أخشى: المدينة آمنة. تعود الناس أن يعملوا ويعيشوا حياتهم، وينتظروا الأنباء. تشبه القاهرة أيام حرب الاستنزاف، الجبهة بعيدة نسبياً إلا إذا أصابت بغداد قذيفة مباشرة وهي نادرة الآن.

ـ هل ستمدين الإقامة؟ وما أخبار صدرك؟

ـ غالباً لا. بسبب "هيثم". أشفط اللبن بدقة، لكني ألاحظ في المساء تناقصه.

ـ لن ينقطع إن شاء الله. احرصي على الانتظام دون ملل.

ـ أريد أن أسمع صوت "ياسر".

اختنق صوته، وهو يضع السماعة أمام فمه. قال : ماما تعالي. تعالي.

قلت: أيام وأكون معك، ومعي لعبة كبيرة جداً.

انفجر باكياً، وسمعت صوت أمي تقول: انتبهي لنفسك. مع السلامة.

أخبرتني "ليلى" المرافقة لي كظلي في أثناء الإفطار، أننا بعد نهاية جلسات المؤتمر في المساء سنستعد للسفر إلى البصرة لزيارة الجبهة وفرع اتحاد النساء هناك، وأن عليّ أن أرتب حقيبتي؛ لأن القطار سيتحرك في الخامسة صباحاً.

قلت : يستغرق القطار ثماني عشرة ساعة. أليست حركة القطارات خطرة، ويرصدها الطيران لأنها تحمل الأسلحة والجنود؟

قالت : لا. الغارات تستهدف القطارات العسكرية، لكن لم يُضرب أي قطار مدني.

كنت أتابع من شرفة بيتي الذي يقع أمام خط سكة حديد بغداد في منطقة الدورة القطار وهو يتحرك. أعرف مواعيده في أثناء إقامتي الطويلة في هذا البيت، وأستطيع التفرقة بين أنواع القطارات المختلفة من الصافرة التي تأتي في مواعيد محددة من موانئ البصرة تحمل معدات المصانع، والمواد الخام إلى العاصمة، التي تبني قلاعاً صناعية بسرعة صاروخية. كنت و"حاتم" حين نقف في الشرفة نشعر بذبذبات القطار

تحت أقدامنا قبل أن نسمع صوت حركته فوق القضبان. يقول "حاتم" بإعجاب : راقبي التنمية. هذه مصانع جديدة. العراق يبنى. لديه المال، والرغبة، والإصرار. نحن هنا ما دام يحمل هذا القطار معدات جديدة.

كان فائض ميزان المدفوعات كبيراً، وأموال البترول تتحول إلى استثمارات في المصانع والطرق والزراعة. وتعيش بغداد حالة من الزهو. أين هي مما أسمعه الآن؟ على الرغم من أن البناء لم يتوقف فإنها ليست بغداد التي أعرفها.

تذكرت يوم سمعت خبر ضرب منطقة سكني في الدورة.

تسعة أيام فحسب بعد أن غادرت بغداد. وبدأت الحرب مع إيران. اليوم أذهب إليه في فترة الاستراحة بين جلستي الصباح والمساء.

اتجه "الشيف سعيد" ناحيتي بعد أن أنهيت إفطاري. قال : معي زميلي"محمود أبو وافية" الذي حدثتك عنه يا أستاذة "نورا".

قلت : اسبقوني إلى الصالون.

قالت "سهام": مشاكل؟

قلت : لا. أحب الحديث إلى المصريين هنا.

قلت : أهلاً يا "محمود". لا يبدو عليك أن هذه هي الزيجة الأولى.

قال بهدوء: نعم. أنا متزوج في مصر، وعندي أولاد ؛ أحدهم في الجامعة.

قلت : لماذا تزوجت عراقية. أرملة شهيد؟

قال : يا أستاذة شوارع بكاملها لا يوجد فيها رجل واحد. كلهم نساء. والشاب المصري يعيش الآن وسط الأحياء الشعبية ويختلط بالناس بصورة لم تكن موجودة من قبل. أنا هنا منذ خمس سنوات وأعرف العراقيين جيداً.

قلت : لكنك لم تخبرني عن سبب الزواج.

قال : هي ابنة جيراني، وأنا رجل أعزب هنا، ولا مؤاخذة حماتها مريضة، وعندها أطفال، وأبناؤها الكبار في الجيش أحدهم الشهيد. وكنت أساعد في نقل الحماة إلى المستشفى. فكرت أن الأفضل أن أتزوجها بدلاً من كلام الناس.

قلت : والعشرة الآف دينار هل أخذتها؟

قال : أخذتها ووضعتها في البنك، ولم أصرف منها مليماً واحداً على عيالي في

مصر. وزوجتي الجديدة لأولادها معاش من أبيهم الشهيد، وقد تقبلتني حماتها ؛ لأنها كانت تعرف أنني أرعاهم من البداية وقبل الزواج.

قلت: بصراحة. ألا توجد نية للهرب إلى مصر بعد حصولك على النقود ؟

ابتسم "سعيد" وقال : أنا أقول لك إن هذا غير ممكن. كان "محمود" ينفق على هذه الأسرة قبل أن يتزوج الأرملة. وكما قلت لك؛ هو شهم، وجدع. لكن غيره أخذ الفلوس وهرب الله يجازيه.

قال محمود : اطمئني يا مدام. زوجتي العراقية حامل، وفلوس العالم كله لا تغنيني عنها.

قلت : وزوجتك وأولادك في مصر؟

قال : أكفيهم والحمد لله. أرسل لهم بانتظام، وأزورهم في الصيف القادم إن شاء الله. أصبحت الحركة إلى مصر بعد قطع العلاقات متعبة ومكلفة.

قلت: نعم. انتبهت إلى أن ليلى تشير إليَّ لكي نتحرك إلى قاعة المؤتمرات.. استأذنت ومضيت مع نهر الحركة وأنا أستعيد تلك اللحظة المريرة.

أعلنت إذاعة بغداد عن قطع العلاقات العراقية المصرية. أغلقت السفارة المصرية أبوابها منذ لحظة الإعلان. كان معي تليفون "ليلى" زوجة السفير في البيت. اتصلت بها قبل أن أذهب إلى المكتب، وسألتها عما حدث. قالت : السفير في مصر وسوف تتم ترتيبات ترحيلنا وفقاً للبروتوكول.

قلت : أنتم معتادون على هذا أليس كذلك؟

قالت: لم يحدث لي هذا قط.الوزير المفوض، والقنصل وأعضاء السفارة معي، ويعرفون الإجراءات وسوف أسافر من فور ترتيب حجز الطيران. وقد بدأت فعلاً في "الباكينج"[1].

قلت : سآتي لك من فوري بعد أن أذهب إلى المكتب أولاً فقد يرغب الأستاذ "حلمي أمين" أن يأتي معي.

---

[1] الباكينج : حزم الحقائب

قالت: أهلاً بكما.

أغلقت شركة مصر للطيران أبوابها أمام الرحلات إلى القاهرة. وتحولت الرحلات إما إلى دمشق على الطيران السورية، وإما إلى الأردن على الطيران الأردنية، وإما إلى قبرص. ضاعفت شركات الطيران العالمية خطوطها لنقل العمالة المصرية من وإلى بغداد. وارتفعت أسعار الطيران إلى الضعف في نفس اللحظة. ترقب المصريون العاملون في بغداد حالة انهيار العلاقات التي تزداد سوءاً كل يوم، وتبادل الاتهامات المستعر. وأعلنت بغداد أن العاملين المصريين سيبقون في مواقعهم ما داموا أرادوا ذلك، وأن تحويلاتهم ستتم وفقاً للنظام السابق المعمول به. في أثناء مروري و"حلمي أمين" بشارع الرشيد في جولة المكتبات المعتادة رأيت طوابير من المصريين أمام مبنى البريد المركزي في انتظار الاتصال التليفوني بالأهل. دخلنا إلى محل "الأورزدي باك" لنشتري بعض احتياجات المكتب. أعجبني طقم شاي من البورسلين المزخرف بنعومة. دفعت ثمنه، وحين ذهبت لتسلمه قال لي العامل: آسف. تعالي في المساء. انتهى العدد المعروض هنا، وستصل كمية من المخزن بعد وقت. لفت انتباهي وجود بعض تحف الكريستال التشيكية. منذ فترة لم أنزل و"حاتم" معاً للشراء. اتصلت به في المصنع وطلبت منه أن يمر بي حتى نقضي المساء وسط المدينة وعدت إلى المكتب. كانت "داليدا" تغني حلوة يا بلدي. جاءت "أنهار". لم ألتقِ بها منذ مدة. لاحظت حالة القلق المسيطرة عليها. انتقل إليها شعور "حلمي أمين" بأن المكتب في بحر يتقاذفه الموج من دون دفة.

سألتني مثل طفل صغير خائف : هل سيغلق المكتب مثل شركة الطيران؟

قلت : اشبيك وجهك أصفر مثل نومي حامض؟*

ابتسمت في خجل. ربتُ عليها وقلت: لن يغلق يا "أنهار". وحتى إذا أغلق فأين سيذهب "حلمي"؟ هو لن يعود إلى القاهرة في هذه الظروف. وأنا هنا مستمرة مع زوجي إلى ما شاء الله. الحكومة العراقية قالت لا مساس بالمصريين وأعمالهم. ونستطيع في أسوأ الفروض أن ننشئ وكالة أو مكتباً صحفياً خاصاً.

---

* ماذا بك ؟ وجهك أصفر مثل الليمون .

قالت مستسلمة والدموع تلمع في عينيها: فدوى عيني "نورا" ما بعرف "وين" أروح؟!

تحيرني حالة الانقلاب الفجائية في الشخصية العراقية. من الثقة الشديدة في النفس إلى الانسحاب إلى الداخل، والشعور بالخوف، ثم التعبير المتوسل الذي يدفع القشعريرة إلى جسمي، والعكس غير المتوقع من الهدوء إلى المواجهة بعناد دون فرصة واحدة للمراجعة. تذكرت أن المقص الصعيدي حين ينغلق لا ينفتح مرة أخرى. كم كنت واهمة!

جاء "حاتم" واصطحبني إلى شارع الرشيد. فاجأتنا الطوابير على باب البريد، اقترح أن نحجز دورنا في الاتصال التليفوني ثم نذهب لشراء ما نريد ونعود حتى نكسب الوقت.

عدنا لجلوس ممل طويل ونحن لا نفهم لماذا لا يتحرك الطابور. ذهبت إلى الاستعلامات وطلبت الدخول إلى أحد الموظفين الذين أعرفهم، فسمح لي بالدخول إلى خلف النوافذ. سمعت زميله يقول له: سحب المجلس الوطني خط القاهرة. لا سبيل الليلة لأي اتصال عادي. لابد أن نخبر الناس أننا سنلغي مكالماتهم.

قال آخر : لا تعلن شيئاً. من يرد الانتظار فلينتظر.

التفت "أبو وسام" ناحيتي، وسألني: أي خدمة يا ست "نورا"؟

ضحكت: الخط عاطل.

ابتسم. خرجت إلى "حاتم" يحمل وجهي علامات الذهول والسخرية.

قلت: سنعود إلى البيت.

قال: دائماً أنت متعجلة. ماذا حدث؟أضعنا اليوم، وانتهى، تعالي نخرج لنمشي قليلاً في الهواء الطلق ثم نعود. ألا تريدين سماع صوت ماما؟

قلت: أريد. تعالَ نخرج أولاً.

انفجرت من فور خروجي من الباب في الضحك ورحت أضرب كفاً بكف، قلت:أولاد الكلب يتكلمون مع بعضهم بعضاً، ويتركونا نتفلق من الغيظ. كل شيء ماشي، هايصين. العلاقات شغالة مع بعض الله ينور، والشتائم والعمالة والخيانة لنا نحن. لا أعرف لماذا ندفع ثمن بلاويهم الزرقاء؟

ـ لا أفهم ماذا تقولين. "نورا" ماذا حدث لكِ في الداخل؟ أي علاقات؟ وأي بلاوٍ؟

- المجلس الوطني أخذ الخط. أي أن قصري الرئاسة في مصر والعراق يتحدثان معاً على عكس كل ما هو معلن عن قطع العلاقات. منذ أعلن السادات عن زيارته الهباب وهم يصفونه بأبي رغال الذي لم أسمع عنه في حياتي إلا هنا؟ أبو "رغال " الذي أرشد جيش "أبرهة" إلى مكة ثم مات بالطاعون. ويقولون إن الحُجاج يرمونه بالحجارة. أهلي يحجون كل سنة ولم أسمع طوال عمري اسم أبي "رغال" هذا. وكنت أتصور أنهم يرمون الشيطان. هذا معناه يا "حاتم" أن إجراءات قطع العلاقات هي إجراءات ضغط على الناس تأتي لهم بالمصائب والشحططة من مطار إلى مطار. دعوى إفقار الشعب المصري ربما. ربما يا "حاتم" يقوم بثورة على حكامه. هذه الطريقة الغبية في التفكير؛ نحن الذين ندفع ثمنها.

- "نورا". اهدئي قليلاً.

- بث إذاعة صوت العروبة التي تدعو المصريين إلى الثورة، وعلى الرغم من مشاركة مصريين لا أشك في وطنيتهم في كتابة برامجها. فكرة تصدير الثورة هذه يا "حاتم" فكرة غبية، وفيها عنجهية لا أحبها. وهم لا يقبلونها على أنفسهم على الإطلاق. ولا يتصورون توجيهها نحوهم حتى من العراقيين من غير حزب البعث.

- أنت ضد تصرف السادات، وتعرفين نتائج ما سيحدث في المنطقة. ومن الطبيعي أن يكون هناك تخبط، ومحاولات يائسة للخروج من الشرك الدولي المنصوب الذي يبدو براقاً من الخارج. أنا لا أتحدث عن حق السادات فيما فعل. تحليلي للموقف ربما يكون أشد سواداً من تحليلك بكثير، لكن ما أعترض عليه هو اتخاذ إجراءات ضد الشعب المصري المظلوم من حكامه، والذي يدفع ثمن نزق الحكام المصريين والعرب معاً، تحت دعاوي الثورة والوحدة.

قلت: المفروض أن من يريد أن يساعدنا يساعد الناس على المقاومة، ولا يحاول إضعافهم بإلهائهم في البحث عن لقمة العيش.

جلست إلى مائدة المؤتمر المستديرة. اليوم حافل بالكلمات في جلسة الصباح، والاحتفالات في المساء، ولا وقت لي لزيارة بيتي في حي الدورة إلا في أثناء الاستراحة بعد الغداء مباشرة. انتبهت إلى صوت يحدثني:

ست "نورا ". ثمة من يطلبك على الهاتف. تفضلي معي.

قال "طارق مندور" بفرح : أوحشتني يا "نورا". إلى متى ستبقين؟

قلت : أسافر فجر الغد إلى البصرة، وأعود بعد يومين. غالباً سأمد فترة بقائي في بغداد ليومين آخرين.

قال : سآتي إلى بغداد. كيف حال ماما و"سلوى" و"أبيه" "حاتم" و"ياسر" والنونو.

قلت : كلهم بخير، ويهدونك السلام. معي لك خطاب وبعض الهدايا البسيطة. لكن ليس بطة مزغطة.

قال : إلا بطة أمك. فاكراها؟

قلت : وهل يمكن أن أنساها. كانت فضيحة !

ـ سأكلمك في فندق البصرة حتى أحكي لك قصصاً كثيرة. أعرف أنك مشغولة.

قلت : في انتظارك. مع السلامة.

عدت إلى الجلسة وحمدت الله أن البحث الذي يقدم الآن هو بحث دعائي تماماً. لم أخسر شيئاً. فتحت دفتر الأوراق أمامي، ورحت أرسم خطوطاً تداخلت معاً.

تذكرت "طارق" حين جاء للمرة الأولى إلى بغداد ليبحث عن عمل. أخته الأكبر "سلوى" هي أعز صديقاتي. قضينا صبانا معاً متلازمتين. حين اتصل بنا ليقول إنه في بغداد فرح به "حاتم" الذي يذكر باستمرار أن سلوى وخطيبها "هاشم" هما سبب تعارفنا في حفل عيد ميلاد "سلوى". ذهبنا لزيارته في الفندق وأخذنا منه نسخة من الأوراق لكي نوزعها في مصالح بغداد. قال له "حاتم" :إقبل أي عمل في مطعم أو في محل أو فندق. انزل في الصباح إلى ساحة التحرير، وانتظر حتى يأتي مقاول. جرب كل شيء. إذا فعلت هذا من اللحظة الأولى لن تنخدع بالأوهام حتى نجد لك عملاً يناسب مؤهلاتك.

امتقع وجه "طارق". هو الشاب المنعم لأب وأم مذيعين كفلا له حياة مرفهة، ولم يخطر على باله أن يعمل في أعمال بسيطة. نظرت إلى ملابسه الفخمة وتصورت ما سيحدث.

سألته: هل لديك ملابس أخرى غير هذه؟ مستوى آخر؟

قال مندهشاً: بالطبع لا.

قلت: لا يوجد في بغداد أرخص من الملابس.اشتري بلوفر وبنطلوناً عراقياً، حتى لا يكون آخر صيحة مثلما ترتدي.

تعرق طارق، وبدأت أشعر بتوتره المكتوم. نظر إلى الأرض حائراً، ونظر نحوي ثم إلى "حاتم" قائلاً : "نورا" ماذا يحدث؟

قلت : "طارق" أول كلمة قلتها لك : تعالَ عش معنا. العمل في المصالح الحكومية والمصانع مكتظ تماماً بسبب وجود لجان تذهب إلى مصر لعمل تعاقدات معلن عنها في الصحف، والموظفون العراقيون يفضلون بالطبع الذهاب إلى القاهرة، ويقابلون عشرات الشبان، ويعودون بالخبراء الرسميين. أما التعيين داخل البلاد فهو يخضع لشروط أخرى، أولها ، معاملة مثل معاملة أهل البلد. وراتب عادي، وتحويل نقدي بنسبة ضئيلة جداً. ولا تنسَ أن العراقي يعيش في بيته وسط أسرته ولديه تسهيلات أخرى كثيرة لن تحصل عليها. الشيء الذي لا تعرفه أن إجراءات التعيين هذه قد تأخذ سنة كاملة قبل أن يصدر بها قرار. هذا إذا كانت الوظيفة موجودة أصلاً. لأنك محاسب ولست مهندساً أو طبيباً، وحتى هؤلاء لم يعد الأمر بالنسبة إليهم سهلاً بعد تدفق آلاف منهم إلى العراق.

قال "حاتم": أرى أن العمل مع المقاولين هو الطريق الوحيد لك. المقاول العراقي ذكي جداً وأنت لن تكسب خبرة في إدارة مشروع دون أن تعرف كيف يعمل العامل أولاً. أعرف أن الأمر صعب عليك. ولكن هذا هو الكلام الوحيد الذي يمكن أن أقوله لأخي الصغير. أريدك أن تذهب غداً إلى الساحة، وتستقل أول عربة عمال، حتى أجد لك أحد المقاولين الذين يتعاملون مع المصنع، لكنني أريد منك أن ترى غيره أولاً، وتتعرف على الواقع بنفسك.

قال "طارق" بيأس شديد: معي نقود تكفي لكي أقيم في الفندق على الأقل شهرين. أكون قد وفقت خلالهما في الحصول على عمل. وسأسعى بكل جهودي لكتابة طلبات إلى كل المصالح. وأرجو ألا أضطر إلى فعل ما تقولانه.

قام "حاتم" واقفاً وقال : أين ذهبت في بغداد؟ هل رأيت شارع أبي نواس؟

قال:لا.

أخذناه إلى أبي نواس، كانت الشمس رائعة. قضينا يوماً جميلاً وتغدينا سمكاً مسكوفا، وهي سمكة نهرية كبيرة اسمها "البني" يمتلئ جسمها بالدهون مما يتيح لهم شواءها على صهد نار الحطب في بطء. هذا أكل عراقي قح.

أعدنا طارق إلى فندقه. طمأناه أننا موجودان لمساعدته في أي وقت. أرشدناه إلى مقهى المربعة في شارع الرشيد. ضحك قائلاً: أعرفها. نزلت إليها في المساء، وتعرفت إلى مصريين.قال "حاتم" : بدأت أول المشوار.

في طريق عودتنا إلى البيت لم أكن متأكدة تماماً من إمكانات نجاح "طارق" في بغداد. سألت "حاتم" عن إمكانات العمل في الفنادق هنا. قال: أي فنادق؟ فنادق النجوم الأربعة مكتظة. والباقي كما تعلمين. والشركات التي تبني فنادق عالمية، ستأخذ المتخصصين. إنجليزيته جيدة يمكن أن نرتب له تدريباً في أعمال السياحة. كلمي المهندس "علي" قد يجد له شيئاً في شركة طيران. ثم لا تخشي عليه هكذا. هو شاب منعم لكنه ليس خرعاً. تأكدي أن أجمل ما فيه سيظهر حين يوضع على المحك.

دخلنا إلى البيت، قذفت بملابسي على عجل وأنا أشعر بنشاط نوبة من السعادة وحيويتها، سببهما الحديث مع طارق. فتحت الراديو وجاءت هيام تتغنج :هنا راديو مونت كارلو. نشرة الأخبار. أصدر قاضٍ مصري حكماً تاريخياً ببراءة المتهمين في أحداث الشغب الأخيرة في مصر والتي سماها السادات انتفاضة الحرامية، وأدان الحكومة المصرية التي أجاعت الشعب فخرج يطالب بحقه في الطعام. عمت الأوساط المصرية حالة ارتياح لهذا الحكم ولنزاهة القضاء المصري المعروفة. الجدير بالذكر أن هذه القضية هي واحدة من ثلاث قضايا أمن دولة بسبب الانتفاضة.

أطلقت صيحة أخرجت "حاتم" من تحت الدش، وجدته وسط الصالة عارياً ينز بالماء. وأنا أرقص. تحيا مصر. سيموت السادات من الغيظ الآن. أما حتة ضربة. حكموا على الناس بالبراءة. البراءة. ترالا. البراءة. ترالالا. لم لم..

أمسكت بيده ورحنا نقفز مثل قرود صغيرة فرحة بأشعة الشمس.

- يا مجنونة أحبك.

سمعنا طرقات على الباب، و"تيتي" تسأل من الخارج : ماذا حدث؟

اكتشفنا عرينا، قلت ضاحكة: دقيقة واحدة.

وضعت روبا فوق جسمي وركض "حاتم" إلى الحمام يكمل ارتداء ملابسه. حكيت "لتيتي"الحكاية. قالت : سأخبر "محمود عصام" ونأتي لنشرب معكما الشاي.

توقفت قليلاً وقالت : ألا نعطل شيئاً؟

- هل تستطيعين تعطيل أي شيء؟

ضحكنا، وسهرنا نحكي في الأحداث الأخيرة وتأثير هذا في المصريين وما يعانونه من قحط.

جاءت هيام تقول : النشرة المفصلة من راديو مونت كارلو. أصدر المستشار "إبراهيم فهمي" رئيس محكمة أمن الدولة في مصر حكماً تاريخياً سيظل ناصعاً في جبين القضاء المصري إلى الأبد. استخدم رئيس المحكمة مقولة أبي ذر الغفاري الشهيرة: عجبت لرجل لا يجد في بيته قوت يومه ولا يخرج على الناس شاهراً سيفه. لقد تعمدت الحكومة تجويع الشعب ولابد أن تتراجع في قراراتها الاقتصادية وأن تراعي هذا الشعب الذي ضحى بحياته ورزقه في حروب كثيرة ولم يألُ جهداً نحو رقي وطنه.

صرخت و"حاتم" : بابا.

قالت "تيتي" و"محمود": بوك. أبوك.

علت صرخاتنا: هذا هو أبي. هذا أسلوبه الراقي الرائع. وهذه شجاعته.

ودعنا ضيوفنا ودخلت في حضن "حاتم" أستمتع بصدمة اصطكاك حارة وسريعة.

فتح لي "حلمي أمين" الباب مبتسماً فاتحاً ذراعيه في أتم استعداد للخروج الفوري.

قلت : لماذا الاستعجال؟

قال : لدينا مشاوير، وبعدها مواعيد هنا في الثانية عشرة. "إيه اللي عمله بوك ده؟".

كان الخبر قد اتخذ طريقه الطبيعي إلى كل الناس، وبالطبع إلى رموز الحركة الوطنية المصرية المنفيين هنا، والكتاب والصحفيين. اتصلوا واتفقوا على لقاء في المكتب عند الظهر. لم يستطعوا الانتظار إلى المساء. عدنا من أعمالنا العاجلة. وتوالى وصولهم. تحدثوا إليّ كأنني أنا التي أصدرت الحكم، وراحوا يستعرضون تاريخ القضاء المصري والقضاة ويضربون الأمثلة. كانوا يحفظون أسماء القضاة أصحاب

المواقف الوطنية عن ظهر قلب. تعرض معظمهم إلى الاعتقال، وحصل بعضهم على أحكام. "سعد التائه"، و"سعد زغلول فؤاد"، و"فتحي خليل"، و"عبد الغني أبو العينين"، و"جلال السيد"، و"أحمد عباس صالح". وجاء "عبد الرحيم" و"سهيلة" و"عاطف" و"سوسن" و"محمود راشد" و"سامية" و"هالة البدري".

تغيرت في هذا اليوم مشاعر معظم نساء الحركة السياسية نحوي اللاتي كن يرين فيّ مجرد ابنة البورجوازية المتعفنة التي لم تدفع ثمن رأيها، ولم تدخل السجن، وليس من حقها أن تتكلم عن مصر أو عن الحركة الطلابية، أو المستقبل. كن يشعرن أنهن من يصنعن المستقبل، وليس هؤلاء الطلبة والشباب التافه غير المنظم. وكانت تفاجئهن ثقافتي أحياناً، لكننا كنا نصطدم بشدة حين أسمع منهم، رجالاً ونساء، أن كل الأثرياء حرامية، وأن التاجر الغني، أو الفلاح الغني هو عدو للشعب، وسلطوي، ويستغل الناس. وأن الفلاحين لا قيمة لهم، وأن العمال هم أصحاب العقلية المنظمة، والقرار الصائب بحكم تعاملهم مع الآلة. كانت هذه الصورة هي النقيض لما رأيته طوال حياتي في عائلتي. وعلى الرغم من حبي لعبد الناصر فإنني لم أستطع مطلقاً أن أوافق على هذه الأفكار بين الناصريين، وبين الشيوعيين بصورة أكبر وأكثر عنفاً. في إحدى السهرات قلت لـ"سوسن" : لا ديكتاتورية مهما كانت حتى وإن كانت ديكتاتورية الطبقة العاملة. أحب "عبد الناصر" وأكره ديكتاتوريته. الحرية والديموقراطية لا تتناقض مع الاشتراكية ولا العدل الاجتماعي. وإن كان كارل ماركس محقاً في دفع الطبقة العاملة إلى حكم نفسها، فليس من حقه أن يعطيها نفس الحقوق التي أدت إلى أن تستغلها بها الأرستقراطية.

انفجر الموقف، قالت "سوسن": أنت تهدمين دون أن تعرفي التاريخ. تدخّل "حلمي أمين" قائلاً : لم يكن" كارل ماركس" يفكر في الديكتاتورية بمعناها الذي تفهمينه يا"نورا" حين قال هذا. المسألة هنا هو حكم مطلق للطبقة وليس استغلالاً لطبقة أخرى، على اعتبار أن مصالح الطبقة العاملة التي تتعارض بالطبيعة مع مصالح الإقطاع حين تعم الاشتراكية تكون هي مصالح المجتمع كله.

تأملت الفروق الكبيرة بين الشيوعيين المخضرمين من الجيل الأكبر، وبين جيلي، وإدراك الجيل الأكبر لوجود أنماط أخرى من البشر. هل كان من الصعب على الشباب

أن يفهموا أن الوطنية لن تقتصر عليهم؟ أظنها حماقة الشباب والحماسة، وعناد بنت مرفهة، وربما بعض الغيرة النسائية التي لا أفهمها أبداً نبهتني إليها "ميرفت" ضاحكة في إحدى الأمسيات حين تساخفت "راجية". قالت هامسة : أنت ترتدين بالسليقة ما يحتجن لسنوات لكي يصلن إليه حتى لو امتلكن المال.

تطرق الحديث إلى مذبحة القضاء و"يحيى الرفاعي" وإلى أبي. قلت : لم يغفر أبي لـ"عبد الناصر" مذبحة القضاء، ولا عدم احترامه للقانون، ولم يعترف به قط، لأنه هو الذي حقق وهو وكيل نيابة مع الرئيس "محمد نجيب" ؛ ولأنه وفدي صميم. كنا على خلاف دائم بسبب حبي لـ"عبد الناصر".

قال "سعد زغلول فؤاد" : الوفد وطني. وهؤلاء تربوا على الليبرالية.

قال "سعد التائه" : قاضٍ ليبرالي يعطي الحق للناس في حياة كريمة. هذه هي مصر.

قلت: مثل أبي لا يمكن أن يفهم نوع التصالح بين الشيوعيين المصريين و"عبد الناصر".

قال "حلمي أمين": هذه هي القضية الثالثة. القضيتان الأخريان ما زالتا معروضتين أمام القضاء وفيهما تحريض على قلب نظام الحكم. محامو اليسار يتابعونهما، ويبذلون جهوداً كبيرة. هذا الحكم سيساعدهم كثيراً. من بينهم "نبيل الهلالي" و"عصمت سيف الدولة" الذي خرج من السجن وانضم إلى محامي الدفاع.

قال "أبو العينين" : تعقد النقابات في مصر كلها مؤتمرات مستمرة وتتابع المسجونين السياسيين؛ لأن حملة الاعتقالات ضمت كل من له نشاط سياسي.

قالت سوسن ضاحكة : والله يا شيخه أنا حبيت أبوكي. سلفيه لي. يعلمني الحرية، ويلبسني مايوه، ويدافع عن الغلابة.

ضحكنا كثيراً وبدا لي وكأن صفحة جديدة قد فتحت أمامي في العلاقة بهذا الجيل الذي كشف لي عن حقيقته بشكل متأخر. أهداني أبي هذه الصفحة.

انتبهت إلى التصفيق. حمدت الله. لم أعد أستطيع تحمل سماع الدعاية. تحدثت أنيسة الباكستانية عن الأمية في بلادها. انتبهت إلى دقة المعلومات وجهد البحث. الله

يا أنيسة. على الرغم من أن مظهرها، ودلالها، وقصة الحب التي تعلنها مع المصور "جون" تظهرها للوهلة الأولى وكأنها غير جادة. لابد أن تكون مثل الغفر حتى تعجبك يا ست "نورا"؟ تعجبني المفاجآت هذه! العلم علم واللعب لعب. شرحت "أنيسة" تجربة محو الأمية وسط الحقول بين الفلاحات الفقيرات. تحت تعريشات بسيطة من الغاب. على جهاز عرض سينمائي بسيط ساعدها "جون" في تشغيله، رأينا ملخّصاً وافياً لنتائج تجربتها. يا إلهي ما كل هذا الفقر؟ نظرت إلى الساري الذي ترتديه من الحرير الهندي الطبيعي. لاحظت حركة جون وهو يصورها بكاميرته التليفزيونية. ابتسمنا جميعاً له وهو يصفق بحماسة. التفّت حولهما القلوب ترعى قصة الحب التي وقعت من أول نظرة. علا صوت "شهيرة": برافو "أنيسة". برافو.

أضيئت الأنوار وانتقلنا إلى صالة مجاورة لنشرب الشاي في استراحة قصيرة، وهربت إلى الحمام لكي أفرغ صدري الذي امتلأ وراح يؤلمني بشدة قبل أن يفيض. كنت قد نسيته تماماً. وعلى الرغم من حرصي على عصره حتى آخر قطرة شعرت بيأس، وخرجت إلى القاعة وأنا أشعر بتعاسة. لشد ما أتقلب من حال إلى حال. لمحت صديقي الصحفي "عماد البزاز". اتجهت إليه من فوري.

قال: قبل صباح القشدة. أم "أنهار" انتقلت مع ابنها "عبد الرزاق" إلى بيت جديد في شارع فلسطين، ولا يوجد لديها تليفون في الوقت الحالي، لكني سألت عن وسيلة الاتصال "بعبد الرزاق" في عمله وسأعرفها اليوم في المساء، وهناك معلومات شبه مؤكدة أن "أنهار" في البرازيل. والله كريم.

قلت: شكراً عيني أبو "ناصر". أتعبتك. لكني أريد الاطمئنان على "أنهار".

قال: أدري أختي ست "نورا". تفضلي إلى الجلسة.

لمحت عن بعد سيدة كانت تتردد علينا في مكتب الزهرة، وتسببت لنا في كثير من المشكلات. كانت تعانق "سهام فتحي"، و"منى عايد". كانت فرحة ومستبشرة، يبدو أن أمورها قد استقرت أخيراً في بغداد. وربما تكون قد تعقلت والله أعلم.

كانت "داليا" قد دخلت إلى حياتنا عصر أحد الأيام مع الطبيبة "راجية"؛ بيضاء وقصيرة القامة، ممتلئة الجسم قليلاً. وتبحث عن عمل. أغراها وجود أصدقاء لها في

بغداد على الحضور. هي خريجة علوم وواحدة من أبناء "إسماعيل فكري" اليساري المعروف. كانوا يقولون ضاحكين عن حزبهم: حزب الصواريخ. وجدت عملاً بسرعة في فندق. وأجّرت بيتاً مع عروس مصرية تعاقدت على عمل في بغداد. و جاءت وحيدة لترتب لعريسها الحضور. عرفت أن "داليا" كانت متزوجة من زميل لها في الكلية من نفس المجموعة، وأنهما طلقا بعد أقل من سنة. لم تكن تفكر في إعادة تكوين أسرة. الحياة بالنسبة إليها هي حياة جماعية ترتب فيها بعد الخروج من العمل كيف تقضي الوقت في حفلات ورحلات. لاحظنا بالإجماع دخولها الدائم في نقاش عنيد بصوت هادئ، وحديثها طوال الوقت عن إغواء الرجال لها.

في عيني "داليا" نظرة معلقة تحيرني مثلت لي تحدياً وعبئاً نفسياً لسبب لا أعرفه. أقول لنفسي: لماذا لا تستطيعين ترجمة هذه النظرة وأنت تتشدقين بأن الأديب هو قارئ للشخصيات يستطيع أن يصل إلى أعماقها مما يتساقط منها من فتات غير منظور؟ ربما لأنها نظرة مركبة من الاستهتار الشديد، واللامبالاة، والبرود، وغيظ مكتوم من الحياة. لكن الذي يشعر بالغيظ هو شخص حار وقابل للانفعال وليس بارداً كالثلج مثلها. هي ليست جميلة لكنها تتحدث باستمرار عن تأثير جمالها في الآخرين. هل هو"مُحن نسوان" هذا المعنى الذي لا أعرف ما هو بالضبط؟ هل هو نتاج تربية معينة؟ هذه النظرة تنقل لي شعوراً غير مريح.

كلما دخلت علينا المكتب تتقصع طرحت أمام ذهني عدة تساؤلات. كيف اتفق أن تعرفت خلال ثلاثة أشهر منذ وصولها إلى بغداد إلى كل العائلات التي كانت تعمل في مصر بالسياسة؟ لماذا تحرص على العمل في فندق على الرغم من المخاطر التي قد تتعرض لها سيدة مصرية في عشرينيات عمرها في مدينة مثل بغداد تنظر إلى المرأة المصرية نظرة "مش ولابد"؟ وتتمسك بالعمل في الفندق حتى بعد أن عرض عليها "حلمي أمين" العمل في وزارة الصحة. وقطع شوطاً طويلاً في طريق تعيينها، وهو المكان الطبيعي لخريجة كلية العلوم! إذا كان سبب خروج "داليا" من مصر ليس سبباً سياسياً فهو بالضرورة سبب اقتصادي. لماذا، إذن، تستمر في الحياة في بغداد إذا كان العائد الاقتصادي يكفي بالكاد ؟لم أجد إجابة جامعة إلا أن "داليا" تريد حرية الحركة. طرحت شكوكي على "حلمي أمين" فقال : لا. هذه شبكة العلاقات التي تعرف بعضها في مصر، هي شخصية من نوع لم تقابليه من قبل.

شكت "داليا" من العمل في الفندق وقررت أن تقدم أوراقها إلى التربية والتعليم حتى تستمتع بإجازة الصيف الطويلة. ذهبت لتقديم أوراقها في الوزارة. عرفت بالصدفة في نفس اليوم أنها حصلت على موافقة عمل من وزارة الصحة، وأن القرار في طريقه إلى الصدور بعد استكمال الأوراق. لاحظت بعد أيام تراخيها عن متابعة أوراقها، ما أعاد كل الأسئلة إلى ذهني، خاصة بعد أن علمت أنها تتعمد الحضور إلى المكتب بعد خروجي منه وقبل أن تصل "أنهار". قررت أن أتحدث معها ربما أغير رأيي كما حدث مع راجية بشكل ما.

تحملت حوارها العنيد. حشدت كل طاقتي على الصبر لكي أفهم. اكتشفت أن عقلها يحمل كل الأفكار المتناقضة المتضاربة معاً. وعلى الرغم من أنها تنتمي إلى أحد الأحزاب الشيوعية الصغيرة كما عرفت بشكل عرضي، فإنني سمعتها تقول أن الفقراء والطبقة العاملة عموماً هما أفسد الطبقات الاجتماعية، أشد فساداً حتى من الأرستقراطية. انتهيت إلى أنها مجرد فتاة ضائعة. هي النموذج الأول للفتاة المستهترة التي أقابلها في الواقع وليس في الكتب أو في السينما! لم أفكر في ذلك الوقت في أن حضورها إلى بغداد ربما لا يكون بسبب السياسة ولا البحث عن عمل مربح مادياً ؛ الهروب من قصة حب فاشلة، أو لسبب آخر لا يخطر لي على بال.

غرقت في النقاش حول بحث قدمته رئيسة اتحاد نساء المغرب، وخرجنا معاً ونحن ما زلنا نتحدث في الموضوع. اتجهنا إلى المطعم، وجلسنا بصحبة "رجاء" و"إلهام" و"ساجدة". صحفيات مجلة المرأة، لأول مرة منذ بدأ المؤتمر، ورحنا نستعيد صداقتنا ونضحك حتى شرقنا بضحكنا.

قابلت "داليا" وأنا في طريقي إلى غرفتي. قالت : غير معقول "نورا سليمان". والله زمان.

قلت : أهلاً "داليا". ما زلت تعيشين هنا إذن. لم أتوقع استمرارك بعد الحرب.

قالت : أين أذهب يا حسرة؟ هل قابلت "راجية" في مصر؟

قلت : نعم. مرة واحدة بالصدفة.

قالت: نسهر معاً اليوم في المسرح. وعند عودتكن من البصرة سأقيم احتفالاً في بيتي أرجو أن تحضري.

قلت : إن شاء الله. اعذريني. لديّ مشوار مهم.

ركضت إلى غرفتي وأنهيت كل ما أردت بسرعة. أخذني التاكسي ومر بي في نفس الشوارع التي أحفظها عن ظهر قلب، ثم توقف في إشارة مرور أمام المتحف العراقي الذي أحببته كثيراً، واكتشفت فيه ذات يوم مضى جدارية آشورية لملكين أحدهما يحمل ملامح "جمال عبد الناصر"، والثاني ملامح "أم كلثوم". لا أملك وقتاً كافياً للنزول لزيارته. رحت أراقب الناس من خلف زجاج التاكسي : رجال بسراويل منفوخة، مربوطة بأحزمة عند الوسط وعمامات مستديرة بدل على أحدث خطوط الموضة. نساء لهن شعور ملونة صارخة، وماكياج فاقع على الرغم من الحرب. وعباءات سود تتضافر مع الميني جيب. خليط من أجناس مختلفة تفتح إدراكي على فكرة التنوع الجمالي. ومع الوقت استطعت أن أعرف إلى أي عرق تنتمي هذه الملامح ؛ من ملاحظة أجسامهم عن بعد، وأيضاً حين يبدأون الكلام، فاللهجات هنا شديدة التنوع.

في ساحة العلاوي مررنا بمسجد أحب انسيابية تصميمه، تابعت ببصري خطوط اللون الفيروزي التي تتعانق مع الأبيض ببساطة فوق المئذنة. وتذكرت القباب المذهبة التي بهرتني حين رأيتها لأول مرة. وسألت نفسي : كيف تغيرت الأحوال بهذه السرعة، وهذه القسوة. إنها حماقة الحرب. لم أقتنع بكل ما سمعته من تفسيرات تبررها. انعطف الطريق. طالعتني "الزوراء" التي كانت يوماً معسكراً للجيش الإنجليزي، وتحولت إلى حديقة جميلة تمتلئ بالمسابح، والملاهي، وموتيلات صغيرة، وتتصاعد من مطاعمها رائحة ساندوتشات الصمون[1] والبرجر وتنتشر فيها محلات اللبن المختر المالح، وعصير العنب الأسود والبرتقال، وتسمع في طرقاتها كما في طرق بغداد، وشوارعها : مي مي مي بارد. لبن. لبن بارد لبن.

تذكرت ساعات العصر التي أحبها في الحديقة، وأنا أدفع بـ"ياسر" إلى اللعب، وأركض وراءه في الصباحات الشتوية، أو في ليل بغداد الصعب في الصيف. نزهاتنا أنا وعائلة "حلمي أمين"، قراءاتي الطويلة تحت الشجر، هرباً من إزعاج "صباح" جارتي. ترى أما زالوا "يتونسون" أم أن الحرب غيرت من عاداتهم؟

---

١ الصمون : خبز أفرنجي مثلث من الناحيتين .

استدار الطريق نحو الدورة. مررنا بحي البياع، والسيدية، ووصلنا إلى المفرك[1]، وانعطفنا. قلت للسائق: ادخل أول فرع على اليسار.

رأيت بقالة أبي "سميرة". كان قد رحل منذ سنوات، وعاشت أم سميرة وحدها تنتظر أن تعود ربيبتها وابنة أختها "سميرة" التي ذهبت إلى الدراسة في إسبانيا فتزوجت من زميل لها هناك، وبقي الدكان يعمل فيه واحد من أبناء العائلة. ترى أتكون أم "سميرة" هنا أم رحلت خلال العامين الماضيين اللذين غبتهما عن بغداد؟ طلبت من السائق أن يتوقف، وسألت الشاب الواقف في المحل عنها قال: في الدار.

أسرعتُ نحوها. عانقتني، وغرقتُ في فيض حنانها الذي اعتدته طوال جيرتي لها. حَاولتْ فتح باب الصالون لكي تدخلني منه إلى بيتها. قلت: آني مو خطار[2]. سأدخل من باب المطبخ.

خلعت حذائي، ودخلت إلى صالة البيت، وجلست بقربها فوق الحصير على وسائد الإسفنج.

قالت: ما كل هذه الغيبة؟ كيف "ياسر" وأبو "ياسر"؟

قلت: الآن عندي "هيثم" أيضاً. أين "سميرة"؟ وما أخبار زوجها؟

قالت: عافية. مبارك. "سميرة" أنجبت توأماً. وأوشكت على إنهاء دراستها. وسيأتون في العام القادم إن شاء الله ليشتروا بيتاً هنا ويعيشوا معنا.

قامت تصب لي الشاي. تذكرت أن العراقيين يعطون للزوجين اللذين لم يرزقا بطفل أحد بنات الإخوة أو الأخوات. يكنون بها، ويكونون مسؤولين عنها طوال حياتهم. تهبهم السعادة، ويهبونها حياة مختلفة،إذ تنشأ مدللة في معظم الأحوال. حاولت أم "سميرة" استبقائي، فاعتذرت لها بضيق وقتي. جاءت معي إلى بيتي. طرقنا بيت أبي "دلف" وبيت أخيه أبي "جمال"، وخرجت بنات الأسرة تستقبلني. الرجال ما زالوا في العمل أو في صفوف الجيش. كانت أم "جمال" تأخذ ابني "ياسر" من سيارة الحضانة قبل أن أعود من العمل، وتطعمه مع أولادها، وتتركه ينام وسطهم؛ حتى أعود أنا أو "حاتم".

---

١ المفرك: المفرق.

٢ آني مو خطار: لست انا بضيفة.

قالت أم "دلف" : لن يسامحك أبو "دلف" إن لم تمري لتريه قبل أن تعودي إلى القاهرة. على الأقل اذهبي إليه في المكتب.

قلت : سأحاول بعد عودتي من البصرة حتى لو غيرت موعد سفري.

انتشر خبر وصولي في بيوت الشارع. جاءت جاراتي، وطوقنني بأذرعهن، أم "تايه" وبناتها؛ "سلمى"، و"خلود"، أم "سلافة"، وأم "محمود" وأم "جمال"، ومضين معي إلى بيتي. لاحظت تغيرات في سور البيت الملاصق له. كان بيتي يحتل ناصية الشارع، يفتح بابه الجانبي على توتة عملاقة وحديقة واسعة، وتكعيبة عنب زرع أصحابه أشجاراً طويلة باسقة حول السور لكي تخفي أهل البيت عن الجيران عمرها يزيد الآن عن ثمانين عاماً. عاشت فيه أسرة من الصابئة كثيرة العدد، تعمل في تجارة الذهب، تزوجوا ورحلوا إلى مساكن منفصلة في مناطق حديثة في بغداد. الأشجار المعمرة في الحديقة أعطتني دائماً إحساساً بالعراقة، وذكرتني بالريف المصري. كنا نسكن حي الشرطة حين دعانا مهندس مصري زميل "حاتم" في المصنع لزيارته،وعرض علينا السكن في الدور العلوي. قال أن الفيلا كبيرة على أسرته إذ تضم ثلاث عشرة غرفة غير غرف السطح. وافقنا وانتقلنا إليه بعد فترة. فلما عاد إلى مصر تركه لنا، وهكذا شهد الطابق الثاني سكن أسرة أخرى: المهندس "محمود عصام" وزوجته "تيتي".

تذكرت "صباح" و"شكري". دمعت عيناي وأنا أسمع صوت "تيتي" تقول لي: بغداد نورت.

قلت : أين "مادو" و"أماني"؟ "ياسر" بعث لهما معي مليون سلام.

قالت : في حفل عيد ميلاد ابن "حزام" صديقتي. تعرفينها؟

دخلت إلى بيتي وسط مظاهرة صاخبة. الكل يسأل عن "ياسر" ويعلق على الطفل الجديد الذي لم يروه بعد. وأخبار مصر، والفنانات. سألت "تيتي" عن أخبار البيت وما حدث له. قالت : دمر الصاروخ بعض جدران الطابق الثاني، وكسر زجاج النوافذ، وحرقت بعض الأشجار. لكننا رممناها بمساعدة أصحاب البيت.

قلت : وضعوا فوق الصاروخ وهم يصنعونه اسم "نورا سليمان". لأن الوحيد الذي يمكن أن يوجد بالصدفة في هذا الوقت من النهار هو أنا. تذهبون إلى أعمالكم في الصباح الباكر، وأنا الوحيدة التي أبقى أحياناً في البيت صباحاً.

قالت "تيتي": عمر الشقي بقي.

قالت أم "تايه" : مات ابن أبي "طارق"، وأصيبت نساء الشارع جميعهن بعشرات الشظايا، وانهار بيت أبي "محمود القرشولي"، وأصيب بيت أبي "نضال". وتوالت أسماء الشهداء. هل تعرفين بيت أبي "سامي"، مات منهم ثلاثة. وبيت أبي "عمر" ابنه الوحيد وزوج ابنته، وبيت أبي "راشد" أزواج بناته. تصاعد الأسى. صعدنا السلم الداخلي إلى الدور العلوي. وقفت في الصالة الفارغة من كل ما أعرفه أتأمل ثقباً كبيراً بين جدار الصالة وغرفة النوم الشتوية تم ترميمه بالإسمنت ولم يطل بعد. دخلت غرفة المعيشة الكبيرة التي تفتح على الشرفة الأمامية أمام خط السكة الحديد- مكاني الصيفي المحبب- فوجدت جداراً جديداً من الإسمنت وترميمات واضحة في السقف. تصاعدت رائحة الحرب لتزكم أنفي.. لم أجد العنبة التي رعيتها طويلاً وأوصلت فروعها حتى نافذة المطبخ ثم أخذت طريقها إلى السطح. تذكرت أوراقها التي كنت أقطفها لأصنع طبق محشي ورق عنب طازجاً. لا أقطع ورقة واحدة لن استعملها. نظرت إلى جذورها. رأيت خشبها سليماً.

قلت "لتيتي": أظنها اخضرت بعد القصف.

قالت ضاحكة : كيف عرفت؟

قلت : هي ربيبتي. الجذور سليمة لكنها تحتاج إلى رعاية شديدة. أنت لا تتخيلين كيف يتأقلم النبات لكي يعيش.

قالت : لن تجد من يتحدث إليها كما كنت تفعلين.

انتبهت إلى القصر الفاخر الذي بني خلف سور بيتي. قلت : تغيرت الخريطة.

قالت أم "جمال" : باع الجيران بيت "القراشولي" القديم بعد تدميره. وسرت العدوى في العشيرة كما تشاهدي.

على الرغم من الحفاوة والصخب والحب الذي أحاطوني به، وعلى الرغم من شغفي للاطمئنان على أخبارهم، تمنيت أن أجلس لدقائق في شرفتي وحيدة. أستعيد فيها أياماً طويلة عشتها. أكتب، وأفكر، تحت سماء بغداد التي أحب صفاءها الصيفي الجاف، خاصة في الليل. تذكرت ليالي الأرق، وأنا نائمة على ظهري أطالع النجوم وأترك نفسي تهيم في دروب المجرات، وتفتحها لي، كما لم تتفتح لي سماء من قبل. كنت قد

صدقت أن ما يربطني بهذه السماء شيء خاص وأن مروري بهذه الأرض ليس صدفة، وهو ما كان يمزعني حين أخرج من مطارها قاصدة القاهرة. يقتلني الحنين وأشعر بأنني مسافرة في عطلة. أعود بعدها إلى بيتي، وحين أصل إلى بغداد أبدأ في حصر الأيام لأعود إلى القاهرة. حتى أنني حين قررت و"حاتم" العودة النهائية إلى مصر لم أدرك حقيقة مغادرتي لبغداد وأنني أحتاج إلى دعوة لكي أزورها، وأن الأماكن مرهونة بوجودنا، لا بالحجارة. لكنها ليست أي حجارة، هي الجدران التي طليتها بالبياض الساطع في أيام سأمي، وأضفيت عليها مسحة مرح بمجسمات "والت ديزني"، وعمق بلوحات "فان جوخ". هي تلك المناضد التي جلست أكتب فوقها، المقاعد، سريري، دفاية علاء الدين التي أطلقت دفئها إلى سماء الغرفة طوال شتاءات خمسة، الفراغ الذي ضم ضحكات "ياسر"، وغزالته زوزو التي اخترعناها، فصحبها معه إلى كل أرجاء البيت. لحظات الحب التي غرفت منها مع "حاتم" ساعات الوحدة والحزن، ولوعة الغربة. "صباح" والفلفل الأحمر الذي تقليه مع الطماطم لتطعمني في أيام الوحام. هي المكان الآمن الذي كنت ألوذ به لسنوات : أعمل، وأحب وأضحك.

قالت "تيتي" : أين سرحت؟

قلت : أريد الأطمئنان على بيت أبي "نضال"، فلديهم أولاداً في سن التجنيد،

قالت أم "جمال" لـ"صبيحة" : أم "ياسر" هنا وتريد أن تسلم عليكم.

قالت "صبيحة" : لا أريدها ولا أريد سلامها !

سمعت صوت أمها تركض ناحيتي : يا هلا بالوردة يا هلا بأم "ياسر". تفضلن.

قلت : مرة أخرى إن شاء الله.

تركت أحضانهن إلى تاكسي ليصحبني إلى فندق الرشيد وأنا أستعيد الواقعة التي سببت غضب "صبيحة". والتي كنت قد نسيتها تماماً. ما أعجب هذه الذاكرة؟

كنت قد وقفت أمام دولابي حائرة. أحصي النقود التي سأضعها في حقيبتي قبل خروجي إلى العمل، وأنا أشعر أن عددها غير صحيح. قلت لنفسي : لا أعرف ما أصابني هذه الأيام منذ عدت من القاهرة وأنا أخطىء في حساب نقودي، على الرغم من أنها قليلة في يدي بعد أن أجهزت على كل مدخراتنا قبل السفر. ألاحظ تناقصها

كل يوم ولا أعرف السبب. رأيت في السوق غسالة أطفال خفيفة فكرت في أن أشتريها لغسل الجوارب والملابس التي تبهت ألوانها بعد أن يقرر "حاتم" كفاءتها. سأتحمل تعليقاته وأمري إلى الله. حين اشتريت حلة الأرز، قال: "الغسالة تغسل الغسيل لوحدها، والحلة تطبخ الطبيخ لوحدها. الواحد يتجوز ليه؟". أعجبته وحجزناها ووعدنا البائع أن نستلمها في الغد. أخذت من "حاتم" النقود، ووضعتها في علبة اعتدت أن أضع فيها نقودي، والمفاتيح على رف الدولاب. فتحت العلبة في اليوم التالي، وجدتها ناقصة.أدركت أن المسألة ليست النسيان. قلت لـ"حاتم": هناك من يدخل بيتنا في غيابنا.

ضحك قائلاً: وكيف يدخل؟

فكرت وأنا أدور في البيت: لا يوجد إلا منفذ واحد:الشرفة، يصعد فوق تكعيبة العنب.

فحصت الباب. وجدت قطعة زجاج صغيرة مكسورة بين الحديد. نظرت إلى رف التليفون الذي أضع مفتاح الشرفة فوقه وقلت: هو واحد من أبناء الجيران وليس لصاً.

قال: لماذا؟

قلت: لأنه يعرف مكان المفتاح. والجيران يعرفون مكان التليفون؛ لأنه ثابت هنا منذ سنوات. واللص لا يأخذ من العلبة خمسة أو عشرة دنانير، بل يأخذ كل النقود، وأنا تركت ثمن الغسالة كله بالأمس. دخول البيت حدث في أثناء غيابي في مصر. تجول اللص فيه وأنت لم تلاحظ شيئاً لأنك تغلق باب الحجرة بالمفتاح وأنساه أنا. وقد اعتاد الأطفال الصعود فوق التكعيبة لجمع التوت من أعالي الشجرة، ومن السهل أن يقفز أحدهم إلى الشرفة.

قال: معقول. ماذا نفعل؟ أغلقي أبواب الغرف بالمفاتيح ولا تنسِه مفتوحاً لأي سبب. ونستطيع أن نبدل أثاث الصالة حتى إذا دخل لا يجد ما يسرقه.

قلت: سأنتظره في الغد. في الغالب هو"جاسم" أو أخوه أولاد "أبي نضال". سأغلق على نفسي باب حجرتي بالمفتاح حتى أعرف من هو. سيأتي في الغالب بعد موعد خروجنا.

قال: لا يا "نورا". هذه مغامرة. من أدراك أنه ليس لصاً وقد يهاجمك؟لا تفعلي هذا أرجوك.

جهزت ابني في الصباح للذهاب إلى الحضانة. سمعت طرقات فوق الباب. وجدت "صبيحة" ابنة الجيران أخت "جاسم". قالت: فدوة أم "ياسر" أريد شخاطة[1].

أعطيتها علبة الكبريت، وقلت لـ"ياسر": أكمل طعامك بسرعة حتى لاأتأخر عن عملي.

ذهب الجميع، وجلست في غرفتي أنتظر ما يحدث. خلعت الروب الذي قابلت به صبيحة. حر "تموز"[2] على أشده. أمسكت بكتاب حضارة العراق. أحب الملك "سرجون" الأكدي. ما هذه الطبقات العميقة من الحضارة؟ كلما توغلت في المعرفة فتنتني عشتار وإنانا. ورحت أتصور زيارة إيزيس أو تحولها إلى عشتار في العراق، ثم ذهابها إلى اليونان. أرض الله هي أرض الله، وآلهة البشر يمرحون في وسعها. انتبهت إلى صوت حركة مفاجئة. صوت ارتطام الزنبرك، الذي يشد السلك مع الباب الحديد للشرفة. قفزت من فوق المقعد وفتحت النافذة التي تطل على الحديقة والشارع الجانبي. مشيت إلى باب الغرفة فوق أطراف أصابعي، وألصقت أذني بالباب فلم أسمع شيئاً. أدرت المفتاح ببطء واربت الباب. لم أجد أثراً لأي حركة أمامي. فتحته بغتة. وجدت قطة تقفز فوق الباب مذعورة. حمدت الله وقلبي يخفق بعنف. ماذا لو كان اللص؟لا يوجد لصوص في بغداد. شنقوهم في الساحة علناً ولم يعد واحد يجرؤ على السرقة. طريقة صعبة لكنها حازمة. اقشعر جسمي. كل البيوت مفتوحة الأبواب وآمنة. تذكرت أن بعض السرقات عادت إلى الظهور منذ دخل العمال المصريين العراق من دون تأشيرة، وعمل. وحين سألت وزير العمل عن صحة هذا الكلام قال: في بغداد خمسة ملايين مصري. من الطبيعي مع عدم توفر عمل فوري ونفاد النقود من أيدي البعض أن تحدث جرائم. كما أن لدخول مجتمع جديد يأخذ فترة حتى يتم التأقلم.

إجابة شديدة الحكمة، لكنها لا تنفي ظهور لصوص. عدت إلى غرفتي ولم أغلق الباب. جلست أقرأ وغرقت مع "سرجون الأكدي" وبعد ساعة سمعت صوت الباب مرة أخرى: القطة ثانية. خرجت أستطلع الأمر. فاجأتني العينان. التصقتا بوجهي. أظنه "جاسم". هو "جاسم". أجفل الصبي وأخرج يده من فتحة الزجاج بصعوبة. جرحها وركض نحو الشرفة.

---

١ شخاطة : علبة كبريت .

٢ تموز : يوليو .

صرخت : حرامي. حرامي.

أدركت أن الارتباك قد يوقعه من فوق السور، وهو عالٍ نسبياً. لاحظت أنني ما زلت بقميص النوم العاري الكتفين. عدت إلى غرفتي وارتديت جلباباً بسرعة،وانطلقت إلى الشرفة. وجدت الصبي يركض في اتجاه شريط السكة الحديد عن بعد. صرخت. ركضت الجارات، ورجل كان ماراً بالصدفة أمام البيت. أبلغ الجيران الشرطة فوصلوا بعد نصف ساعة. والناس ما زالوا يملأون صالة البيت.

سألني العسكري : هل رأيت اللص؟

قلت : أعتقد أنه "جاسم" ابن الجيران. نفس الطول والهيئة، لكن المسافة من باب غرفتي ومن خلف الزجاج لم تكن واضحة تماماً.

- ماذا خذ؟

- أخذ كل يوم مبلغا بسيطاً. خمسة أو عشرة دنانير.

- ألم يأخذ مصاغا أو أشياء أخرى من المنزل؟

- لا.

قلت : نسينا بالصدفة أمس خرطوم الماء مفتوحاً في الحديقة، وغرقت الأرض تحت تكعيبة العنب. فلما قفز من فوق السور انغرزت قدمه في الطين. وتركت أثرا ما زال موجودا. اجعله يضع قدمه ؛ فإذا لم تكن له فسوف أتنازل عن الاتهام.

قال : وقعي على هذه الأوراق.

قلت : لماذا لا تأتي بالصبي الآن، وننهي الموضوع؟

قال : قلت لك يا مصرية وقعي هنا. هذا شأن البوليس.

مضى الجيران إلى بيوتهم. وجاء في المساء أبو "نضال" والد "جاسم" لمقابلة "حاتم"، ثم طلب مقابلتي. جلس أمامي حزينا. هو عامل بسيط لم نسمع أنه تسبب في أي مشكلة. له كثير من الأبناء. أشفقت عليه. تصاعدت الأحداث بسرعة. ودارت دون حسابات.

قال : أؤكد لك. أنه لو كان ابننا قد سرقك، فقد فعل هذا دون أن نعلم. ولم أحصل منه على فلس واحد. ولم أشجعه يوماً على السرقة، بل أغرس فيهم جميعاً

الأمانة. يا معودة أنا رجل فقير، لكنني أخشى الله. وكما تشاهدين أعمل يومياً من غبشة الصبح وحتى المساء، والحياة بالنسبة إليّ "شلعان كلب"[1].

قلت : أعرفك حق المعرفة يا "أبا نضال". لم أكن أريد أن أخبر الشرطة. كل ما كنت أريده : أن أعرف من الذي يدخل بيتي وأوقفه. أحد الجيران هو من فعل هذا، واسأل "أبا مصعب" كان موجوداً معي.

قال: أعرف. لكن هل أنت متأكدة من أنه ابني؟

قلت: لن أقول لك نعم. اطلب من أحد أولادك أن يأتي بحذائه وأن يضعه في الطين، الذي جف الآن فوق الأثر الموجود. تأكد بنفسك وإن لم يكن، فلك مني حق عرب. أعرف أنه اعتاد تسلق شجرة التوت وهو ليس بلص. كان المكان أمامه متاحاً بسهولة؛ مما أغراه أن يأخذ مبلغاً بسيطاً، وكثيراً ما يفعل الشباب مثل هذه الحماقات.

- ما المبالغ التي أخذها؟

- لا أعرف، لكن بالأمس أخذ خمسة وعشرين ديناراً.

- خذي ما شئت لكن لا تشهدي في المحكمة ضد ابني. إذا دخل محكمة الأحداث فلن يخرج منها حياً، أو على الأقل طبيعياً. سينقل إلى سجن الأحداث، ومنه إلى سجن أكبر، فقد اقترب عمره من السادسة عشرة، وسيخرج إما مجرماً، وإما مدمراً. أنت مصرية، ولا تعرفين الأمن العراقي. سيضيع ابني إلى الأبد. والأمر في يدك ونحن جيران لم نؤذك قط.

قلت : أنتم خير جيرة، وأنا أحب ابنك وأناديه عليه ليجمع "التكي"[2] ؛ مع إخوته، وأصدقائه، كل عام. ولم يخطر ببالي هذا الأذى.

قال : هل تقبلين أن تقولي للقاضي إن ابني كان يريد طيراً وقع في الحديقة*؟

قلت : ميخالف. إذا صدقني.

قال "حاتم" : شد حيلك. هذه مشكلة بسيطة وتمر إن شاء الله.

خرج الرجل، ورحت أبكي غير مصدقة التعاسة التي جلبتها على هذه الأسرة.

---

١ شلعان كلب : خلع قلب .

٢ التكي : التوت .

* لا يأكل العراقيون الحمام ، ويلعب به الأطفال .

احتضنني "حاتم" وهو يقول : لست أنت من ارتكب جريمة.

قلت: هذا مجرد طفل.

قال : حذرتك من أن تفعلي هذا ؟ ألم تفكري لحظة واحدة في أن تكوني مخطئة في حساباتك وتفاجئين بما يعرض حياتك للخطر. جريمة اللحظة يا "نورا". قد يكون أبو "معصومة" الجنايني أو أبو "مشتاق" السائق، أو أي عامل في المحلات التي حولك.

قلت : اعتمدت على أن تقديري صحيح مائة بالمائة ؛ لهذا كان ما فعلته مخاطرة لا لزوم لها. لكن الذي يعمل لا يسرق. أنا الآن مشفقة على الأسرة. هل رأيت حالة الخوف، والتخاذل في وجه الرجل؟ يشعر أن ابنه ضائع لا محالة.

قال : غداً أسأل زملائي القانونيين في المصنع عن شهادتك في المحكمة، وندبر طريقة تخلصه من المصيبة التي أوقع نفسه فيها.

نمت نوماً متقطعاً، هاجمتني الكوابيس. استلمت بعد أيام استدعاء للشهادة في المحكمة. ذهبت في الصباح الباكر. دخل القاعة الفخمة قاضٍ وقور يقترب من الخمسين من عمره. سألني أن أقص عليه ما حدث.

قلت: كنت وحدي في البيت. فجأة وجدت صبياً في شرفة منزلي. صرخت وجاء الجيران. ثم اتضح أن الصبي جاء وراء طير سقط منه في حديقة منزلي. وبعد أن ذهب البوليس وجدنا الطير مختبئا في الشرفة، وراء المبردة المركزية.

قال القاضي بغضب وهو يشوح بيده: روحي. روحي لأهلك. روحي.

فوجئت بلهجته اغرورقت عيناي بالدموع. قال الحاجب : تعالي وقعي هنا على الأوراق.

خرجت أتساءل : ما الذي أغضبه إلى هذا الحد؟ هل اكتشف أنني أكذب وأحمي الصبي؟ هل نسيت أباك؟ وكيف يصل إلى الحقيقة بسهولة مرعبة؟ يبدو أن كل القضاة هكذا. أم لأنني مصرية واستكثر أن أتهم طفلاً عراقياً؟ هربت من المكان إلى الشارع وتركت لدموعي حريتها. كنت قد عزمت على الذهاب إلى المكتب. لكني قررت أن أعود إلى البيت لكي أطمئن أهل جاسم. طرقت الباب. خرجت لي "صبيحة" التي فاجأها وجودي.

قلت : هل أمك موجودة؟

قالت : موجودة. إيش[1] تريدين منها ؟

جاءت الأم، وكنت نادراً ما أقابلها. قلت لها بهدوء : الحمد لله شهدت اليوم لصالح ابنك وأعتقد أن القاضي صدقني، وأن المشكلة انتهت تقريباً.

مسحت دموعهابشالها وقالت : الحمد لله بمعاودة. الحمد لله. الله يباركلك.

بكيت، وأنا أقول لها : السلام عليكم.

من يدري ما فعله هذا الحادث بـ"صبيحة"، وهي في سن الزواج، أو بأسرتها ؟ هل تابعت هذا ؟ بالطبع لا. لقد اعتبرته حادثا بسيطاً وانتهى على خير. لكن هل انتهى بالنسبة إليهم؟ لا أعتقد بدليل رد الفعل هذا.

وصلت إلى الندوة في موعدي بالتمام. ركضت إلى الحمام لأفرغ صدري قبل أن تبدأ قراءة الأبحاث. ما أشد التناقض الذي يعيشه العراق. حرب، وإصرار في ذات الوقت على تنفيذ خطط التنمية. هل ينجح هذا حقاً؟ انتقلت لي من قادة البعث ذبذبات الخوف، على الرغم من أنهم يخفونها بمهارة. في آخر مرة رأيتهم فيها قبل الحرب كانوا يعيشون بخيلاء. لكن ما ذنب الناس؟ في البداية يصدق الناس قادتهم، دون تفكير، ثم يعودون تدريجياً يناقشوا "فرماناتهم" همساً، ثم جهراً.

قالت لي صديقتي أم "صلاح" في التليفون : يا "نورا" كل عائلتي تطوعت للحرب، حتى ابني الصغير في المدرسة المتوسطة. وبكت.

لم تخلُ الكلمات من التذكير بالدور الاستعماري الغاشم، والخيانات العربية المسؤولة عما يحدث في المنطقة. ستظل علاقة العراق بالولايات المتحدة الأمريكية بالنسبة إليَّ علاقة محيرة. فكثيراً ما يذكر البعثيون أن قوة ما ساعدتهم على بلوغ الحكم، ونتهمهم نحن الصحفيين المصريين سراً بأن هذه القوة هي أمريكا. يسبون أمريكا، وفي نفس الوقت يناوشون إيران. جاءت الحرب في مصلحة أمريكا التي أطار صوابها خروج الشاه شرطيها في الخليج من الحكم. الإشاعات تقول إن حادث جامعة المستنصرية، ومحاولة اغتيال "طارق عزيز"، هي صناعة المخابرات العراقية، وأن

---

[1] إيش : ماذا .

أمريكا أوعزت إلى "صدام" بتصعيد الخلافات، ووعدت بدعم مالي وعسكري، ويقال إن نصائح الخبراء الأمريكيين والسافاك "مخابرات إيران" الذين هربوا من إيران بعد خروج الشاه ؛ أفادت بأن الحرب لن تستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع. لا أحب الاتهامات بالخيانة ولا أصدق هذه الإشاعات؛ لأنني أصدق حماقة البورجوازية الصغيرة حين تستلم سلطة فتصاب بالغرور. دول الخليج تدعم صدام حسين، وكذلك دول كثيرة من العالم، من فرنسا إلى الأرجنتين، والبرازيل وبريطانيا. أما سوريا فهذا موضوع آخر معقد جداً.

تذكرت أول رحلة لي إلى سوريا : يومها قابلت جارتي أم "تايه" أمام محل بقالة أبي "سميرة". بادرتني باسمة تغمز لي بعينها قائلة: سنذهب إلى سوريا. هل تحبين أن تأتي معنا؟

قلت: من؟

قالت:أنا ومجموعة من النسوان من أهل الجيرة. سيأتي معنا أبو "تايه" وأبو "محمود". كانت أم "سلافة" تدبر لنا هذه الرحلات من قبل؛ نتونس، ونشتري "غراض"[1]: ملابس وأطعمة وكل شي[2]: ألم تسأليني منذ أيام عن ثوم؟ سأشتري لك حزمة.

تحدثت صحف الصباح البعثية وغير البعثية، عن عودة العلاقات بين شقي حزب البعث السوري والعراقي. انتشر الخبر في الشارع وسط فرحة شعبية عارمة. علقت شركات السياحة في ساحة جمال عبد الناصر إعلانات فورية عن رحلاتها إلى دمشق محاطة بزينات كهربائية.

حكيت لـ"حلمي أمين" عن رحلة جاراتي. ضحك قائلاً: نرتب رحلة إلى دمشق ضمن خطة مكتبنا المستقبلية تغطية المنطقة كلها. دعيني أفكر أولاً في زيارة لي.

فرحت بهذه الخطوة على الرغم من أنني مشغولة بالعراق وحده ليلاً ونهاراً. سافر "حلمي أمين" إلى سوريا وعاد سعيداً، عاقداً بعض الاتفاقات الصحفية هناك. أخيراً

---

١ غراض : أغراض .

٢ شي : شيء .

اليوم في دمشق، وغداً في بيروت، وربما في منطقة الشرق الأوسط كلها. كم تتسع أحلامي.

وعدني "حاتم" بقضاء أول عطلة لنا في احدى البلاد المحيطة بالعراق؛ لصعوبة سفره إلى مصر بعد أن استغرق الحصول على تصريح خروجه الكثير من الوقت، ومازال تحت الاستدعاء كضابط احتياطي في الجيش. تركني أزور مصر كما أشاء وأجّل زيارته لها حتى تتجمع مدة كافية من الإجازات لمواجهة الوقت اللازم لتجديد تصاريح الخروج مرة أخرى. انتهزت فرصة فتح الحدود السورية العراقية وطالبته بتنفيذ وعده لي ؛ عطلة أسبوع واحد أجري فيه تحقيقات في نفس الوقت.

سألني: أهي عطلة أم عمل؟

قلت ضاحكة : الاثنان. والنبي. يالله.

أرشدتني أم "تايه" إلى شركة السياحة التى تعاملت معها. كانت قد عادت من رحلتها سعيدة. وأرسلت لي علبة حلويات شامية. ودعتني إلى بيتها لكي تعرض أمامي مشترياتها ،

قلت : أجهزت على مدخرات العائلة.

قالت : "يمعودة إيش بيكن. هاي سوريا مو لندن"[1].

كانت جاراتي يضعن في المطبخ علبة لجمع النقود ، يدخرن فيها كل ما تطاله أياديهن من فائض الميزانية ؛ ادخارا لرحلة الصيف السنوية. ويذهب الرجال إلى القاهرة، دون العائلة غالباً. فاجأتني أم محمود وأنا أسألها ذات يوم عما تم في علاج ركبة أبي "محمود" في مصر؟ وقدمت لي صورة له يرتكن فيها على كتف شابة مصرية سمراء. فلما سألتها : من هذه؟

قالت ضاحكة: شرموطة!

سافرنا في سيارة سياحية ضخمة عتيقة الطراز. فضلناها على الطائرة حتى نتعرف على معالم الطريق. امتلأ الأتوبيس عن آخره بنساء عراقيات، بعضهن ارتدين عباءات سوداء وتحتها آخر خطوط الموضة. عراقيات مستديرات الوجوه فرحات بالحياة

---

[1] هادي سوريا مو لندن : هذه سوريا وليست لندن .

يغنين طوال الوقت بحكم الشجاعة داخل الجماعة، ويأكلن طوال الرحلة أكلاً جماعياً أحضرنه معهن. أخرجن ترامس الشاي من فور صعودهن إلى السيارة في الصباح الباكر، ورحن يحكين الحكايات بصوت عالٍ. وقبل أن يتوقف الأتوبيس في مدينتين صغيرتين، كان كل ركاب الأتوبيس يعرفون بعضهم جيداً، بما فيهم العدد المحدود من الرجال.خاطبت واحدة من الركاب سائق السيارة باسم "راشد" بطل كتاب محو الأمية. ضحك الركاب، وابتسم السائق وتحول "راشد" إلى بطل السيارة الذي يستعينون به في قضاء حوائجهن ؛ إذ تحول إلى لازمة خفيفة الظل.

ـ انطي لـ"راشد" دينارين يجيب لنا صمون حار*!

وضع السائق شريطاً عن الحسين. فبدأن يبكين. كنت أعرف القصة جيداً. لكن حين وصل المطرب إلى مشهد الرضيع عبدالله ابن الحسين وهو يقتل عطشاناً، تعالت الصرخات وتقاطرت دموعي بالعدوى، ورحت أرقب مذهولة هذا النحيب الجماعي. لكني حين رأيت إحدى السيدات تضع يدها فوق صدرها وتضربه ضربات متتابعة وهي تقول:يا أمي يا أمي يا أمي. ابتسمت. لكزني "حاتم" في جانبي، وقد اتسعت ضحكتي قائلاً: انتبهي.

تحول المشهد أمامي إلى مشهد كوميدي، وأدرك "حاتم" النزق الذي وقعت فيه. حاول أن يسيطر على ما أصابني من ضحك دون جدوى. لكن امتقاع لونه، ونظراته الحادة لي أعادتني إلى حالتي الطبيعية. لم أفهم هذا الألم، ولا التعبير عنه بهذا الشكل. تصورت أنه مجرد حالة تمثيلية. كنت قد حضرت عزاءً لشيخ طاعن في السن عند جارة لي، ولاحظت أن النساء في لحظة معينة يضعن العباءات فوق وجوههن، ويبدأن في البكاء، وأنهن باستثناء أهل البيت المنهارات بالفعل، يؤدين دوراً مطلوباً في هذه اللحظة للمجاملة. لا أعرف لماذا ربطت بين هذين المشهدين؟ ثم سألت نفسي: يجاملن من؟ شهداء ماتوا منذ قرون؟

احتجت لسنوات من العمر حتى أدرك قسوة الأحداث التي ضربت تلك الأرض بطابعها المأساوي والذي ما زال ينزف دماً حتى الآن. وسألت نفسي إن كان مكتوباً

* اعط لراشد دينارين ليشتري لنا خبزًا ساخنًا .

على العراق أن تسفك به الدماء إلى الأبد؟ أأسباب قهرية أم حماقة؟ كانت تلك الأيام سعيدة في عمر العراق: تنمية، وعمل، ونجاح سياسي. وصلنا إلى دمشق في منتصف الليل. دخلنا إلى الفندق فرحين متشابكي الأيدي. كانت السماء تمطر بغزارة والبرودة التي حذرنا منها الأصدقاء أكثر بكثير مما توقعنا. صحونا مبكرين، وانطلقنا إلى وسط المدينة. أرشدنا عامل الفندق إلى طريق الجامع الأموي، وسوق الحميدية. قطعناها على الأقدام. وقفنا في منطقة "المرجه" نبحث عن نهر بردى. تذكرنا القصائد التي كتبت فيه. قال "حاتم" :

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

وللحرية الحمراء بابكل يد مضرجة يدق

حملقت مذهولة في المجرى الموجود وسألته : ما هذا؟

قال "حاتم" : لا أعرف. غير معقول.

سأل "حاتم" واحد من الشباب العابر أمامنا: أين نهر بردى؟

قال الشاب : هذا هو.

كان مجرد قناة صغيرة لدينا منها مئات القنوات في كل القرى المصرية. قفز النيل إلى ذهننا معاً. ضحكنا من أوهامنا. قال "حاتم": هذا ما تنالينه إذا ما صدقت الشعراء.

قلت: لابد أنه كان صحراوياً فتن بالماء. تصور الفارق بين بئر ونهر؟ أحد زملائي اليمنيين مشى معنا إلى كوبري الجامعة، وصرخ حين رأى نهر النيل: كل هذا مي حلو؟

قال: المسائل نسبية يا حبيبتي. لكن هذا شعر "شوقي".

اتصلت بصحفي سوري وحددت موعداً معه في الصباح الباكر ليصحبني إلى جريدة تشرين. سألت "حاتم": من دون زعل؟

قال: خذي راحتك. المهم أن نكون معاً.

جبنا المدينة، وتغدينا في مطعم شعبي، واستمتعنا في المساء بمسرحية "في انتظار جودو" التي يعرضها المسرح القومي. انطلقنا نوزع الوقت بين اللعب ولقاءات رسمية. كان أولها مع وزيرة الثقافة "نجاح العطار". قابلني الكاتب "حنا مينا" الذي يعمل مستشاراً لها، قلت له هامسة وهو يدخلني إليها: أحببت "الياطر" وبطلتها الرائعة "شكيبة".

ابتسم، ودخل معي لحوار الوزيرة. قابلت رئيسة اتحاد النساء وكتبت تحقيقاً عن عودة العلاقات العراقية السورية. طلب مني رئيس تحرير تشرين أن أكتب إليه من بغداد عن رد فعل الناس على عودة العلاقات. وأن أمد الجريدة بمقالات وتحقيقات دائمة. كان "حاتم" يذهب إلى المتاحف في الوقت الذي أجري فيه حواراتي، ثم يعود معي للمتحف مرة ثانية. وفي الليل نرى عملاً مسرحياً آخر. دخلنا سوق الحميدية نشتري عباءات من القطيفة المطرزة بالسيرما السورية الشهيرة. في الورشة، لاحظت اللهجة الفلسطينية. وتذكرت كلمات أمي : لا تنسي أن تشتري حريراً سورياً بالقصب، و"لانجيري. سوتيانات خصوصاً"[1].

سمعت التصفيق. انتبهت إلى الرجل الذي يتحدث فوق المنصة، إلى كلماته التي أعرفها، وصوته. أهو فعلاً المفكر "إلياس فرح" المحكوم عليه بالإعدام في سوريا الذي جاء مع "ميشيل عفلق" لدعم الحزب في العراق؟! أم اشتبه عليّ الأمر ويكون "إلياس" قد قتل من بين الذين قتلوا ؟!

مرت"نجلاء" أمامي تذكرت "نافعة عثمان" فسألتها عنها. أخبرتني بأنها مشغولة بافتتاح قصر جديد في السليمانية.

كنت قد قابلت "نافعة عثمان" رئيس اتحاد النساء في أربيل أحد الصباحات، واستمعت إليها تشرح جهود حزب البعث في تطوير المنطقة، ودفع النساء للعمل المنظم في المصانع. وهي سيدة مثقفة جميلة وقوية، تؤمن بدورها في التنمية وتعمل بطاقة غير عادية. عدت إلى الفندق وأنا أعد نفسي بسرعة للذهاب مع "حلمي أمين" إلى بيت أحد مؤسسي الحزب الشيوعي الكردستاني.

المفاجأة التي كانت بانتظارنا هي أن "نافعة" هي ابنة أبي "بكر عثمان".

قلت ضاحكة : كنت معك منذ ساعة. لماذا لم تخبريني؟

قالت : أردت أن أفاجئك. هذا بيت والدي. وليس بيتي.

جلسنا إلى رجل متغضن الملامح، قليل الجسم، لا يتناسب حجمه مع حجم ابنته

---

[1] ملابس داخلية خاصة المشدات .

فارعة الطول، ورحنا نتحدث عن الأكراد مطولاً. سأله "حلمي أمين": هل يعود الأكراد إلى الثورة على الرغم من الحكم الذاتي؟

قال بهدوء: نعم.

قال "حلمي أمين": كيف؟

قال: إذا حمل أي كردي السلاح سواء كان الملا "مصطفى البرزاني"، أو أي ثائر آخر، فسوف يتبعه الجميع.

قلت: دولة صغيرة لا يمكن أن تقف وحيدة على قدميها، واتحاد الأكراد مستحيل؛ لأنكم موزعون بين الاتحاد السوفييتي وإيران والعراق وسوريا وتركيا. هل ستقبل أي دولة من هؤلاء أن تترك الجزء الكردي ينفصل عنها؟

قال: لا. هو كفاح أبدي. مشكلة أكبر من مشكلة فلسطين.

قلت: لماذا التمرد في العراق أعلى من التمرد في أي منطقة أخرى على الرغم من أن لديكم الحكم الذاتي وهو غير متوفر في البلاد الأخرى؟

قام "أبو بكر عثمان" وفتح نافذة الحجرة التي نجلس بها، وقال: تعالي. انظري إلى اللافتة الموجودة أمامك في الشارع. ماذا تقرأين؟

قرأت: نفط العرب للعرب.

عاد إلى كرسيه بنفس الهدوء. قال: هذا هو قلب المشكلة. هذا ليس نفط العرب. إنه نفط الأكراد وسيظل كذلك. ولابد أن تعود ثروة الأكراد إلى الأكراد. وتنمية مجتمعهم هي السبيل الوحيد إلى السلام. المنطقة في حاجة إلى صدق حقيقي في مواجهة الواقع الكردي.

قلت وأنا أتذكر حديث "نافعة" في الصباح: ألا يتناسب الجهد المبذول مع أموال النفط؟

قال: على الإطلاق. الدولة مهتمة بشؤون أخرى وتقديرهم للأموال التي تضخ هنا أقل كثيراً من احتياجات المنطقة الفعلية، وهو ما يجب أن ينتبهوا إليه قبل فوات الأوان. المسألة ليست عرباً وأكراداً. وإنما البعث. سلطة تتصرف في ثروة البلاد على حساب الجميع.

قال "حلمي أمين": لكن الحكم لجبهة ائتلاف من خمسة أحزاب.

هز "عثمان" رأسه وقال : لست متفائلاً.

قلت: أنا معجبة جداً بتجربة الجبهة. وأتمنى أن تنتشر في كل بلادنا العربية.

ابتسم وقال وهو ينظر طويلاً نحوي: كلنا نتمنى الخير للعراق.

كانت "نافعة" تتحرك أمامنا على أطراف أصابعها تقدم لنا "الكليشة"[1]، والمشروبات مثل أي سيدة بيت. أردت أن أسألها إن كانت بعثية أم لا، لكنني خجلت من السؤال. تمنيت أن يكون الأب شيوعياً والابنة بعثية، وأن يندمج العرب والأكراد معاً. فقد أحببت الكرديات وفرحت بأزيائهن التي تبرق في الشمس. لم أرَ في حياتي زيا شعبيا بهذه البهجة.

ما زالت "نافعة" تعمل في مكان حساس إذن! لكن أين "أنهار خيون"؟ أين باقي الزملاء الشيوعيين؟ أين راح ذلك الزمن الذي كان الشيوعيون فيه منتشرين في كل مكان في بغداد؟ تعلمين يا "نورا" أين ذهبوا ؟ ما زلت أذكر لحظة النهاية السوداء.

ذات صباح بعد أن تحول مكتبنا إلى مكتب صحفي خاص. قال لي "حلمي أمين": نذهب أولاً إلى طريق الشعب قبل أن نذهب إلى الجمهورية. لم يجد أبو "غائب" الجريدة في السوق فهل صودرت أم أنها متأخرة عن الصدور لسبب ما؟

مشينا تحت ظل الشمس الدافئة لشتاء بغداد الممتع. فتحنا مزلاج باب حديقة جريدة طريق الشعب. وضغطنا جرس باب البناء الذي لم يكن يغلق من قبل. فتح لنا أحد الصحفيين الشبان، وجاءت من خلفه فتاة جميلة مذعورة وسألت جزعة: من أنتما؟

قال "حلمي أمين" : مدير مكتب الزهرة السابق، وزميلته "نورا سليمان". هل الأستاذ "عدنان" موجود؟

وصل أحد الصحفيين قادماً من الداخل بسرعة: ادخلا. رجاءً.

سمعنا الفتاة تقول: الآن مكتب الزهرة الآن؟ تركتنا ونحن نتعجب. وذهبت إلى الباب، وواربته وهي تنظر خلفه متوجسة، ثم عادت إلينا وسألت: مكتب الزهرة. أمصريان؟

---

١ الكليشة : الكعك المحشو بالجوز .

قال الصحفي: هذه مخبولة. مخبولة.

عادت إلى الباب وأغلقته. أظلم المكان تماماً، وانتبهنا إلى خلوّه من الصحفيين باستثنائهما. كان في العادة يعج بالعاملين وزوارهم. دخل "نبيل ياسين" ورحب بنا قائلاً: نأسف. معظم الشباب في مهمات عمل. ورئيس التحرير غير موجود أيضاً.

قال "حلمي أمين": لم نجد الجريدة في السوق. هل تعطلت لأي سبب أو صودرت؟

قال: سآتي لكم بنسخة حالاً.

قدم لنا نسخة، والفتاة تتلفت حولها. تنظر من خلف ستارة النافذة، ثم تعود لتقف في ركن مظلم من الصالة. شعرنا أن هناك شيئاً مريباً.استأذنا في الخروج والعودة في يوم آخر. حين تجاوزنا عتبة الباب الخارجي سمعنا صوت إغلاق الباب الخشبي خلفنا بالمزاليج.

قلت : ما الذي يخشونه؟

قال : ربما البوليس.

قلت : وهل يوقف الباب البوليس؟ هذا الأمن العراقي؟

قال مهموماً: الباب لا يوقفه، لكن ربما يعطي فرصة لهرب أحدهم. تنهار الأمور بسرعة. هذه ليست المرة الأولى لمصادرة الجريدة. يبدو أن الشيوعيين العراقيين دخلوا مرحلة صدام مع الدولة قد تتصاعد.

قلت: نهارهم "زي" بعضه. مع من لا يرحم.

قال: يبدو أن حزب البعث مفاجئ بالأعداد التي تنضم إلى الحزب الشيوعي العراقي على الرغم من أن حزب البعث هو الذي يحكم.

استطرد: احتفل الحزب الشيوعي منذ فترة بسيطة بعيد ميلاده. دعوا أعضاء اللجنة المركزية لحزب البعث لحضور الاحتفال، وجاء "صدام حسين" بنفسه لحضور الحفل، وأعلنت أسماء الشباب الجدد الذين حصلوا على عضوية الحزب واحتفلوا بهم. ويبدو أن هذه التظاهرة قد فاجأت "صدام"و لم تعجبه، وخرج وقد نوى شراً.

قلت : هل تعتقد أن هذا هو السبب الوحيد؟ لابد أن هناك أسباباً خلافية أخرى، أشعر بها في كلمات الشيوعيين، وتبرمهم من حزب البعث، وإدارته لمرافق الدولة.

وصلنا إلى جريدة الجمهورية. قال لنا أحد الزملاء الشيوعيين إن طريق الشعب قد صدرت وفيها مقال يتحدى حزب البعث دون أن تمر على الرقابة.

أعلن عن وجود تنظيم شيوعي في الجيش. وصلتنا أخبار الاعتقالات، وكذبت طريق الشعب مزاعم وجود جناح مسلح للحزب الشيوعي. انهارت الجبهة التي كانت مكونة من ائتلاف من خمسة أحزاب عراقية.

تذكرت كلمة "جمال أبي سرجون" ونحن في بيته في مدينة أربيل : أحزاب سرية عملت معاً ضد الملكية والاحتلال الإنجليزي، تعرف دبة النملة عن بعضها. لا يستطيع أعضاء أي حزب منهم الهرب والاختباء من الحزب الآخر. سمعنا أن المعتقلين الشيوعيين يعذبون بشدة في السجون حتى يعترفوا بانضمامهم للجناح العسكري في الجيش. تألمنا بشدة، لم نعد نعرف أين الحقيقة. شعرت بالقلق يسري إلى خلايا "حلمي أمين". كان يرى أن انهيار علاقة البعث بالشيوعيين لابد أن ينعكس على الشيوعيين في العالم العربي، وعلى شيوعي مصري منفي في العراق حتى لو كان وضعه آمناً الآن. وأيضاً بسبب "أنهار" التي قد تعتقل في أي لحظة.

رحت أسأل عن زميلاتي الصحفيات الشيوعيات اللاتي كن يعملن في الصحف الأخرى. كنت أحب "سلوى زكو" بصفة خاصة ؛ جديتها، ونبل أخلاقها. عرفت أنها في السجن، وأن زوجها هرب إلى خارج البلاد. كان الصحفيون البعثيون يصابون بالهلع حين أسألهم عن الصحفيين الشيوعيين. تداعت الأحداث، وأعلن عن إعدام الضباط الشيوعيين، وهرب عدد كبير من المثقفين إلى الخارج، وأعلنوا من فور وصولهم إلى أي بلد إدانتهم لنظام حزب البعث واتهموه بالديكتاتورية، وإساءة استخدام السلطة، وموارد العراق، والفساد.

امتدت حملة الاعتقالات لتشمل كل المدن العراقية، وراحت الأسماء تتساقط في حجري. كان "حلمي أمين" يلتقي بأصدقائه الشيوعيين في فترة المساء، ويعرف منهم تفاصيل الأخبار، وأسماء المعتقلين، وأسماء الهاربين إلى الخارج. اختفى عدد كبير من رواد الفنون والآداب. نزح عدد كبير إلى الاتحاد السوفيتي وفرنسا وإلى دول أوروبا الشرقية. وذهب بعضهم إلى اليمن، وإلى المغرب، والولايات المتحدة الأمريكية.

تحول عقد القرنفل في درج "تسريحتي" إلى رمز للشيوعيين العراقيين لم أستطع

أن أرتديه أبداً. كلما فتحت الدرج تسربت إلى أنفي رائحته وألقت بشباكها حول روحي. تتساقط دموعي وأتساءل : أين "ناريمان" الآن؟ لم أستطع أن أخفيه عن عينيّ ؛ كأن وجوده سيتيح لها الأمان ويهبها الحياة. ويذكرني كل صباح بأصدقائي الذين اختفوا في ظروف لم أتوقعها قط.

وصلتنا بعض الأخبار عن اعتداءات جنسية على الشيوعيات في المعتقل. نفى البعثيون الخبر، ولم نعد نعرف من نصدق ولم أعرف أين "ناريمان"؟ هل بقيت منفية في شقلاوة أم اعتقلت أم هاجرت إلى الخارج؟ المصائر الثلاثة للشيوعي العراقي. أين"سلافة" تذكرتها يوم أخبرتني أنها تجهز لزواجها. نزل عليّ الخبر كالصاعقة. رحت أقول لنفسي: ماذا كانت تفعل؟"جمال" مسيحي لا يستطيع تطليق زوجته ولا هي تستطيع انتظاره من دون زواج. أين أنت يا "سلافة" الآن؟ لم يعد السؤال الآن عن سعادتك، ولكن عن الخطر المحدق بك. لم أكن أعلم ساعتها أن "أنهار" ستختفي ذات يوم بنفس الطريقة وأنني "وحلمي أمين" سنبحث عنها دون أن نصل إلى شيء، وأن أغادر العراق دون يقين واحد عن مكانها وأعود بعد سنتين أحاول الوصول إليها ، وكلي أمل أن تكون قد هاجرت إلى البرازيل .

ثقلت عليّ الذكريات. شوشت أفكاري. تواترت على ذهني كل التناقضات التي رأيتها طوال خمس سنوات ونصف هي عمر عملي في العراق. كل ما رأيته من نجاح، وكل ما عاصرته من انفجارات وصراعات وفشل. نسبة نمو العمل في أجهزة الدولة في السبعينيات وصلت إلى ثلاثمائة بالمائة في عشر سنوات احتلت منها المرأة نسبة أربعين بالمائة وفي التعليم ثلاثين بالمائة في الطب والصيدلة بصفة خاصة. قوانين الأحوال الشخصية المتقدمة، التي كانت توجه لطمات إلى التقاليد. تجربة محو أمية فريدة. ما ذكرته الباحثات في المؤتمر وما رأيته بنفسي. كل هذا التناقض يا إلهي كيف؟ أي سلطة هذه؟ أهي قومية حقاً؟ أهي تقدمية حقاً؟ (كانوا يصفونها بأنها تسحب السجادة من تحت أقدام الشيوعيين). أم أنها مجرد سلطة ديكتاتورية تغطي أهوالها وحماقاتها؟

سألتنى "نجلاء" التي لاحظت شرودي : "نورا". أنت دون عضوات المؤتمر لديك خبرة خاصة. هل تشعرين أننا سنصل إلى حل قريب؟

قلت: يلح عليّ تاريخكم كثير. هل أذكر لك شيئاً منه دون أي تعليق يا "نجلاء"؟
قالت : قولي الله يرضى عليك. أريد أن أُطمئن نفسي.

قلت: من الأقوال البابلية الساخرة: "طارد النمس مرة فأراً. فأراد الفأر أن يختفي منه، فدخل غار حية، فلما لقي نفسه إزاء هذا الخطر الجديد ارتج عليه، فقال للحية : أرسلني إليك الحاوي مع التحيات." هل تجدين أن هذا القول لا يشبه حالكم اليوم، على الرغم من مرور آلاف السنين على هذه الحكمة البابلية؟

بكت "نجلاء". ثم قامت لتغسل وجهها.

التقيت بالناقد اليساري "ياسين النصير". سألته عن أحواله ثم عن بغداد "الأندر جراوند". تسمية كنا نطلقها على الثقافة التي تجري تحت الأرض. الثقافة غير الرسمية التي تناضل بأفكار طليعية لا تناسب مؤسسات الدولة. تمنيت أن يكون أصدقائي الفنانين وأعمالهم بخير. أردت أن أرى عرضاً مسرحياً.

قال "ياسين" : في البرنامج اليوم عرض رائع اسمه "الباب" لفرقة جديدة ستعجبك. احرصي عليه.

امتلأت قاعة المؤتمرات عن آخرها. يحتفون بالختام كما يحتفون بالافتتاح تماماً. تفوقوا في أنشطة المهرجانات بصورة مذهلة. احتلت نساء شعبيات المقاعد الخلفية وأطلقن "الهلاهل"[1] كلما جاء ذكر الرئيس. تعودت على قصائد الشعر الطويلة التي يلقونها في مثل هذه المناسبات، وكأنهم ما زالوا في مضارب القبيلة، تذكرت المتنبي وأبا نواس والبحتري وأبا العلاء المعري والخنساء. أين ضاع شعر الخنساء الآخر؟ لماذا لم يبق لنا منها إلا الأشعار الحزينة في رثاء أخيها صخر:

يا عين جودي بالدموع	المستهلات السوافح
فيضاً كما فاضت غروب	المترعات من النواضح
وابكي لصخر إذ ثوى	بين الضريحة والصفائح

---

١ الهلاهل : الزغاريد .

توجهنا بعد الختام إلى عرض مسرحي من فصل واحد يدور في مقبرة تحت الأرض. أحب الممثل العراقي على المسرح. ترى أين "يوسف العاني وجواد الأسدي"؟ خطفني "هيثم" من بين المتفرجين، على الرغم من أنني أفرغت ثديي قبل قليل.أحاول إبعاد صورته عن خيالي. يأتيني باحثاً عني والدموع في عينيه. نظراته محتارة تنقلب ورائي، أهش الدموع، وأحاول الاندماج مع المسرحية. ينتبه صدري لنغبشته في صدري ويتمدد ، فأتوجع. لابد أن الوجع يأتي من الروح. نعم، يأتي من الروح. أفيق على الحوار بين البطلين.

محطة قطار بغداد

الخامسة صباحاً

حملتنا السيارات إلى محطة قطار بغداد. لم أركب القطار العراقي من قبل لأنه بطيء. أحب غبشة صباح الشتاء. شبورة فاتنة تنقشع عن شمس أو مطر. شرخ الفضاء صوت مصري متناغم كأنه ينادي على بضاعة لعامل يرتدي الزي الرسمي للسكة الحديد ويضع على رأسه طاقية من الصوف المغزول وعمامة بيضاء : يا صباح القشدة.

قلت ضاحكة : صباح الورد.

قال : نهارنا عسل.

ردت "ليلى" و"ساجدة" معاً: صباح الفل. يا حبيبي.

انفجر الطابور الذي نمشي فيه بالضحك، وتساءلت الأجنبيات عن سبب ضحكنا فشرحت لهن "ساجدة". ركبنا القطار الذي حجزت معظم عرباته للوفود، ولأول مرة أنتبه إلى أنني لم أقترب كثيراً من الضيفات الأجنبيات، على الرغم من وجود شخصيات يهمني حوارهن. سنحت لي الفرصة في القطار لكي أستمع إلى ما حدث لصديقاتي العراقيات خلال العامين الماضيين. لم يعتدن الفضفضة معي بهذا القدر من البوح من قبل. لا أعرف السبب، أهو انشغالي السابق بعملي، أم أن المأساة ألقت بظلها على حياتهن، ولم يستطعن تكتم الألم؟ لاحظت أنهن لا يراعين السرية، وكثيراً ما اخترق حديثي الثنائي مع إحداهن تعليقات جماعية.

سألت"لُطفية" : وكيف يتلقى الناس العزاء في الابن؟

صمتت وترقرقت دموع في عينيها ثم قالت: الأمهات يبكين في البيوت وسط الأهل، فالشهيد هو شهيد الوطن كله. وهو حالة فرح وليس حالة حزن.

تَقطّع كلماتها المخنوقة رنّ في أذنيّ لساعات. تفكك الخوف عند التحدث لكنه

مازال موجوداً. أما زالت المراقبة الحزبية سارية؟ مراقبة حزبية أم مراقبة انتهازية لإثبات ولاء بعض الأفراد؟ هل ما كنت أسمعه كان مجرد إشاعات مبالغ فيها؟

جاءت منال الألوسي إلى مقعدي: "نورا". كيف حالك اليوم؟ أتحتاجين إلى شيء؟ لا تدعي الوقت يمر دون أن نجلس معاً جلسة طويلة. أريد أن أعرف كل أخبار مصر وأخبار النكت الجديدة.

قلت : شكراً يا أم "طيبة" أنا وسط أهلي.عاوزين في مصر يعملوا نكت جديدة لقوا الصعايدة خلصوا في النكت. واحد جاي من العراق قال: هاتوا معيدي.

ردت "ساجدة" : أو كردي. تعالت ضحكاتنا.

قلت : أريد أن أطمئن على أختك "هند" وزوجها. هل هناك جديد؟

قالت بأسى : لا. ما زال مفقوداً مثله مثل آلاف العراقيين. وهذه مشكلتها هي الآن. لا تنسي موعدنا.

ارتفعت حرارة جسمي. تكاثف اللبن في صدري بغزارة. حملت هم دخول حمام القطار الضيق جداً ثم قمت مغلوبة على أمري. سأفرغ بعضه على مراحل، وأحرص في الليل على إتمام المهمة بشكل أفضل. ما جدوى ما تفعلينه؟ ابقي في بيتك إلى أن تنتهي مهمة الأمومة. أو افعلي كما تفعل زميلاتك. أرضعي ابنك حليباً صناعياً. إلى متى سترقصين فوق حبل التوازن بين الأم التقليدية والصحفية المشغولة بالعالم الآخر؟ هششت الأسئلة. تذكرت "ياسر" وهو يترك ثديي ليلعب معي، فيغرق اللبن صدري وكلمات عمتي "فوزية: لماذا أنت قاسٍ يا "ياسر"؟

اندهشت. كان "ياسر" قد اعتاد أن يرضع بنهم لفترة قصيرة، ثم يترك ثديي لكي يتنفس من فمه. لأنه يعاني من انسدادات في الأنف. يكون ثديي قد "حن" وفتح"رشاش" اللبن وأغرق صدري قبل أن يعود إليه "ياسر". فإذا شبع قليلاً ضحك وبدأ في اللعب وتنفس براحته. نظرت إلى عمتي. أدركت المعنى بالتقريب ولم أقتنع. قامت عمتي وربتت على كتفه. لم يكن قد أكمل شهره السادس في مثل عمر "هيثم" الآن، وجعلتني أمسك بثديي وأضعه في فمه. قالت : لا تخرجيه من فمه وهو يرضع لأي سبب.

قلت : لكن أنفه.

قالت : يتعود على وجوده في فمه ويتنفس.

تعلم "ياسر" أن يتنفس وهو يرضع لكنه ظل يترك ثديي ينز باللبن. هل تذكرين الاحتفال بميلاده الذي كنت تقيمينه له كل عام وأنت بعيدة عنه؟

كانت تانت "فائزة" وبنات "حلمي أمين" قد وصلوا إلى بغداد لكي يقضوا معنا عطلة نصف العام. تغيرت ظروف المكتب. استرخى "حلمي أمين"، وغطى ضجيج العائلة على جدولنا الذي ازدحم بالأنشطة الاجتماعية. ترددت الدكتورة "راجية" على البيت كل يوم بعد الظهر وتعللت "أنهار" بالسفر إلى الجبايش في الأهوار لزيارة عائلتها مع أمها واختفت تماماً.

قلت للبنات: سأذهب إلى "الأورزدي باك" لشراء هدية لـ عيد ميلاد "ياسر" اليوم.

قالتا : سنذهب معك.

وجدت دباً بحجم "ياسر" تقريباً، فرحت به. أضفت البنات على حياتي سعادة ومرحاً. اعتدت أن يعدن معي إلى البيت، ويبقين لفترات طويلة خلال شهور الصيف، لكن هذه العطلة قصيرة ومختلفة. عدنا إلى المكتب وأخبرت تانت "فائزة" بأنني سأعد تورتة لـ"ياسر"، وطلبت منها أن تترك لي البنات.

قال "حلمي أمين": تقيم لابنها حفلة، وتنتظر أن يحدثها في التليفون من الحفلة التي يقيمها له جده والعائلة في مصر. هل رأيت أكثر من هذا جنوناً؟ حاضر يا ست "نورا". سنأتي.

عدت إلى البيت. وجدت الكيك الإسفنجي الذي خبزته في الصباح الباكر بارداً تماماً. رسمت أنموذجاً لفيل ورحت أنفذه. نزلت دموعي. لم أعتد قط ابتعاد "ياسر" عني على الرغم من زياراتي المستمرة له. تهاجمني نوبات القلق، وأتصور وقوع حوادث له، وأقضي الساعات في مبنى البريد المركزي بشارع رشيد في محاولة لسماع صوته. غطيت الكيك بالكريمة وظهر الفيل أمامي في أبهى صورة: "فيل هندي معتبر". تحركت بسرعة مائة ميل في الساعة. أكملت ترتيب البوفيه وتعليق الزينات. وصلت "ناهد". أضفت بناتها على المكان بهجة ؛ عائلة لذيذة أحبها بشدة فيهم طيبة مطلقة وكرم يذكرني بالأسر التي تعيش فيها الزوجة لإطعام الأولاد والزوج ورعايتهم فحسب وتترك

الرجل للعمل في الخارج دون أن توجع دماغه بأي شيء في الحياة. ركضت البنات مع "مادو" ابن "تيتي" في الحديقة وجاء "محمود راشد وسامية وباسل". امتلأ البيت بالأطفال والصخب. ثم وصلت أسرة "حلمي أمين" وبصحبتهم "راجية". وضعت الدب الكبير فوق الكرسي في منتصف الطاولة أمام التورتة، وأطفأنا الشموع في ضجة، على الرغم من دموعي. ضحكنا والتقطنا الصور وسمعنا صوت التليفون وإيقاع الترنك.

قال "ياسر" : ماما. أحبك جداً.

تخاطفنا السماعة أنا و"حاتم"، وأنهينا المكالمة مع الأهل. لاحظت صمت "راجية" التام. قدمت لها طبقاً من التورتة. قبلته بعد إلحاح، ثم وضعته إلى جوارها. حاولت "سامية" التي استضافتها في بيتها أول وصولها إلى بغداد أن تتحدث إليها، لكنها كانت تغلق أي استمرار في الحوار. عاكستها "ناهد"، وبعد أن عرفت أنها تعيش في بغداد وحيدة دعتها إلى بيتها.

سألت "حلمي أمين" هامسة : ماذا أصاب "راجية"؟

قال : جاءت لزيارتنا بلا موعد فدعوناها لتأتي معنا.

راحت "تيتي" تصب الشاي، وتقدمه لـ"محمود عصام" ضاحكة: زوجي أولاً.

ركض "مادو" وراءها يريد أن يخطف منها بالونة كانت تعلقها في يدها لأخته الصغيرة.

قالت "راجية": آسفة أريد أن أعود إلى بيتي.

قلت : ما زال الوقت مبكراً. والأولاد لم يأكلوا التورتة بعد.

وقفت قائلة بإصرار : لا. أريد أن أعود الآن. حالاً.

وجهت الحديث إلى "حلمي أمين": تستطيعون البقاء. سأخرج وأحصل على تاكسي.

قالت "رشا": أريد أن أبقى مع "نورا". ابقي معي يا "ميرفت".

قالت تانت "فائزة" : نأتي إليها في يوم آخر.

صممت "راجية" على عدم الانتظار. ثم جلست لدقائق حتى تنتهي البنات من تناول الحلوى وخرجوا جميعاً.

سألتني "ناهد" : من هذه المؤَنّبة؟

قلت : مسكينة ظروفها صعبة.

قالت "سامية": لاحظت أنها متعبة وحزينة ويبدو أن لديها مشكلات كثيرة. لم أسألها حتى لا أضايقها، ولم تقل لي أي شيء. واضح أن تانت "فائزة" تحبها كثيراً.

قلت: أجهضت نفسها قبل وصولها إلى بغداد بيوم واحد.

قالت "ناهد": كبدي يا أختي.

كنت قد لاحظت تعاطف تانت "فائزة" معها، لكن البنتين كانتا محايدتين. أفهم صعوبة تعامل مثلها معهما.

* * *

مرت عطلة أسرة "حلمي أمين" سريعاً كالمعتاد. أفقت ذات صباح على ضرورة ترتيب حفل وداع لهن. اتفقت مع "حلمي" على أن نقيمه في المكتب مساء.

قلت له : جحر ديب يساع ميت حبيب.

قال : لا مفر لدينا في الصباح يوم عمل طويل ومواعيد رسمية، و"أنهار" هاربة. حين تعود لي كلام آخر معها. هذا الخلط غير مقبول. نظرت إليه طويلاً دون أن أنطق.

قال: ماذا تريدين؟ قولي ما شئت. أنا أستمع.

قلت : لا شيء.

دخلت "داليا" مع "عبد الرحيم" ممتقعة الوجه. كانت قد اتفقت معنا على مساعدتها في البحث عن سكن مع عائلة مصرية. وكان موعدها مع الأسرة التي توسطنا لديها بالأمس، لكنها لم تأت. ووضعت "حلمي أمين" في حرج. فسرنا عدم حضورها بأنها حلت المشكلة مع جيرانها الذين تشكو منهم مرّ الشكوى.

سألتها تانت "فائزة": ماذا تشربين؟

قالت : شاياً.

قال عبد الرحيم : "داليا" واقعة في مشكلة مع البوليس.

قالت داليا : اعترض الجيران على زواري، وعلى إقامة الحفلات في البيت. تطاولوا عليّ واشتبكنا. تعددت الشكاوي من عدة جيران إلى الآداب، ويريدون أن

أترك البيت. وأنا كنت سأتركه لكني الآن مترددة فليس من حقهم أن يطردوني بتهمة مثل هذه.

قال "عبد الرحيم" : هذه ليست المرة الأولى. المشكلة أن هذا قد تكرر في بيت سابق. جاء البوليس في الثالثة صباحاً واصطحبها هي وزميلتها وحقق معهما في الشكوى.

"حلمي" : لكن أمر القبض عليك لا يكون بسبب مشكلة مع جيران.

قال "عبد الرحيم" : هي أمامك الآن ولا تقول شيئاً.

جاءت "ميرفت" بالشاي. قالت "داليا" : أريده بلبن. أنا لا أشرب الشاي سادة !

قلت : يا رايقة. - ضحكنا -.

قال "حلمي" : ماذا حدث بالضبط؟ لن أستطيع مساعدتك دون أن أعرف التفاصيل.

قالت "داليا": ادّعى الرجل بأننا نستقبل كويتيين وسعوديين وأنني أخرج من العاشرة مساء ولا أعود إلا في الثالثة صباحاً، ويأتيني الزوار في هذا الوقت قبل الفجر. لكن الضابط طمأننا بأن هناك آلاف القضايا بسبب أزمة السكن، وأن أصحاب البيوت يلجؤون إلى هذه البلاغات حتى تتحول إلى قضية طرد للسكان. ثم قال : نأسف لما حدث. ولكن الذي فعل ذلك هو واحد منكم، ولا نستطيع أن نفعل له شيئاً.

قلنا جميعاً في صوت واحد : هل يملك البيت مصري؟

قالت "داليا" : لا، لكننا أجّرنا جزء منه من الباطن. لأنه بيتاً كبيراً جداً.

قلت : لو كانت لدينا رابطة للمصريين لأدبناه وجازيناه. خمسة ملايين مصري. ولا نستطيع تكوين مجرد رابطة؟

قالت "داليا": خرجنا بعد أن اتصل عاطف بالشركة التي يعمل بها، واستعان بمحاميها الذي سيرفع دعوى رد شرف. ناقشت الضابط في قضية تحرير المرأة العراقية التي تختفي من الشارع في وقت مبكر جداً، في حين أن فتاة القاهرة تتمتع بحرية كبيرة.

تبادلت النظرات مع "حلمي أمين". قلت : هي ناقصة؟

قالت "داليا" : لكن الضابط رد عليّ بأنه زار القاهرة، واكتشف أن السيدات المصريات لا يوجدن في الشارع بعد السابعة مساءً.

قال "حلمي" : كتر خيره.

قالت "داليا" : نفيت له هذا بشدة.

سأل "حلمي" : وبعد. ماذا قررتم؟

قال "عبد الرحيم" : اجتمعنا في بيتي بالأمس، وقررنا أن نأتي إليك ربما تستطيع أن تحل المشكلة، وتتعهد هي بأن تعقل قليلاً.

التفتت "داليا" إلى "حلمي" وقالت : بالنسبة إلى السكن الجديد الذي كنت ستنقلني إليه أرجو ألا تخبر الأسرة التي سأعيش معها بما حدث.

قام "حلمي أمين" قائلاً : انتظروني سأعود حالاً. "نورا" تعالي معي.

ركضت وراءه،سمعته وهو ينزل درجات السلم يصب جام غضبه على جيلنا الفاسد، وتربية الاستهتار، وما يجره الطيش، وأنا صامتة لا أعرف إلى أين نذهب. وقفنا أمام بوابة العمارة نفكر؛ كيف سنتصرف في موضوع الأسرة التي طلبنا منها أن تفسح مكاناً لـ"داليا" لكي تسكن فيه؟ تشاورنا، وقررنا أنه من الظلم ألا نقول لهذه الأسرة ما حدث. ثم تفاجأ بدخول البوليس عليها ذات يوم، وتدخل في مشكلة لا ذنب لها فيها.

دخل "حلمي أمين" إلى السوبر ماركت ودخلت وراءه. اتصل بمحامٍ عراقي صديقه وشرح له الموقف، وأخرج ورقة وقلماً وكتب اسمه ورقم تليفون ثم وضع السماعة. وقفت خائفة من سؤاله عن سر انتظارنا. أعاد طلب نفس الرقم وقال : شكراً جزيلاً. سنذهب من فورنا.

استدار خارجاً من المحل، قال : أكملي ما بدأت تكتبينه، ثم اذهبي إلى بيتك وأنا سألغي مواعيدنا كلها وأتصرف مع هذه اللعوب، وإن كنت أتمنى أن تمشي من بغداد. بدلاً من نماذج محترمة تأتينا هذه؟ شاي بلبن. قال شاي بلبن. مطلوبة في قضية آداب، وتسأل عن اللبن.

ضحكت رغماً عني دون صوت خوفاً من انقلاب الموقف ضدي.

قال : اصعدي وارسليها مع "عبد الرحيم". أنا منتظر هنا.

تانت "فائزة" والبنات سألن : هل ستسجن فعلاً، أو ترحّل؟ ماذا فعلتما؟

ـ لا أعرف. أظن أن الأستاذ "حلمي" حدد موعداً مع محامٍ كبير، وإن كانت

المسألة، كما تقول، ستثبت براءتها. أما إذا كانت تحمل وراءها أسراراً لا نعرفها، فهذه مسألة أخرى.

قالت تانت "فائزة" يائسة : يعني هو "حلمي" ناقص مشاكل؟

أقمنا في المساء احتفالاً للعائلة بسبب عودتهم بعد يومين إلى القاهرة حضره عدد كبير من الأصدقاء. وصلت أنا و"حاتم". وجدت أن "داليا" ما زالت موجودة. كانت رابطة الجأش. فتصورت أن المشكلة قد انتهت على خير. حمدت الله، ولم أسألها. دخل "عبد الرحيم" و"سهيلة" وبعد قليل راحا يقنعانها باصطحابهما لها إلى البيت كي يحميانها من الجيران. اكتشفت أن ما تقوله "داليا" من أن المشكلة هي زوبعة في فنجان ليس هو رأي الجميع. تحدث المحام عن المحضر بإسهاب، ولم يكن ذلك في صالح "داليا"، وصورتها.

فاجأنا "فتح الله" و"مها" بقدومهما من الموصل من دون موعد سابق. فرحنا بهما كالمعتاد. كان "فتح الله" ينتظر الحكم في قضية سياسية، وصدر الحكم ببراءته، لكن نشر الحكم في الصحف أزعجه إذ ذُكر اسمه، وكان يخفي نشاطه السياسي في مصر عن زملائه العراقيين. قال: أريد أن أعيش حياة هادئة بسيطة أجمع فيها قدراً من المال لكي أؤجر شقة لـ"مها"؛ لأننا تزوجنا في شقة صغيرة، وبعيدة عن عملي. لا أريد أي نوع من النقاش السياسي هنا، ولا الدعوة لدخول الحزب. نشر الحكم في القضية كشفني. سألني واحد من زملائي المهندسين عنها فقلت له إن هذا مجرد تشابه في الأسماء.

قال "حلمي أمين" : لا يخجل الإنسان من العمل الوطني. اشتراكك في حركة طلابية تنادي بتحرير الأرض في سيناء واعتقالك بسبب نشاطك السياسي أمر طبيعي. ولك الحق فيما تفعله هنا. أنت في مهمة غير سياسية. ونعم ما فعلت.

كانت "مها" على عكس "داليا" و"راجية" تماما، أنموذجاً للفتاة اليسارية التي تفهم السياسة باعتبارها وسيلة كفاح نحو العدل، ونشر أفكار الإخاء. دراستها للهندسة هذبتها، وجعلتها صاحبة منطق. هذا ما كنت ألاحظه في "حاتم" وأصدقائه المهندسين. إنسانية مها دفعتني لمحاولة فهم "داليا" و"راجية".

استعرضت بغداد أمامي كل أنواع البنات. بعضهن نماذج لم ألتق مثلها في حياتي

من قبل. نماذج خشنة ومختلفة تحرشن بي بعد صدور كتابي الأول على الرغم من أنهن لا يعملن بالصحافة. الشيء الوحيد الذي أدهشني هو التحول الذي حصل لتانت "فائزة" في رحلتها الأخيرة هذه ؛ فقد كانت في زياراتها السابقة ترفض الخروج للزيارات، أو السفر إلى مدينة أخرى للترفيه، ولا تستجيب لدعواتنا إلا بإلحاح شديد. حتى أن "حلمي أمين" كان يذهب والبنات من دونها. لكنها حين اكتشفت مجموعة شباب اليسار هذه فتحت أبواب البيت، وراحت توثق الصلة بهم بشدة؛ على الرغم من فارق السن الكبير بينها وبينهم. لا أعرف أكانت "راجية" وراء هذا أم لا؟ لكني فرحت بانفتاحها الجديد على الناس.

انتهى الحفل. ودع الأصدقاء العائلة. إذ إن الأيام الباقية هي أيام عمل لا تسمح بمقابلتهم مرة أخرى. ومضت داليا إلى بيتها القديم دون أمل في الانتقال إلى بيت جديد الآن.

تعالى صوت غناء من زميلات رحلة قطار البصرة :

طالعة من بيت أبوها/ رايحة لبيت الجيران/ لابسة الأحمر والأزرق/

رحت أغني معهن: بعد ما سلم عليّ والحلو يا امي زعلان.

قالت "نجلاء": دمرت اللحن تماماً حرام، والله حرام/ فات ما سلم علي يمكن الحلو زعلان.

قلت: "أليست خارجة من بيت أبوها، رايحة بيت الجيران بتاعتنا؟

قالت ضاحكة : كلها أغانٍ عربية وكلمات عربية.

قلت: ليس تماماً قلبتوا البطيخ إلى ركي، والشمام إلى بطيخ، وهلم جرا. هذا يسولف ويتونس وخاشوكة بمعودة، وولك، ومن الكردي للفارسي للتركي للإنجليزي ياقلبي لا تحزن.

قالت منزعجة : أي إنجليزي؟

- كلاصات، وتنكجي.

- ما عندكم؟

- عندنا ميرسي وباص. لكن عندكم قندرة وأكو وماكو.

ضحكت "نجلاء" : بالله احكي آخر نكتة. لهجتنا أسهل بمعودة.

ضحكنا. سرى في عربة القطار صوت جميل يغني. وسرعان ما ارتفعت أصوات كثيرة تشاركه :

يا ويلي عيون السود ماجوزن أنا   لونك الخمري سحر لكلوبنا
واجفة بالباب تصرخ يا لطيف   ماني مجنونة ولا عقلي خفيف
من ورا التنور ناوشني الرغيف   يا رغيف الحلو يكفيني سنا

علت صافرة القطار متقطعة، ثم توقف تماماً عن الحركة. انتبهنا جميعاً إلى النوافذ. لا حركة. لا صوت. لا معلومات. قالت واحدة : ربما يمر قطار عسكري. لكن القطارات التي تحمل الجنود والمعدات الحربية تمشي ليلاً لا نهاراً.

قلت : ما الذي يجعل هذا التصور حقيقياً؟ لقد اعتمد الجنود المصريون على عبور القناة الساعة الثانية ظهراً حتى يفاجؤوا القوات الإسرائيلية في عز الظهر بدلاً من الضرب الليلي الذي يستعد له الجميع. ازداد الترقب داخل القطار، وقفت بعض الصحفيات في الممر، وغيرت البعض أماكنهن. أخرجت جهاز التسجيل من حقيبتي وبحثت عن منال الآلوسي ووجدتها :هل عندك وقت لحديث صغير؟

تنحّت رئيسة اتحاد المغرب عن مقعدها، وقالت ضاحكة : شغل طوال الوقت. لاحظي أنني أراقبك.

قالت "منال" : هذه "نورا" وردة. تتدلل عيني.

سألتها عن ظروف العراقيات الآن، والتراجع الذي تم في قوانين الأسرة التي هللنا لها في الوطن العربي حال صدورها.

قالت : الضرورة تقتضي أن نتعالى على مشاعرنا وأن ننجب للوطن الشباب لكي يدافعوا عنه، وزوجة الشهيد هي الأولى بالرعاية، والمجتمع يتأقلم مع ظروفه، والزواج من زوجة شهيد واجب وطني. الأفكار النبيلة دائماً غالية الثمن.

كانت تحفظ الأرقام عن ظهر قلب. سردتها بهدوء وحكت عن دور الاتحاد، وقالت إن الشعب العراقي كله متطوع للدفاع عن الوطن وبناء البلاد، وتشغيل المصانع والمزارع. وضحكت غامزة بعينها : يساعدنا المصريون، أليس كذلك؟

عدت إلى مقعدي، أتحسر على زمن صدرت فيه قوانين تحرم الزواج من امرأتين إلا لأسباب قهرية، وتعطي النساء حقوقاً أثارت جنون الرجال.

أخرجت من حقيبتي أدوات الأمومة وذهبت في رحلة يائسة إلى الحمام. لا أريد أن أمد يدي إلى ثديي لكن العروق النافرة أجبرتني على تفريغهما. انتهى المؤتمر، وتعودت على عملية التفريغ، وحافظت حتى الآن على إدرار اللبن في صدري. تعبت. احمدي الله. تعبت جداً. تذكرت السهولة التي يرضع بها "هيثم". تسللت البرودة إلى جسمي على الرغم من أنني جففت صدري جيداً بالمنشفة. احتجت إلى كوب شاي. شاي من "السماور". لم أصدق حين وجدت "نجلاء" تنتظرني به كأنها تعلم ما أنا بحاجة إليه. وزعت لفات[1] البرجر. الحل السحري العراقي الدائم. جلسنا نتناول الطعام ضاحكات. لا هو بالإفطار ولا هو بالغداء. Launch إنجليزي. تسميه حماتي "فقع الحماة" ؛ لأن الزوجة الشابة تهرب من العمل في المنزل بحجة الجوع في منتصف النهار قبل موعد الغداء. تحرك القطار. فتحت النوتة وكتبت بعض التعليقات البسيطة حتى لا أنساها. تذكرت صديقتي ناهد التي كانت تحرص على إطعامنا في كل رحلة، ونهرب منها قائلين :لو استسلمنا لك فسيذبحوننا على العيد.

تذكرت آخر مرة اجتمعنا فيها قبل أن تنقلب الأوضاع كلها. أظنه كان احتفالاً بعيد ميلاد "باسل" ابن "محمود راشد" و"سامية".

كنا قد توجهنا في الصباح إلى مكتب البريد المركزي لكي نرسل إلى مصر رسالتنا الصحفية الأسبوعية لمجلة الزهرة التي حافظنا على العلاقة العملية بها على الرغم من توقف المكتب رسمياً عن تمثيلها وتحوله إلى مكتب خاص. اشتريت من الشباك مجموعة طوابع.

قال "حلمي أمين" : كل هذه الطوابع؟ هل تراسلين مصر كلها؟

قلت: غداً الجمعة نكتب أنا و"حاتم" خطاباتنا للأهل والأصدقاء.

وجدنا في صندوقنا رسالة من تانت "فائزة" والبنات. جلس "حلمي أمين" فوق

---

[1] لفات : ساندوتشات .

الكنبة الخشبية ليقرأها. في الأخبار ما يسره. لم أسأل. انتظرت أن يخبرني. أحواله غريبة هذه الأيام. كل ساعة في "مود" مختلف.

قال : الحمد لله وصل التحويل وأنهت "فائزة" بعض المشكلات المالية، وهو ما يريحني لفترة.

قلت : الحمد لله. أريد أن أمرّ على معرض الأجهزة الدقيقة حتى أشتري أفلاماً للكاميرا.

قال : نخرج من الباب الثاني إذن. هيا.

ثلاث خطوات قطعتها من البوابة إلى الشارع وتوقفت وأنا لا أصدق ما أرى. "طارق مندور" يجلس أمام صندوق خشبي مقلوب يعرض فوقه علب سجائر بغداد وكبريت. طويل الشعر، غير حليق الذقن، يخرج قميصه من بنطلونه في إهمال. على وجهه آثار الإرهاق والسهر. قلت معاتبة : أنت هنا وأنا أبحث عنك في بغداد كلها. لقد تصورت أنك عدت إلى مصر. وكنت سأكتب لأمك غدا لأسألها.

قال: آسف يا "نورا". لم أحب أن تعرفي مكاني. انقلبت ظروفي تماما. انتقلت إلى فندق شديد الرداءة. أحاول بكل جهدي أن أجمع مبلغاً يكفي تذكرة الطائرة إلى مصر.

قلت: لماذا لم تأت إلى البيت أو إلى المكتب وتخبرني بما يجري لك؟

ـ هل أخبرك الأستاذ "حلمي"؟ رآني بالأمس. وطلبت منه ألا يخبرك. حاول أن يعطيني نقوداً فرفضت.

ـ لا. لم يخبرني. جئت إلى هنا بالصدفة. قم وتعالَ معي إلى البيت.

ـ آسف. لا أستطيع. يجب أن أنهي بيع هذا "الباكيت" حتى أعطي لصاحبها الثمن. في الغد أمر بك.

ـ خذ هذه النقود. ادفع الفندق وانتقل إلى بيتي.

ـ لا. معي ما يكفي. سأمر عليكِ غداً. سلمي لي على عم "حاتم".

عدنا إلى المكتب في انتظار أن يأتي "حاتم" ليصحبني مع "حلمي أمين" لنحتفل بعيد ميلاد "باسل". وصلت "أنهار". سألت "حلمي" متلهفة: هل وصلتك الرسالة؟

قال : نعم.

قلت : طار من الفرح بها. ألا تشاهدين الإشراق فوق وجهه.

انتظرت خروجي من غرفة المكتب لآتي بالشاي وسألته عما في الرسالة. سمعت جملاً مكتومة وملغمة بالقلق والغضب. أردت الهرب من المكان. لم تعد العلاقة بينهما هذه الأيام مريحة. تنعكس على المكان كله بالتوتر والتعاسة. ما جدوى هذا النوع من العلاقات التي تجرجرها الأيام خلفها؟ لماذا لا يتخذ قراراً بالاستمرار؟ بالزواج؟ بالطلاق؟ بقطع العلاقة أو بتطويرها؟ ما جدوى هذا التردد؟ ماذا أفعل الآن؟ أغني وأنا أعبر الصالة حتى يسمعا صوتي

يا تاكسي الغرام يا مقرب البعيد يا سابق الحمام والسكة الحديد

لا لك جناحين ولا موتوريـــنيا تاكسي الغرام يا تاكسي الغرام

- الشاي. أريد أن أنزل الآن لشراء التورتة من كرادة مريم حتى لا نتعطل في الطريق. من هنا إلى الوزيرية أقصر كثيراً.

خرجت إلى الشارع. مشيت في "السعدون". أحببت أن أرى واجهات المحلات بعد الظهر.

للعصر مذاق آخر أكثر رحابة من الصباح المتعجل والليل البطيء. هو مركز اليوم وقلبه العاطفي المفعم بالسعادة. لماذا لم ألاحظ ذلك قبل الآن؟ أحب "محمود راشد" و"سامية". ربما يكونا أكثر ثنائي قابلته احتراماً وقرباً مني. يعاني "محمود" من مشكلات في عينيه تستدعي إجراء جراحات كثيرة؛ يفضل أن يجريها في مصر على الرغم من تطورها في الفترة الأخيرة هنا في مدينة الطب.

دخلنا إلى البيت ودخل وراءنا "عادل" و"ناهد" وبناتهما الثلاث. تحلقنا حول الشمع وأطلقنا ضجة محببة هنأنا فيها أبا الفصاد ثم انصرف الأولاد للعب في الحديقة، وذهب "محمود" إلى مكتبته وأخرج كتاباً جديداً لـ"تشومسكي" كان قد غلفه بورق مفضض أصفر.

قال ضاحكاً: أفعل هذا مع كل كتبي السياسية حتى لا ألفت النظر، وإذا سألني أحد الزملاء أدعي اسم أي رواية.

ضحكنا. قال "حلمي أمين" : اسألوا "نورا" عن قصتها مع خريف البطريق.

قلت : كنت أمشي في شارع السعدون، ورشح لي أحد أصحاب المكتبات رواية

لكاتب من كولومبيا اسمه "جبرييل جارسيا ماركيز"، قلبتها في يدي، ونظراً إلى أني لم أسمع بالكاتب من قبل فقد شكرته وأعدتها إلى "الفرشة"[١] ومضيت. في الليل وصلني خبر مصادرتها فعدت في الصباح إلى المكتبة لكن الرجل اعتذر لأن البوليس قد جمع كل النسخ الموجودة. قلت له: حاول. أنا مصرية ولا تسري عليّ قوانين المنع وقرارات المصادرة. ضحك وقال : لا أستطيع. مررت بكل المكتبات التي أعرفها، حتى مكتبات الشيوعيين، فلم أجد نسخة واحدة. ثم حصل لي عليها الأستاذ حلمي من أحد أصحابه سراً بالطبع. وهي رواية جميلة، ووظف أساطير أمريكا اللاتينية ليسخر من الديكتاتورية.

قال "عادل" : ما الذي يستدعي المصادرة؟

قلت: هم لا يعترفون هنا بأن نظامهم ديكتاتوري. وكان الأجدى أن يتركوها في الشارع حتى يعرف الناس أن كل أنظمة العالم الثالث تستنسخ نفسها.

قال "حلمي": يتصور الديكتاتور دائماً أن له الحق في كل ما يفعل، وأنه محاط بالأسرار، ولن تتسرب المعلومة حتى للذين يطبق عليهم استبداده.

تعالت ضحكاتنا. قالت ناهد : افتكروا لنا حاجة عدلة النهارده عيد ميلاد.

قالت "سامية" : خير اللهم اجعله خيرا. متى تسافرين يا نورا؟ قال لي "حاتم" إن الطبيب قد وافق على حضور ابنك "ياسر" أخيراً إلى بغداد.

قلت : أول الصيف، حتى أقضي و"حاتم" إجازة طويلة يعتاد فيها "ياسر" علينا. لا أريد أن أسبب له شرخاً نفسياً وأحرمه فجأة من جده وجدته من دون أن يعرفنا جيداً.

* * *

لم يأت "طارق" إلى بيتي. بحثت عنه في كل بغداد دون جدوى حتى وجدته يتصل بي من السليمانية. سافر ليعمل مع أحد المقاولين. ثم تركه بعد فترة، إلى كازينو سياحي واستقر.

---

١ الفرشة : العرض .

بعد الغداء انقلبت عربات القطار إلى أغان ورقص ورحلت معها ساعات النهار التي كانت قبل الغناء بطيئة ومتثاقلة. تجمعت معظم النساء في العربة التي أجلس بها. قامت سيدة مغربية ترقص في ممر القطار مع دقات الفلنكات. تعالت الصيحات. أخبرتني الزميلات المغربيات أنهن اعتدن أن يحيين ضيوفهن بالرقص. خجلت المصريات، وأعلنّ أنهن راسبات في الفن؛ ربما دفاعاً عن سمعة المرأة المصرية التي يقول لنا عنها العرب إنها تمتلك بدلة رقص شرقي تخرجها ليلاً لزوجها "وهات يا رقص". ابتسمت وأنا أتذكر مقال "حلمي أمين": العرب ونساء مصر. رد فيه على فكرة أن النساء المصريات ينتظرن الرجال العرب في مطار القاهرة، ويقلن : "شبيك لبيك أنا ملك إيديك". تذكرت مراهقة الشباب العربي على نجمات السينما المصرية، وتصوراتهم الساذجة عن أن وراء كل باب في مصر"سعاد حسني ونجلاء فتحي" وربما"هند رستم"، وطبعاً "عبد الحليم حافظ" ؛ حتى لا ننسى هوس البنات به. عصابات حشيش ومسدسات "فؤاد المهندس" "أشجع رجل في العالم"، وضربات "فريد شوقي". تقدمت "عواطف والي" وحركت رقبتها يميناً وشمالاً وهي تصنع قوساً بيدها فوق الرأس. وانهالت الضحكات. قالت "عزيزة حسين": تحيا مصر. علت أصوات الزغاريد والأهازيج العراقية الصاخبة جداً. وتعالت ضربات الكفوف وظهرت طبلة عراقية لم نعرف من أين أتت فجأة. قامت الفتيات الأجنبيات بالاهتزاز في إيقاع غربي غير متجانس، لكنه جميل، وشكلت العراقيات دبكة في الممر، ترنحن بشعورهن الطويلة وأجسادهن الفارعة. هززن الأكتاف علواً وانخفاضاً ونسين آلامهن. تخيلت أن كلاً منهن تخفي الحبيب الرابض على الجبهة أو الأخ المفقود. تجمعت المرارة في حلقي وأنا أشعر بسرسوب اللبن يتقاطر خفيفاً في صدري. مددت يدي تلقائياً بالكلينكس[1]. بدأت أشم رائحة تخثر اللبن. قطعاً سأجد علبة زبادي.

سألتني "لطفية" التي فهمت القصة دون أن أخبرها بشيء : صدرك مرة ثانية.

قلت : أظن أنني سأعطيك قطعة جبن حين نصل إلى البصرة.

انفجرنا ضاحكتين. قالت: أريد "هوايا قيمر"[2].

---

١ كلينكس : منديل ورقي .

٢ هوايا قيمر : كثيرا من القشدة .

قمت أخترق الحشود الراقصة التي تغني في طريقي إلى الحمام. أغلقت النافذة المكسورة بصعوبة شديدة. لم تزعجني في النهار، لكن هروب الشمس أشعرني بالبرودة. ودفء صدري جعلني أشعر بصهد لا يحتمل لفحة الهواء في الصحراء. نظرت من النافذة إلى الطريق الفارغ تماماً إلا من أذيال حمراء وسحب أرجوانية، أزحت أوراق المناديل التي تكدست في السوتيان. كم كنت أحب رحلاتي خارج بغداد. "اللي ما شاف البصرة مات بحسرة". تذكرت الشناشيل. خشب النوافذ الذي أبدعه الفنان العربي وحوله إلى قطعة من الدانتيل تخفي وجوه الحبيبات عن أعين المتلصصين في الخارج، وتسمح للنساء بالتطلع من خلفها إلى الشارع مثل المشربيات في مصر. حاولت أن أكمل بخيالي ما رأيته من قبل. بيوت الشعر المتناثرة والبدويات الجالسات أمام مغازلهن وأنوال السجاد، والإبل التي ترعى عن بعد، ونباتات السافانا التي ترتفع حول النهر مثل رماح مشرعة وأنا أصرخ حنقا: الأرض حمراء والماء موجود ولا يد تزرع أو تحصد. ما بال هؤلاء الناس. أين الفلاح المصري؟ هذه أرضنا. أرضنا.

لاحظت عن بعد مجموعة من الجمال تسير في طابور طويل وهي تلوك الطعام. وصبي يمشي وحيداً وراءها، فلما اقترب القطار أكثر وجدت حماراً يسير أمامه. مشهد غير مألوف هنا في العراق. تذكرت يوم دخلت إلى قرية الخالصة ووجدت بها عدداً من الحمير. ابتسمت.

قلت لعم "أحمد وادي" : الحمير ظهرت يا جدعان.

قالت المشرفة الزراعية ضاحكة : الفلاحون المصريون يطعمون الحمير العلك ويسقونهم البارد (تقصد اللبان والمشروبات الغازية).

ضحك الجميع. تحلق الأطفال حولنا سعداء بصديقهم القديم. امتطى كل منهم حماراً كبير الحجم يشبه البغل، وراحوا يتسابقون في الركض بها.

قلت : ما الحكاية؟

قالوا في صوت واحد : الحمار بدينار يا أبلة.

قلت غير مصدقة : دينار واحد؟

قال عم "أحمد": نعم. الحمير هنا هائمة في الصحراء لا تباع، ولا تجد من يطعمها.

ابتسم المهندسون، وقالت المهندسة "شذا": لا يهتم الفلاح العراقي بالحمار. يفضل التيوتا.

قلت : أنتم لا تعرفون معزّة الحمار عندنا. الحمار هو الكائن الصبور الوحيد الذي احتمل مع فلاحنا مصائب الدهر وظلم الدنيا.

قال "حلمي أمين" : أهه حصله حتى العراق جاء وراءه يا ستي.

قلت : أتعلمون أن لدينا جمعية لمناصرة الحمار : أتذكرون حمار الحكيم؟

ضحكوا. قالوا : لا.

قال "حلمي أمين": طبعاً. لكن هذا كلام مثقفين.

شعرت براحة وخدر لذيذ بعد أن أفرغت ثديي. أستطيع الذهاب إلى عربة أخرى بدلاً من عربتي الصاخبة لأنام. لكني لم أكن قط من القادرات على اتخاذ مثل هذا القرار في البعد عن الناس، حتى للراحة. أستنفد طاقتي، ثم أقع فجأة. هكذا أخذتني قدماي إلى مكاني. اختلفت الحركة. يوزعون ساندوتشات وزجاجات مياه غازية وفاكهة. انسحبت كل واحدة إلى مكانها، وانفرط عقد المرح، وخيم هدوء تقطعه أصوات هامسة تحولت مقاعد القطار إلى جزر منعزلة. وصلت إلى سمعي كلمات عن تأخر في ساعات الوصول بسبب القطارات العسكرية. توقف القطار، حاولت واحدة فتح النافذة بجوارها. صدرت لها أوامر بإغلاقها. ثم أطفأ القطار أنواره الداخلية، وساد الصمت. رحت أتأمل زميلاتي الغافيات الغارقات في نوم عميق. وأنقل عينيّ بينهن وبين البنات العراقيات المنتبهات لنا، واللاتي يعلمن أكثر مما يعلنّ، وأتصور صعوبة المهمة الملقاة عليهن. تأملت معنى ذهابنا إلى خطوط إطلاق النار وما يعني إقامة نشاط صاخب هناك في لحظة حرب، وسألت نفسي : هل آلية الدعاية مهمة إلى هذه الدرجة؟ وما نوع الاستفادة منها بالضبط؟

سمعت "ليلى" تنادي: "زبيدة". يا "زبيدة". هنا.

التفتت نحوها. رأيت فتاة عراقية رائعة الجمال تحمل زجاجات مياه، وتمر بها، و"ليلى" تنبهها إلى سيدة هندية ترغب في الشرب. تذكرت "زبيدة" وابتسمت.

كنت قد ذهبت إلى المكتب وفي نيتي عرض مجموعة اقتراحات لتحقيقات صحفية. قلت لحلمي أمين : أريد أن أبحث عن قبر "زبيدة" زوجة هارون الرشيد، وكذلك قبر الحلاج.

ابتسم، ووقع الأوراق. عرفت أن القبر يقع في منطقة الكرخ. يقسم نهر دجلة بغداد إلى منطقتين : الرصافة والكرخ. فاجأني "حلمي أمين" برغبته في الذهاب معي لزيارة قبر "زبيدة"، وأهداني كتاباً عن فترة حكم العباسيين. لاح لنا عن بعد قبر مختلف التصميم على شكل برج حمام. توقف التاكسي أمام الباب، وانتظرنا. أشارت لوحة فوق البناء الأبيض المطعم بفسيفساء فيروزية إلى أنه قبر "زمرد خاتون". أين قبر زبيدة؟ لا أحد يعرف. تجولنا في المكان قليلاً، وحصلنا على بعض المعلومات من الناس الذين أصروا على أن هذا هو قبر زبيدة زوجة الرشيد. ترددت في الأيام التالية على وزارة السياحة والإعلام ومصلحة الآثار، ورحت أقرأ ما كتبه المؤرخون عن "زبيدة" ؛ هذه الشخصية الجميلة الغامضة التي أسماها جدها "أبو جعفر المنصور" مؤسس بغداد، "زبيدة" ؛ لبضاضة جسمها وشدة بياضه. ثم عدت إلى ألف ليلة وليلة ؛ لكي أرسم صورتها في المخيلة الشعبية. كان "حلمي أمين" يضيف كل يوم إلى عملي خطوة جديدة، وكنت أستجيب سعيدة وأعود إليه في اليوم التالي بمعلومات جديدة، فيشير إلى احتياجي لغيره. في عصر أحد الأيام وأنا عائدة إلى بيتي سمعت أطفال الجيران وهم يلعبون بجوار السور ويغنون :

كاش كيش سافران الست زبيدة ران

لم أفهم المعنى لكني علمت أن "زبيدة" مازالت موجودة على الرغم من مرور كل هذه السنوات على اندثار الحكم العباسي، ولابد أن يكون هناك سبب لذلك.

كتبت مقالي بحب شديد. ودخلت المكتب أحمله بفخر. وجدت رسوما جميلة في ملف فوق مكتبي وجاء "حلمي أمين" باسماً: تفضلي يا ستي رسوم موضوعك. اسكتشات بالقلم الرصاص رائعة الجمال للبناء الذي زرناه : قبر زمرد خاتون، موقعة باسم "ضياء العزاوي"، وهو رسام عراقي يتردد علينا.

صرخت من الفرحة: متى حدث هذا ؟

قال ضاحكاً: ذهبت معه إلى القبر مرة أخرى بعد الظهر، وتركته يعمل بطريقته،

وها هو موضوعك جاهز للإرسال. الرسوم تناسب طبيعة مجلة الزهرة أكثر وتتماشى مع مدرستها الصحفية، وتدخل عنصراً عراقياً في العمل. لابد أن نتميز يا "نورا" عن المجلات والصحف الأخرى، وإلا فما فائدة العراقة؟ أليس كذلك؟

لم أستطع أن أمطره بقبلاتي. خفت. شددت فوق يده. شكراً يا أجمل "حلمي أمين".

قام باسماً والسيجارة في فمه لا يخرجها، على الرغم من تحول جزء منها إلى رماد. قرأ العنوان : "الست زبيدة في برج حمام": ماشي يا سيدتي. انجحي أنت، وناكل من بيتنا. أرسليه

توقف القطار في مدينة العمارة. نددت اللافتات المعلقة على جدران المحطة بالفرس، وأسمتهم المجوس عبدة النار. قرأنا في ضوء خافت ما يحث الهمة العراقية على ما سمي بحروب اجتثاث العرق العربي. تذكرت "أنهار"، وحديثها عن الأهوار وكتاب الجبايش الذي أهدته لي حين أردت أن أعرف المزيد.

تذكرت البلم[1] الرفيع، والشحاط[2] الذي تقوده الفلاحات بين الأعشاب والقصب، والجزر المبنية فوقها بيوتهن، وحياتهن الصعبة.

سألت أمل الشرقي مدير تحرير مجلة المرأة ذات يوم : العمل يحرر الإنسان؛ لأنه يستقل اقتصادياً، والفلاحة العراقية، تعمل ليل نهار، وزوجها تقريباً عاطل. لماذا لم يحررها العمل؟

قالت : لأنها قن.

عادت بي ذاكرتي إلى تلك الليلة التي احتفلنا فيها بنجاة "سهيلة باذرجان من تطبيق قرار ترحيل العراقيين من ذوي الأصول الإيرانية. دعانا "حلمي أمين" إلى بيته وحين دخلت "سهيلة" ووراءها "عبد الرحيم"؛ غنت "سوسن":سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة.

---

١ البلم : قارب صغير .

٢ الشحاط : قارب أكبر .

قال "عبد الرحيم": الحمد لله "ما روحناش".

أمسك "عاطف" بالعود وراح يدندن. حسدوني وباين في عينيهم.

قالت "مها" : ستقلبونها "عبد الوهاب" ثم "سيد درويش": يا خارجة من باب الحمام وكل خد عليه خوخة.

رصت "أنهار" أكواب العصير والفاكهة فوق المكتب وقالت : ما سوف أقوله لكم هو أحد الأسرار العائلية : أخي "عبد الرزاق" يعمل في شركة تأمين. نشأت بينه وبين زميلته ابنة أحد كبار التجار من ذوات التبعية الإيرانية قصة حب جميلة "هوايا"[1] وقرر أخي أن يتزوجها. تعرفون عبد الرزاق هو أخي الوحيد الذي جاء بعد طول عناء. لكن أبي طلب منه أن تطول فترة التعارف قبل إعلان الخطبة بسبب الغنى الفاحش لعائلة "شيرين". وقبل أن أكمل لكم بقية القصة يجب أن تعلموا أن التهجير الذي حدث للعراقيين من ذوي التبعية الإيرانية لم يكن هو التهجير الأول في زمن البعث. بل التهجير الثاني. الأول كان عام ٧٠ و٧١ وكانت الضربة موجهة لكبار التجار كما حدث الآن.

قالت "سوسن": لكبار التجار؟ تصورت أنها مسألة سياسية بسبب حزب الدعوة.

قالت: هي مسألة معقدة جداً، وفيها تفاصيل كثيرة : في عام ١٩٥١ هاجر اليهود العراقيون إلى فلسطين، وكانوا يسيطرون على "البازار" في ذلك الوقت.

قالت مها : ما معنى كلمة "البازار"؟

قالت "أنهار" : السوق. وكان المسيطر الثاني عليه الشيعة العرب والإيرانيين معاً. وكانوا من القوة والنفوذ بحيث يستطيعون إسقاط أو دعم الحكومات. فلما هاجر اليهود أخذ الصف الثاني من التجار مكانهم، وظلوا مسيطرين على السوق من عام ١٩٥١ وحتى عام ١٩٧١ . وشهدت هذه الفترة عدة انقلابات عسكرية في ١٩٥٨ "عبد الكريم قاسم" على الحكم الملكي. وفي ١٩٥٩ الضباط القوميين على "عبد الكريم قاسم" في محاولة انقلاب "الشواف"، و"رفعت الحاج سري"، وفي فبراير ١٩٦٣ انقلاب البعث الأول، وفي سبتمبر انقلاب القوميين على البعثيين بقيادة "عبد السلام

---

١ هوايا : كثيرًا .

عارف"، وفي ١٩٦٥ انقلاب القوميين على القوميين، وفي ١٩٦٧ الانقلاب الثاني للجنرال عارف عبد الرزاق على حكومة عبد الرحمن عارف، ثم أخيرا في عام ١٩٧٠ المحاولة الفاشلة للجنرال "عبد الغني الراوي". أي ثمانية انقلابات عسكرية في اثنتي عشرة سنة.

قلت : وما علاقة التجار بهذه الانقلابات؟

قالت سوسن: "نورا". اتركيها تحكي.

قالت "أنهار" : بطريقة ما، وبمباركة أو دعم الشاه حدث أن "عبد الغني الراوي" على الرغم من أنه سُني ومن التيار السياسي الإسلامي، كان يبحث عن دعم. فنسق مع المخابرات الإيرانية. لهذا عندما تم القبض على مجموعته وهرب هو، حدث التهجير الأول، ولكنه كان تهجيراً محدوداً جداً.

ناولت"أنهار" كوباً من اللبن المختر وقلت ضاحكة : "مش خسارة فيك".

قالت : في أثناء ضرب التيار السياسي الإسلامي عام ١٩٧٧ كانت للتجار الشيعة علاقات قوية مع المؤسسة الدينية "الكلاسيكية"، وكانت الحوزة مع رجل الدين؛ لأن رجل الدين الشيعي لا يتعامل مع الحكومة.

قلت : هل أنا الوحيدة التي لا تفهم هنا؟ ما معنى الحوزة؟ ورجل الدين الشيعي لا يتعامل مع الحكومة. هل تعني أن رجل الدين السني يتعامل مع الحكومة؟

ضحكوا. قال عبد الرحيم وحلمي أمين و"حاتم" في صوت واحد : نحن أيضاً لم نفهم.

قالت "أنهار": رجل الدين السني موظف في وزارة الأوقاف. يأخذ راتباً شهرياً. رجل الدين الشيعي يأخذ الخمس من الزكاة. الناس تدفع الحقوق الشرعية المثلة بالزكاة والخمس. أى خُمس الأرباح : عشرين بالمائة من الربح. مع مليونير أو تاجر ثقيل يكون هذا الخُمس مبلغاً مهولاً. وهؤلاء التجار مرتبطون برجال الدين بطريقة ما ويؤدون الحقوق الشرعية.

قلت : يا رحمن يا رحيم أنا مسلمة. ما الحقوق الشرعية؟ هل تعرفها يا أستاذ "حلمي". أنت يا "سوسن"؟ طبعاً لا. لأنك سمراء من قوم عيسى. من أباح لها قتل امرئ مسلم قاسى بها ولها*.

---

* موال عراقي يغنيه ناظم الغزالي .

قالت "سوسن" ضاحكة : والنبي أفهم أكثر منك.

قال "حلمي" : طبعاً أعرفها. أكملي يا "أنهار".

هز كل من "حاتم" و"فتح الله" و"عاطف" رأسه.

قالت "أنهار": الحقوق الشرعية هذه أكثر قيمة من الزكاة، وقد جاء حكمها من الآية : "وما غنمتموه فلله ورسوله خُمس ما غنمتم" صدق الله العظيم. وكان المسلمون يدفعونها إلى بيت المال. فلما مات الرسول -عليه الصلاة والسلام- اعتبرت بعض المذاهب أن هذه الحقوق قد انتهت. في حين اعترفت بها مذاهب أخرى. واعتبر المذهب الشيعي أن الرسول قد مات، لكن أولاده وأحفاده موجودون وقائمون على التصرف في هذا الحق. هذا هو الرابط القوي بين التجار الشيعة وبين المؤسسة الدينية ؛ لأنهم يدفعون لها مبلغاً كبيراً من المال. ولهذا فإن موقفهم القوي يجعل الحكومات تخشاهم وتعمل لهم ألف حساب.

بعد وقوع المشكلات مع إيران أرسلت غرفة تجارة بغداد إلى حوالي مائة تاجر من كبار "التايكونات"، وكلهم من التبعية الإيرانية دعوة للقاء مهم مع السيد الرئيس.

سألت "مها" : ما معنى "تايكونات" يا "أنهار" وجعت قلبي؟

ضحكت "أنهار" : الخراتيت الكبيرة. القطط السمان التي تكتبون عنها في الزهرة.

قلت : حيتان التجارة.

قالت : نعم يا ست "نورا". ذهبوا بالفعل دون أن يعرفوا سر الاجتماع، ولماذا؟

قلت صارخة : "اوعى" تكون مذبحة القلعة ومحمد علي؟

قالت : تمام. أغلقوا عليهم الأبواب وجاءت* "باصات" أصعدوا إليها بالأمر وأخذتهم إلى طائرة متجهة إلى طهران، وقالوا لهم : السلطات العراقية تعتبركم أناساً غير مرغوب فيكم. ستتبعكم عائلاتكم خلال أيام. وصادروا أموالهم وأملاكهم. وقامت المخابرات العراقية بعمل "كبسة" على كل بيوتهم في نفس الوقت وأبلغوا العائلات أن أمامهم ست ساعات فقط لكي يجمعوا حقائبهم وملابسهم، ووضعوهم في سيارات تحت

---

* عربات

الحراسة المشددة، خرجت بهم إلى الحدود العراقية الإيرانية البرية. وتم هذا بسرعة وفي وقت واحد حتى لا يستطيع أي منهم أن يخرج أمواله من البنوك، أو يتصرف بها بأي شكل من الأشكال.

قال "حلمي أمين" : وصلتني إشاعات عن بعض هذه التفاصيل، لكن ظلت غير محققة. وهذه غلطتك يا "أنهار". لم أعرف أن المسألة بهذا العمق والحجم. ولكننا نعلم أن المسألة لم تتوقف عند المائة أو المائة والعشرين تاجراً كبيراً، لكنها امتدت بعد ذلك إلى الناس العاديين.

قالت "أنهار" : نعم. بدأوا بالقطط السمان، ثم تبعهم المستوى الأدنى، وهكذا.

قالت "سهيلة" وقد احمر وجهها، وظهر ندى في عينيها : حتى وصلوا إلى الفقراء.

قال "فتح الله" : ماذا حدث مع أخيك وخطيبته يا "أنهار"؟

قالت "مها" : أريد أن أفهم أولاً قصة التبعيات.

قالت "أنهار" : هذا موال طويل في حكاية الشيعة في العراق. لم يكن الشيعة في أثناء حكم الدولة العثمانية يعتبرون أنفسهم من رعايا الدولة العثمانية، بسبب الاختلاف المذهبي. ولهذا فإن كثيراً من العوائل العربية كانوا يسجلون على أنهم إيرانيون، حتى لا يجندوا في الجيش العثماني. المفروض أن كل العراقيين تبعية عثمانية. وهذا ما تقرره هوية الأب وجنسيته الأصلية. أما إذا كان من رعوية جنسية أخرى فلا يعتبر عراقياً، ولا يأخذ شهادة الجنسية العراقية؛ وهي الوثيقة الأهم في العراق.

ما حدث مع أخي ؛ وقبل عقد قرانه بأيام ؛ أن خطيبته اتصلت به وقالت له : تعالَ إلى بيتي حالاً. وهناك وجد أباها وإخوتها في حالة فزع شديد، والبيت في حالة هرج.

قالت لأخي : أمهلونا ست ساعات لكي نخرج من العراق. وأريد منك أن تأخذ هذه العلبة الصفيح وفيها كل مجوهرات العائلة،وما استطعنا تدبيره من أموالنا السائلة سوف أتركها أمانة عندك حتى نستقر في مكان نعيش فيه. لأننا سنذهب إلى إيران أولاً. ومنها غالباً إلى باريس أو بيروت. حسب ظروف عمل أبي وإخوتي.

ارتبك "عبد الرزاق" بشدة وقال : لماذا لا تتركين هذه الأمانة عند واحد من أزواج إخوتك البنات. بعضهم عراقي من رعوية عثمانية.

- لا أثق إلا فيك.

فكر "عبد الرزاق" قليلاً،ثم قال : أعتذر يا" شيرين". لا أستطيع أن أضمن بقاء هذه الأموال عندي. قد يأتي الأمن العراقي ويأخذها عنوة. ماذا يكون موقفي أمامك وأمام إخوتك؟ وإذا لم يصدقني والدك أو أحد من عائلتك ماذا أفعل؟ وقد يصادرها الأمن، ثم ينكر الضابط ما حدث بعد ذلك. آسف. لا أستطيع. أريدك أنت من دون مالك أو مجوهرات العائلة.

بكت. قالت : سيستولي عليها الضباط والعسكر. أرجوك ساعدنا. فربما لا يعرف أحد بأمرها. فقد وضعتها في علبة "دهن" وتستطيع أن تخبئها في أي مكان. فإذا مر الموضوع فقد حفظت أموالنا. وإذا استولوا عليها فقد حاولنا. وهم سيستولون عليها الآن في جميع الأحوال. أمر المغادرة لا يسمح إلا باحتياجات الطريق فحسب.

قال "عبد الرزاق" : آسف. الناس تضيع لأسباب أتفه من هذا بكثير. وأرجو أن تقدري موقفي، وسوف نلتقي في بيروت بعد أن تهدأ الأمور إن شاء الله.

فتحت العلبة وأخذت مصحفا في سلسلة، وخاتماً، وألبستهما له. عاد "عبد الرزاق" إلى بيته يائساً، وبالطبع لم يلتقوا حتى الآن، ولا يعرف أكانوا سيلتقون بالفعل أم لا. والد "شيرين" هو أكبر تاجر فواكه في العراق، ويمتلك عدة شركات للتصدير والاستيراد، وقد أنقذ من عملية الترحيل مع كبار التجار ؛ لأنه كان مريضاً في ذلك اليوم، وكان إخوة "شيرين" الأكبر في بيروت وما زالوا فلم يذهب أي منهم إلى الاجتماع.

خيم علينا جميعا حزن شديد. تراجيديا الحب والكراهية التي يعيشها العراق باستمرار. لماذا يضيق هذه البلد بأهله؟ لماذا ؟همست "سوسن":

"إنجي" و"حسن أبو علي" في رد قلبي.

ضربتها "مها" فوق فخذها. قمت لأحضر الشاي في "السماور" وأكسر حلقة الحزن التي خيمت علينا. وصلتني بعد قليل ضحكات عالية. قلت: الحمد لله. سألتهم: ما الذي يضحككم هكذا. أشركوني.

رأيت الدموع في عيني "أنهار" على الرغم من وجهها الباسم. قالت "سهيلة" : لابد أن تحكيها "أنهار". لن يستطيع أي منا أن يعيدها مثلما فعلت.

قالت "أنهار" : استمر التهجير حسب الأهمية حتى وصل الأمر إلى الشكاوي الكيدية، معظم الشحاذين كانوا إما إيرانيين وإما هنوداً خاصة في المراقد. سيدة مسنة مات زوجها استأجرت ملحقاً في بيت عمي وهو رجل طاعن في السن يعيش وحيداً مع زوجته بعد أن زوج أولاده. وكانت العلاقة بينهما وبين "العجمية" علاقة شديدة الحميمية ؛ فهي تسأل عنهما كل يوم حتى تحولت مع الوقت إلى واحدة من العائلة خاصة وأنه لم يكن لها أولاد. فجأة قبضوا عليها ووضعوها في اللوري العسكري وقالوا لها : حقيبة وبطانية، وإبريق حمام. خافت العجوز، وأصيبت برعب، وإسهال شديد. ولم يستطع عمي وزوجته تقديم أي مساعدة لها. حاول" كاظم" أن يترجاهم ليتركوها فنهروه بشدة. مع عنف العسكر صعدت إلى السيارة وهي تبكي. وطوال الطريق يرفض السائق أن يتوقف لكي تذهب إلى مرحاض. والإسهال مستمر ولا تستطيع التحكم به حتى ضاق الركاب بمن فيهم العسكر برائحتها، وقال أحدهم : ما الذي ستغيره هذه الأعجمية إذا بقيت في العراق أو رحلت عنها ؟ وأمر السائق بالتوقف والتخلص منها.

وقفت "أنهار" تقلد العسكري وتقول بصوت عال:روحي.. روحي. ولج. قرفنا منك.

فوجئ عمي وزوجته بوصولها إلى البيت بعد أيام في حالة مزرية.

أدرك الجميع المأساة. أمسك "عاطف" بالعود وراح يغني : حسدوني وباين في عنيهم.

قالت "سوسن" : هي طالعة عليك النهاردة. غيّر. غني: الطشت قاللي يا حلوة ياللي قومي استحمي.

* * *

أعطتني "نجلاء" موزة طويلة. قلت : أكل أكل ستذبحوننا على العيد.

قالت : أنا متأكدة من إنكِ جوعانة.

وضعت يدها فوق فمها لكي تخفي الكلمات : أنت مرضعة وتحتاجين طعاماً.

لم يلتقِ "عبد الرزاق". بخطيبته مطلقاً بعد أن انقطعت الصلة بينهما بالحرب.
تذكرت "أنهار" وأنا أسألها ذات يوم بعد شهور: هل توقف تهجير العراقيين من ذوي التبعية الإيرانية.

قالت : نعم. نصح بعض المقربين "صدام" قائلاً: لماذا تهدي إيران جيشا من الشباب الغاضب بسبب إبعاده عنوة من العراق، وهم يعرفون كل جزء فيه ويمكن أن يعودوا كجواسيس أو ينفذوا عمليات إرهابية دون أن يشك فيهم أحد. أمر أن تُهجر البنات وكبار السن، ويعتقل الشباب في سجن أبي "غريب"، وحسب ما فهمت هناك آلاف الشباب من الثامنة عشرة وحتى الخامسة والأربعين في المعتقل الآن. والمصيبة بعد وقوع الحرب أصبح من المستحيل خروجهم. لا أحد يملك الحقيقة حتى يقولها لك.

التفتُ ورائي وأنا أسمع غناء قادماً من إحدى البنات :

شوية شوي يا شميسة يا شميسة شوية شوية

التقطت العراقيات الخيط ورحن يكملن الأغنية. حاولت التوازن بين أفكاري والغناء الصاخب الذي راح يعلو ليشمل العربة كلها.

مر طير الصبحية وسلم أهلاً أهلاً بيك
جاللي صباح الخير وسلم أهلاً أهلاً بيك
رفرف بجناحه وغنى لي فك باب الغيم وضوي لي
وصلني لبيتي وقدم لي مهرة وثوبين وجفية[1]
كاللي مبارك. ألف مبارك يا حرية

سقطت دموعي. أين هذه الحرية، يا "أنهار" يا "عبد الرزاق" يا "شيرين" يا"سهيلة" يا "نجلاء"؟ يا. يا.لماذا كانت الصورة مختلفة حين كنت أعيش بينهم؟ لماذا كنت و"حاتم" نعتبر أن العراق يزدهر وكنا فرحين بما حدث؟ لماذا كنا نحب "صدام" مع الناس؟ يا إلهي.

---

١ جفية : منديل .

توقف القطار في محطة الناصرية. اقتربنا كثيرا من البصرة. هل يوفي "بسيوني" بوعده ويأتي إلى موعدنا في الفندق؟ تذكرته بوجهه الطفولي وحماسته الزائدة، وخفة دمه، التي تنقلب إلى غضب فجأة، وسألت نفسي : ما الذي أغراه بالانضمام إلى صفوف الجيش العراقي في حربه مع إيران؟ هل يؤمن حقًا بأنها حرب قومية دفاعاً عن العروبة؟ هل غيرته الحرب كما غيره السجن؟يا "نورا" ماذا يفعل السجن بصبي وجد نفسه بين عتاولة السجناء السياسيين. بالقطع دللوه ؛ فتقمص دور الثوري وهو لا يفهم معنى كلمة ثورة. لكنها شخصية انتحارية أيضاً. تراجيديا بالمعنى اليوناني. من السجن إلى العراق ومن سريره النظيف إلى خيام العمال ثم إلى الحرب في خبطة واحدة؟ لماذا تختار الحياة البعض لكي تدخله في أتون منذ اللحظة الأولى؟ لا أظنها صدفة: "الحجر الداير لابد من لطه".

دخلنا مدينة البصرة في الثانية والنصف صباحاً. اتجهنا مباشرة إلى فندق الشيراتون المغطى بالخشب البغدادي. استسلمت لدش ماء ساخن. أفرغت ثديي على عجل، دون أن أهتم بأن أقيس الكمية. أردت أن أنام. أنام فحسب.

صحوت في الخامسة صباحاً كالمعتاد. فتحت النافذة، وتركت الموسيقى تنزلق بنعومة من الراديو. قمت بعملية ترميم دقيقة لجسمي ودون تباطؤ، لاحظت أن السائل في الكوب قد توقف عند منتصفه فحسب. عددت الأيام فوق أصابعي، وتمسكت بالأمل. أخرجت مذكرات "حلمي أمين" من الحقيبة، ورحت أقرؤها، لعلها تجيب عن أسئلتي عن اختفاء "أنهار"، على الرغم من أنه يقول إنها رحلة الجسد الذي لم يستطع تسجيلها معي. ولمَ لا؟ فـ"أنهار" هي حبيبته، على الرغم من أنه لم يأتِ على ذكرها في الأوراق التي قرأتها حتى الآن. قرأت :

أول قطفة

"كل هذه التجارب مع النساء، والمرأة الوحيدة التي أردتها بكل عنفوان أعجز عن الغرق في جسدها. أعرفه من الخارج، أشتهي كل خلية من خلاياه، وأكتفي بالوقوف على عتبته، وبتلك النبضات الخارجية التي تسقط مع الدوران القاهر في يدي. حين

يتلوى جسدك يا "أنهار"، وأسمع تأوهاتك، وتغنجك المنفلت إلى فضاء الغرفة، ولا تستطيعين احتمال الرغبة الضاغطة في الاكتمال. أثار حتى الجنون، وأستعين بإرادتي الحديدية، وخبرتي الطويلة في التحكم في النفس كي أمنع التحامنا؛ حتى تحول الأمر إلى عقدة. لا أعرف كيف سنحلها في الأيام القادمة.

هل تذكرين المرة الأولى التي رأيتك فيها عارية؟ رحت أقبلك وأنت تسيلين عذوبة وتذوبين مثل كرة آيس كريم بين يدي، وتتركين التمنع على عتبة شفتيك، وترفعين الحواجز. حاجزاً وراء حاجز، وأنا أخلع عنك الثياب؟

أنا أذكر جيداً كل التفاصيل. يقولون إن النساء هن ملوك التفاصيل وأقول إنني أرى الصورة واضحة في خيالي جلية وملونة وحية، من كثرة ما استرجعتها في ليالي وحدتي هذه بعد رحيلك: أزحت صديريتك الصوفية أولاً، فأعطيتني بلوزتك، وأنت تنتظرين خطوتي التالية باسمة. رفعت قميصك الداخلي فانفلت منه، وأنت تضحكين وتمدين يديك إلى مشابك حمالة الصدر تفتحينها، ثم تسلمينها لي في كفي صك الموافقة. كم أنت قوية يا "أنهار". تتركينني في مواجهة ثدييك المنفرجين مثل رمانتين ضاقتا بالشجرة. تستفزانني كي أقطفهما. يا الله. هل أنت لي؟ هل أنت حقاً واقفة أمامي نصف عارية، مثل إلهة رأسها مشرعة نحو السماء تتيه إعجاباً بما عندها؟ لابد أن أعترف بأنك تختالين حقاً بما لديك، وأنني سأدرك يوماً، أن خيلاءك هذا سيكون مشكلتنا الكبرى. غرقت في أسئلتي حتى نبهتني:

وينك "أين أنت"؟

كنت قد وقفت فوق ركبتيك على الحاشية، وتركت ساقيك ممددتين خلفك عاريتين، إلا من جورب أسود مثقب يشبه شبكة الصياد، تبدو بشرتك من تحته أكثر نصاعة، وترتدين لباساً من الدانتيل الأسود أيضاً. تخيلتك فينوس تقف فوق صفحة الماء، تتحدى العالم، والزمن والآلهة. كان دوري أن أفض عنك القطعة الأخيرة. مددت يدي إلى كتفيك، ورحت أتحسسهما، وأنا أتعبد في هذا الجسد المتاح أمامي. أردت أن ألمس مسامه، وأتعرف على تفاصيله، واقعاً وليس خيالاً. جلست على مسافة، وأصابعي ترى ما لا تراه عينايّ وكأني أدركت احتياج حواسي كلها للمعرفة، فقبلتك، وأنا أمسح بشفتي بشرتك المتماسكة. هل تعلمين أنني أحب طعمها، ونكهتها الخاصة،

التي احترت طويلاً في تحديد مصدرها وتسلب عقلي؟ هل هو نوع معين من العطر؟ أعرف عطرك جيدا ؛ ينفث رائحة مختلفة حين يفوح من جسد آخر. أهو صابون خاص. أم نوع من الطعام؟ فلما مسستك بلساني أدركت أن لك طعماً غنياً، عميقاً يشبه طعم تلك الرائحة الغرينية التي تصدر عن دجلة بعد عصر ممطر في مساء شتوي. ازدادت الرغبة في لثمك، حتى وصلت إلى فتحة سُرتك. أبعدت وجهي ورحت أتامل بصمة الميلاد الغائرة. قلت :

ما رأيك لو أضع فيها خرزة ملونة، تحرسها من الشياطين والآلهة؟

أدخلت لساني فيها، وأنا أشعر أني أضاجعك، فاقشعرت بشرتك. هل سبق ولمست رقبة حصان وعرفت تلك الارتجافة الشبقية تحت كفك؟ أغرتني ارتجافتك بتقبيل جسدك كله، حتى توقفت عند بوابة الجنة، فقبلتها، ومسحت جبهتي علها تسمح لي بالدخول. وأزحت قماش الدانتيل الأسود. فاجأني عرف الديك الأحمر وهو ينتصب معلناً عن حراسته اليقظة متسلحاً ببيرقين من شفتين امتلأتا بالدم. غلبته الشهوة فصرخ بالموافقة. لم أستطع أن أمنع نفسي قبل التقدم خطوة أخرى من العودة إلى النظر في عينيك، لكنك كنت قد أغلقتهما، وانسحبت إلى عالم آخر لم يأت أوان معرفته بعد.

كنت قد تمددت أمامي على السرير عارية متاحة جميلة وشهوانية فاقدة كل السيطرة على جسدك، وأصابعي تتحرك بحرية، تلتقط الحلمة، وتفركها مثل حبة عنب حمراء طرية، متماسكة. انزلقت إلى كفي وأججت في جسمي النيران، وأنا أرى السعادة، تمسح وجهك بماء الصلاة فأبتل، وأنسى الزمان والمكان والقهر. لكنك تلقائياً مددت يدك إلى زر قميصي تخلعينه، ولم تعرفي أنك في ذات اللحظة التي كنت توقعين فيها صك التحامنا الجسدي، أيقظت عقلي، وسمحت له أن يقف في مواجهتي، وأن يذكرني بخشيتي عليك، وبأنك في عمر ابنتي. ورحت أتمزع بين رغبتي العارمة فيك، ومسؤوليتي نحوك. وحاولت جاهداً الهروب والعودة إلى لحظتنا، والتشبث بك لآخر مدى فاحتضنتك بقوة ورحت أعرك ظهرك وثدييك ملهوفاً، وأنت تبادلينني الاعتصار، وكل منا يريد أن يأخذ الآخر إلى أعماقه دون هوادة. غرزت أسناني في رقبتك، وسمعتك تصرخين، وأنت تظنينه فعل الشهوة، ولهيبها، في حين كنت أحتمي

بجسدك من ألم الكبح الذي أوقفت به انهمار رغبتي. ثم فاجأتني بحركتك تحتي وكأني غصت فيك. وأشعرتني أنني أعتلي ظهر فرسة تركض بإيقاع منتظم، وتأوهت تستنجدين بي حتى أحررك من ألم انتظارك. خطفت نظرة إلى عرف الديك، فتلون أمامي من الأحمر إلى النبيذي الغامق حتى صار في لون البنفسج، وما زال يزداد قتامة وقوة. تشبثت كفي به، ورحت ألتهم شفتيك، ومتعتي تزداد مع حركة المروحة التي تستشعرها يدي، وأقمع نفسي عن افتراسك وكلي رغبة في أن أحتوي أعضاءك كلها بلا هوادة وعيناي مصوبتان إلى ما تحت جفنيك تريد أن تفتحهما وتدخل منهما إلى أعماقك، وتغرق فيك، حتى انفجرت صرخاتك تقلق الكائنات الهاجعة. وخفت أن ينتبه الجيران إلى أصواتنا في سكون الليل، وأنت تمدين يدك تفتحين البنطلون وتحررين القضيب الذي ما زال ينتظر إشارة يدك. شعرت بتردد أصابعك، وأنت تلمسين فعل الزمن، لكن الوقت كان قد فات على التراجع، وكانت معزوفتك قد انطلقت تعلو، حتى شعرت يدي بهمود الحركة، بقيت معك أربت عليك بخفة حتى وصلتني رغبتك في الانسحاب.

قمت إليك، وجلست أمام جسمك المباح لي، ورحت أقبلك، وأنت تغرقين في لذة الراحة والهناء، والوقت أمامي براح "أمزمز" فيه على مهل. رأيت جوربك الشبيكة ما زال يغلف ساقيك، أمسكت بطرفه أزيحه رويداً، وسمعتك تضحكين قائلة : الخريج.

قلت : كنت أظنك أصغر من أن تكوني قد رأيت الفيلم.

قالت : شاهدته مع البنات سراً بالطبع! وأذكر البوستر الجميل جيداً.

وعدت أنت إلى الاسترخاء وشفتي تجوبان الساقين اللدنتين. رفعت جسدك نصف قيام، والتقطتي سيجارة أشعلتها لي ووضعتها في فمي، وأشعلت أخرى، ورحت تدخنين، وأنت تراقبين هيامي بك حتى انتهيت منها، ومددت يدك تكملين خلع ملابسي. فانتفضت رغماً عني، ورأيت نظرة الغضب والتحدي في عينيك. نظرة أعرفها جيداً، وأعرف ما يليها. مددت يدي لأغلق الضوء، وخلعت باقي ملابسي، وعدت إليك في الظلام حتى لا تصطدم عيناك بفعل الزمن. فتحت ساقيك وخبأت وجهي، وأنا أشعر بمتعة الامتداد التي لا تفهمينها في عمرك المتعجل الانخطاف. لم أكن في حاجة إلى تصاعد سخونتك في تلك اللحظة. كنت أريد استفزاز الرغبة ؛ موجة وراء موجة استمتاعاً بالطريق وليس بالوصول إلى نهاية الرحلة. لم أشغل بالي بما

تفكرين، فأنت على براءة عدم المعرفة، وأنا من سيعلمك العشق. مددت لساني إلى بوابة الرب، إلى قلب الجوهرة الذي لم يقدر لي اختراقه قط، فلم تكن زوجتي عذراء. كانت قد تزوجت زواجاً فشل سريعاً قبل أن تلتقي بي. تأملته، تحسسته بأطراف أصابعي: قوياً، ومحمياً بطبقات من اللحم الوردي الطري، تملكتني رغبة في فضه، وأنا أعلم أنك لن تمانعي على الإطلاق، لكني رفضت، واكتفيت بأن أزيح الشفتين الحارستين له، وألعقه، وعادت الارتجافة إلى جسدك؛ فانزلقت عن ظهر السرير، وأخذتني في حضنك ورحت تقبلينني ومشاعرك تتقد وتغير لغة التأملات التي فرضتها على سماء الغرفة. تأخذني إلى التأجج وأنا أريد فعل الحب الهادئ، ورصيد التراكمات؛ حتى كشفت المعركة الدائرة فوق الفراش عن زخم انفعالاتك، وغبطتك الخارقة التي تحاولين بها دون هوادة اختراق التأني الذي أقابلك به، وتشعلين النار في بركاني الهادئ الذي لم يأت أوان انفجاره بعد.

ورحت أستجمع قواي كي أؤجج الرغبة في جسدي الذي سقط في فخ العطب؛ حتى لا تنقلب لمسة يدك من الشهوة إلى الحنان. ورأيتك تركبين الريح، وتفردين أشرعتك إلى السماء، وأنا ما زلت في طريقي إلى الأتون. حتى غمرتني الارتجاجات. قمت قوية، فرحة، فاتنة. ارتديت ملابسك، وقبلتني، وأنا أقاوم إغراء النوم، وأطلب منك إغلاق الباب بهدوء."

تذكرت موعد "بسيوني". حملت الكاميرا فوق كتفي ونزلت. اكتشفت أنني سبقت أعضاء الوفد باستثناء المُنظمات. ثم بدأت العضوات في الحضور فرادى، حتى دب النشاط في المطعم وتصاعدت رائحة خبز التنور العراقي، وتناثرت حبات التمر الرائعة فوق الموائد: إفطار أوروبي كونتيننتال. وإفطار عراقي من الدبس[1] والخبز الساخن. تذكرت دخان عربات الشلغم والدبس[2] التي تفتح بها ساحات بغداد صباحها؛ محلات الباجة[3] الذي فاجأني العراقيون بتناولها في الخامسة صباحا، و"الكاهي"[4] الذي

١ الدبس : عسل التمر .

٢ الشلغم : اللفت .

٣ الباجة : لحم الرأس .

٤ الكاهي : فطائر خفيفة مقلاة .

يقدم مع القشدة، و"الشيرة"[1]، ومحلاتها تغلق في السابعة صباحاً. كان أول ما لفت انتباهنا اهتمام العراقيين بشدة بالطعام. قال "حلمي أمين"، وهو يشير إلى عربات التكة المنتشرة في الشارع إن له تفسيراً لهذه الظاهرة : فقد حلم العرب في الجزيرة بعد نزول رسالة سيدنا محمد عليه السلام بجنات تجري من تحتها الأنهار تُغير من صحرائهم القاحلة التي لا يوجد فيها غير ينابيع بسيطة، وبعض النخل، والماعز والغنم والنوق. فلما دخلوا أرض السواد، ورأوا دجلة والأشجار والأعناب والتين والزيتون والفواكه، جلسوا يأكلون منها حتى الآن.

جلست آكل من الخبز الساخن. وأنا أتذكر رائحة التنور التي كنت أحبها في شوارع الدورة، وهي تتصاعد من البيوت في توقيت واحد عند صلاة الظهر. تذكرت جاراتي الطيبات اللاتي كن يرسلن لي الخبز من حين إلى حين ولا يتصورون أن يرفض أحد الخبز الحار. وضعت في فمي تمرة يسمونها دجلة نور لأنها مضيئة. ذابت في فمي بصعوبة إذ هطلت عليها دموع مالحة.

لم أصدق عينيّ حين انتبهت فجأة لحركة أحد عمال الفندق، وهو يشير نحوي، وبصحبته شاب بدا أنه يبحث عني: "بسيوني"بلحمه وشحمه ـ أين شحمه هذا ؟ "بسيوني"الذي كان حين التقتيه أول مرة يشبه لاعبي كمال الأجسام، بعضلاته المنتفخة، وصدره المفرود، وأكتافه العريضة ووجهه "الملظلظ"، وبياضه الشديد. كيف أصبح أسمر مجففاً على رأي "شهيرة العاصي" : "وزراء مجففون، ومحنطون، وجلد على عظم. بلا نيلة". ماذا حدث؟ وماذا تفعل الحرب بالناس يا نورا ؟ تقدم نحوي مبتسماً مشرقاً ماداً يديه. رحبت به بحرارة شديدة.

قال : كيف أنت يا أبلة؟

ابتسمت ما زالت براءته موجودة على الرغم من توحش الحرب الذي يعيش في أتونها. قلت : أكلتك الحرب يا "بسيوني". طمئنني على أحوالك.

قال ضاحكاً يداري خجله : ماذا أفعل؟ الظروف قاسية هنا. أتيت إليكِ بمعجزة.

---

[1] الشيرة : الشراب السكري .

أسلمته خطاب أهله. فتحه ملهوفاً بسرعة. تغير لون وجهه. ولم ينطق حرفاً.

قلت : حتى يأتي لك الشاي تكون قد حكيت لي ما حدث لك منذ أن سافرت إلى الموصل، حتى وصلت إلى الحرب.

قال ضاحكاً: كل هذا قبل الشاي. نحن في حاجة إلى إفطار أولاً. أخذني المهندس "فتح الله" إلى بيته، وعلى الرغم من أن "مها" ليست أكبر مني في السن كثيراً، فقد عاملاني وكأني ابنهما. عينت معه في هيئة الطرق، واكتشفت أن له مكانة كبيرة جداً في الموصل. لا أعرف السبب : أهو خطاب التوصية الذي جاء به من "خالد محيي الدين" أم دماثة خلقه، وشطارته كمهندس أم للسببين معاً؟

ـ في الغالب، الاثنان معاً.

ـ وجدت أن "فتح الله" هو المسؤول عن إدارة منطقة نينوي، على الرغم من أنني متأكد أنه لم يدخل حزب البعث. أعطاني مرتباً وصل إلى خمسمائة دينار بالحوافز، وهو مرتب إذا حاولت إنفاقه في سنة كاملة لما استطعت. وأقول لكِ إن الفارق بين مرتبي وبين مرتب المهندس "فتح الله" كان أربعين ديناراً فقط لا غير. أدخلني إلى الورشة مساعداً للميكانيكي عم "سيد المرسي"، وقال له : علمه كل شيء. وعم "مرسي" هو أسطى ميكانيكي مُعتبر على الرغم من أنه لا يجيد القراءة والكتابة، لكنه يستطيع قراءة الكتالوج. وكنت مع هذا أحصل على مرتب أكبر منه. عينوني على طريق الموصل الشيخان، وهو الطريق إلى مدن الأكراد اليزيديين. وقد صاحبت الأكراد وأحببتهم، وكانوا يعيشون حالة انتشاء حقيقية إذ يسرت لهم الدولة الحصول على قروض لبناء بيوت جديدة فكان كل شاب يرغب في الزواج يقترض ثلاثة آلاف دينار، ويعفى من ربع القرض مع وصول أول طفل له.

قلت : كل الشباب العراقي كان من حقه هذا القرض عند الزواج ويتمتع بنفس هذه الإعفاءات.

قال : تمتع الأكراد اليزيديون بتسهيلات أكبر حتى من التي تمتع بها باقي الأكراد الآخرين وأكثر بكثير من حقوق العرب. إذ كانوا يحصلون على القرض من فور تقدمهم بالطلب ولا يحتاجون أكثر من الهوية الشخصية لإتمام الإجراءات.

سألته: إلى أي حزب ينضم الأكراد اليزيدية؟ إلى الديموقراطي الكردستاني أم..

قال مقاطعاً: مطلقاً، هم لا ينضمون إلى هذا الحزب الكردستاني ؛ وإن كان بعضهم قد انضم قبل الحرب مباشرة إلى حزب البعث بعد التوجهات التي جرت لإصلاح أحوالهم المعيشية، والاقتصادية فقد كانوا مهمشين تماماً من قبل.

قلت: كنت تعمل بمرتب غير عادي. ما الذي أغراك بدخول الحرب؟

قال بانزعاج شديد : لا. أقسم لكِ. لم أدخل الحرب كجندي متطوع. لقد صدر أمر إداري بنقل المجموعة التي تعمل على طريق الموصل الشمالي إلى الجنوب حتى تعبد الطرق لتخدم حركة قوات الجيش. لهذا تحركت مع وحدتي إلى أحد المواقع وكان القتال ما زال شرساً. لم ينقطع القصف لا ليلاً، ولا نهاراً، حتى إنني كنت أقوم فزعاً من نومي لأجدني في الهواء على بعد نصف متر من الأرض. وانتقل معي عم "سيد المرسي"، وكان يفعل المعجزات والله. ويستطيع إصلاح أي مُعدّة حتى لو تعرضت للقصف، ودُمر نصفها أو أكثرها أحياناً. كنت أساعده ويشجعني، ويقول لي : لا تخشَ شيئاً. لن تجد ظروفاً أحسن من هذه لتتعلم. وهو ما أكسبني مهارة فنية كبيرة.

أطرق قليلاً، ثم قال : أنا لا أتفاخر صدقيني.

قلت : أعرف يا "بسيوني" أكمل.

قال : هذا كل شيء.

- أين تقع هذه المنطقة؟

- لا أعرف الموقع على الخريطة بالضبط ! هي من أوائل المناطق التي احتلها الجيش العراقي. أخذتنا السيارات إلى طريق العمارة ومنها إلى طريق يؤدي إلى إيران.

قلت : لماذا تشترك في هذه الحرب يا "بسيوني"؟ أهلك في حالة فظيعة، ويريدون عودتك بأسرع وسيلة.

قال : أنا لا أحارب. انتقلت مع عملي من مكان إلى مكان في بلد تحارب، وسوف أعود إلى مصر قريباً.

- متى؟

- لا أستطيع أن أحدد. لكن خلال أيام.

استطرد ضاحكاً: قد أصل قبلك إلى مصر.

- هل تستطيع الخروج من الجيش بهذه السهولة؟

- ربنا يسهل.

- ماذا ستفعل يا "بسيوني"؟ لا ترتكب أي حماقة ولا أي عمل جنوني. اطلب السفر بصيغة رسمية قانونية. أنت تعلم النظام هنا.

- ليست هذه حربي، ولن يهدر دمي بها من دون مناسبة.

- أتقول هذا الآن؟ كان عليك أن تعرف هذا من البداية قبل أن تتورط. ألا يعتبر خروجك الآن هروباً من الحرب ويعرضك لمحاكمة عسكرية. ما الذي جعلك تغير رأيك؟

- سألت زملائي العراقيين. لماذا نحارب؟ قالوا لي لكي نسترد أرضنا التي اغتصبت منا في معاهدة ١٩٧٥ . أقول: ألم يوقعها "صدام حسين" بنفسه؟ يقولون : نعم. كان مضطراً حتى يوقف الشاه مساعداته للملا "مصطفى البرزاني". وكان التمرد الكردي على أشده فاضطر العراق للتنازل عن هذه الأراضي.

قلت : لكني لم أفهم حتى الآن ما الذي جعلك تغير رأيك؟

أطرق قليلاً. انحنى إلى الأمام عاقداً كفيه معاً، وتركهما يقعان بين ساقيه ولم ينطق.

- حدثني يا "بسيوني". أنت تحدث أختك الكبيرة. لو أنك مؤمن بأنك تساعد العراق باعتبارها بلدك، وأنت مسؤول عن أي حرب تدخلها؛ فلن أراجعك، لكني لا أشعر بأنك مؤمن بهذا.

قال: قالوا لي إنهم يحاربون الإيرانيين الشيعة. لم أكن أعرف معنى كلمة شيعة. كنت أتصورهم كفاراً، فلما سألتهم هل الشيعة مسلمون؟ قالوا : نعم. قلت : أيقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله. قالوا : نعم. فلم أفهم. صدقيني حاولت أن أفهم. أسألهم كيف تحاربون الشيعة، وهم مسلمون؟ يقولون : إنها قصة طويلة. مع الوقت أدركت أن قصة المعركة التاريخية بين السنة والشيعة على أرض العراق منذ قتل أهل بيت النبي ما زالت مستمرة. هي معركة سياسية منذ البداية، ولا دخل للإسلام بها. لهذا حين فهمت قررت الرحيل.

قلت : هل احتجت إلى سنتين كاملتين في حرب حتى تفهم؟ أريد أن أفهم أنا أيضاً بعض الأشياء، واحتملني أرجوك. لقد رحلت إلى العمق الإيراني، وحسب معلوماتي ظل العراق محتلاً مدناً في الجنوب مثل المحمرة، وقصر شيرين، ومهران

وديزفول، وهي أراض وعرة، يصعب السيطرة عليها، وكنت أنت قريباً من هذه المنطقة وشاركت في الأحداث. اليوم في أيدي العراقيين وغداً في أيدي الإيرانيين وهكذا دواليك. صف لي ما حدث في أول هزيمة كبرى للجيش العراقي في معركة الطاهري في أكتوبر الماضي.

قال: لم أكن داخل المعركة بالطبع. لأن الجيش العراقي كان قد عبر في بداية الحرب أي في خريف ١٩٨٠ نهر الكارون في إيران، وهو نهر كبير يشبه دجلة والفرات يا أبلة، ويصب في شط العرب. ثم بعد سنة تقريبا شنت إيران هجوما كبيرا ومؤثرا، ولم تكن القوات العراقية تتوقعه. حاولت القوات العراقية التراجع، لكنها وجدت النهر خلفها. فوقعت في المصيدة. زهقت أرواح آلاف الجنود والضباط كما سمعت وأسرت إيران أكثر من خمسة وعشرين ألف أسير عراقي. ألم تصلكم هذه الأخبار في حينها؟ ساد العراق حزن عميق لم يزل أثره باقياً حتى الآن. ألم تشعري بالفرق بين الشخصية العراقية التي كنت تتعاملين معها، وتعرفينها طوال سنوات عملك هنا؟

تأملته قبل أن أجيب. ما أعمق التغيير الذي حدث لك يا "بسيوني". لقد نضجت على نيران الحرب الملتهبة. قلت: نعم يا بسيوني شعرت أن الحزن العراقي الآن أعمق، ولم يعودوا يخفونه كما كان يحدث من قبل. فاض بهم.

لاحظت في عينيه إشراقة دمعة مكتومة تريد الانفلات دون إذن صاحبها. استطردت: لقد وصلتنا الأنباء بحذافيرها. لكن مقتل السادات غطى على إعلام العالم كله كما حدث هنا. فلم تأخذ هذه الهزيمة بخسائرها حقها من المعرفة، حتى وإن كان التكتم عليها غير مقصود لذاته. سأقابل عدداً من قادة الجيش بعد أقل من ساعة. وسوف أسألهم نفس السؤال الذي كنت أريد أن أعرف رأيك فيه الآن. لماذا غيّر العراق استراتيجيته الحربية من الهجوم إلى الدفاع؟ فاجأنا بمبادرات سياسية للانسحاب من الأراضي الإيرانية إلى الحدود الدولية. هل لديك إجابة؟ بماذا يفسر العراقيون من حولك هذا الموقف؟ أم أنهم يخافون "الحجي"[١].

قال: أنت تعرفين أن العراقي لا يحكي إلا إذا اطمأن تماماً إلى أنك لست عميلة

١ الحجي: الحكي.

للنظام. هكذا العرب، فما بالك بالأكراد. شعورهم بالخوف مضاعف. ومع هذا حين يسكر هؤلاء وهؤلاء ويصل الواحد منهم للانتشاء، لا يسيطرون على مشاعرهم ولا على كلماتهم، فيقولون ما يشاؤون. والإشاعات تقول إن اعتقالات كثيرة تمت بسبب كلمات "المشرب"[١].

توقف عن الكلام.

قلت: نعم. وماذا بعد؟

نظر إليَّ طويلاً دون أن يتكلم. التفت إلى الخلف. كانت واحدة من المنظمات العراقيات صديقاتي في طريقها إلينا. سمعتها تقول:هل أقاطع شيئاً. الأخ مصري؟

قلت : هذه صديقتي "خلود". صديقي "بسيوني". يعمل هنا في البصرة.

قالت : استعدي. فسوف تتحرك السيارة خلال ربع ساعة إلى الجبهة.

قلت : سوف ألحق بكم ساعة أن تجهزوا.

اتجهت إلى المناضد المجاورة لتنبه باقي أعضاء الوفد.

قال "بسيوني" : سوف تبلغ حالاً بمقابلتك هذه لي. سوف أعود إلى مصر. أعدك بهذا يا أبلة. سمعت أن التغييرات الاستراتيجية من الهجوم إلى الدفاع، قائمة على نظرية أن الحرب طالت لمدة سنتين غير متوقعتين أنفق العراق خلالهما الكثير من المال، وضاع فيهما شباب كثير، وأن الجندي الذي يدافع عن أرضه، يقاتل بشكل أفضل، خاصة بعد الخسارة الكبيرة التي حدثت في معركة الطاهري. وجهة النظر هذه تسربت من خلال الجنود الذين التقطوها من حوار قادتهم في المطعم أو استراحة الضباط. أما الناس العاديون فقد ملوا الحرب برمتها. لكن إيران لا توافق على هذا، ولا تأمن العراق، ومستمرة في التعبئة العامة للجيش، وسمعنا أنهم يعبئون حتى الشباب صغير السن في الخامسة عشرة والسادسة عشرة.

قلت : هذا يفسر الضجة الإعلامية المصاحبة لمؤتمرنا هذا، وطوال الوقت الحديث قائم عن رغبة العراق في السلام والعودة إلى الحدود الدولية. وهو موقف غريب وجديد على الأقل بالنسبة إليَّ، خاصة بعد الضجة التي أثاروها من قبل من أجل استعادة شط العرب.

---

١ المشرب : الحانة .

سمعت صوت حركة بين المناضد حولنا. انتبهت إلى قيام عضوات المؤتمر بشكل جماعي وتحركهم في اتجاه الباب. قمت لأودع "بسيوني" قائلة باللهجة العراقية وداعت أمك يا شيخ أنهي هذه القصة. وأضفت: عد إلى بلادك قبل أن تصاب في حرب كما أرى أنت غير مقتنع بها. لو أخبرتني أنك تحارب من أجل أن يستعيد العراق أرضه لمضيت إلى حال سبيلي دون أن أطالبك بالعودة. أرجو أن تستمع إلى العقل، وتنهي هذا.

احتضنني بشدة. قبلني في خدي، وهو يمسك بكتفي بعنف حتى أنني تألمت تحت وطأة الضغط على عضلاتي. اندفعت الدموع إلى عيني، وانقبض صدري. خفت على بسيوني، وكأنما هو أخي الصغير؛ على الرغم من أنني لم ألتقِ به إلا مرة واحدة من قبل. تمنيت من الله، والسيارة تتحرك، ويده تشير لي بالسلام أن يعود سالماً إلى أهله، فهو لم يصل إلى العشرين من عمره بعد، في عنفوان الشباب، وطيشه أيضاً.

استقبلنا عدد من كبار الضباط بحفاوة شديدة، واصطحبونا إلى داخل سرداقات واسعة ولافتات ضخمة تندد باعتداءات إيران على العراق، وتنادي بحق العراقيين في أراضيهم المحتلة،أشاروا إلى أن هذا الخط هو آخر مكان مسموح لنا بالوقوف عنده حرصاً على سلامتنا. وجدنا لوحة خرائط توضح أماكن القوات على الجانبين. شرحوا لنا تفاصيل تجمع القوات الإيرانية، والأماكن التي يحتلونها. قال قائد قوات المنطقة إن الإيرانيين يتركون وراءهم جثثاً لأطفال في الثانية عشرة من العمر قاموا بعمليات انتحارية. تتردد لفظة الفرس بين شفاه الضباط في كل جملة تقريباً. كنت أعرف أن جذور العداوة تمتد عبر تاريخ طويل من معارك العرب والفرس مرورا بدخول الإسلام إلى إيران المجوسية واعتناقها المذهب الشيعي. تذكرت زيارتي مع "حاتم" إلى إيوان كسرى في سلمان باك - كم هو قريب من بغداد ؟ - وإلى أي حد يتداخل التاريخ القديم والحديث في هذه المنطقة؟ واللغز الذي يحيط بنكبة البرامكة حتى الآن والذي أطاح بهم هارون الرشيد وبحلفائه الفرس، ورئيس وزرائه "جعفر البرمكي" - الذي زوجه من أخته العباسة شفاهياً حتى تحضر معهم مجالس الأدب والطرب، ثم نفذ العاشقان الزواج فطار صوابه. وما زالت أصداء قصة الحب هذه تتردد بين جدران البيوت. وما زال نهر الدم يسري تحت الأرض. كلما جف ماؤه تجدد لسبب أو لآخر. تاريخ طويل من الاندماج والانفصال، تجاور أبدي، يسقط في الهدوء إلى حين، ثم ينفجر بالصراع على السلطة.

أفـقت من شـرودي على كلمات الضـابط العـراقي : "على الرغم من أن البـصـرة والحمد لله غيـر محتلة، فإن نصفها مع الأسف يقع في مرمى نيران المدفعية الإيرانية. نحن نـريد السـلام ومـوقـفنا واضح في مـبـادرات حـسن النيـة ووقف الحرب والصلح، والعودة إلى الحدود الدولية."

قلت لنفـسي : أي حـدود دوليـة؟ انقـبض صـدري : ليـتك لا تـرتكب حـمـاقـة يا"بسيوني". مرت نسمة هواء منعشة داعبت شعري.

تذكـرت مـا حدث في بغداد بعد قيام الثورة الإيرانيـة. كـان "صدام حسين" مـا زال نائباً للرئيس. تسلم السلطة بعد خمسة أشهر في احتفالات تموز، وأعلن استقالة "أحمد حسن البكر" لظروف صحية، ثم أعدم ثلثي القيـادة القطرية، وكان قد ضرب اليسار، وأجهز على الحزب الشيوعي العراقي، وأصبح هو القوة الوحيدة في العراق. هل راهن وقتها على أن يلعب دور الرجل الأقوى في المنطقة بعد غياب الشاه؟ كانت حماقة. لم يعط لقوة إيران حق قدرها. بدأ بالضغط لاستعـادة نصف شاطئ العرب. أرسل إليـهم يقول : أنتم حكومة إسلامية تعرف العدل، وقد اضطررنا لتوقيع معاهدة الجزائر بسبب الدور الذي لعبـه الشـاه في دعم التـمـرد الكردي في بلادنا. ردت الحكومـة الإيرانيـة قائلة: هذه اتفاقات دولية، وقد ورثنا نظام الشاه بمحاسنه ومساوئه، والمنطق الدولي يقضي بأن مـا أخذه الشاه قـد انتـهى، ونحن ملتـزمون بديونه. ارتفع شـعـار استـعـادة المحـمـرة والأهواز في كل أركـان العـراق. ثم بدأت مـوجـة من الهـجـوم على الإسـلام السـيـاسي العـراقي، وتصاعد الشـعـور بالخوف من تصدير إيران للثورة، وهو مـا أربك كل أجهـزة الدولة، وبدأنا نسمع عن منظمة العمل الإسلامي وحزب الدعوة وكانت لرئيسه، ومؤسسه آية الله "محمد باقر الصدر" " كاريزما" كبيرة، وشعبية. آه ما أحوجني إلى رأيك الآن ياأستاذ حلمي. طفت على سطح ذاكرتي صفحة قديمة. فيها قلت "لحلمي أمين" :

لماذا تنقل الحكومات العربية تجاربها الفاشية في مناهضة المعارضين لها بالكربون وبهذه السرعة؟ لماذا لا ينقلون بدلاً منها تجاربهم الجيدة في الديمقراطية - إن وجدت؟ ألا يفـهـمون أن ضرب الحزب الشيـوعي واليـسـار معناه تمدد الإسـلام السيـاسي في الفـراغ وتوحشه مثل سرطان بلا عقل، وانقلابه عليهم في أحد الأيام؟ هل هذا صعب على الفهم؟

قال "حلمي أمين" : ليس صعباً على الفهم، لكن هناك سببين : الغرور الشديد، وتصورات أي سلطة ديكتاتورية حول قدرتها على التحكم في هذا التمدد السرطاني باعتبارها من يمسك العصا ، ومن في يده مفاتيح السجون، والثاني هو رغبتها الفعلية في دعم هذا التيار لسبب لا نعلمه ربما بدعم أو بأوامر خارجية، والغرب يستفيد في كل الأحوال.

قلت : طلبت مني الصحفية "هاديا الجعفري" أن أشتري لها من القاهرة كتباً متعلقة بالإخوان المسلمين في مصر. واضح أن الأصوليين يسببون قلقاً للخبراء في كل مكان.

قال : أريد منك أن تذهبي إلى جريدة الثورة لساعتين كل يوم، وأن تجمعي من الأرشيف كل المادة الممكنة عن علاقة حزب البعث بالتيارات الإسلامية في العراق منذ عام ٧٠-٧١ . أي منذ إعدام الشيخ "عبد العزيز البدري"، وهو من قادة الحزب الإسلامي. ومنذ بداية تصفية الإسلام السياسي وأيضاً أحكام الإعدام التي صدرت في ٧٧، ٧٨، و٧٩ . وبالطبع كل معلومة عن المظاهرات التي حاول "محمد باقر الصدر" تنظيمها في العام الماضي، والتي تعلمين أنها أجهضت، وصدر بعدها الحكم ضده بالإقامة الجبرية. وقد كتبنا في هذا الموضوع. عودي إلى تحقيقاتنا ، وما كتبناه، وادرسي الأمر جيداً، واكتبي لي تقريراً مفصلاً لكي نسترشد به عند وقوع أي أحداث، سوف أراجعه بنفسي.

قلت : أحتاج إلى كتب تحلل العلاقة بين حزب البعث والأحزاب الإسلامية في زمن أسبق؛ حتى يكون فهمي أعمق للتجربة. هل سأجد هذا في المكتبات؟

قال : لا أظن. لن تجدي شيئا يا أم "ياسر".

جمعت مادتي، وأنا أشعر بأنني مراقبة طوال الوقت، وقلت لكل من يتلكأ : نحن في مجلة الزهرة نعتمد على المراجع العلمية في رصد معلوماتنا؛ حتى تكون تقاريرنا الصحفية موثقة وصحيحة. عملياً استخدمنا معظم هذه المادة بالسلب وليس بالإيجاب، وساعدتنا على فهم الموقف السياسي العراقي المعلن على الأقل. فقد كان "حلمي أمين" يحافظ على شعرة معاوية في العلاقة مع أجهزة الدولة التي تنظر إلى المراسلين العرب والأجانب بحذر شديد. ثم حدثت مفاجأة قبل الحرب مع إيران مباشرة. أعدم آية الله

"محمد باقر الصدر"، الرجل الذي كان الشيعة يعشقونه. كانت الحكومة العراقية قد قمعت خلال الشهور الماضية، وبشدة التنظيمات الشيعية الأكثر وضوحاً في الشارع العراقي. كما علمنا من مصادر متعددة أن الأمن كان يرسل إلى "محمد باقر الصدر" لكي يشد أذنه، ويحذره من الاقتراب من السياسة، خاصة وأنه أصدر فتوى متزامنة مع الثورة الإيرانية تحرم الانتماء لحزب البعث. بعثوا إليه من يحقق معه، وهو باعتباره متدين لم يكذب. سألوه: هل أنت الذي أفتيت بتحريم الانتماء لحزب البعث؟

قال : نعم. لأن حزب البعث يتقاطع مع الأديان، ومع الرجل المؤمن.

حاولوا دفعه إلى التراجع عن هذه الفتوى، أو إنكارها. لكنه رفض. أعادوا المحاولة عدة مرات دون جدوى. وصلوا معه إلى طريق مسدود. فأصدروا أمراً بإعدامه هو وأخته في التاسع من أبريل ١٩٨٠ بعد تعذيب طويل ومرعب، فاق كل التصورات، وكانت أصداؤه تتردد بين الشيعة فتعذبهم، وتوقد نار الثورة في قلوبهم، دون كلام.

كم كان هذا الرجل رومانسياً وثورياً وصادقاً. لماذا كُتب على العراق أن يدفع كل هذه الأثمان؟ يا إلهي. شعرت بالدموع تتقاطر في حلقي. تنفستها بعمق حتى لا تظهر فوق وجهي، ومسحت الفار منها بهدوء. قال الضابط لأعضاء المؤتمر الجالسين أمامه في السرادق على جبهة البصرة : نحن بلد السلام. لا نريد الحرب. نريد تحرير أرضنا.

قلت لنفسي : "أي سلام هذا؟ ". أردت أن أرفع صوتي وأسأل الضابط : هل نظرت في عيون من حولك؟ هل رصدت كل هذا الحزن العراقي؟ هل تحتاج إلى مئات السنين من العديد، ولطم الخدود، وتقطيع الجسم، ونزف الدماء حتى تدرك أن ما يحدث الآن هو حماقة؟ شدني فجأة حزن اكتشفته في عينيه. فأدركت أنه لم يكن بعيداً عن الحزن من حوله.

تذكرت جارتي أم "سميرة" وهي تقول لي هامسة : أو تدرين. أؤكد لك أن مشكلات الشمال مع الملا "البرزاني" والحكومة سببها منعنا من ممارسة الشعائر. الله أكبر. لماذا لا يتركون الناس تفعل ما تريد؟ الله وكيلك، كله من غضب الله. يا حبيبي يا الحسين - تقولها في خوف، وهي تتلفت حولها.

حين جئت للمرة الأولى إلى بغداد عام ١٩٧٥، كان قد صدر قرار بوقف ممارسة طقوس عاشوراء التي يخرج فيها الشيعة إلى الشوارع في مجموعات يمارسون تعذيباً للذات وبكاء مراً على مقتل الحسين. مشهد عنيف يضربون ظهورهم بالجنازير، والبعض يضرب رأسه بسكين حاد طويل يشبه السيف يسمى قامة. وعلى الرغم من صرامة البوليس في منع الناس من ممارسة الطقس في الكاظم، وحتى في النجف وكربلاء معقل الشيعة؛ فإن التذمر الشيعي كان على أشده. اشتريت بعض شرائط القراية على الحسين والتي تحكي قصة الملحمة الدامية: وبكيت مع أبيات الشعر الشعبي الذي يعيد سرد معركة "الطف" وأدركت أن الحزن الممتد الموصول بالتاريخ له جذور يصعب تجاهلها، حتى بين المتعلمين الذين يدركون أن جلد الذات لن يعيد ما فات أبداً، ولن يبرأهم من قتله أو عدم الدفاع عنه.

***

- تفضلي يا سيدتي.
- "نورا". ما بك؟ الرجل يحدثك. أتريدين شاياً؟
- نعم من فضلك.

قال الضابط: أرضنا. لا نريد سوى أرضنا. لكن إيران لا تريد السلام.

عدت بخيالي إلى حديقة منزلي في الدورة.

معنا "عادل" و"ناهد" و"تيتي" و"محمود". أشار "حاتم" إلى أطفالهم الذين يلعبون حولنا بالصمت. إذاعة مونت كارلو تذيع نبأ مهماً.

قالت "ناهد": طوال الليل مونت كارلو. هاتوا لنا إذاعة أخرى.

العاشرة والنصف في مونت كارلو: أطاحت عاصفة مفاجئة بطائرات الهليوكوبتر الأمريكية التي جاءت إلى طهران في وقت متأخر اليوم لإنقاذ الرهائن.

تعالت صرخاتنا في الحديقة: ياااااه الحمد لله. وقعت الطائرات. وقعت الطائرات.

قالت "ناهد": ماذا تفعلون؟ ما هذه الطائرات؟!

قال"حاتم": انتظروا سأبحث عن إذاعة أخرى.

قضينا ساعتين في صخب، ثم انسحبنا لترتيب أعمالنا في الصباح الباكر، فقد كنت أستعد للذهاب إلى بحيرة الحبانية في صحبة "حلمي أمين" و"أنهار" والسيناريست المصري "حافظ عبد الرحمن" الذي يزور بغداد. أراد "حافظ" أن يقابل المخرج "سمير أبو طيف"، الذي يصور فيلم "القادسية" حول بحيرة الحبانية.

دخلت إلى المكتب مهللة، ومشاعر فرح الليلة السابقة تسيطر على عقلي تماماً. اندفعت أهنئ "حلمي أمين"، وأسأله عن "أنهار"، قال : تعالي ننتظرها أمام العمارة. ستأتي سيارة وزارة الإعلام بحافظ. نريد أن نصل مبكراً.

جاءت. قلت : الله. الله يا "أنهار". هذه رحلة إلى الصحراء.

قالت ضاحكة : بل رحلة إلى "سوزان حلمي"، و"عمر عوني"، و"سمير أبو طيف".

وصلت السيارة ونزل المرافق إلينا وقال : عددنا أكبر من حجم السيارة، لابد أن نغيرها.

قال "حلمي أمين" : السيارة كبيرة. اجلس أنت في الأمام والمقعد الخلفي يكفينا.

انتظر المرافق حتى ركبنا في الخلف، وبدا عليه عدم الاقتناع. كانت شمس بغداد مشرقة والرحلة تبشر بالبهجة. سأل "حافظ" عن المسافة إلى الحبانية.

قال السائق : ٨٠ كيلو متراً تقريباً.

قال "حافظ": مبروك سقوط الطائرات الأمريكية.

قلت: رعاة بقر. هي فوضى. فكروا أن الدنيا سائبة. يريدون أن يفعلوا بالناس ما يريدون، ولا يقبلوا أن يدافع هؤلاء الناس عن أنفسهم.

قالت "أنهار" : لابد أن يفهموا أن المسألة جادة هذه المرة.إيران الشاه غير إيران الخميني.

قال حافظ : أمريكا عقلها طار. فقدوا إيران التي يتجسسون منها على الاتحاد السوفييتي.

قلت : ربنا على المفتري.

ضحك "حلمي أمين" عالياً وهو يقول : النساء هن النساء.

تصاعدت حرارة اللقاء. "حافظ" صديق قديم لـ"حلمي أمين". حكى كل منا المعلومات التي توصل إليها من الإذاعات المختلفة. وتكلمنا بحرية شديدة. لاحظنا

كالعادة أن موظف العلاقات العامة، والسائق لا يشاركان مطلقاً في الحديث إلا لماما، وبكلمة مجاملة، أو رد على سؤال مباشر، لكننا لم نهتم. امتلأنا بروح المغامرة، وبشعور وطني يفخر بأن أمريكا تخسر أمام واحدة من بلادنا.

قال "حلمي": سيعطيهم الإيرانيون درساً لن ينسوه.

توقفت السيارة فجأة بعنف دفعنا للاصطدام بالمقعد الأمامي. نظرنا إلى السائق فقد كان الطريق منبسطاً أمامه سلساً وسط الصحراء ونحن لا نفهم ما حدث.

قال للمرافق : دخلنا طريقاً خاطئاً. سأعود إلى الوراء.

انتبهنا للمرة الأولى إلى أنه دخل بالفعل طريقاً فرعياً صغيراً وسط الرمال، وتعجبنا دون أن نتكلم مما حدث، فالطريق الرئيس واضح ومستمر، ولا توجد أي إشارة تطالبه بالالتفاف يميناً أو شمالاً أو تشير إلى طريق آخر للحبانية. عدنا إلى الطريق الرئيس العريض.

التقت عيني بعيني السائق. رشقني بنظرة محددة قاسية. رأيت فيه جرأة، استعلاء، شعور ما بالقوة لم أفهم له سبباً. لا أحب نظرات سائقي السيارات الرسمية العراقية أبدا خصوصاً الشباب منهم. فيها معنى تخابري أدركه من فوري. ربما هي أوهام لتراكمات صغيرة ترسبت مع الوقت الطويل الذي عملت فيه مراسلة عربية في بغداد. لأول مرة أرى سائقاً رسمياً عراقياً لا يستطيع السيطرة على مشاعره الغاضبة على الرغم من أنه لم ينطق كلمة واحدة.

أعادنا الطريق الواسع إلى لوحة كتب عليها الحبانية ثمانون كيلو متراً. حكينا عن الفيلم والفنانين المصريين والمبالغ الطائلة التي رصدتها مؤسسة السينما والمسرح العراقية لإنتاجه، ونشاط "سوزان حلمي" السينمائي الأخير. كانت بغداد في ذلك الوقت قبلة للمثقفين، والفنانين العرب. وكان يعيش فيها بعضهم كأساتذة في الجامعة وأكاديمية الفنون، وبعضهم كان يقوم بإنشاء فرق مسرحية، أو يشارك في الفرق كخبير. كانت بغداد تنهض كمارد عظيم جميل. ومتعالٍ أيضاً.

قضينا اليوم بأكمله مع فريق الفيلم الذي احتفى بنا بشدة. اكتشفت أن بعض الفنانين العرب مشاركون أيضاً، وشباب كثير من الفنانين العراقيين الذين سبق وشاهدت لهم أعمالاً مسرحية رائعة، أخذونا إلى ساحا لتصوير مشاهد الحرب. وتعرفنا

إلى الخبير الإيطالي الذي جاء خصيصاً لتنفيذها على أعلى مستوى. جلسنا نشاهد قعقعة الحرب، وهي تدور، وكأنها معارك حقيقية خارجة من كتاب التاريخ. تعلو فيها الصيحات وسط صلصلة السيوف. أعيد التصوير عدة مرات، وأنهكت مجموعات الكومبارس بشدة. تأملت "حلمي أمين" وهو يخرج منديلاً أبيض من القماش لتجفف به أنهار العرق بدلاً من المنديل الورقي. امتلأ وجهه بتعبير من الشغف والحنو فاق كل الوصف، أخذته منه ممتنة، وشكرته بنظرة طويلة حانية، كانت في حاجة إلى أن تنتهي بقبلة طويلة، ينسى فيها هذا الثنائي الواقع في الحب أننا موجودون حولهما. لكنهما عادا إلى إطار الصورة الرسمية.

عدنا إلى بغداد في الليل، على وعد من العاملين في الفيلم بزيارتنا في مكتب الزهرة. وفي الصباح فهمت من "حلمي أمين" أن حركة السائق تلك لم تكن مصادفة.

قال : أراد أن يوصل لنا رسالة. لم يعجبه كلامنا عن إيران.

قلت : يا خبر أسود. ماذا قلنا يستوجب التهديد؟

قال : قلنا رأينا الحقيقي. نحن في عالم، وهم في عالم آخر. ولم يتعودوا حريتنا هذه.

قلت: لاحظت أن "أنهار" لم تكن تتحدث كثيراً في السيارة. هي أدرى بأهلها.

قال متردداً: إلى حد ما. أخاف عليها من شجاعتنا أحياناً.

قلت : لكنه ليس شأناً عراقياً.

ضحك طويلاً وقال : من قال هذا؟ هو عز الشأن العراقي.

انتبهت إلى كلمات الضابط العراقي وهو يشير بطرف عصاه إلى دائرة كبيرة : هنا الخليج العربي، وليس الخليج الفارسي. شكراً لكم.

أخذتنا سيارات اتحاد نساء العراق إلى طريق صحراوي، لا خضرة فيه، ثم ظهرت أعشاب خضراء لها أشواك، وطارت أمامنا كرات شوكية من أخشاب رفيعة جافة، أسلمت وزنها للريح. لاحظت أن خيام الشعر مفتوحة من كل الجوانب، كأنها قبعة صحراوية لغندورة. وقفت تحتها مناضد طويلة، رفيعة ممتدة يجلس إليها عدد من الجنود، والبدو يأكلون معاً. قدور الطعام ضخمة تغلي فوق صهد الحطب، وأرغفة من

الخبز مكومة بالعشرات. تعاقبت هذه الخيم على طول الطريق. سألت ليلى عنها، قالت: مفتوحة لإطعام الجنود أربعاً وعشرين ساعة، وهي مجانية لكل من يمر بها من البدو، أو المسافرين أيضاً.

توقفنا أمام واحدة، أعدت لنا ثريداً وأرزاً في صوانٍ كبيرة يعلوها لحم أغنام صغيرة، وخبز ساخن. انتشرت أمامنا أباريق اللبن المخثر، ثم وزعوا علينا أباريق الشاي. قالت لي "زليخة" الروسية: لا أصدق أنني أكلت كل هذا الطعام.

قالت أنيسة الباكستانية : سأموت من التخمة.

قال جون : مفجوعة.

قلت: مناخ الصحراء. والجماعة تشجع.

قالت "ليلى" : بالعافية.

مرت استكانات الشاي وأباريق القهوة العربية، رقص رجال من البدو في دبكة جميلة، تحية للرئيس القائد. قامت بعض الصحفيات الأجانب، ورقصن معهم، وهن يقلدن صرخاتهم، وأهازيجهم الوطنية بأصوات مسرعة دفعتنا للضحك.

دخلت إلى الفندق متلهفة على حمام ساخن. يكاد ثدياي يقفزان أمامي من الألم، على الرغم من أنني انتهزت فرصة دخول الحمام مرتين من قبل لتفريغهما. لكني لم أملك الوقت الكافي لسحب كل ما بهما من لبن. لم أتذكر "هيثم" طوال اليوم. يا إلهي ماذا يحدث لي؟ أتت لي صورة "ياسر" من حين إلى حين بعينيه الساكنتين اللتين تشعان هدوءاً واطمئناناً. أظنه نقلهما عن "حاتم" نفسه بالجينات، أو بالتقليد. ورحت أجهز حماماً حقيقياً من هذا التمام، قد لا يتاح لي مثله مرة ثانية قبل نهاية الغد. فتحت التليفزيون. خرج لي الرئيس القائد يقابل عمال أحد المصانع،ثم لقطات كثيرة له وهو يمشي بالسيارة في شوارع بغداد، والناس تحييه. لقاءات مع الوزراء، وأخبار عن اجتماعات حزبية. خرجت أصوات كورس تغني أناشيد وطنية. بحثت في المحطات المختلفة عن موال، أو دبكة. خرج لي فيلم مصري لفريد شوقي ومحمود المليجي. تذكرت جاراتي العراقيات وهن يسألنني بسذاجة إن كنت أعرف فريد شوقي أو إن كانت نجلاء فتحي تسكن في حينا. وولع الناس بسماع اللهجة المصرية. نقلت المحطة؛ فوجدت فرقة التراث. استسلمت للماء وأمسكت بطرف الحلمة أدلكها بالكريم واللبن

ينفرط، وينساب من الناحيتين، رويداً، رويداً. سكنني هدوء وتفككت عضلاتي حتى صدقت أنني غفوت بين الحلم واليقظة. انتبهت فجأة إلى كمية البخار التي تغطي الغرفة. لففت المناشف حول جسمي، ورحت في سبات عميق أفقت منه على جرس الإيقاظ. خرج لي القائد من الشاشة ببدلته العسكرية وطوله الفارع وثقته الهائلة في النفس تحيط به نفس "الكاريزما" القديمة التي جعلت الجماهير تعشقه. في صورته هذه المرة شيء مختلف لا أعرف ما هو بالضبط ؛ ربما لأنني أسمعه لأول مرة يتحدث عن رغبته في السلام، من دون منطق القوة السابق. لا أعرف. أهو زير نساء حقاً كما يشاع عنه، أم هي عادة تحويل القادة إلى أساطير حتى في الجنس؟ تتابعت في ذهني قصص كثيرة عن غرامياته. ضحكت. كلهم مجانين. أذهلتني حالة النشاط التي وجدت أعضاء الوفد عليها. شابات وعجائز يتحدثن في مرح أو ينكفئن فوق أوراق، يتابعن ما بها من معلومات يستعرضن كتباً بين أيديهن، ويقلبن بعض المشتريات ؛ من الأكلمة الصوفية والملابس الشعبية. لا يبدو عليهن أي أثر من إرهاق الرحلة الطويلة. قلت لـ"ساجدة" : اذهبي لزيارة أمك. لا ضرورة لحضور الندوة معنا. سأقوم بالعمل بدلاً منك.

ضحكت قائلة : شكراً عيني. سيأتي أخي الصغير عند محطة القطار ويطمئنني على أمي. وسأعود إليها في الأسبوع القادم إن شاء الله.

ـ غير معقول.

ـ الله وكيلك. غير الشغل؟

تجمعنا على باب الفندق بصحبة حقائبنا الصغيرة، مثل كائنات هشة خائفات على ملابسنا من سيول البصرة. ركضنا إلى السيارات التي أقلتنا إلى المسرح لنلتقي بعدد من قيادات اتحاد النساء، وبعض القيادات الشعبية. عرفنا في الندوة أن الأهالي يخافون من إرسال أطفالهم إلى المدارس بسبب قذائف المدفعية الإيرانية. وأن المدينة تعاني بشدة من نقص تموين الطعام. ظهرت على المسرح فرقة البصرة الموسيقية فأسلمت روحي للمقام العراقي، ليدخلني إلى قلبه. ويقربني من هذا الإنسان الذي عرفته على مراحل. ولم يكشف لي عن نفسه مباشرة، بل راح يتفتح أمامي بحذر شديد، مثل زهرة خجلة من الندى لا تفتح بتلاتها إلا بضوء النهار. وبدت لي معرفته ضرباً من الخيال. فما زالت المسافة واسعة بيننا، فالحواجز دائماً قائمة، وكثير من التصورات التي تعرفها

ابنة العشرين تكون قاصرة عن فهم مفاتيح الشخصية، حتى لو كانت تتشدق بالثقافة، وتقرأ في التاريخ، وتتابع السياسة يوماً بيوم، والآن بعد مرور سبع سنوات على هذه المعرفة، ما زلت أشعر أنني أقف على عتبة الإنسان العراقي، ولا أفهمه كثيراً، على الرغم من شرف المحاولة. لكنني أحببته على كل حال.

حيك بابا حيك ألف رحمة على بيك
هذولا اللي عذبوني هذولا اللي مرمروني
على جسر المسيب سيبوني

انتصف الليل. تسربنا إلى القطار بهدوء مختلف تماماً عن صخب صباح الأمس. ياه بالأمس فحسب ركبنا القطار! استسلمنا إلى مقاعدنا، وإلى نوم طويل متقطع. شعرت بالعطش. وجدت يد ليلى ممدودة لي بالماء، كأنها موصولة بجسمي بحبل سري. أفقت مرات، متململة من جفاف الكرسي الخشبي، أو رتابة صوت اصطكاك الفلنكات. احتلت الشاشة أمامي صورة النساء اليقظات أو المستغرقات في النوم بأعمارهن المختلفة وجنسياتهن المختلفة، وملابسهن المتنوعة، وقد تجمعن تحت سقف واحد : القدرة على حب الحياة. علمتني مثل هذه الرحلات أننا نحن النساء أو (الرجال) المثقفات طبقة واحدة في العالم كله، بغض النظر عن الجنسية أو البيئة أو حتى الهوية السياسية أحياناً، نمثل فئة من الناس مشغولة بالبشرية جمعاء. تسعى حثيثاً لكي ينال الإنسان حريته ويعيش عدلاً اجتماعياً. رفيقات هذا القطار، وغيره من القطارات التي ركبتها، والطائرات التي حلّقت بها معهن إلى أي مكان في العالم؛ كن دائماً على أهبة الاستعداد لالتقاط شرارة الصداقة. بمجرد أن تقع عيني على إحداهن نعرف أن لنا تاريخاً مشتركاً لم نقله، وأن هماً تحمله أكتافنا حتى لو لم نتحدث عنه. نستطيع أن نفتح معاً أي موضوع من أي نقطة، ونصل إلى ما نريد من الحميمية والمعرفة أيضاً.

نمت وفي التاسعة صباحاً كانت ابتسامة "نجلاء" الواسعة هي أول ما وقعت عليه عيني وهي تسلمني علبة الإفطار. حركت عضلات جسمي، وأنا أريد أن أتمدد، وألقيت بثقلي كله على ليلى فصرخت ضاحكة. قمن مستبشرات بيوم جديد. رأيت بعضهن يقفن في الممرات. سرعان ما تصاعدت الأغاني. وعلى الرغم من انتباهي إلى الساعات

التسع الباقية حتى بغداد فإن شعورنا العام بأننا قطعنا أكثر من نصف المسافة جعلنا نبدو مرحات. امتلأ يومنا بالضجيج والأحاديث الجانبية، وفاضت الصديقات بما يختلج في صدورهن من قصص حزينة. لأول مرة أكون بينهن في كواليس المسرح وليس فوق الخشبة. وكأن السنتين اللتين غبتهما قد أعطياني حق الدخول إلى عالمهن الخاص. فتحن لي أبواب قلوبهن على مصراعيها.

وصلنا بغداد في ساعة عصر ممطرة بشدة. ودخلنا فرحات بالانعتاق إلى القاعات المرمرية البيضاء لفندق الرشيد بأحذيتنا شديدة الاتساخ. قالوا المساء حُر نستطيع أن ننزل فيها إلى الأسواق. فكرت في الذهاب إلى المكتب اليوم بدلاً من الغد كما خططت. اعتذرت للزميلات عن مصاحبتهن للسوق تفرقنا مثل قطيع غاب عنه الراعي. صعدت إلى غرفتي وأغلقت التليفون حتى انتهيت من حمامي ونمت ساعتين كاملتين. لاحظت توقف المطر، وكشفت بغداد عن مساء شتوي رائق. نزلت إلى بهو الفندق، سمعت صوت دفوف. ابتسمت، عروس عراقية ستقضي شهر العسل هنا. اعتادوا أن يزفوا العروس عصراً وليس ليلاً مثلنا. ووجدت موكب العروسين ينتهي، والأهل يلتقطون صوراً تذكارية معهم.صرخت: "نجلاء". غير معقول.

اندفعت نحوي "نجلاء" التي كانت معي منذ ساعات عائدة من البصرة.

قلت : ما هذا؟ مبروك يا حبيبتي مبروك يا عريس.

احتضنتني وهي تضحك خجلة : يبارك لك.

- حرام عليك. لماذا تكبدت كل هذه المشقة في يوم زفافك. لماذا لم تخبرينا؟ كنا على الأقل كفيناك شر سخافاتنا ومطالبنا الكثيرة.

- كنا مشغولين في الاتحاد، والحمد لله تم كل شيء على خير. نسافر غداً إلى الشمال، ونعود بعد أسبوع إلى بيتنا، ونقيم احتفالاً. ليتك تبقين.

قلت : نحن نبدأ باحتفال العرس وأنتم تنتهون إليه. المهم أن نفرح.

قال العريس : أنت تعلمين ظروف بغداد.

نظر نحو العروس قائلاً : هيا يا حبيبتي.

مدت يدها له وانطلقت الزغاريد حولهما. حاولت أن أزغرد مثلهم فخرج صوتي مضحكاً، رحت أرقبهما حتى اختفيا، وانسحبت الدفوف. خرجت من الفندق، ومشيت

فوق أسفلت مغسول ؛ حتى حصلت على تاكسي. تكاثرت غيوم صامتة، أخفت إرهاق النجوم الضعيفة، وعُزلتها. خيم الهدوء على الشوارع شبه الخالية، وعلى الزوايا المظلمة. قرأت فوق بناء وزارة التخطيط: "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة". انعطفت السيارة نحو أبي نواس. لم أجد الأنوار الصفراء والحمراء والزرقاء التي كانت تلعلع على واجهة البارات والمطاعم التي تحمل أسماء الألوان، ثم بار الفارابي، مطعم الوردة البيضاء، بار بحمدون، مشرب حرير. أليس هذا بار القبو؟ مطعم الجندول هذا مطعم هندي أتذكر. مقهى السدير. ملتقى لاعبو الشطرنج. تسرب ضوء خافت من إحداها. قرأت مطعم أم الجرة. قلت للسائق : توقف هنا.

شممت رائحة شاي يتخدر وسمعت شواءً يئن تحت طقطقات نار فحم هادئة.التفتُ ناحيتها. أبصرت الجمر يتوهج عبر الثقوب ؛ والرجل غارق في كنس الهواء يميناً وشمالاً. تذكرت أنني و"حاتم" رأينا "أنهار" في ذات المطعم مع شاب لم ألتقه مطلقاً بعد ذلك. جلست أمسح عن ذكرياتي فطريات خضراء، وصدأ أحمر نما في عتمة خزائن الروح. ظهرت أيامي جلية مثل سماء لبنية صافية، تعشش فيها نداهة تغويني بالارتحال وراءها، والغياب في متاهة فضاء سرمدي إلى الأبد. تذكرت الطبيبة راجية واختفاءها المفاجئ من المكتب وبغداد ومحور اهتماماتنا. ذهبت إلى بيروت لتعمل هناك بعد أن سببت الكثير من القلق للأمن العراقي، بحركتها الواسعة. التقيتها مرة واحدة بعد ذلك.

كنت مدعوة لحضور فيلم في نادي السينما وسط القاهرة، وعند باب الخروج لمحتها تحمل طفلة رائعة الجمال قدمتها لي قائلة : ابنتي "ميريت". زوجي "هشام".

كانت "راجية" مفعمة بالحياة. ظهر جمالها المصري الأخاذ. سمارها القمحي واحمرار خدودها واتضحت أكثر عيناها السوداوان الواسعتان المحددتان برموش طويلة من دون النظارة الشمسية الغريبة. تحركت ببساطة وسط مجموعة من الأصدقاء. كدت أسألها عن قضيتها، وماذا فعلت؟ لكني لم أسأل وحين أخبرت تانت "فائزة" بعد ذلك بلقائي بها تعجبت كثيراً قالت : هنا في مصر يا "نورا"؟

- نعم. ربما تكون قد حلت مشكلاتها مع الأمن. من يعلم؟

- غريبة جداً.

جاءت "راجية" إلى ذاكرتي بصديقتها "داليا".

أذكر أنها زارتنا بعد يومين من تلك الليلة الشهيرة يوم أن حقق معها البوليس في تهمة آداب من دون موعد كالعادة. كنا نكتب رسالة القاهرة، ولدينا أخبار مهمة لم تصلنا إلا مع نشرة وكالة الأنباء العراقية في الصباح. أدخلنا "داليا" إلى الصالة، وليس إلى غرفة المكتب، وجاءت تانت "فائزة" لتجلس معها ؛ إذ خرجت "ميرفت" مع "رشا" إلى السوق لشراء آخر احتياجاتهما. أنهينا عملنا، وقمت لاستدعيهما. سمعت طرقات مرحة على الباب. فتحت. وجدت أمامي "مها" و"فتح الله" قادمين من الموصل وهما في غاية السعادة. قال فتح الله :

قبلت أوراق "مها" في كلية الهندسة.

دخلت "ميرفت" و"رشا" ورحنا ثلاثتنا نقبلها بفرح ونقول :

الناجح يرفع إيده \هيه \والجد في عيدنا وعيده \هيه.

دخلنا إلى غرفة المكتب، وأتيت للجميع بزجاجة عنب أسود بدلاً من الشربات الأحمر في أفراحنا المصرية، ورحنا نثرثر في كل الموضوعات المرحة. فوجئنا بداليا تقول غاضبة : أنا ذاهبة.

انتبهنا. كانت تقف وفي عينيها دموع متحجرة لم تنزل بعد. اتجهت بسرعة إلى الباب ولم تعط لأحدنا فرصة لاستبقائها. رفضت راكضة فوق الدرج. قلت في نفس : يا الله! أخيراً تحرك الجبل وانصهر الثلج. ظهرت لـ"داليا" مشاعر. فتح الموضوع للنقاش.

قالت "مها" بهدوئها الذي نحبه : تنتهي مواعيد عملها في الثالثة صباحاً بالفعل، وهذا ما ثبت في محضر البوليس، وكان في صالحها، وكان أحد المصريين العاملين معها يوصلها بالسيارة إلى البيت، وكانت السيارة تحمل لافتة "كويت للتصدير" لأن إجراءاتها الجمركية لم تنته بعد، وهذا ما أعطى لصاحب الشقة الحق في الشك على الأقل وإن كانت بريئة. لكن المشكلة الحقيقية أنها تسهر في حفلات حتى الصباح.

أردفت : أريد أن أقول لكم إنني مندهشة بشدة لأن تتصف فتاة بهذا السلوك. لا أقصد السلوك الأخلاقي لا سمح الله، فهي بريئة فعلاً، لكن اللامسؤول.

تأملت "مها"، وعمرها الصغير، وقراراتها الحاسمة، وانتبهت إلى كلمات تانت "فائزة" تسألها : هل هي منظمة؟

قالت : نعم في تنظيم انتهى بإشاعات كثيرة، وكانت "داليا" زميلة لـ"سوسن" في المعتقل. وسببت هي وجماعتها مشكلات كثيرة جداً. وقد أعلنت "سوسن" عدم استعدادها للتعامل الإنساني معها بسبب خبرتها السابقة تلك.

قال "حلمي": بل أختها هي التي كانت في التنظيم.

قلت: كيف يا أستاذ "حلمي"؟ أنا أعرف أنها في تنظيم راجية : الصواريخ - ضاحكة -

أطرق "فتح الله" وهو يبتسم : نعم. وإن كانت "راجية" قد انشقت عن التنظيم مع زوجها، حتى قبل أن تأتي إلى بغداد.

قلت مذعورة: ولكن "راجية".

قال "فتح الله" خجلاً : جمعت تبرعات قبل رحيلها باسم الحزب وأخذت النقود وسافرت. هو تنظيم غريب التكوين. تسبب لنا في مشكلات كثيرة، وكان يدخل في عراك مع الإدارة بلا سبب، وكنا نقف معهم في مواجهة الإدارة فينسحبون إلى عنابرهم، وينصب علينا غضب الإدارة، وكان من نتيجة هذه التصرفات أنني أصبت بجرح، احتاج إلى سبع غرز في رأسي.

خفض رأسه حتى نرى أثر الغرز العميقة الخالية من الشعر.

لاحظ "حلمي أمين" بعد فترة أنني أكتب في روايتي الجديدة عن "داليا". سألني: لماذا؟

قلت : هي شخصية درامية من طراز فريد.

قال : "نورا" لا يعجبني ما تكتبين في هذه الرواية. ستدينين تياراً سياسياً مكافحاً من أجل الوطن بسبب نزق أفراده، أو تصرفاتهم الصغيرة.

قلت : لكن أعظم الثوار هو في النهاية إنسان.

قال : نعم. لكن اتركي هذا إلى حين تدركين الحياة، والنفس البشرية بدرجة أعلى، وأجّلي هذه الرواية. ربما ترين في هذه الشخصيات جوانب لا ترينها الآن. اكتبي عن أي موضوع آخر.

قرأت ما كتبت عن المغتربين المصريين، وفهمت ما يرمي إليه "حلمي أمين". كنت أحب هدوءه وقدرته على إقناعي، وكنت أعرف أنه يهتم بإنتاجي بشدة. توقفت عن كتابة هذه الأوراق. وأمسكت ورقة بيضاء وقلماً ورحت أكتب كل يوم دون كلل. حتى فاجأته ذات صباح قائلة : هذه روايتي الأولى.

بعد هذه السنوات هل تغير موقفي من الشخصيات؟ نعم. تغير كثيراً الآن. أصبحت أكثر تقديراً لهم، أكثر تسامحاً، وأكثر إدراكاً للثمن الذي دفعوه. أفقت من شرودي مرتبكة، نادمة على عدم استمراري في الكتابة، وتسجيل حرارة تلك الأيام بغض النظر عن نشرها. الذاكرة خؤون تحرق، وتحصن أزمانا وتترك لي الباقي رماداً ملوثاً بالحزن. تنبهت إلى الساقي الواقف أمامي، وهو يسألني إن كنت أشرب شيئا قبل العشاء. قلت : شاي عيني رجاءً.

تابعت حركته وهو يمضي خفيفاً. رأيت في الركن خلف خشب البغدادي عشرات من زجاجات البيرة مصطفة فوق طاولات الشباب. تذكرت أن كلاً منهم يحجز العدد الذي يريد أن يشربه، ويضعه أمامه فوق الطاولة. برقت في نهر الذكريات سمكة. حاولت اصطيادها. استدارت ونظرت نحوي نظرة عميقة، فارغة، اقشعر لها جسدي. نظرة ضرير.

قال "حلمي أمين": "صلاح عبد الصبور" هنا، وينتظرنا في فندق بغداد.

اصطحبناه إلى جامع الامام الكاظم، قضينا يوماً ممتعاً معه. إنسان جميل مهذب. أعشق شعره. أخبرته بهذا من فوري، وأنا أقدم له كتابي عن الخالصة، ثم طلبت منه أن أجري معه حواراً. أخبرني أن وقته ضيق بشدة، وأنه يستطيع إذا ما كتبت له الأسئلة أن يجيبني عنها في الليل. حاولت أن أثنيه عن موقفه ؛ فالأسئلة تفجر أسئلة أخرى. قال: لا أستطيع. تدخل "حلمي أمين" وقال : أكملي ما تجدينه ناقصاً بحوار معه في اليوم التالي. وافقت مرغمة، ثم مررت به في الصباح وأخذت الإجابات إلى المكتب لأراجعها.

قال "حلمي أمين" : لم يرحبوا به بما يليق. لا يعجبهم موقفه السياسي، ويفضلون التعامل مع "أحمد عبد المعطي حجازي".

قلت : كتب "حجازي" في الصحف العراقية قبل سفره إلى باريس، وما زال يكتب حتى الآن. "حجازي" منفي. هل لابد بالضرورة أن يدخل كل مثقف في معركة مع السلطة؟

- لا. لكنها في النهاية مواقف. و"صلاح" موظف مصري تقليدي.

- "صلاح عبد الصبور" ليس "يوسف السباعي"، ولا "ثروت أباظة". هو أكبر شاعر معاصر. ألا يكفي هذا؟

- الشاعر موقف يا "نورا"، ولا أحد يشكك في وطنية "صلاح"، لكن السلطات العربية تستغل التعامل مع المثقفين تبعاً لأهوائها.

- سأذهب للبحث عن قبر الحلاج، وأكتب عن "صلاح عبد الصبور"، ومسرحيته الشعرية التي ستبقى في وجدان الناس إلى الأبد.

كنت قد تعلمت من زيارة قبر "زمرد خاتون" من أين أحصل على المعلومات التي أريدها حتى أصل إلى الآثار والمزارات العراقية. لكن قبر "الحلاج" لم يكن له أي أثر، في أي مطبوعات عراقية. أخبرني بعض الزملاء أنه لا مفر من البحث في مدافن الكرخ التقليدية. وقرر "حلمي أمين" ألا يتركني أذهب وحيدة إلى المقابر في هذه المرة أيضاً. اتفقنا مع تاكسي على أن يأتينا في السادسة صباحاً، قبل أن يبلغ حر بغداد آخر مداه في شهر أغسطس (آب). درجة الحرارة غير المعلنة تتخطى الخمسين مئوية. وأنا صائمة. قابلنا بعض الزوار. أعطانا كل منهم وصفاً مختلفاً. راح التاكسي يدور بنا لأربع ساعات في اتجاهات متفرقة. يتركنا أمام أحد الشوارع الفرعية. ندخله مترجلين، ثم نعود إليه دون أن نصل إلى شيء. قابلنا بالصدفة أحد العاملين في المكان. وسألناه بعد أن كنا قد قررنا العودة يأساً. أشار الرجل إلى الأمام، وأعطانا اسم شارع، وقال سيروا حتى تجدوا يافطة مكتوب عليها اسمه. وقفت أتطلع إلى المشهد أمامي. لحود بلا نهاية تطال الأفق. لم أصدق. ابتكرت الحرارة السراب، ارتفعت الحجارة وتحركت أمامي بألوان التراب تحت وهج الشمس. مشينا حتى ابتلعتنا اللحود، وأغرقنا التراب، ولم يعد أحد يستطيع التمييز بيننا وبينها في الفراغ السرمدي. فارق زمني خافت تركنا نسير حثيثا فوق الأرض لا تحتها وجدنا اللوحة، وعليها اسم الحلاج. اتبعنا السهم حتى وقفنا أمام بناء صغير من غرفة واحدة قصيرة كتب فوق أحد جدرانها: قبر الحلاج

وقفت أمام شاهد مغطى بقماش أخضر من الساتان المهترئ الشديد القذارة، أبكي.

قال "حلمي أمين": لماذا البكاء؟

ـ فقير في زمنه. وفقير الآن. وفقير إلى الأبد.

ـ كان زاهداً.

ـ كان فيلسوفاً وثائراً. وهذا هو الجانب الذي نحبه فيه، وما بحث عنه صلاح عبد الصبور.

عدنا من حيث أتينا. كنت أقاوم الإغماء من تأثير حرارة الشمس في الفراغ الصحراوي الرمادي. لا شجرة، لا زهرة. يا إلهي. لساني أشد صمتاً من شاهد قبر. شممت رائحة التراب، والزمن العتيق. شممت الموت، القهر، وشممت رائحة حزني المحترق بنيران العجز والغضب معاً. أردت أن أقول لمنصور الحلاج كم أحبه، وأن أضمه إلى صدري. أضمه وكفى. انكفأت على ضلوعي أخفي بؤسي حتى لا يشع، ويغمر العالم. وصلنا إلى المكتب، وقد اعتلت شفتاي قشرة صلبة سوداء. حاول "حلمي أمين" أن يثنيني عن العودة إلى البيت لكني نزلت وواجهت حر آب مرة أخرى.

تحت الدش فرّت من جسمي طقطقات الغيظ الحمراء وسموم القهر السوداء ومرارات العجز الزرقاء. رحت أنظر إليها وهي تتداخل في دوائر وتتحد في قوة لون واحد كابٍ، والحائط يمتصها ببطء حتى اختفت، تاركة مكانها في قلبي شعوراً عميقاً بالفقد. كأن "الحلاج" قد مات في التو. رحت أبكيه بهدوء، حتى زارتني عينا صلاح عبد الصبور الصافيتان. قلت ستظل معركة المثقف مع السلطات قائمة إلى الأبد. وأنت يا أرض العراق ما كل هذا الذي يمور بك؟ ولماذا جئت إليك؟ أهو من حسن حظي. أم من سوئه فمن المستحيل أن يعرف صحفي عربي بلاده دون أن يدرس العراق. مسألة صحافة إذن؟ بالقطع لا. لا. في المساء اقترب مني "حاتم" وأنا أمسك بمسرحية "صلاح عبد الصبور" وراح يقرأ معي الحوار :

يقول هو الحب، سر النجاة، تعشق تفز
وتفني بذات حبيبك، تصبح أنت المصلي،
وأنت الصلاة

وأنت الديانة والرب والمسجد
تعشقت حتى عشقت، تخيلت حتى رأيت
رأيت حبيبي، وأتحفني بكمال الجمال،
فأتحفته بكمال المحبة
وأخفيت نفسي فيه
أبو عمر: صمتاً، هذا كفر بين
ابن سريج : بل هذا حال من أحوال الصوفية

سحبني "حاتم" إلى السرير وهو يشير إلى رأسي قائلاً : ماذا أفعل بعقلك هذا؟ كل العالم هنا. ألا تتعبين من الازدحام؟ أنت في حاجة إلى "إشارجي". ارحمي نفسك.

خذني في حضنك.

لماذا هذه الدموع. مات من مليون سنة؟

لم يمت. اقرأ باقي الحوار.

"ابن سريج" : هل أفسدت العامة يا "حلاج"؟

"الحلاج" : لا يفسد أمر العامة إلا السلطان الفاسد يستعبدهم ويجوعهم.

أمسك بخصري : أنا أريد هذا. وهذا. عاش "الحلاج" ما أراد. وعلينا أن نعيش ما نريد.

لعبت ريح هاربة من عتمة الطريق في أرجاء مطعم أم الجرة بشارع أبي نواس، وسمعت صوت الباب وهو يغلق خلف أحد الداخلين. تذكرت برودة الخارج وتناسخ أيام لها نهار معتم.

انطفأت التماعات السنوات الأولى للحياة في بغداد على الرغم من نجاحات "حاتم" في المصنع، واكتشافي لمناطق جديدة في الكتابة. واستعادتي لابني "ياسر" ليقيم معنا. اكتسبت مع الأيام صفات جديدة علمها لي الصمت الذي فرض عليّ : التأمل، والحفر في الداخل، وإنشاء حصون وقلاع تحميني من عصف الزمن. دخلت إلى

نفسي للمرة الأولى، وتعرفت عليها، وأصبتها ببقع داكنة تحتاج إلى أنهار من البهجة كي تغسلها. حاول "حاتم" أن يسحبني من الغرق داخل نفسي بوسائله البسيطة. لم تستطع روحه المطمئنة أن تهبني الأمان. كانت العواصف قد بدأت رحلتها، واكتسحت في طريقها كل من لم يتجذر في الأرض الطيبة. يا إلهي كم أنا وحيدة. أمسكت بطرف خيط صوفي. ورحت أغزل جاكيتاً " لياسر"، ثم "لحاتم"، ثم لي. أبدلت الألوان، وأعدت الكرّة حتى ملأت الدولاب بكل ما طالته يداي دون أن أُسكت صفير الخواء الذي يتخبط في عتمة روحي. تلفتُ حولي. رأيت "حاتم" خارج قلعتي المحصنة يؤدي كل الأدوار المطلوبة، ويعيش حالة سلام، محدداً أهدافه، لا يتورط فيما أنا متورطة فيه، يفهمني دون أن يغير حالي، كأنني أتحرك أمامه خلف زجاج لا مرئي. يراني ولا يراني. يشاركني بالكلام. لا يشعل النار في عظامي ولا يطفئ الفرح. موجود فحسب.صرخت في طابور النمل الذي أمسك ببلعومي من الداخل، وراح يتسرب في حقد إلى حنجرتي، وينتشر في سقف حلقي: ماذا تريدين أكثر من هذا؟

لم أجد جواباً. ولم أستطع أن أسأل صديقاتي المنشغلات بحياتهن، ولم أستطع أن أسأل صديقي "حلمي أمين" عما أعاني. فقد كنت أراه مثل أسد مأسور في قفص ضيق. يدور. ينظر إلى الأفق البعيد، وهو يبصر لا أحد. يعود إلى الدوران، يختبر كل جزء من السور دون كلل. يدرك أن الأرض مغلقة الفضاء أشعر باختناقه كل يوم، أتمنى أن تعود "أنهار خيون" إليه، فقد وهبته حياة مفعمة حتى بآلامها. تخفف عنه زيارة تانت "فائزة" والبنات أحياناً، ثم يعود أشد بؤساً بعد أن يتركوه وحيداً. تغير كثيراً منذ التقيته لأول مرة. كان متفائلاً في أشد اللحظات سواداً. يعرف ما يريد، ولا يخشى رد الفعل. أصابته سنوات المنفى بغيمة من التجهم، حلقت فوق رأسه، ورافقته حتى فاضت ذات يوم. وسمعته يقول لي :

"أريد أن أسافر إلى بيروت وأقابل أصدقائي. أريد أن أشم هواء البحر الأبيض المتوسط."

بعد أسبوع صعدت درجات سلم بناية الشيخلي، وأنا لا أعرف إن كان قد وصل أم لا. بيروت على بعد خطوات من بغداد. لم يتصل بي كما يفعل حين يسافر، ولا أعرف متى يعود. رأيت انعكاس الضوء من تحت عقب الباب. قرعت الجرس. جاء صوت نحنحته : أهلاً "نورا".

- حمد الله على السلامة ما أخبار "بريوت[1]"؟
- الكثير من المفاجآت. هل تذكرين "سلافة" الفتاة الكردية الجميلة زميلة "جمال أبو سرجون"، والتي كانت تزورنا أحياناً؟
- نعم. ما بالها؟
- في بيروت هاربة. قبض عليها في بغداد لعدة أيام، ثم أفرج عنها ففرت مع خطيبها.
- الله. الله. ما هذه الأقدار والمصائر الغريبة؟ من يصدق أن هذه الفتاة الحلوة الوديعة تعيش الآن في المنفى، وفي بيروت وسط كل هذا التوتر؟
- دعتني إلى بيتها وقدمت لي طبق كبة، وحكت لي القصة. شيء محزن. التقيت أيضاً "هادية حيدر". هل تذكرينها؟
- نعم الصحفية اللبنانية زوجة "جليل حيدر". كم أحب وجهها الصبوح!
- هما في بيروت الآن.
- هل رأيت "راجية"؟
- نعم. تعمل هناك، وتحاول دخول اليمن الجنوبية. لكن اليمن يشترط موافقة الحزب الشيوعي المصري. وباعتبارها من حزب آخر فإن بعض الرفاق ما زالوا مترددين في القبول.
- اتصلت "راجية" قبل أن ترحل من بغداد بالقنصلية اليمنية فحددوا لها موعداً، وفي هذا الموعد اعتقل القائم بالأعمال، وتوترت العلاقات بين اليمن الجنوبي والعراق كلها- ضحكت- ودي كانت نهاية فرقة الست "راجية". أقصد فرقة عكاشة المسرحية.
هز رأسه قائلاً: ليس تماماً.
قلت: احكى لي ماذا فعلت؟

جاء الساقي بإبريق لبن مخثر مالح، ودورق ماء صب من كل منهما كوباً. أمسكت بكوب اللبن، وأنا لا أستطيع أن أبعد ذهني عن الأيام التي تهرب من أسرها

---
[1] بريوت: بيروت.

نحوي حتى استولت على عقلي تماماً. فترة تناقصت فيها أعداد المثقفين المصريين الموجودين في بغداد ـ النجوم بصفة خاصة ـ رحلوا إلى بلاد أخرى.

سافر "أحمد عبد المعطي حجازي" إلى باريس ولحق به "محمود السعدني" وأصدر مجلة ٢٣ يوليو، وسافر "أمين عز الدين" إلى لندن وأنشأ مركز الدراسات العربية. وتردد "أحمد عباس صالح" على لندن استعداداً للاستقرار بها، وترك "عبد الغني أبو العينين" بغداد إلى مكان آخر. وحين تغيرت الأحوال في بغداد، بعد انهيار الجبهة طرحت تانت "فائزة" على "حلمي أمين" الرحيل إلى فرنسا أو لندن. كانت تدفعه دفعاً إلى المغادرة، وكنت أشعر أنني بشكل ما وراء خوفها، ولم تكن في يدي وسيلة لكي تطمئن غير تقربها مني ومن أسرتي الصغيرة لكي تدرك أنه لا مجال لهواجسها. لم أستطع أن أخبرها أن الخطر عليها قد زال باختفاء "أنهار خيون". بعض الأصدقاء قالوا إنهم قابلوها في المجر، وبعضهم قال إنه سمع أنها في كاليفورنيا. لم يأت إلينا خبر يطمئننا. كنت أشعر بآلامه، وإحساسه بالمرارة، أو الخوف عليها، تفلت منه بعض الكلمات القليلة عنها، ويصمت. ثم يقول: من يعلم؟

أقول: يا ترى أنت فين يا "مرزوق"؟ ودي كانت نهاية فرقة أقصد "أنهار" المسرحية !!

يضحك ويعود إلى الصمت. لم نعرف أغادرت العراق بالفعل. أم هي في السجن؟ لم يأت خبر واحد عن اعتقالها. وهو ما أضفى بعض الراحة المؤقتة. ولكن السؤال عنها ظل معلقاً.

وصلنا خطاب باليد. تسلمته من أبي "غائب". قرأه "حلمي أمين"، ثم قدمه لي.

عزيزي "حلمي"

اضطررت للرحيل. أنا في مكان آمن. حين أستقر سأخبرك. لا تسأل عني. ولا تشغل بالك. تركت لك هذا الخطاب حتى تطمئن.

"أنهار خيون"

قلت: هذا خطها بالفعل.

قال: قبل الرحيل. هل هناك ضمان واحد أن تكون قد رحلت بأمان بالفعل؟

قلت : لا. لكن علينا افتراض الخير.

لا أستطيع أن أحكي لتانت "فائزة" هذا بالطبع، على الرغم من أنها عرفت بغياب "أنهار". عرفت من "ميرفت" أن أمها كثيراً ما كانت تشك في أبيها، وأن تانت "فائزة" كانت تتدخل بينهما بسبب الصحفيات المتدربات معه. قلت لـ"ميرفت" ضاحكة :

"أمي أحياناً تشك في أبي على الرغم من أنه بعيد تماماً عن الهوس بالنساء. ويبدو أن الأمهات خائفات دائماً من الفتيات الصغيرات من دون مبرر."

نظرت إليّ "ميرفت" ضاحكة، وهي تزم عينيها. كانت تعرف أنني مطلعة على كل أسرار أبيها. وتعرف أنني لن أنطق حرفاً. تصاعدت ضحكاتنا. كنا صديقتين حقيقيتين.

وقع صدام هائل اليوم بين "حلمي أمين" و"فائزة". كنا قد جهزنا رحلة إلى الزوراء. يفرح "ياسر" ببنات "حلمي أمين". ويحب حلمي الركض وراء "رنا" فوق العشب. أخذنا حمامة من الورق لها موتور يدور بالزمبلك، فتنطلق إلى السماء. لاحظنا أن عدد دوراتها وبقاءها محلقة يتوقف على قدر عدد اللفات التي ندير بها الزمبلك. رحنا نلفه أكثر، ونتسابق في الوصول إليها قبل أن تقع، ونحسب نقطاً لكل من يصل إليها أولاً. ثم تعبنا. عدنا إلى طاولة الكبار ونحن نضحك. كنا نسمع حوارهما عن بعد، ونشعر بالتوتر، لكن ليس باليد حيلة لإيقافه. لم يهتما بوجودنا، حاولنا أن نحدثهما في موضوع آخر دون جدوى.

قال : لن أذهب إلى باريس. الكاتب مدحت كمال يمسك بـ"الفيولين"[1] ويعزف به في الشارع. هل تعرفين كلفة الحياة في باريس؟ مجرد الحصول على شقة؟ حجازي يدرس اللغة العربية في الجامعة ؛ لأنه شاعر كبير معترف به ؛ وخرج من وقت مبكر. مجلة ٢٣ يوليو لا تحتمل مثل أجري لأن ميزانيتها قائمة على الدعم، وليس على التوزيع وما زالت إعلاناتها لا تكفي سعر إصدارها. أقصى ما يمكن أن تعطيني إياه هو ثمن مقال لا يكفي للحياة في باريس أسبوعاً. أنا أحصل هنا من جريدة الجمهورية على مرتب بسيط صحيح، لكنه يكفي دفع إيجار الشقة، والإنفاق عليكن في مصر. ما يتبقى من عملي الصحفي الحر، إذا تبقى شيء، ادخريه للبنات وزواجهن.

---

١ الفيولين : الكمنجة .

قالت تانت "فائزة" : لدينا بعض المال الذي يكفي لكي تستمر في باريس دون عمل لعدد من الشهور حتى تعمل في جريدة عربية. أنا لا أحب لندن لكن "أحمد عباس صالح" حدثني عن إمكانية العمل في المركز الذي افتتحه "أمين عز الدين" وهناك مجموعة جيدة. و"محمود العالم" في باريس. تستطيع الاستمرار في الكتابة في جريدة الجمهورية وتحصل بالتالي على نفس المرتب، ويكون الفرق الوحيد هو في إيجار شقة باريس، تعوضه بمقالات ٢٣ يوليو.

قال : لن يقطعوا مرتبي ما دمت باقياً هنا. هم يعتبرونه إعانة منفى. حتى إن لم ألتزم بكتابة مقالي الأسبوعي. لكن إذا تحركت حركة واحدة إلى الخارج فسيقطع من فوره "ما يصدقوا". أنا شيوعي مصري ألا تفهمين؟ الظروف تغيرت. لو اختلت المسألة هنا فستموتون جوعاً.

قالت : ستظل بغداد غير آمنة، وسأظل خائفة من اعتقالك لأي سبب، ومن وصول السادات إليك بأي شكل. في باريس الأمر مختلف. أنت هناك في شبه حماية دولية. إذا لم تعجبك باريس سافر إلى الاتحاد السوفييتي، أو إلى إحدى الدول الاشتراكية.

ارتفع صوته قائلاً : ملأ الشيوعيون العراقيون جميع الأماكن المتاحة في أي دولة شيوعية. غزوا أوروبا بأعداد هائلة، وأصبح وجود مكان واحد آخر لمثقف عربي مستحيل تقريباً. وهم يفتحون بيوتهم لزملائهم العراقيين، ويرعونهم حتى يجدوا عملاً. أين أذهب أنا ؟

قالت غاضبة : أليسوا أصدقاءك؟

قال يائساً: نعم. لكنهم لا يجدون قوت يومهم.

قالت : لا يقنعني هذا الكلام. ما سر بقائك هنا ؟ هذه ليست بلادنا ، وليست آمنة.

أجهشت بالبكاء، وقامت البنات وأحطن بها. قالت "ميرفت":ماما. كل يوم. ألا تتعبين؟

قالت "فائزة" : لن أكف عن هذا الطلب حتى يمشي من هنا. أريده أن يرحل من هنا.

أخذت "ياسر" ورنا في يدي وطلبت من "رشا" أن تأتي معنا لنشتري ساندوتشات. سمعت وأنا أبتعد صراخه. أصيب بهستيريا حقيقية لفت انتباه الناس فوقفوا يتطلعون إليهما. ساعد هدوء الحديقة على انتشار الصوت عى الرغم من العزلة التي تصورنا

أننا نمتلكها ببعدنا عن أماكن تجمع الناس. رحت أبكي في صمت. قال "ياسر" :أنت تبجي[1] لأن "رنا" أخذت الحمامة؟

قلت : لأننا نسينا أن نحضر الكرة معنا.

قالت "رنا" : نلعب بالحمامة يا "تانت".

احتضنت "رشا" وقلت لها : لا تخشي شيئاً. تانت "فائزة" خائفة على أبيك من أن يتعرض للاعتقال هنا. وهو لا يمارس أي نشاط سياسي يعرضه للاعتقال. المشكلة الوحيدة التي قد يتعرض لها هو أن يطلبوا منه الرحيل عن بغداد، وهي معذورة في خوفها، وشكوكها. وهي تسمع كل يوم عن اعتقال واحد من أصحابه العراقيين. هذه أنظمة لا يؤمن لها أبداً.

جاءت "ميرفت"، قالت : هدأت قليلاً.

ترى هل كان "حلمي أمين" يؤمّن مكاناً ثابتاً حتى تصل إليه "أنهار" في أي وقت؛ حتى لا يضيعا من بعضهما إلى الأبد إذا سافر إلى مكان آخر؟ لكنه صحفي. يوقع مقالاته، وسوف ينتشر خبر انتقاله إلى أي جريدة عربية. وستصل "أنهار" إليه حتماً. ما سر ارتباطه ببغداد؟ أهو فعل الأمن المادي وحده. أم أن هناك شيئاً آخر لا أعرفه ولم يصرح به؟ ربما تكشفه لي مذكراته. لماذا لا أعطي وقتاً أطول لهذه المذكرات؟ لماذا أقرؤها بالقطارة؟ أخائفة؟ نعم. لماذا؟ لا أعرف، ربما لأني لا أريد أن أعرف حقاً. ربما أريد أن يظل كل ما حدث لنا أسطورة، كشفها يضيعها، يضعها في مصاف العادي واليومي حتى لو كان اليومي لمناضل.

وضع النادل أمامي "بندورة"، وبصلاً مشوياً و"تكة"[2] وخبزاً ساخناً، وقال : بالعافية. شكرته، وأنا أتمنى لحظة راحة. ذكرتني رائحة الطعام بالجوع. مددت يدي إلى البصل ذي الريق السكري، ورحت أمضغه ببطء محدقة في الفراغ. أتابع خيالات تقوم وتقعد، وتصنع رقتها. تمنيت أن أعود إلى بيتي في الدورة، وأن أجلس فوق الأرجوحة المعدنية في الحديقة وحاشيتها التي تعرف جسدي جيداً بجوار شواية الفحم وأسمع صوت طقطقته وأتابع "ياسر" وهو يركض وراء "حاتم" الممسك بفحول البصل وهو يصرخ قائلاً :

---

١ تبجي : تبكي .

٢ بندورة : طماطم ، تكة : قطع لحم صغيرة .

اتركني أضعه في النار.
و"حاتم" يجيب : النار تلسعك.

جاء صوت ضعيف يغني من بعيد.
سمراء من قوم عيسى/ من أباح لها قتل امرئ مسلم قاسى بها ولها
أردت بيعتها أشكو القتيل لها/ رأيتها تضرب الناقوس
أشرت إلى النادل أن يرفع الصوت قليلاً وتركته يتسرب إلى أذني ويعيد لي ذكرى شرائي نفس الشريط للمرة الثانية.

مر وقت طويل، منذ آخر زيارة لبنات "حلمي أمين"، وتانت "فائزة". كان وصول أي خطاب من العائلة يبعث فيه الفرح، ويعيده إلى النشاط. أعرف الخبر من فور رؤيتي له مبتسماً في الصباح بدلاً من العبوس الذي حفر أخاديده في وجهه في الشهور الأخيرة بأحداثها المتلاحقة. حين وصلت إلى المكتب لم يكن قد استعد للعمل بعد. لم يحلق ذقنه منذ أيام، انتشر فوقها زغب أبيض خشن. يرتدي نفس البلوفر، والقميص الذي كان يرتديه حين تركته عند الرابعة عصراً. الفارق الوحيد أنه استبدل الحذاء بالخف. ظهرت آثار السهر فوق عينيه المنتفختين، وأنفه المبرقش كأنه أصيب في وجهه بضربة قاضية من ملاكم محترف. لاحظت شحوب شفتيه. قلت بصعوبة والمفاجأة تلجم لساني: صباح الخير.

قال عابساً، وهو يبعد بيده المتكلسة سيجارة احترقت عن آخرها ووقع رمادها فوق صدره : أهلاً "نورا".

دخلت غرفة المكتب. وجدت مطفأة السجائر طافحة بأعقاب جراحه وتبغ عزلته ومرارة ترقبه. ولاحظت انتشار زجاجات البيرة، والفودكا الفارغة. لا أثر لبقايا طعام. رسالة صغيرة فوق المكتب محترقة الطرف، مفتوحة بجوار الظرف. يا إلهي كيف وصلت النار إليها؟ هل من السجائر؟ معقول.

سمعت باب الحمام وهو يغلق. جلست على المكتب وأخرجت المقال الذي كنت قد بدأت في كتابته بالأمس. لكني لم أستطع أن أبدأ العمل، والحال هكذا. تأملت الموجة

الكبيرة التي تنقلب في اللوحة المعلقة أمامي فوق الحائط، والسفينة الشراعية التي تلوح في الأفق عن بعد. حملت الزجاجات الفارغة وألقيت بها إلى القمامة. وجمعت طفايات السجائر والأكواب فوق الصينية. حملتها إلى المطبخ. نظفت المكان بسرعة قبل أن يأتي أبو "غائب" "الفراش"[1] ويشاهد ما حدث ليلة الأمس. كان "حلمي أمين" يحرص دائماً على بقاء المكتب مكتباً وليس سكناً حتى حين تنتهي ساعات العمل. أشفقت عليه. لا أعرف ماذا حدث هنا بالضبط، ولا أعرف ماهية هذا الخطاب المشؤوم وماذا جاء فيه. منذ عاد من بيروت وأحواله في اضطراب شديد. يتحدث عن المنفى طوال الوقت. أغلقت الخطاب ووضعته في الدرج، وجلست أكتب باقي مقالي، ثم خرجت بعد قليل لأجهز لنفسي كوباً من الشاي. لاحظت أن غرفة نومه مفتوحة نافذتها. وأدركت أنه ربما يكون مستلقياً أو نائماً. كانت قد مرت ساعتان كاملتان دون أن أسمع صوتاً واحداً. جهزت الأوراق التي سأصحبها إلى وزارة الإعلام العراقية، وناديت عليه:

طرقت الباب، ودخلت. كان متكئا بملابسه الرسمية على ظهر سريره، والسيجارة محترقة عن آخرها في فمه. والغرفة أشبه بساحة حرب.

- ماذا حدث؟

- لا شيء.

- أرجوك أخبرني. سأصب لك كوباً من الشاي، أو اللبن مع قطعة من الكيك.

– اذهبي إلى عملك.

- من أجل خاطري.

- "نورا". امشي. اتركيني أنام قليلاً.

- واضح أنك على لحم بطنك منذ الأمس. متى أكلت آخر مرة؟

- معك ظهراً.

أخذت له الكيك، واللبن. أطاح بالصينية بعنف. وقع اللبن فوق الفراش وأخذ الكوب طريقه إلى زجاج الشرفة قبل أن يصل إلى الأرض، وتنتشر فتافيته فوقها. فاجأتني الحركة. وقفت مذهولة بعد أن تراجعت إلى الوراء خطوتين.

---

١ الفراش : العامل .

ـ ماذا حدث؟

قال والشرر يتطاير من عينيه اللتين تحولتا إلى لون الدم : أقول لك اخرجي. اذهبي إلى عملك وعودي بسرعة.

ـ هل كتبت مقال جريدة الجمهورية؟

ـ نعم. خذيه معك أيضاً. هو في درج المكتب.

أخذت الأوراق. وأغلقت الباب ورائي. فكرت أن أطرق الباب المجاور له، وأسأل الدكتور "مايكل" إن كان قد رآه بالأمس. وقفت مترددة، ثم فتحت لي تانت "فيوليت"

قالت : أهلاً. أهلاً. أين أنت؟ الباب في الباب ولا نراك إلا لماماً.

قلت : مشغولون والله طوال الوقت. ما أخبار الدكتور "مايكل" وأبينا "هيدرا".

قالت : الحمد لله. لا نرى الأستاذ "حلمي" كثيراً هذه الأيام. أين هو؟

قلت : موجود. أردت أن أصبح عليك.

قالت : يسعد صباحك.

لا تعرف تانت "فيوليت" أي شيء. على الرغم من الصداقة القوية بينه وبين الدكتور "مايكل"، لا أظنه يقول له أي معلومات عن وضعه السياسي. هو بالنسبة إليهم مجرد مدير مكتب مجلة مصرية. فكرت أن أتصل بـ"عبد الرحيم"، أو "عاطف". لكني أدركت أنهم ما زالوا في العمل الآن. لماذا لا أتصل بـ"سوسن" وأحدد معها موعداً بأي حجة؟ راجعت أحداث الأيام القليلة الماضية. ثقلت الوحدة عليه، وازداد إحساسه بالمنفى. وبأنه يعيش في مركب تقف أمام جزيرته ممنوعاً من دخولها. يذكر سنوحي طوال الوقت، ويكتب متألماً كأنه سجين.

ـ لكنك لست سجيناً.

ـ النفي أصعب من السجن. أنا بعيد عن حبيبتي.

حين عاد من بيروت متورد الوجه عابثته : كل هذا الفرح من "المقررات السهلة"[1]؟

ـ بل هو من هواء البحر. من اليود الذي ملأ صدري. جلست على الشط أتابع الموجات؛ حتى ترسو على شاطئ مدينتي، وتأتيني بالعبير القادم من هناك. وقد أحسنت التصرف. وأعطتني كل ما أنشده.

---

١ عبارة من مسرحية "مدرسة المشاغبين".

- أأنا الشاعرة؟
- مصر هي التي تجعل أبناءها شعراء.
- أخبرني بالحقيقة، ولن أقول لتانت "فائزة" : كم مقررا أنهيت؟
- الموضوع ليس موضوع بنات. وأنت تعلمين. لو أريد بنات فسأجدهن هنا مثل القمر.
- بنات عشتار. كاهنات المعبد. ربنا يرزقك يا سيدي.

منذ عاد وهو يشعر بالأسى، وعلى الرغم من أن وزارة الإعلام العراقية قد عينته في جريدة الجمهورية بمرتب ثابت قريب القدر من مرتبه السابق في مجلة الزهرة على اعتبار أنه منفي، وعلى الرغم من أن كل المطلوب منه هو مقال أسبوعي للجريدة، فإنه كان يفكر كثيراً في حريته، وعدم قدرته على كتابة ما يريد وعدم استطاعته العودة إلى مصر. يفكر في "رنا" التي جاءت إلى الحياة وهو في خريف العمر، على الرغم من أنفه. ترى ماذا كتب في مقاله اليوم؟ فتحت الظرف وأنا أجلس في "الميني باص" ورحت أقرأ المقال الذي فوجئت بعنوانه "آهين. يا رنا" قطعة أدبية تقطر يأساً ومرارة. كتابة مثقف مصري منفي يلوعه فراق الوطن والأهل. تقاطرت الدموع من عيني. دخلت إلى جريدة الجمهورية في الباب المعظم. قابلت "محمد الجزائري" رئيس تحرير الملحق. سلمته المقال وسألني : أين "حلمي أمين"؟

قلت : مصاب بنزلة برد.

حملوني سلاماً إليه. قال واحد من الصحفيين : هو خالك أليس كذلك؟

قلت وأنا أبتسم : نعم.

عدت ركضاً إلى ساحة التحرير فوزارة الإعلام. أوصلت الأوراق ودخلت إلى الكافيتريا. اشتريت طعاماً له ولي، وأنا أطلب من الله أن يكون قد نام، وتجاوز الأزمة. لم أره في حياتي في حالة سكر. كان إذا جلس في مجلس شراب يشرب معهم القليل من الخمر، فتخف روحه، ويمرح مرحاً متحفظاً من دون جموح الشباب في أعمارنا. لم يكن هو يرى ذلك.

وصلت إلى المكتب. لم تكن الساعة قد جاوزت الواحدة ظهرا. قرعت الجرس. فلم يجبني أحد. فتحت الباب بمفتاحي. لم أصدق. كانت الشقة تمتلئ عن آخرها بالزجاج

المكسور والكليم الصوفي مكوم في ركن غرفة المكتب والوسائد فوق الأرض، والكراسي مقلوبة في الصالة، وهو منكفئ فوق المكتب غارقًا بدموعه.

وقفت أمامه صامتة، ثم أخذته في حضني، ومسحت دموعه. استسلم لنوبة بكاء، مجهشا بصوت عالٍ. ثم قام فجأة وراح يدفع بي إلى الخارج وهو يقول : الكل خونة. لا أريد أحدا. الكل ملعون.

- ماذا حدث؟
- اذهبي إلى بيتك.
- هل أتصل بـ"عبد الرحيم" أو "عاطف"؟
- لا. اذهبي إلى بيتك. لا أريدك هنا.
- ماذا في الخطاب؟
- هذا ليس شأنك.
- هل حدث لتانت أو البنات مكروه لا قدر الله؟
- لا علاقة لك بالأمر.
- من أين الخطاب؟

عاد إلى الصراخ. يكسر كل ما يقابله أمامه ويدفع بي إلى الخارج.

- حاضر. سآخذ حقيبتي. سآخذ حقيبتي. كما تريد.

أغرقت الدموع وجهي، وأنا أحاول منع صوتينا من الخروج إلى سكان العمارة ؛ حتى لا نثير فضيحة. تذكرت أن تانت "فيوليت" كانت تستعد للخروج، وقت أن قابلتها. ولم يكن "أبو غائب" جالساً أمام الباب، وباقي السكان في أعمالهم. نزلت إلى شارع السعدون أبحث عن تليفون بعيد عن المكان. طلبت "حاتم" في المصنع وشرحت له ما يحدث باختصار.

قال : إذا أردت حضوري فلن أصل إليك قبل ساعتين على الأقل.

قلت : لا. اذهب أنت إلى البيت من أجل "ياسر" ؛ لأنني سأتأخر عن موعد العودة. سأذهب إلى "عبد الرحيم" هنا في مكتبه هو الأقرب لي. إذا لم أجده ؛ فسأذهب إلى "سوسن" وأبقى معها حتى يعود "عاطف" وأرجع معه إلى المكتب.

- لماذا لم تتصلي بـ"محمود راشد"؟

ـ هو أعقلهم. لكني أظن أن "عبد الرحيم منصور" هو أقربهم إليه.

طلبت من موظف الاستعلامات أن يتصل بـ"عبد الرحيم". جاءني صوت زميلته تقول إنه خارج بغداد في مهمة رسمية وليس من المنتظر أن يعود إلى عمله اليوم.

ماذا أفعل يا ربي؟ مشيت في شارع السعدون الذي أحفظه عن ظهر قلب على غير هدى. ووقفت أمام إحدى المكتبات ساهمة. هذا ليس يوم المكتبات. ابتسم العامل. وجاء يصافحني. قرأت كل العناوين دون أن يعلق أي عنوان في ذهني. أريد إضاعة الوقت حتى يصل عاطف. وأريد العودة إلى المكتب حتى أطمئن على حلمي، وقد لا يفتح لي الباب، ويثير فضيحة مرة أخرى. أليس من الأفضل تركه لنوبة الغضب هذه حتى تنتهي ويرتاح؟ ربما يؤذي نفسه، وقد يسقط أو ينجرح أو يتوقف قلبه. يا إلهي ماذا أفعل؟ نزلت دموعي تغسل وجهي، فتركتها، وهمت على وجهي في الطريق إلى بيت عاطف في " كرادة مريم". تعبت. بحثت عن مقهى للعائلات فوجدت واحداً إلى جوار سينما بابل. دخلت وطلبت شاياً. سألني العامل وهو يضعه أمامي فوق الطاولة : أنت مصرية؟

قلت : نعم.

قال : ماذا بك؟ هل تحتاجين إلى نقود؟

قلت : لا. أزمة وسوف تمر. كتر خيرك.

قال : الناس لبعضها. إذا عندك مشكلة. لا تستهيني بالعبد لله.

قلت : سمعت خبراً مزعجاً عن صديق. أحتاج إلى قليل من الراحة حتى يأتي موعدي.

قال : على راحتك. أنا حاضر. اسمي "أحمد عبد المولى". تستطيعين السؤال عني في أي وقت. احنا جدعان وعندنا شهامة مصرية أصيلة. وأي خدمة والله. أتعملين؟

ـ صحفية.

ـ نحن الذين نحتاجك إذن. أنت تعلمين. التحويلات وخلافه.

ـ أنا تحت أمرك.

تركني أشرب الشاي. ثم أحضر كوباً آخر وقال : هذا هدية من عندي.

جلست ساعة كاملة أنظر إلى عقارب الساعة وإلى ازدحام الشارع، والناس

يركضون وقت الذروة في بغداد. أستمع إلى الأبواق، وأصوات هدير المحركات. انتبهت إلى أن الزحام قد بدأ يخف تدريجياً، والمعلم "أحمد عبد المولى" يضع كوباً جديداً من الشاي على الطاولة أمامي. شربته ثم أوقفت تاكسياً وأعطيته عنوان بيت "عاطف".

فتحت لي "سوسن" الباب. سمعت أصوات ضحكات عالية في الداخل : أهلاً "نورا". غير معقول. تفضلي. من أين أتيت الآن يا هرابة؟

كلما سألت الأستاذ "حلمي" عنك، يقول تذهب في المساء لابنها راكضة. من يوم وصول "ياسر" إلى بغداد لم يعد أحد يراك. أهلاً يا حبيبتي وحشتيني.

قدمتني إلى رجل مصري في منتصف العمر : الحاج "عبد الموجود". ابن عم زوجي جاء لزيارتنا خصيصاً من مصر. ونحن نحاول إقناعه بالبقاء معنا، والبحث عن عمل في أي مكان حتى نصبح قبيلة هنا. ما رأيك؟ هل يستطيع المهندس "حاتم" الحصول على عمل له؟

قلت : نحاول. لابد أن تمسكي به بيديك وأسنانك.

استقبلني الرجل بترحاب وجاء "عاطف" مهللاً فتركتهم يكملون طقوس الضيافة، وطلبت من "عاطف" أن أحدثه على انفراد، وأخبرته بالقصة وضرورة عودتنا إلى "حلمي"

أعلن عاطف لزوجته الموقف، واستأذنها أن يأخذني إلى "عبد الرحيم"، حاولت أن تأتي معنا لتطمئن على "حلمي"لكننا رفضنا. وجدنا "عبد الرحيم"،ما زال برداء العمل، وقبل أن نخرج من باب العمارة، وجدنا أمامنا "سوسن" مصرة على الذهاب معنا. قلت لها متوسلة: أرجوك هو لا يريد أن يراه أحد وهو في هذه الحالة. تعلمين شعوره الموجع بالكرامة. أنا لا أريد إلا "عبد الرحيم" وحده. تعالَ يا "عاطف" مع "سوسن" بعد ساعة.

استسلمت "سوسن" وقالت : اذهبْ أنت يا "عاطف" معهما. عندها حق.

وصلنا إلى شارع الشيخلي. قال أبو "غائب" حين رآني أنزل من السيارة : أبو "ميرفت" ليس في المكتب. طرقت الباب لأعطيه الخبز فلم يجب.

قلت : ربما كان نائماً. شكراً يا أبا "غائب".

فتحت الباب بالمفتاح، وجدناه جالساً على كرسي أمام المكتب،وكل أنوار البيت مغلقة، والفوضى على حالها كما تركتها بالضبط. قابلنا بهدوء شديد، ونظر إليّ نظرة عتاب طويلة.

قال : لماذا أتعبت الناس من دون داع؟

قلت : خفت عليك.

قال : لا داعي للخوف. أزمة ومرت. ماذا تشربون؟

كان لسانه ثقيلاً، تغرب عيناه وهو يحاول التركيز في الحديث معنا، ثم تسقط رأسه إلى الأمام.

قال "عبد الرحيم": "نورا" تعالي.

أخذني إلى غرفة نوم "حلمي أمين"، وفتح الدولاب، وأخرج بشكيراً كبيراً وملابس نظيفة وأدخلهم إلى الحمام. تأكد معي من عمل السخان، ثم عدنا إلى غرفة المكتب، وقال : تفضل يا أستاذ "حلمي". قم معي.

قام "عاطف" وأسنداه، وهو يقاوم مقاومة هزيلة، قائلاً: إلى أين؟ "أنا كويس". اتركوني.

ذهبت لأجهز له طعاماً. فكرت أن أنادي أبا غائب لكي يعيد ترتيب المكان، لكني صرفت الفكرة . خرج عاطف من الحمام وراح يساعدني في إعادة الكراسي إلى مكانها، ولملمة الزجاج المكسور. خرج "عبد الرحيم" مع الأستاذ "حلمي" إلى غرفة النوم ووضعه في السرير. وراح يطعمه كطفل صغير، وهو يستجيب بهدوء لم أتوقعه حتى نام. ثم لحق بنا في المكتب الذي أعدناه إلى حالته الطبيعية. قال:

الحمد لله نام. ماذا حدث؟

قلت: لا أعرف أي شيء. من الواضح أنه تلقى خبراً ما، أو ربما أثار خطاب من بناته إحساسه بالغربة. هي أزمة غربة ؛ لأنني كنت في الجريدة اليوم أسلم مقاله، وفي الوزارة الأمور عادية أيضاً. تقديري أنها مسألة شخصية وليس للسلطات العراقية أي علاقة بها. لا أظنه تعرض لإنهاء تعاقد أو طلب منه مغادرة البلاد أو أي مشكلة كبرى.

نزلت أطلب "حاتم" في التليفون وأطمئن على "ياسر". وبعد ساعتين أخريين خرجت مع "عاطف"، هو إلى ضيوفه، وأنا إلى بيتي، وتركنا "عبد الرحيم" ينام عنده.

متى كان ذلك؟

نعم. يوم أن قتل "يحيى المشد". لن أنسى هذا التاريخ ما حييت، ولا التداعيات المصاحبة له. كانت درجة الحرارة في بغداد قد وصلت إلى أقساها في الثالث عشر من

يونيو عام ١٩٨٠ . أعلن البوليس الفرنسي أنه وجد العالم المصري الجليل يحيى المشد الذي كان يعمل في ذلك الوقت في بناء المفاعل النووي العراقي مقتولاً في شقته الباريسية في أثناء قضاء عطلة، وادعت الصحف الفرنسية أن القاتل في الغالب امرأة، قضى معها سهرة حمراء ! بائعة هوى سرقته وقتلته. استفزنا جميعاً الخبر، كانت كل الدلائل تشير إلى الموساد الإسرائيلي، الذي لم يحتمل أن يطور عالم مصري في الذرة تجاربه لبناء مفاعل عربي. لكن البوليس لم يستطع إثبات أي شيء. من عجائب الصدف قتله في فرنسا، التي ورّدت المفاعل النووي إلى العراق. أي أنه كان مصنعاً فرنسياً ويعمل به فرنسيون وعراقيون ومصريون. ما هذه الكوميديا السوداء؟ قيد المحضر، ضد مجهول، ولم يفتحوه مرة أخرى، على الرغم من أن إسرائيل ضربت المفاعل النووي العراقي بعد قتل "يحيى المشد" بسنة في نفس الشهر. وألقت الطائرة "الإف ١٦" أطناناً من المتفجرات وعادت إلى قواعدها في تل أبيب سالمة.

بعد أيام انهار "حلمي أمين" . لكن هل هذا هو السبب الوحيد؟ بالطبع لا.

أشرت إلى النادل أن يأتي بالحساب. قال: لم تأكلي.

خرجت. لم أجد في الاستعلامات الرسالة التي كنت أنتظرها من الشاب الذى اشترى المكتب. غداً الجمعة أذهب إليه في الصباح الباكر قبل أن يتحرك. أخذت مفتاح الغرفة، تساءلت عن سر الهدوء الغريب الذي يهيمن على المكان. شعرت بوحشة تتسلق ساقي، وتمتد حتى وصلت إلى رقبتي. حاولت الفلفصة، وأنا أمسح المكان بعينيَّ. رأيت "ليلى"، وبعض زميلاتها يجلسن في بهو الفندق، منهمكات في مراجعة أوراق. أشارت إليَّ "ليلى"، فلما وصلت إليها سألتني : أين كنتِ؟ بحثت عنكِ البنات لكي يودعنك قبل أن يذهبن إلى المطار.

قلت : تصورت أن أمامهن بعض الوقت؛ لأنهن سيغادرن مع المضيفة.

قالت : لا يا معاودة. هذه حالة حرب. ستتقابلن في مصر على أية حال.

قلت : قلبك أبيض الكل مشغول.

قالت : ماذا ستفعلين غداً؟

قلت : غداً للأصدقاء بالكامل بالقرب من الفندق. وأذهب بعد غد إلى الخالصة.

قالت : سأرسل لكِ سيارة.

قلت : لا داعي أعرف الطريق جيداً. سأركب من ساحة عقبة بن نافع.

قالت : أولاً أنتِ ضيفة. وثانياً سآتي معكِ لأنني لم أزر القرية.

صعدت إلى غرفتي منهكة، قررت أن أقاوم، فتحت الماء الساخن في البانيو، وسمحت للموسيقى أن تسري في الغرفة. كان "جورج زامفير" يعزف إحدى مقطوعاته الشهيرة. أحببت رائحة الصابون التي تنشع من غياراتي النظيفة. تابعت نمو الفقاعات البيضاء تحت حركة يدي وأنا أفرغ "الجيل"، حتى غطت الماء فانزلقت إليها، وتركت الشفاط يقوم بمهمته في صدري. أحتاج إلى أصابع "حاتم" لكي تعيد شحن طاقتي على حب الحياة. أتساءل دائماً عما تفعله يدا رجل تحبه امرأة في جسدها. هل تختلف النتيجة إذا لم تكن تحبه؟ أظن نعم على الرغم من سطوة الاحتياج الجسدي. الحب هو سر امتداد النشوة في الزمن.

راجعت ما تبقى من أعمال. مازال جدولي مزدحماً بشدة، على الرغم من أنني مددت رحلتي ليومين، أبحث فيهما عن مقالات "حلمي أمين" التي لم تجدها تانت "فائزة" في أوراقه. أحتاج إلى زيارة المكتب، ومجلة ألف باء، وجريدة الجمهورية، والخالصة، ومقابلة بعض الأصدقاء. كيف؟ ومتى؟!

أيقظني صوت "هيثم" في الخامسة صباحاً، تقلبت في فراشي، وأنا أقاوم الكسل، تركت دغدغة صدري ترعى بحرية، ثم تنبهت. قفزت من سريري، وأزحت الستائر، وفتحت الموسيقى، جاءت "داليدا" تغني :

ذكريات كل اللي فات حلوة يا بلدي قلبي مليان بحكايات فاكرة يا بلدي

أول حب كان في بلديش ممكن أنساه يا بلديهو هو هو ه ه ه ه ه

أنهيت إجراءات الصحو بسرعة، رتبت أوراقي وجلست أكتب مقالي الأول عن الحرب. أنهيته بسرعة. ساعدتني المادة الحية التي جمعتها في البصرة. تصفحت أوراق "حلمي أمين". ثم توقفت عند عنوان أعجبني. قرأت :

أشعر أمام فتنتك بتقدم العمر، بالحب غير المتكافئ بيننا. أفرح بجمالك، وأنا أرى العيون الحاسدة من أصدقائي ورفاق العمر تحاصرني. يظنون أنك جسد جميل فحسب أستعين به على إثارة أعضائي الباردة العجوز. ولا يعلمون أنني قد أكتفي منكِ بابتسامة رضا تشعل الأمل في حياتي الراحلة إلى الأفول.

يا ومضة وحيدة/ في ليل قاتم إلا من شعاع فجر بعيد/ أحبك/ أحاول دون ملل أن أقبل هذه الومضة/ لا أشبع لأن الومضة أسرع/ هكذا تتلاحق أنفاسي حولك/ ملهوفاً مثل لهفة المحكوم عليه بالإعدام/ إلى ضربة حظ/ في اللحظة الأخيرة/ عانقيني هذه الأيام/ أكثر وأطول وأعنف/ فإن مافي قرارة نفسي من حزن/ لا يطرده غير عناق العشاق الدافئ/ جبل قاعدته ما بين مصر وبغداد/ يجثم على ضلوعي/ أراه ولا يراه أحد/ بينما الدنيا تطلب مني كل صباح بسمة/ كوني إذن بسمتي.

أفرح بشبابكِ، بالنضارة والحيوية التى تملئين بها المكان حين تدخلين إلى بيتي، وترتمين في حضني، وتتبخترين أمامي لكي أشاهد قصة شعركِ الجديدة، أو فستاناً، أو شالاً. أو حتى حذاء. وأقف منبهراً بتعبيرات عينيكِ، وبسمة شفتيكِ، وأنتِ تتحدثين إلى الناس وسط حفل لا أستطيع الاقتراب فيه منكِ كثيراً. أراقبكِ عن بعد، تصلني نظراتك : كن قوياً وصبوراً. أنا معك وأحبك على الرغم من كل المسافات والناس والقهر. لنا جنتنا.

أستسلم وأذوب فيكِ أنا الكهل ترعاكِ عيني دون هوادة حتى أراكِ تستسلمين ليد صديق عرض عليكِ الرقص فترحبين ببشاشة وتقفين وسط الشباب تهتزين مع الإيقاع، أقرأ إشارات جسدك إليه. الاقتراب منه، ثم الهروب، تدورين معه بألفة، وتتركين لي أصداء الضحكات الماجنة. هذه دعوة جماع يا سيدتي. تخزني في أمعائي. تجعل عالمي الرمادي أشد سواداً. تكشف عن نيران مكبوتة، أحاول جاهداً أن أطفئ تأججها المستعر، وملامحك الملائكية تتحول أمامي إلى ملامح محظيات النور اللاتي لا يشبعن إلا بالدم. ثم ترسلين لي وسط هذه الخلاعة نظرة رضاء تنزل فوق رأسي مثل كأس ماء بارد يطفئ لظى النيران، وقبل أن أدرك وطأة الانسحاق تحت هذا التقلب أراكِ قادمة، وقد أخذتِ من طاولة الشراب كأس ويسكي تقدمينه لي قائلة :

يا هلا أبو "ميرفت". ألف هلا و"مية" مرحبا.

أدرك حجم التضحية وأنتِ تمسكين كأساً. فلم أر مثقفة عراقية تمسك بكأس في مكان عام. تركزين النظر في عيني متحدية العالم. أسألك وأنا أحاول مداراة غضبي : ماذا تفعلين؟

تقولين بصوت هامس باللهجة العراقية التي نادراً ما تستعملينها معي : قابل أني أسوي فد شي بدون أمر الملك؟

تجلسين أمامي. تتابعين ما يجري في الحفل. وجسمك كله مشدود إلى هناك إلى الرقص، والشباب، أسرح وراء نظرات عينيك. أراها تستلقي فوق وجه ذلك الشاب الطويل ذي الشوارب السوداء الكثة. أتابعها. أضبط سرقتها للتواصل معه، وابتسامتك الخفية، يقدم لي الساقي كأساً وراء كأس. تعتذرين، وتعودين إلى ثلة أصدقائك : "سعدون"، و"ياس"، "نيران"، و"قيس". أدرك أن أمراً ما يدور. أغامر، وأذهب إليكِ، وقد حملني الشراب فوق جناحي الشجاعة، والانفلات، أسمعك تقولين:

شلون بلوى ابتلينا ؟ وما ندري همين اشوكت تخلص؟

يقول "قيس" : يا عيني يا "أنهار". شنو عبالك خلصت الدنيا بعد بيها خير.

تفاجئين بي بعد أن تنهي جملتك قائلة : ما أقبل ولو طلعت برؤوسكم نخلة.

أسأل ملهوفاً : "أنهار". ماذا بك؟

تخلعين قناع الغضب في أقل من عُشر ثانية، وتبتسمين لي قائلة : غير الشغل؟

أقول : هل أستطيع المساعدة؟

تقول "نيران" : قابل نبدأ من جديد؟

يقول "ياس" وهو يمشي تاركاً المكان : "هادولا طيزين بفد لباس".

أمسك بساعدك، وآخذكِ إلى الخارج، أحاول أن أفهم كلماتك التى تنطقين بها همساً : هذولا السرسرية. شكدر أحجي؟ شكدر أكول؟

أريد أن أضمك إلى حضني، وأحميكِ، لكني لا أستطيع، وأسمعك تقولين قاطعة: هذي بغداد ونحن أعرف الناس بها : "تنام على شبوطَ، تصبح على جريه"[1].

---

[1] نوعان من الأسماك . .

أقول : اذهبي إلى البيت الآن، وغدا أفهم منك.

بالطبع لا تأتي يا "أنهار" على ذكر الموضوع مرة أخرى ولا أضغط عليك. وأعود إلى شقتي مرتبكاً أحس بالخيبة، فقد كنت أظن أن الحياة والسجن أعطتني ما يكفي من خبرة بالبشر. أتذكر "نورا" وهي تقول لي مترددة :

أستاذ "حلمي" على الرغم من أن الحياة عركتك، فإن خبرتك بالناس ضعيفة جداً أتصورك دائماً خلف مكتب وكأنك لم تتورط في الدنيا.

فوق جدار حجرة نومي يقف ظل "أنهار" يتغنج أمام شاب بلا ملامح. ينمو الظل. يحتل السقف، والزجاج والجدران. يجافيني النوم، أشعر بالانكسار أمام شبابها المتقد، وتصبح سنوات عمري عبأ ثقيلاً فوق ظهري، فأزداد انسحاقاً، وتفر ساعات الليل هاربة من وطأة الغيظ الذي يتطاير شرره في أرجاء الغرفة. وأقابل الصباح بعينين حمراوين، وملامح غليظة، ولا أستطيع النظر في المرآة كي أحلق ذقني، فأطلب من "نورا" أن تذهب وحيدة إلى مواعيدنا وأعود إلى سريري، أحاول النوم، أكتشف أنني أتكوم حول نفسي. أتذكر جسد "أنهار" اليقظ الفارع الطول، وأسأل نفسي النجاة من هذا الحب، وأنا أتقهقر إلى انتكاسة أخرى إلى الحمى حتى تأتي. فأنفجر في وجهها لاعناً اليوم الذي رأيتها فيه تدخل من هذا الباب.

ترتمي في حضني. تمسك بذراعيّ تشدهما إلى الوراء، وتقبلني في وجهي وهي تصرخ من الأشواك التي تنغرس في بشرتها. وأنا أدفعها بعيداً عني. تهرب إلى الخارج بعد أن تفشل هذه المجنونة في تهدئتي. تهرب فتضعني وجهاً لوجه أمام احتياجي إليها.

***

نزلت إلى المطعم. اختفت كأكأة عضوات المؤتمر، وضحكاتهن. لم أسمع رنين الملاعق، والأشواك، والسكاكين، ولا وشوشة صب الشاي في الاستكانات كأنني أنظر إلى بحيرة ساكنة تحت وهج شمس حارقة. دخلت إلى اللوحة الصامتة وقلقلت جمودها، قال النادل : "هلا ست "نورا" إيش تشربين؟"

قلت : عصير برتقال.

اخترت طعامي وجلست آكله بسرعة، ثم خرجت إلى الشارع. أخذني التاكسي إلى

الباب الشرقي. إلى شارع المشجر. وأمام بناية "الشيخلي" توقف. رأيت أبا غائب جالساً فوق مقعده المعتاد، نظر نحوي متمعناً وأنا أترجل من السيارة، ثم جاء يركض مهللاً.

- حمد الله على السلامة. أنتِ في بغداد؟

- نعم. كيف حالك، وحال أم "غائب"، و"ضياء"، والأصدقاء، والجيران؟

- كلهم بخير. رأيت "حلمي". رأيت كيف؟ بالله ما حال ست "فائزة" والبنات؟

- الحمد لله كلهن يهدونك السلام.

- تصعدين إلى فوق، ألإلى "عبد الله". أم إلى "د. مايكل"؟ خرج هو وعائلته منذ قليل، و"د. علي أبو داليا" فوق. وكذلك أبونا "هيدرا".

- الله كريم يا أبا "غائب.

طرقت باب المكتب، ظهر شاب في الثلاثين من عمره قلت: "نورا سليمان". كنت أعمل في مجلة الزهرة. أرسلتني صاحبة الشقة لأرى بعض ما تركته، كما اتفقتما.

تقدمني نحو غرفة المكتب قال: "عبد الله الشربتلي". تفضلي.

جلست على أول مقعد في الغرفة. لم تتغير الإضاءة. مازال المكتب على حاله على الرغم من اختفاء صاحبه، نظرت إلى المكتبة نصف الفارغة، وقلت: أعتذر عن وصولي من دون موعد. سبق وتركت لك رسالة لكنك لم تتصل بي.

قال: آسف. كنت مسافراً. عدت اليوم فحسب، وفهمت من رسالتك أنكِ ستعودين من البصرة في وقت متأخر.

- قالت لي تانت "فائزة" إنها شحنت معظم الأوراق، باستثناء بعض الملفات التي لم تعرف كيف تتصرف بها. طلبت مني مراجعتها، والاحتفاظ بالضروري، والتخلص من الباقي.

- احتفظت بها كما وعدتها في أمان. تفضلي افتحي الأدراج وتصرفي على راحتك. ماذا تشربين؟

- شاي.

وجدت أرشيفاً للمعلومات، وصوراً لفنانين مصريين وعراقيين، ورجال فكر وسياسة، وبعض المواد المنشورة للمكتب. يبدو أن تانت أخذت ما كتبه "حلمي أمين"

فحسب، وتركت الباقي. وجدت نسخاً من كتبي الثلاثة عن المرأة والخالصة والفلاحين، وملفات لمواد كنا نعدها للنشر، ومنشورات بعض الوزارات، وبعض المجلات العراقية والمصرية، وكتباً متنوعة في التاريخ والفن والسياسة. يبدو أن تانت أخذت الكتب كيفما اتفق دون خطة محددة.

دخل بالشاي وسألني : ما كل هذه الملفات؟ تعجبت من التركيز على بعض الفنانين وعلى الأكراد والفلاحين المصريين وحرب أكتوبر والسادات، وشعر، وروايات، هل تحتاجون الى كل هذا ؟

قلت: كانت "سعاد حسني" تقوم ببطولة فيلم هنا اسمه "القادسية" من إخراج صلاح أبو سيف، و"كرم مطاوع"، و"سهير المرشدي" يُدرسّان في الأكاديمية في بغداد، ويلجأ إلينا معظم الصحفيين لمساعدتهم في الحصول على مواد مصرية، والأكراد كنا نعد كتاباً عنهم، وأما باقر الصدر فهو مؤسس أحد الأحزاب الإسلامية السياسية وهو موضوع مهم هنا، وهذا الكتاب تم إصداره فعلاً عن الفلاحين المصريين، إن أردت الاحتفاظ بالكتب فهي لك أو أطلب من الدكتور مايكل أن يأخذها إلى الكنيسة. الخلاف مع السادات حول حرب أكتوبر ومن قبلها، ثورة التصحيح، ثم كامب ديفيد، دفع الكثيرين إلى كتابة وجهة نظرهم ومذكراتهم عنها وإصدارها في طبعات خارج مصر، ومن هنا أهميتها.

قال : اتركيها. فسأقرر ما أحتاجه منها، واعطي الباقي بنفسي للدكتور مايكل.

سآخذ الملفات للفندق، وأسهر على فرزها، وأشحن ما نحتاج إليه، وأترك الباقي للزملاء العراقيين. أما نسخ كتبي فسوف آخذها كلها.

فتحت واحداً منها ووجدت أنه نسخة مهداة إلى "حلمي أمين". تركت تانت "فائزة" كتبي المهداة إليه كلها. نزلت دموعي دون إرادة. فوجئ الرجل وقال : وحدي الله.

طلبت منه أن أغسل وجهي، ودخلت الحمام. مازال كل ركن فيه على حاله. سمعت صوت "حلمي أمين" يسعل، ويتنحنح. كدت أصدق أنها نفس المنشفة، ثم أدركت أنها مجرد منشفة مصرية من صناعة المحلة. عرفت أنني سأدخل في نوبة بكاء هستيري، رحت أشرب الماء من صنبور الحوض مباشرة. وأغسل وجهي بالماء النازف، حتى هدأت وعدت إليه. استدعيت أبا "غائب" الذي جلب لي صناديق من الكارتون كبيرة، وحبل

دوبارة، وهو يتأسى على الأيام الماضية. جمعت الملفات، وربطت الكرتونات، وشكرته ثم انطلقت بها إلى الفندق.

قلبت الكرتونات فوق سريري، ورحت أفتح الملفات، فتهاجمني ذكريات الكتابة عنها: نساء عراقيات يتحدثن معي، صورنا في الشمال، أكراد عائدون إلى الوطن بعد هزيمة التمرد، بيت "جمال"، و"سلافة"، نسخ من مقالاتي الكردية في جريدة هوكاري، صور حادث المطار، والأب "هيدرا"، زيارة "فتحي غانم"، "صلاح عبد الصبور"، "نجيب المستكاوي"، وفريق مصر لكرة القدم، زيارة الجبانية مع "حافظ عبد الرحمن"، لقاء مع الفريق "سعد الدين الشاذلي"، مؤتمرات اقتصادية، مهرجانات فنية، حوار مع "فانيسيا رديجريف"، ألبوم كامل من الصور"لأنهار" وحدها في كل مكان ذهبنا إليه ثم صورها معي أو مع"حلمي امين"، أو مع البنات وتانت "فائزة". تدفعني الصور إلى الضحك، ثم إلى البكاء، أقوم، وأبتعد عن الأوراق، ثم أعود إليها، أحاديث الفلاحين، وصورهم مع المرشدات الزراعيات العراقيات، النساء في المصانع، بدويات في أبهى زينة، شناشيل البصرة التي عشقتها، عروض الأزياء التاريخية العراقية التي أطارت صوابي، صورنا في الكوفة والنجف، صور أصدقائنا المصريين، في أوضاع ضاحكة داخل المكتب، "حلمي أمين" وتانت "فائزة" بجوار "رشا" وهي فوق الحمار في الخالصة، "ميمي" مستندة على كتفي فوق جبال صفين، "حلمي" جالس أمام مكتبه، أو فوق الكنبة مع البنات، "عبد الرحيم وسهيلة"، وصورة "فلادمير".

تذكرت يوم أن دخلت المكتب في الصباح كالمعتاد وجدت "فلاديمير" يشرب القهوة. تعجبت من التوقيت المبكر؟ قال الأستاذ "حلمي": "نورا". انتظرينا قليلاً في مكتبك.

أخرجت أوراقي، رحت أرتب الأخبار و وضعتها في ملف. سمعت حركة قيام، وانفتح باب المكتب، وخرج "حلمي أمين" مثل سهم طائش إلى باب الشقة، وفتحه، ثم وقف متنحيا عن الطريق، ليتيح للمراسل "فلاديمير" الخروج. لاحظت تجهم وجهيهما والصمت التام. نظرت إلى وجه الأستاذ "حلمي" المتقع، والسيجارة الواقفة في ركن شفتيه تحترق وحدها، دون أن أنطق حرفاً. أغلق الباب في هدوء، وعاد إلى مكتبه، وقال : تعالي. ابن الشرموطة فاكر إنه يستطيع أن يجندني، ويحصل على معلومات؟

ـ إهـ.
ـ غباوة أجهزة لا تفهم شيئاً. لأني شيوعي مصري متصور إن.. طردته شر طردة.
حين بدأ هذا المكتب قبل أن تنضمي إليه، تعرضت لمراقبة أمنية دقيقة من العراقيين، وبالطبع زرعوا بعض أجهزة التنصت هنا، وأظن أنهم عادوا، وأخذوها. من حقهم أن يتأكدوا من نوع النشاط الذي يمارسه المكتب، وأنا أعرف أنهم اطمأنوا لما أقوم به، لكن هذا الحمار تصور أنه يمكن أن يستغل سمعة المكتب المحترمة، وأن يقيم معنا صلة تصورها ممكنة، وكان لابد من الطرد كرد وحيد على عرضه.
ـ غير معقول ! هل حضرتك متأكد؟ ما نوع المعلومات التي يريدها ؟ ولماذا نحن؟
ـ ليس مهماً نوع المعلومات. المهم أن نقطع عليه الطريق وأن يفهم وضعه بالضبط.
ـ وهل تنقصنا مشكلات مع المراسلين؟
ـ هذه أشياء طبيعية، وتحدث. المهم أن تعرفي كيف تتعاملين معها.

***

وضعت الصورة جانباً. لماذا بقيت على الرغم من أن الرجل لم يعد إلينا قط، وكان يتجنبنا في اللقاءات العامة بعد ذلك.آهين صورة "شن" وزوجها "يانج" مراسلي الصين اللذين دعواني إلى بلدهما.

قلت لنفسي حين وصلتنى الدعوة : لن أصبر حتى يأتي "حاتم" من المصنع لكي أخبره بأن دعوة الصين قد وصلت، ركضت فوق الدرج ودخلت إلى مكتب تليفونات فندق رمسيس، وطلبت "حاتم" في المصنع قلت : حاتم سأذهب إلى الصين.

قال : انتظري حتى أعود لنتناقش في هذا الموضوع.

قلت: هل أنت مشغول إلى هذه الدرجة؟ آسفة لكني لم أحتمل الانتظار.

قال: أراكِ في المساء. باي باي.

قلت: مع السلامة.

ما هذا البرود ؟

فى المساء فاجأني رده : لم نتفق يا "نورا" على سفرك خارج العراق وحيدة، وأنا مشغول جداً الآن، ولا أستطيع ترك المصنع في أثناء تركيب خط جديد.

- لكن الرحلة لي وحدي. وهي رحلة عمل. ولا ضرورة لسفرك معي.
- أجليها حتى أستطيع السفر معك.
- مستحيل هي دعوة لمؤتمر عن "الميديا" الصينية، وعلاقتها بالشرق الأوسط. وأنت تعلم أن الصينيين متقشفون، وأن حصول "يانج" على هذه الدعوة لي معناه أنه بذل جهداً غير عادي، ولن يتكرر. سيشعران هو و"شن" أنني غير جادة، ولن يتعاملا معي مطلقاً بعد ذلك.
- أخشى عليكِ من السفر وحيدة. وأحتاجكِ هنا هذه الأيام.
- هذا موقف لا أفهمه.

ضاعت الرحلة. قلبت الصور بين يدي، أحببت "شن" بشدة. أخبرت أبي بالصدفة باعتذاري عن السفر إلى الصين. سألني : هل تتصورين أن الفرصة ستتكرر؟ هذه ذقني يا "نورا" إذا رأيتِ الصين في حياتك. أترفضين الرحلة لأن السيد "حاتم" لم يوافق؟ هل أنتِ مجنونة؟ لماذا لم تقاومي، وترفضي رأيه، وتصري على الذهاب؟

- لم يكن الأمر يستدعي خلق مشكلة معه، وكان مشغولاً بالفعل.
- أتربطين بين حركتك وحركته. أنتَ صحفية. هل هذه ابنتي التي ربيتها؟
- لم يكن الأمر بهذا السوء. كنت أنا أيضاً مشغولة جداً في تغطية مؤتمرات في بغداد.
- لا أريد التدخل في حياتكِ يا "نورا"، وأنتِ تعرفين كم أحب "حاتم"، وأحترمه، لكن هناك أسساً يجب أن تراعيها في عملك كما تراعيها في بيتك.
- وافق "حاتم" على سفري لبلاد أخرى بعد ذلك. أدرك احتياجي إليها، وربما شعر بالذنب. لا أعرف.

* * *

أين أنتما الآن يا "شن و يانج"؟

جمعت المعلومات المهمة عن العراق في كرتونة لتسافر معي، ووضعت الباقي في كرتونات أخرى، وطلبت من الاستعلامات الاحتفاظ بالصناديق حتى يأتي زميل من وكالة الأنباء العراقية ليتسلمها.

والآن. ماذا أفعل بدفتر "أنهار"؟ حاولت منذ وصولي الاتصال ببيتها أو معرفة أي معلومات عنها دون جدوى. بالطبع لن أعطي لزملائها يومياتها، ولم أكن لأتركها في صندوق البريد؟ مازال "عماد البزاز" يحاول الحصول على عنوان بيت أخيها. ليتني أستطيع الوصول إلى عنوانها في أي بلد لأرسل هذا الدفتر إليها. لا حل سوى باصطحابه معي. أما دفتر "حلمي أمين" فأنا أعلم أنه ترك لي القرار فيما أفعله به.
فتحت ورقة مطوية، مقطوعة من دفتر مدرسي قرأت :

القاهرة في ٥/ ١٠/ ١٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المحترم الوالد العزيز/ "عبد السلام محمد حسن"

بعد التحية والأشواق

إنه لمن دواعي سروري أن أخط إليكم هذه الرسالة معبراً بها عن مدى حبي واشتياقي إليكم وبعد: والدي العزيز "عبد السلام"، لقد وصلني خطابكم العزيز هو وخطاب زوجتي "فادية" وحمدنا الله على تمام صحتكم ونرجو من الله عز وجل أن يحفظكم ويرعاكم على طول الدوام.

والدي العزيز: إنني مشتاق إليكم كما يشتاق الزرع إلى الماء والعليل إلى الدواء، والطفل إلى حنان أمه. والدي العزيز: أحب أن أعرفك بأن كاتب هذا الخطاب هو السيد "عبد الباسط علي شكر" من منزل "علي شكر"، ويهديكم كثيراً السلام، وخصوصاً "رمضان" و"محمد" و"جمعة" و"عيد" والأستاذ "أحمد" والست أم "رمضان" ألف سلام وجميع قرية الخالصة وديالى والكوت وأعرفكم بأننا بخير والحمد لله ولا ينقصنا سوى مشاهدة رؤياكم الكريمة. ومن عندنا يهديكم السلام الأخ "قرني" والست حرمه والأخ "ربيع" والست الوالدة ألف سلام والأخ عوف وجميع الإخوة كبيراً وصغيراً ألف سلام.
وسلامي الخصوصي إلى الست زوجتي "فادية" والابن العزيز على ألف مليون سلام وربنا يسهل وأصل إليكم في القريب العاجل بإذن الله.

ملحوظة : أعرفكم بأن هذا الخطاب هو الثالث من نوعه.

كاتب الرسالة عويس علي شكر

أخذت هذا خطاب من"فادية" بنت عم "عبد السلام" لأضمه إلى كتاب الخالصة. كانت تزور أسرتها، وتسعى إلى أن يلحق بها زوجها لينضم إلى المشروع.

وخزني صدري. تذكرت "هيثم". هذا هو موعد رضاعته الأولى كل يوم.

نظرت إلى الساعة كانت تشير إلى الفجر. قمت وفتحت النافذة. تسللت البرودة إلى غرفتي. وقفت وتأملت خيوط النهار وهي تتسرب ببطء إلى سماء بغداد التي أحبها. المدينة عن بعد تنتظر وصول قذيفة إيرانية، تنهي أزمنة، وتعيد بناء أزمنة أخرى. تذكرت اجتياح التتار لبغداد، وأنهار الدم، ودجلة الذي امتلأ بالكتب والمخطوطات والقصور التي أفنيت عن آخرها. سألتها : ما خطبك يا بغداد؟ أتكون تلك الأرض ملعونة بالفعل؟

مستحيل. هي أرض الكتابة السومرية وقانون حمورابي، أرض أكد، وآشور، وبابل. تذكرت الموال العراقي الذي يبدأ بكلمة ويلي. هل هي أرض التراجيديا؟ التراجيديا فعل إنساني. هنا أو في اليونان، عند الهنود، أو في كربلاء. الإنسان هو ما يجلب لنفسه الشقاء.

تأملت الفوضى العارمة في حجرتي. ما زالت الكتب والأوراق منتشرة في كل مكان، أطباق طعام لم تمس منذ الأمس، فناجين شاي، وعلبة عصير، وكوب لبن شبه فارغ فوق الكومودينو. نظمت الكتب التى سأصحبها معي إلى مصر، ووضعت ملابسي، ومعها الأوراق المهمة في الحقيبة الكبيرة، وتركت مكاناً في الحقيبة الصغيرة، لما سأستخدمه في اليوم الباقي لي مع احتياجات السفر. ثم شعرت بعد حمام دافئ بأنني أستطيع أن أواجه يومي الطويل في الخالصة، ثم إلى سفر يعلم الله كيف سيكون.

وصل "طارق مندور" شرحت له قصة الرحلة إلى الخالصة وأخذته إلى السيارة و قدمته "لليلى" فلما تحركنا قلت لها : أتمنى ألا تكون الحرب قد أثرت على ظروف القرية. أنا متفائلة خاصة إذا كان المهندس "مهدي المؤذن" ما زال هو مدير المشروع. وأعتقد أنه كبير في السن وتجاوز سن التجنيد.

قالت: يجندون في مواقعهم. والقرية ما زالت تلقى اهتمام الحزب، وأعرف أنهم مستقرون منذ وقت طويل.

قلت: نعم. افتتحت القرية عام ١٩٧٦ . تسكنها مائة أسرة مصرية، امتلك كل منهم عشرين دونماً وبيتاً، وراتباً شهرياً، ثلاثين ديناراً في السنة الأولى، جددوا لهم الحصول عليه عدة مرات حتى استصلحوا الأرض فعلاً، وبدأ إنتاجها يغطي مصروفاتهم ويزيد، ثم زادت ملكية الأرض لكل منهم ووصلت إلى اثنين وعشرين دونماً، ويتوقع مع تطور المشروع أن تزداد إلى ثلاثين.

قالت : أعرف أنكِ أصدرت كتابين في الموضوع.

قلت : أعتبرها أنبوبة اختبار لفكرة التكامل الاقتصادي العربي. الأرض والمال من العراق، والفلاح من مصر.

قال "طارق مندور" : لماذا توقف المشروع؟ كنت أتصور أنه مجرد بداية، تتبعه قرى أخرى.

قلت: هذه كانت الفكرة، وكان الهدف خمسين ألف أسرة، بواقع خمسة أفراد لكل أسرة. وعلى الرغم من نجاح الفلاحين وازدهار القرية فإن الطرفين العراقي والمصري لم يتفقا، وتوقف. وكما علمت بعد ذلك حاول العراقيون مع الفلاح المغربي لكن المشروع فشل بسرعة. من يعلم؟ ربما في المستقبل بعد أن تنتهي الحرب نبذل جهداً في إعادة تنشيط المشروع.

قالت "ليلى" : كسلانة أنا اليوم. الشمس جميلة كانت تحتاج إلى رحلة فعلاً.

قلت : أغمضي عينيكِ. أمامنا ساعة حتى نصل.

حكى لي "طارق" كيف استقر في السليمانية قال : أخذني صديق إلى مطعم يعرف صاحبه، وبعد أسبوع واحد كنت قد قررت أن أتركه، لكن مرارة تجربة البطالة في بغداد أقنعتني بالصبر، وفي إحدى الأمسيات ذهبت مع أصدقائي إلى كافيتريا فوق الجبل، وهناك تعرفت إلى صاحبها ولا أعرف كيف تصادقنا بسرعة، ترددت عليه، ثم عرض عليَّ أن أعمل معه، واكتشفت أنه يمتلك عدة مقاهٍ، ومع الوقت ترك لي الإشراف المالي على معظم الأعمال. حين يثقون بواحد يعطونه كل شيء. وأنا أمامكِ. ناجح، وسعيد وأعمل ليلاً ونهاراً خاصة بعد بداية الحرب وتجنيد الشباب.

قلت: هذا هو "طارق" الذي أعرفه.

سرى خبر وصولي القرية بسرعة كالمعتاد. جاء المهندس "مهدي" وبنات الوحدة

الزراعــيــة. دخلت بيت عم "وادي" ودخل ورائي الكثـيـرون منهم. عـرفت أن العـروس الصغيرة قد أنجبت صبيين، والتقيت "عبد الحي" و"زينب"، وعرفت أنهما استقرا أخيراً بعد أن اشترى تويوتا يذهب بها إلى السوق، وأخبرتني بأن أبا "أحمد" يساعدهم في فلاحة الأرض. أقسم عم "أحمد" أن تخبز زوجته لنا فطيراً مشلتتاً. جاء ابنه "جمال عبد الناصر" مع أخته وسلم علينا.

قلت : هل تعرف من هو "عبد الناصر"؟

قال : الرئيس.

قالت "ليلى" : عفية.

اعتذرت لضيق الوقت، ووعدتهم أن أعود إلى بغداد في أول فرصة قادمة.

قالت "ليلى" ونحن في طريق العودة : لم أكن أتصور.

قلت : يبقى الحلم طالما هناك بشر مثل هؤلاء.

قال "طارق" : أذهب أنا إلى المحطة لكي أسافر. طمئني الأسرة وأخبريهم بأنني في خير حال.

قابلتنا عاصفة من الترحيب في جريدة الجمهورية. التف حولنا الأصدقاء يسألون عن تفاصيل الحياة في مصر، ويذكرون "حلمي أمين". طلبت من رئيس التحرير أن يرشدني إلى مقالات "حلمي" قال : هي مهمة مستحيلة. اتركيها للباحثين الذين يدرسون صحافة هذه الفترة.

قلت : ولكن عائلته تريد الاحتفاظ بها، وربما طبعها في كتاب.

قال : أنقذي مقالات ألف باء؛ لأنها نشرت في وقت قصير، سأرسل معك أحد الزملاء، ليساعدك في الحصول عليها من الأرشيف.

توصلنا بعد جهد كبير إلى معظمها. وخرجنا مرهقين، والليل يطارد خيوط النهار الباقية في صفحة الأفق. قالت "ليلى" : لم يعد لديكِ وقت لتجهيز الحقيبة. لابد من أن تحصلي على قسط من الراحة، سأتركك وأعود إليكِ في العاشرة مساء حتى نصل إلى المطار في وقت مناسب.

ألقيت بثقلي فوق السرير، ورحت في نوم عميق، واستيقظت من ألم شديد في صدري، وجدتني غارقة في لزوجة اللبن. طلبت العشاء في غرفتي، ونزلت تحت الماء.

ثلاثة سنتيمترات هي حصيلة ما دره ثديي. أنا متعبة فحسب، غداً يتجدد إن شاء الله. تأكدت من إغلاق حقيبتي، ومتانة صندوق الكتب. ما زالت مذكرات "حلمي أمين" فوق الكومودينو إلى جوار السرير. أمسكت بها وتمددت مستندة على الوسائد، ورحت أقرأ قبل أن أضعها في حقيبة يدي مع مذكرات "أنهار" وأعود بها إلى مصر.

شهد الكهولة المر

منتهى الحب/ هذا الذي ينبثق من كبدي/ حتى أطراف أصابعي/ حيث يختلط الحب بالدم في العروق/ والشعيرات والخلايا/ يروح ويجيء مع النبض/ والشهيق والزفير/ وحلم اليقظة وحلم السبات/ ويصاحب دقات القلب/ التي تتحول إلى مجرد إيقاع/ لأغنية حبنا.

أحتمي بالكتابة إليكِ، من حزني على رحيل عائلتي. يذكرني الرحيل بعدم القدرة على دخول مصر، وأسأل نفسي: هل سأراهن مرة أخرى؟ وتلك البنت الصغيرة الذكية التي جاءتني وأنا على أعتاب الموت. كم تحتاج من سنوات العمر التي لا أمتلكها كي تصبح شابة؟ هل ستعرفني "رنا" في المرة القادمة بعد شهور طويلة من الفراق؟ أنتظر الساعات، وهي تستنزف قوتي على دقات الثواني حتى تقرعي الباب، وأفتحه لكِ، وقد أعددت لك الضوء الخافت الذي تحبين. وجهزت لكِ عش حبنا بعد طول حرمان. تدخلين وأنت فاتحة ذراعيكِ تطوقيني، وتقبليني قبلة طويلة، وأنتِ تسحبيني إلى غرفتنا، وتسألين ضاحكة :

لو خنتني لقتلتك. هيك.

تحركين كفيك المضمومتين عكس بعضهما كأنك ستكسرين رقبتي. تدفعينني دفعاً، وتلقين بي فوق ظهري إلى السرير، وأنا أضحك، وأشرق بسعالي وأزعق :

السيجارة يا نهر.

تغرقينني بالقبلات، وتعتصريني في شوق. نحرق الدقائق، ونحن نتقلب فوق الفراش. أمد يدي بين فخذيكِ فتغرق في سائل لزج. تلسعني المفاجأة. أطلب منكِ أن تهدئي حتى أشعل سيجارة، وأروح أسألك من أين أتيت؟ فتحكين قصة طويلة عن ضيوف من الجبايش، من أولاد العم في ضيافتكم، وتشكين لي خطيبك الذي لم يعد

يغادر البيت متحججاً بهم. وأنكِ حاولت أكثر من مرة أن تغلقي هذا الملف، وتفضي تلك الخطبة دون جدوى. الكل في صفه.

أبتلع جراحي، وأرتشف ألمي على مهل. وأنتِ تحكين، وتحكين وتضعين رأسك فوق بطني التي أتركها عارية على الرغم من الضوء الذى غمر الحجرة، وأنتِ تأتين لي بالشاي. أطلب منكِ أن نشربه في غرفة المكتب. فترفضين بإصرار وتستمرين في المماحكة. وأنا بعيد، بعيد، تأكلني الغيرة. تضعني فوق قضبان الحقيقة التي تسير الخيانة فوقها.

قم يا رجل. أفق من كبوتك. ليست لك. ليست لك على الرغم مما تدعي من وله. أفقدتك البوصلة فلم تعد تعرف إلى أين تذهب؟ لعبت بك فتاة صغيرة، كل همها أن تتعرف إلى تلك النخبة التي حولك. تسهل لها دخول المجتمعات. وتفتح أمامها الطريق لتصعد إلى القمة. قم يا شيخ. أوقف هذه المهزلة. صن وقارك، ومكانتك. لا تسقط الآن. لا تسقط.

تنهي الشاي وهي تخلع ملابسها. وتمد يدها لتزيح عن صدري قميصي، أتشبث به، لا تتركني. تغني : إلا نار الشوق في يوم عن يوم تزيد تزيد.

تمسك بكفيّ وتنزلق بهما حتى تصلا إلى فخذيها، وهي تتلوى معلنة شبقها. فقدت السيطرة على جسدي، وعلى أعضائي وتحول ريقي المر إلى شهد سكري، ولسانها يغوص في فمي، ورحت أبحث عن عرف الديك فوجدته غارقًا في نهر متدفق. سال حتى لطخ أعلى فخذيها. قفزت من الفراش إلى الأرض. وأنا ألعنها بصوت عالٍ :

نظفي نفسك من. من. منه.أسبوعان. لم تستطيعي احتمال أسبوعين. خمسة عشر يوماً يا صديقتي ! يا من تصورتها أطهر من في الوجود.

بلعت ريقي بصعوبة وأنا أسعل: من أين أتيتِ الآن؟ من عنده؟

- من عند من؟

- يضاجعك في بيتكم وسط أهلك. انتهزت فرصة وجوده، ودعوته إلى غرفتك. أنتِ التي دعوته. هه. أنتِ أليس كذلك؟

- من؟

- حبيبك. حبيبك الذي تقولين إنكِ لا تطيقينه. تأتين لي، وآثاره على جسدك.

ـ هل جننت؟

ـ بل أفقت.

ـ تتهمني بالخيانة، وأنا لم أنم بالأمس دقيقة واحدة من شدة اشتياقي إليك. تداري إشباعك بعد أيام الحب التي قضيتها مع "فائزة".

ـ انظري إلى جسمك. ما كل هذا البلل؟

ـ هذا مطر شهوتي أنا. وليس أحدا آخر.

ـ كاذبة. أنت أشد الناس كذباً. خدعتني أنا المحنك. العجوز. العجوز ها ـ ها ها ـ ها ـ العجوووززز لكن لا. مازلت قادراً على إبعادك عن حياتي. عن طردك منها.

ـ أرجوك. هذا غير حقيقي. أنا أحبك. لماذا تدفعنا إلى تلك الهاوية؟ ستندم على فعلك هذا.

ـ أنت التي تهددينني. لقد هزلت. هزلت والله. لا أريد أن أراك مرة أخرى. اذهبي لا عمل لك اليوم.

خرجت إلى غرفة المكتب، وسمعتُك تبكين ساعة كاملة، وأنا أتشبث بسريري الذي أتكئ عليه. أنهى سيجارة لأبدأ في حرق أخرى. سمعت دعسات قدميك نحو باب الخروج. قمت منزعجا قلت :

تأتين غداً في موعدك. موعدك بالتمام. العمل عمل. وإلا تعرفين كيف آتي بك.

سمعتك تقولين بانكسار : ميخالف. أردت أن أستبقيك، لكنك ولشدة سذاجتك فتحت الباب، ثم التفت وراءك ناظرة إليَّ في انسحاق، ومضيت.

استمرت ثورتي أربعة أيام كاملة. استنزفت أعصابي. انكشفت الأوهام وعرفت كم أنا هش على الرغم من قوتي التي كان نزلاء السجن يتحاكون بها. أصبحت مجرد هشيم أمام فتاة صغيرة في عمر ابنتي تركض نحو عمرها القادم، وأترك أنا سنواتي على باب الموت. ثم فوجئت بك ذات ليلة تدقين بابي. كان اليوم جمعة. يوم نزولي إلى الأصدقاء في اتحاد الأدباء. دخلت إلى غرفة المكتب.

قلت : منذ أيام، وأنا أحاول أن أفهم. فلم أفهم شيئاً على الإطلاق. كبلني خجلي من أن أقول لك إنني وقبل أن أخلع ثيابي كانت رغبتي قد تصاعدت حتى لم أستطع احتماله، فوصلت إلى الأورجازم وأنت تقبلني، هذا مائي أنا. تصورتك تعرفه. هذا

شغفي بك وجنوني. أنتَ تنسى أنني عذراء. خبرتي هي ما علمتني إياه. لا تفتح باب جهنم أرجوك.

أردت أن أصدقها. انتظرت أن تمد يدها إلى وجهي. أن تلف ذراعيها حول جسمي. لكنها اكتفت بالجلوس أمامي مكسورة ودموعها تغرق وجهها. ثم قامت فجأة تركض نحو الدرج. واختفت في ليل بغداد.

حين جاءت في عصر اليوم التالي، أخذتها في حضني، وكأن لم يكن، أنا الأحمق الغارق في حب فتاة في عمر ابنتي.

أغلقت الدفتر، وقمت لأغسل وجهي وأنا أتساءل عن الخبيئة التي تنتظرني في دفتر "أنهار" العالق بي. هل يحمل الرأي الآخر فيما قرأته الآن؟ ربما أقرأ بعض أوراقه في ساعات الانتظار في مطار عمان على الرغم من أنهم أبلغوني أنها ستكون ثلاث ساعات فحسب وليس سبعا كما حدث في الرحلة الأولى.

غادرت الفندق مع "ليلى" بدموع متحجرة، أحاول إخفاءها. ساعتان هما كل ما حصلت عليه من نوم، بعد أن قضيت ليلتي السابقة حتى الصباح أفرز أوراق المكتب. ستظل هذه الليلة الجنونية عالقة بذهني ما حييت. لا أعرف على من أبكي: أعلى نفسي أم على "حلمي أمين"؟ أم على الناس في بلادنا العراق أو مصر. على أطفالنا أم على أطفال الآخرين. أأبكي على المعرفة أم على الجهل. العجز أم التحقق؟ التوازن أم السقوط؟

السفر إلى القاهرة وحيدة من دون الوفد الرسمي غير مأمون. لن ينتظرني أحد في مطار عمان، وقد تخرجني السلطات إلى العراء كما يفعلون بالركاب العاديين. لا. تأكدت ليلى من الترتيبات الموضوعة بدقة. حتى مع صحة هذا الفرض. ساعات الانتظار مرهونة بانتظام طائرات أخرى. وقد يستمر الانتظار من ثلاث إلى سبع ساعات والله أعلم. هي ظروف حرب.

غادرت الفندق الذي لم أحبه قط، على الرغم من أنه كان وسيلتي الوحيدة للبقاء في المدينة التي عشقتها، والتي لا أتخيل حياتي دون استمرار رابطة حقيقية بيني وبينها. نظرت خلفي والسيارة تبتعد، إلى الفندق الناصع البياض، إلى الأرض المغسولة

بماء المطر، إلى الشجيرات الخضراء الصغيرة، والورود المتناثرة على الجانبين وسألت نفسي : هل سأعود إليكِ يا بغداد مرة أخرى؟

وأجبت : لا أظنني قادرة على هذا لفترة طويلة على الأقل.

خائفة من نوبة بكاء رحت أجاهد لكي لا يصل إلى أنفي غبار الحنين. من قاع نهر الذكريات شبت لي دوامة أزمان متداخلة، رائحة تخثر تمور، يانسون فواح، قهوة مُرة وهيل. برغل ينضج فوق نار. طنت أصوات طبول، ودعسات دبكة، وصهيل أعيرة نارية مصابة بالفرح، وتكسر زجاج، ووشيش مطر فوق ممرات البيت، وهسيس ريح بين سعف النخل، وصفار صحراء فسيحة، ولامبالاة أشجار باسقة، وجبال خضراء شاهقة، ورمادية بحيرات ساكنة، ومدن في غيمة رمل. حقائب سفر وعقد قرنفل، أجساد سكرانة، وقبلات. بعثرت إدراكي للانتزاع الجبري من المدينة، وانتابني صمت يرتجف من الترقب. شعرت بكف ليلى وهى تربت فوق يدى. رشقت لمستها المتفهمة قلبي بطلقة أمان. أنقذتني من الغرق في فخ موجات الألم. مررنا بمسالك أحفظها. تصدعت قشرة الإرادة، واجتاحتني صور أصدقاء افتقدتهم بالرحيل أو بالموت. توالت نقراتها على بابي حتى فتحت ثقبًا في الروح: حلمي أمين، "أنهار"، المهندس "عادل"، "ناريمان"، "سلافة"، "جمال أبو سرجون". أرسلت بصري إلى نهاية الصورة العملاقة "لصدام حسين" المعلقة أمام ميدان جمال عبد الناصر. طفت فوق رأسي الرحلات الصباحية لنائب الرئيس العراقي إلى المصانع والمدارس الحكومية للتفتيش على سير العمل وهو يستعد لتبؤ منصب الرئيس. شعبيته الجارفة، وصراخ الناس من حوله يطالبونه بالمزيد. توليه الحكم، خيلاؤه وهو يلوح للجماهير في سيارة مكشوفة. تذكرت جمال عبد الناصر، وهو يلوح لنا على طريق كورنيش الإسكندرية في احتفالات ثورة يوليو، والناس يتدافعون ليصافحوا يده في أثناء سير السيارة ببطء. ما أشد الفارق بينهما. أردت أن أستسلم للهدوء. أغمضت عيني.

هششت الانذياح المؤلم للأزمنة. حاولت الاحتماء بـ"ليلى" الجالسة إلى جانبي. أمسكت بساعدها. ربتت فوق كفي، لم أستطع الإفلات من أسر المدينة. هذه الدقائق ملك بغداد ويجب أن تبقى لها. حرقت بخور ذكرياتي في الأماكن التي مشيت فيها، ولعبت، وأكلت، ونمت وحزنت، وغنيت وتنفست، والتقيت بشراً.

قالت "ليلى" : سأفتقدك كثيراً يا "نورا". لا تنسينا. حاولي أن تأتي إلى بغداد كلما سنحت لك الفرصة.

قلت ليس هذا بسهل. عائدة وكلي جراح. ليس من رأى كمن سمع.

قالت : أتبكين؟

احتضنتني بقوة، ولم تترك كتفي حتى توقفت العربة أمام المطار.

قلت وأنا أترجل : عفواً على هذا الوزن. تعرفين هوسنا بالكتب.

قالت: هيا إلى المضيفة، اتركي كل شيء للسائق.

حاولت أن أودعها على باب المطار. رفضت وأصرت على البقاء معي حتى قيام الطائرة. أخذت مني جواز السفر والتذكرة لتنهي الإجراءات. هو نفس المطار الزجاجي الجميل الذي دخلت، وخرجت منه إلى بغداد عشرات المرات. مظلم الآن، وبائس بعد أن رحلت عنه بهجة أيام الزهو العراقي والأمان. اعتدت السفر، والحركة منذ طفولتي المبكرة. اعتدت أن أمر بالمطارات بخفة، وأتعامل معها بعملية شديدة. أتأثر بدموع اللقاء والوداع ثم أهشها بسرعة؛ حتى لا تربكني. في زيارتي الأولى للعراق كان المطار صغيراً، وبسيطاً. أخبرني "حاتم" أنهم يبنون مطاراً جديداً على أحدث طراز، وكان الأمن تقليدياً حتى حادث الانفجار الذي اتهمت فيه الحكومة السورية، بعدها تغير الأمن كلياً في العراق. وعرفت البنايات للمرة الأولى أجهزة الكشف عن الأسلحة. وتحولت رحلتي الأولى بعد حادث المطار إلى كارثة.

كنت سأزور "ياسر" للمرة الأولى بعد تركي له في مصر. لم أستطع النوم في ليلة السفر من شدة قلقي. لم أره منذ فترة، تمزقني هواجس لحظة اللقاء به. هل سيعرفني؟ أحاول إقناع نفسي بأنه لم ينسني، وأنه بخير كما يخبرونني تليفونياً. أتخيل شكله. ما الذي تغير فيه؟ هل سيقبل الطبيب أن أعود به إلى بغداد ؟ هل تحسنت صحته فعلاً في المناخ المصري المعتدل؟ كيف يعيش أطفال العراق إذا كان المناخ هنا هو سبب مشكلته الصحية؟ ليست مشكلته، بل مشكلتك أنت. كنت تستطيعين رفض رأي الطبيب، أو سؤال طبيب آخر، وتعودين بابنك إلى بغداد، وتلحقينه بحضانة وقت ذهابك إلى العمل مثل كل الأمهات هنا. يا إلهي لابد أن أوقف جلد الذات هذا. ما حدث قد حدث، وغداً أراه وأطمئن عليه.

غلبت فرحتي بلقاء "ياسر" خوفي، واشتعلت في عروقي حماسة العودة إلى القاهرة و"حاتم" يوصلني إلى المطار، تذكرت أنني أتركه وحيداً. ارتبكت. ابتسم "حاتم" وهو يقبلني، ويدفعني دفعا لدخول صالة الجوازات معلقًا على أناقتي. كنت قد اخترت فستاناً وردياً جديداً من الصوف له رقبة عالية قال : تعالي أنتِ و"ياسر" بسرعة. وإلا والله ألغي العقد، إذا لم تعودا خلال أسبوع.

قلت أستعطفه : أسبوعان.

قال : أسبوع واحد لا غير.

دفع الحقيبة إلى الميزان، ووقف معي حتى أنهيت الإجراءات الأولية قبل أن أدخل المنطقة المحظورة على غير المسافرين. أشارت لي الضابطة الواقفة أن أتقدم إلى كشك السيدات للتفتيش. التفت إلى "حاتم" ضاحكة، وقلت : مع السلامة.

استدرت لأواجهها. رفعت يديّ حتى يتسنى لها تمرير الجهاز الذي أراه للمرة الأولى حول جسدي. انتبهت لحركتها القلقة. حاولت أن أتجاوب مع إشاراتها لكي أهيئ لها الفرصة للدوران حولي بسهولة. ازداد توترها دون أن أفهم السبب. قالت بصوت عالٍ آمر : اثبتي في مكانكِ.

قلت : لم أتحرك.

قالت: مكانكِ.

أشارت إلى رقبة الفستان وسألت : ما هذا ؟

قلت : "هاي كول"[1].

- افتحيها.

- لا تنفتح. الفستان قطعة واحدة من دون خياطة.

- ماذا تخبئين داخله؟

ضحكت : أرنب.

- قلت لك ماذا تخبئين داخله؟

قلت وأنا أنظر إليها مندهشة: لا شيء. النقود في حقيبتي. ومعي وصل التحويل.

---

[1] رقبة عالية .

- كم دينارا معكِ؟
- ما لا يزيد عن مائة دينار لاحتياجاتي في رحلة العودة من القاهرة.
- هل ستعودين؟ أين جوازك؟
- نعم تفضلي أنا صحفية في مكتب مجلة الزهرة المصرية هنا في بغداد.
- استديري. ارفعي ملابسك كلها لأعلى، واخلعي ملابسك الداخلية السفلى.
- لماذا؟
- اخلعي ملابسك.

وضعت يدها بين الفخذين بسرعة قبل أن أدرك ما يحدث بالضبط. شهقت صارخة، ونزلت دموعي تغرق وجهي.

- انحني للأمام.
- لن أنحني. أريد مندوب وزارة الإعلام حالاً. أنتِ تقترفين خطأ كبيراً.
- قفي معتدلة.
- أريد مندوب الوزارة، أو مدير المطار.
- ارتدي ثيابك.

سالت دموعي، وتصورت "ليلى" القادمة نحوي أنني أبكي الفراق. وضعت يدها فوق كتفي. تماسكنا، وابتسمت لها رغماً عني. اصطحبتني إلى حاجز أمني. تعقدت الأجهزة أكثر من ذى قبل. دخلت كشك السيدات مع فتاة جميلة برتبة نقيب، مررت الجهاز فوق جسمى، وهي تبتسم بلطف. نظرت إلى جسمها المتناسق في الزي العسكري، وتذكرت النظرة المتعجرفة للفتاة التي أهانتني، بتفتيشها العنيف، وصرامتها، على الرغم من جمالها الصارخ، وشعرها الأصفر المموج بخصلات تميل إلى الاخضرار. لعبة الفريسة والصياد التي مارستها معي. تذكرت أبي وهو يقول ضاحكاً :

"اكتبي مقالاً عنوانه "رفقا بالقوارير" : يا ست يا صحفية هي تؤدي واجبها، وأنتِ تعترفين بنفسك أن حالة الأمن في بغداد قد تغيرت كثيراً عن العام الماضي. ماذا يفعل العراقيون لكي يواجهوا التخريب؟ الأمن هو أغلى ما في الحياة."

– نعم يا أبي أفهم هذا جيداً.

جلست مع "ليلى" أنتظر نداء الصعود إلى الطائرة. بحثت بعيني عن اللوحة التي تشير إلى مواعيد القيام. وجدت أن الطائرة على موعدها حتى الآن. تذكرت فتح الله ومها وعدم استطاعتهما الحضور إلى بغداد ليقابلاني لماذا لا أتصل لتوديعهما. سألت ليلى :

أين أجد تليفوناً محلياً؟

أشارت إلى حائط جانبي وسألتني : هل معكِ صرافة[1]؟

قلت: لا. عندي دولارات فحسب. سوف أغيرها من شباك البنك.

ضحكت وهي تمد يدها داخل حقيبتها قائلة: خذي هذه. احتفظي بالدولارات ستنفعك على الأقل في شرب الشاي في مطار عمان.

وضعت الدولارات في يدها، وقلت : حمى الشراء. ننفق آخر مليم. اشتري أنتِ الهدايا على ذوقك حتى أتحدث في التليفون.

ضحكت قائلة : ثانٍ يا مصرية؟ سأشتري لكِ طعاماً قد تحتاجينه في عمان.

أدرت الرقم، جاء صوت مها مضطربا. مها هي مها. مشاعرها واضحة وضوح الشمس، قلت : ماذا حدث يا "مها"؟ ما الذي يزعجك؟

قالت : من كلمة آلو؟ أنا لم أقل لكِ كلمة واحدة لتعرفي أنني منزعجة.

قلت : "مها". لا وقت عندي لكي أحايلك. أعطيني "فتح الله".

قالت : بصراحة. اختفى "بسيوني" فجأة من عمله بسيارة "لاندكروزر" تتبع هيئة الطرق، والدعم اللوجستي. لا أحد يعرف إن كان قد أصيب في مكان ما أو هرب؟ قلب الأمن الدنيا عليه، ولم يتوصل إلى شيء حتى الآن. استجوبوا "فتح الله" اليوم في عمله، وهو لا يعلم عنه أي شيء منذ أن زارنا في الموصل الشهر الماضي، باستثناء الرسالة التي تركها له لكي يقابلكِ، واتصاله التليفوني لتأكيد هذا. ولم يشر إلى نيته هذه من قريب أو بعيد، بل يضحك، ويحكي لنا قصصاً عن الحرب. أنا خائفة جداً من أن يكون مصاباً في مكان ما لا قدر الله. فتح الله" يريد أن يحدثك.

شعرت قلقاً مستتراً في صوته فقال : "نورا" أين أنتِ الآن بالضبط؟

---

[1] نقود معدنية .

وقع قلبي كأنني أصبت بهبوط حاد. هرب اللبن من صدري وكأنه جف فجأة.

قلت : أصعد إلى الطائرة بعد دقائق.

زفر زفرة طويلة قال : الحمد لله، أتمنى أن تخرجي على خير قبل أن يأتي لكِ وجع الدماغ مع الأمن. عملها المجرم وهرب.

قلت: هل ترجّح أنه هرب بالسيارة من العراق؟

قال: لا. بالقطع تركها في مكان ما. صحيح أن ثمنها نصف مليون جنيه، لكنه أولاً لن يسرق، وثانياً هو يريد عبور الحدود، ولا يحمل أوراق ملكيتها.

- هل مازالت متعلقاته في الموصل؟ وكيف يخرج دون الحصول على إذن مغادرة من دائرة الإقامة؟ أي منفذ عراقي لن يسمح له بالخروج دون إذن.

قال: أظنه سيبحث عن طريق سري لعبور الحدود، وهذا ما أخشى منه عليه. عموماً هو يعرف الكثير عن العراق الآن. ربنا يستر، ولا يقع في يد نصابين، أو من يغويه بارتكاب حماقة قد تكلفه حياته. سلمي لي على كل الناس في مصر.

لاحظت "ليلى" امتقاع وجهي، وهي تعطيني حقيبة فيها الكثير من الشيكولاته والبسكويت. أخذتها منها دون وعي، وجلست إلى جوارها ساهمة حتى سمعت نداء الصعود إلى الطائرة. قبلتها ومضيت جامدة الملامح تماماً، أنتظر أن يتم استدعائي في أي لحظة لاصطحابي إلى تلك الأماكن التي كثيراً ما سمعت عن جبروتها، ووحشيتها - قصر النهاية - ابتسمت قلت لنفسي : "لا يا شيخة بطلي عبط". لن يعرف أحد عني شيئاً بعد أن تركتني ليلى. هل يجرؤ الأمن على اعتقال أحد ضيوف العراق في الوقت الذي يحتاج فيه إلى كل جهده ليكسب العالم إلى صفه؟ هذا ليس اعتقالاً، وإنما هو تحقيق، وهو أحد حقوقهم. فقد قابلت بسيوني أمام شهود كثيرين قبل أن يختفي بساعات. القبض على صحفية ضيفة سيثير فضيحة كبرى ليسوا بحاجة إليها.

صعدت سلم الطائرة، وسط ظلام دامس وبرد شديد، ذكرني بما جره العراق على نفسه. ماذا فعلت يا بسيوني يخرب بيتك؟ هو انا ناقصة الأمن العراقي؟ ما هذه الرحلة التى لا يعلم بها إلا ربنا؟ أترك ابني الرضيع إلى بلد تحارب، وقد يقصف عمري مثل أوزة دون داعٍ تحت زعم النضال. أي نضال هذا؟ البحث عن الحقيقة؟ هل وصلت إلى أي حقيقة؟ أم هى معلومات طرف واحد؟ جلست في مقعد الطائرة أبتهل إلى الله

أن تصعد. أتابع تصاعد صوت محركها، تسربت إليه، تمددت شراييني، والتحمت بكل أجزائها المعدنية، شعرت ببرودتها، وهي تتشعب داخل أنسجتي. جمعت كل طاقتي لكي أدفعها إلى الطيران. راح جسمي يطقطق مع دوران المحرك، والدم في عروقي يدور في دوائر صغيرة تتصاعد مع سرعته. جاءت المضيفة تتقصع وهي تبتسم. تعلقت نظراتي بها، ولم يزحزحها سؤالها لي : هل تحتاجين إلى شيء؟ وجهك ممتقع!

قلت وابتسامة صفراء تملأ وجهي : تؤلمني معدتي. وأخاف من القيء.

قالت: سآتيك بدواء حالاً.

رحت أزووم وأنا أحشد المحرك لكي يزيد من سرعته هـ.. هـ.. خائفة من أن يستمع الجالس بجواري إلى زومي، حاولت أن أكتم صوتي فأصبح أكثر حشرجة. سيتصور أنني أغني، ولن يعرف بالقطع أننى أعاني الرعب. مالي والرجل، لقد استسلم للنوم منذ اللحظة الأولى لجلوسه، "هى ناقصاه هو الآخر".

جاءت المضيفة بكوب ماء قالت : تفضلي. هذا دواء مانع للقيء. سنطير حالاً.

سمعت الهدير المعتاد، وهي تستدير، وتسرع نحو مقعدها الخاص، وتربط حزامها، ابتسم الجالس إلى جواري ثم أغمض عينيه، والطائرة تركض بأقصى سرعتها فوق الممر، ثم تشرخ السماء بأجنحتها وصوتها الذي نزل فوق روحي مثل مطر الربيع الصافي، فابتسمت على الرغم من أن أذنيّ كانتا تقفزان من الألم. لاحظت اليد الممدودة بالعلكة من جاري. أخذتها منه شاكرة وشع وجهي بابتسامة لم أعرف أجمل من طعمها في حياتي. وضعت العلكة في فمي وأغمضت عيني. أضيئت الأنوار. ذهبت إلى الحمام؛ غسلت وجهي فشعرت بالانتعاش، وحين عدت إلى مقعدي استسلمت للراحة. شعرت كم أنا صغيرة ولا أفهم شيئاً في الحياة. ارتحت لسماع أغنية عراقية، وصوت عراقي يحدثني من موقع الكابتن قلت : هذا وجه آخر للعراق. تذكرت "بسيوني" : ترى أين أنت الآن يا صديقي؟ تذكرت ضحكته وهو يكرر: "قد أصل قبلكِ يا أبلة. أبلة! جتك ستين نيلة". هل يكون قد استفاد مما فعله فتح الله في تهريب بعض أصدقائه الشيوعيين العراقيين؟ من غير المعقول أن يكون فتح الله قد فقد عقله، وحكى له كيف؟ لمَ لا؟ ربما يكون قد استخدمه أيضاً. لكن فتح الله عاقل، ويستحيل أن يثق بطفل حتى لو بدا شجاعاً. لأن بسيوني متهور، وطائش بطبعه.

عرفت قصة التهريب هذه بالصدفة البحتة في أثناء زيارة "فتح الله" لمكتبنا في أحد الأيام بعد الضربة التي وجهت إلى الحزب الشيوعي سأله حلمي أمين، عن أخبار "محمد عزيز" أحد رجال الحزب الشيوعي العراقي قال : طار.

قال "حلمي": أمتأكد؟

قال "فتح الله" : نعم. رأيته بنفسي، وهو يطير.

جمعت الأوراق التي كنت أنهي كتابتها، وخرجت لأرحب به. اضطرب حين رآني أمامه.

قال حلمي : هذه ابنتي يا "فتح الله" ـ ضاحكاً ـ "نورا" حبيبتي.

قلت : هل أمسكوا بجناح عسكري للحزب الشيوعي. أم هي قصة ملفقة لغرض ما؟

قال "حلمي" : كان تنظيماً وفق ما أعلنوا مكوناً من ثمانية عشر ضابطاً اعتقلتهم المخابرات العسكرية، وبعد التعذيب اعترفوا أنهم الجناح العسكري للحزب الشيوعي العراقي.

قلت: أخطأوا. في عام ١٩٧٣ دخلوا جبهة ائتلاف للحكم، وكانوا ثاني أقوى حزب في البلاد، وتقرر أن يمثلهم ثلاثة وكان الاتفاق بعد إطلاق سراح عشرات المعتقلين ألا يدخل الشيوعيون الجيش.

قال "فتح الله": كانوا يمشون بما يرضي الله منذ ١٩٧٣ حتى نهاية العام الماضي. حتى تم القبض على هؤلاء الضباط، واكتشفوا صلتهم بالحزب الشيوعي، وما داموا قد كونوا تنظيماً عسكرياً، فهم يفكرون في الانقلاب بالطبع. لكن لماذا توجه الضربة إلى الصف الثاني، والثالث من الحزب؟ دون أن تمس القيادات حتى بتحقيق بسيط؟

قال "حلمي" : هذه ضربة معلم غاية في الذكاء. أولاً تم إعدام العسكريين الذين ثبتت عليهم التهمة. هل تذكر زيارة "صدام حسين" نائب الرئيس إلى موسكو، ثم يوغوسلافيا ثم مقابلته لـ"كاسترو" في هافانا بعد ذلك؟

قال "فتح الله" : طبعاً. كانت عقب الإعلان عن اكتشاف التنظيم مباشرة.

سألت "حلمي أمين" : تقصد أن "صدام حسين" حصل على ضوء أخضر من الاتحاد السوفييتي، والكتلة الشرقية، قبل إصدار قرارات الإعدام على الرغم من أنها قانونية،

وضمن اتفاق الجبهة؟ ألم يحاول كل من " كاسترو"، و"تيتو"، و"برجنيف" تخفيف الأحكام، خاصة وأن العلاقات بين العراق والكتلة الشرقية كانت تمر بشهر عسل سياسي؟

قال "حلمي" : حسب نظرية التحول اللارأسمالي التي قادها بعض المنظرين، والتي تقول إنه ليس شرا أن تقود الدول النامية أحزاب غير شيوعية، ويمكن أن تقود التغيير أحزاب يسارية وطنية.

قلت : هذا كلام "سمير أمين"، و"خالد بكداش" والحزب الشيوعي المصري.

ابتسم "فتح الله"، وقال "حلمي" : التنظير جاء قبله من "جرامشي"، وأيضاً من "بول سارتر" حين كتب نقد الفكر الجدلي. وقد أيد "لينين" الأنظمة التحريرية الوطنية ضد الاستعمار حتى لو لم تكن شيوعية وأيد ثورة ١٩١٩ في مصر بقيادة الوفد. ما حدث مؤخرا هو نتيجة مقال "يفجيني بريماكوف" "أفراح على ضفاف النيل" وأخذ عنه الفكرة كل الذين ذكرتهم. وحين ذهب صدام حسين إلى "بريجنيف " وفي يده وثائق الاتهام؟ بالطبع سيقول له : إذا كان عندكم اتفاق انتهى الأمر وكذلك" كاسترو". ويكون صدام حسين قد عداه العيب، وهذا ذكاء من "البكر" ؛ إذ لم يأخذ أي خطوة دون أن يرسل نائبه للتشاور، وتكون شرارة ضرب اليسار قد انطلقت من مكان سليم.

وصلت"أنهار" مبكرة عن موعدها اليومي. دخلت بمرح ترحب"بفتح الله، وتسأله عن "مها"، ثم جلست إلى جواري : كيفك يا مصرية؟!

قلت : حديد.

قال "حلمي" : حزب عمره أربعون سنة، منهم خمسة وثلاثون سنة في حالة سرية. كل ما يخصه من مطابع، وتنظيمات تحت الأرض، وهو حزب عريق، ومنتشر في الشارع، ومعرض للقمع طوال تاريخه، وحين يصطدم بالسلطة يلقى القبض على قياداته، أو تعدم. ويتقدم لحمل مسؤولية القيادة الصف الثاني، وبالطبع لا يكون هؤلاء معروفين للسلطة. ويعود الحزب بكامل هيئته إلى العمل، تحت الأرض، ويحتفظ بقوته على الرغم من الضربة التي وجهت إليه. وحين يقوم حزب البعث بترك القاعدة، واعتقال القيادات الوسطى، وتعذيبها أو حتى إعدامها، ثم يترك الباب موارباً للقيادات الكبيرة لكي تهرب فعلاً. فالنتيجة و كما توقع حزب البعث حدث انكسار

نفسي بين أعضاء الحزب الشيوعي، ونقمة من القواعد على القيادات، كما تسمعين يا "نورا" من الرفاق كل يوم هنا في المكتب.

نقلت نظراتي بينه وبين "أنهار". اعتراني قلق. لماذا يثق "حلمي" بها إلى هذا الحد، وهو الحريص بطبعه؟ قالت "أنهار" : نعم. أجهز اختفاء القيادات الوسطى على التنظيم.

جاءت المضيفة بطعام خفيف.كانت تتحرك بسرعة بين المقاعد ؛ فالمسافة بين بغداد وعمان قصيرة. أخذت منها صينية الطعام، انتقل الألم العصبي الذى يسكن روحي إلى أعضائي بالإيحاء، رحت أقضم البسكويت، وأنا ساهمة وأسأل نفسي:

من غير المعقول أن يطلب "فتح الله" من "بسيوني" أن يساعد الرفاق. إذا كانوا قد أعدموا العراقيين فماذا سيفعلون بمصرى يهربهم؟ لكن حلمي أخبرنا أنهم تركوا للقيادات الباب مواربا؛ حتى يسيئوا إلى سمعة الحزب بين الشباب. هل علموا بما فعله فتح الله فتركوه يتصرف على سجيته تحت سمعهم وبصرهم حتى إذا فعل أكثر مما خططوا له اعتقلوه، وبهذا يكون موضوع بسيوني هو القشة التي قصمت ظهر البعير ! لكن "فتح الله" لا يعرف أين ذهب "بسيوني"؟ الآن أنتقل إلى قلق أكبر على "فتح الله". رأسي سينفجر.

أعلن الكابتن وصولنا إلى مطار عمان، وطلب ربط الأحزمة وإعادة المقعد إلى مكانه. أغمضت عينيّ، أردت أن أضع قطعة علك في فمي، وأهدي جاري مثلها، بحثت عن كيس الشيكولاته، اكتشفت أنني نسيته في المطار. رحت أنتظر لحظة الالتحام بالأرض. الحمد لله أمامي ثلاث ساعات في عمان. فرصة أن أذهب إلى الحمام لكى أفرغ ثديي أولاً، ثم آخذ قسطاً من الراحة في الترانزيت قبل أن أصعد إلى طائرة القاهرة إن شاء الله.

دخلت إلى المطار الصغير عند منتصف الليل. تذكرت رحلتي مع "حاتم" و"ياسر" وكيف ضجرنا بعد أيام ثلاثة قضيناها في الأردن، فقررنا السفر إلى سوريا لنكمل فيها باقي عطلتنا. سألت أحد الضباط عن صالة الترانزيت قال :لا توجد صالة ترانزيت. قفي أمام ضابط الجوازات في الطابور.

- كنت هنا منذ أيام مع وفد رسمي، واستضافونا في صالة داخلية.
قلب الجواز في يده مراراً، ونظر نحوي مدققاً ثم سأل : صورة من هذه؟
صورتي.
- والطفل.
- ابني، لكنه ليس بصحبتي. كنت أنوي حين استخرجت الجواز قبل أسبوعين أن أصحبه معي، لكنى عدلت عن ذلك في آخر لحظة.
- الصورة باهتة جدا.
- صورة فورية. اضطررت لها حتى ألحق بمؤتمر في بغداد.
مددت يدي إلى حقيبتي، وأخرجت بطاقتي الصحفية المصرية والدولية، وخطاب الدعوة إلى المؤتمر وقدمتهم له.
أزاحهم قائلاً : خذي جوازك وراجعي المخابرات الأردنية غداً.
قلت : أنا ذاهبة إلى مصر. لماذا أراجع المخابرات الأردنية؟
قال : يوجد تشابه بين اسمك وأحد الأسماء المطلوبة أمنياً.
قلت : لا يوجد معي أي أموال تجعلني أدخل الأردن، وأحجز فندقاً، وأراجع المخابرات وقد يستمر هذا لأمد لا أعرفه. ألا يوجد حل آخر؟
قال : لا يوجد أمامك أي حل سوى دخول الأردن ومتابعة المخابرات.
قلت : لن أدخل الأردن. وليس من حقك أن تدخلني عنوة. أنا مجرد راكب ترانزيت، والمنطقة التي أقف فيها هي منطقة دولية. آسفة جدا. أنا عضو وفد مصري رسمي. قيل لي في بغداد إن أحد موظفي المراسم سينتظرني في عمان ليسهل مهمتي. أرجو أن تبلغه بوجودي.
- لا يوجد أحد كما ترين.
- اسأل من فضلك.
- انظري حولك. لا يوجد أحد. لو جاء أحد من السفارة العراقية لكان قد مر من عندي، أو من عند زميلي.
جاء إلينا أحد الضباط يحاول أن يفهم ما يجري بسبب احتداد صوتينا. أخذ منه الجواز، نظر فيه، وتحدث مع الضابط بصوت منخفض، ثم قال لي:

ـ اخرجي من الطابور، وانتظري قليلاً.

تعالت أصوات المسافرين من حولي : لا تدخلي الأردن.

قال راكب عربي : أنا رجل قانون. ليس من حقه أن يدخلك الأردن. تمسكي ببقائك في الترانزيت. لا تخضعي له بأية حال. أنتِ صغيرة ولا تعرفين معنى هذا الاشتباه. ستضيعين إذا دخلت.

ـ أشكرك. لكن ماذا سيفعل معي إذا رفضت؟

ـ لن يخرجك بالقوة، صدقيني.

ابتعدت عن الطابور، وذهبت نحو حائط لأستند عليه، إذ لم أجد مقعداً في المكان. وخزني صدري، نفرت عروقه تماماً على الرغم من أن اللبن الذي يدره الآن أصبح قليلاً جداً. ساعات وأنا لم أعصره، كلما زاد التوتر شعرت بوخزاته أكثر حدة. لكنه لم يبدأ في الانفراط بعد. يا نهار أسود مخابرات أردنية دون أن يعلم عني أحد شيئاً أ"موسى الصدر" ومن دون نقود؟ لماذا صرفت بالأمس آخر نقود معي؟ كتب. هل قرأت كل الكتب التي اشتريتها من قبل؟ شهوة شراء. اشربي نتائج النزق. ما الحكاية؟ اسم من هو الشبيه باسمي؟ اسمي اسم مصري خالص. "نورا إبراهيم فهمي". أما "سليمان" فهو غير مذكور في الجواز لا فلسطينياً ولا يحزنون. سألني إن كنت "اتنيلت" زرت الأردن من قبل. قلت:نعم. قال: لماذا؟ قلت : سياحة! وأليست هذه هي الحقيقة؟ لكن كيف يصدق مثله أن بعض المجانين أمثالنا يدفعون نقودا من حر مالهم حتى يروا باقي دولهم العربية؟ كل ما يريده هو نقود الغلابة العمال المصريين الذين يدفعون رسوم دخول الأردن ومغادرتها من دون داعٍ. هدأت القاعة، لم تنزل طائرة جديدة منذ وقت طويل. مرت ساعتان، دون أن يأتي الضابط الذي ذهب يسأل. ترددت في العودة إلى ضابط الجوازات الذي أصر على موقفه. فضلت انتظار الآخرحتى جاء وأشار لي قائلاً : للأسف. لابد أن تدخلي إلى الأردن وأن تراجعي غداً المخابرات؛ لأنك لن تستطيعي دخول هذا المطار من دون مراجعتها.

قلت: لماذا؟

قال : الصورة باهتة تماماً، وللضابط الحق في أن يشك في صحة هذا الجواز.

قلت : تذكرتي من بغداد إلى القاهرة، ولا شأن لي بالأردن. والقانون يخول لي

الحق في منطقة ترانزيت سواء أردت حضرتك أم لا. وإذا أبقيتني عشرة أيام هنا لن أدخل الأردن، وأنا صحفية وسأقيم الدنيا ولن أقعدها. وإذا أردت أن أوقظ أعضاء السفارة المصرية الآن فسأفعل هذا عن طريق هذا التليفون ـ أشرت إلى تليفون الحائط العمومي ـ فلا داعي لهذا العناد.

قال : النظام نظام وسيطبق عليكِ مثل الآخرين.

أشار إلى طابور جديد من المسافرين بدأ يتكون من جديد أمام الجوازات.

قلت : أن تستغلوا العمالة المصرية في الحصول على رسوم. هذا هو نظامك الذي تحاوله معي الآن، وهذا شأن الركاب الذين لم يقاوموا تصرفا غير قانوني ويرفضوا الدخول. أما أن يكون في جواز سفري مشكلة لا تتعلق بك. فلا داعي لتطبيق هذا النظام عليّ من أجل حفنة دولارات تافهة.

ـ لماذا ترفعين صوتك؟

ـ لأنك تعرف تماماً أن عندي حقاً، ولا تريد أن تفهم.

ـ لن يجديك هذا نفعاً، جوازك غير صالح.

ـ افعل ما شئت. هذا ليس شأنك. هذا شأن مصري. بلدي تحاسبني.

تجمع عدد من الضباط، والناس في الطابور. عرب ومصريون يقولون بكل وضوح بعد أن سمعوا القصة : لا ترضخي، لا يملكون شيئاً لك، لا تدخلي الأردن. يقولونها بأصوات عالية متحدين الضباط. "دي عالم فقرية، الأردني ما يضحكش حتى للعيش السخن". هذه امرأة صغيرة. ماذا تريدون منها؟ قالت لا تملك نقوداً.

انصرف الضابط بعد أن رفضت الوقوف في طابور الجوازات، وانقضت ساعة أخرى. ذهبت إلى التليفون، وضعت عملة معدنية عراقية لم تدخل الآلة. قدم لي أحد المسافرين عملة أردنية. استفسرت عن رقم السفارة المصرية وطلبتها. جاء صوت مسجل يقول أترك رسالة. تركت موجزاً بما حدث معي وأغلقت السماعة. عدت إلى الحائط لأستند عليه. انقضت ساعة أخرى أجهزت على قدرتي على الانتباه. وصل ضابط آخر، وسألني عن القصة حكيتها له. قال : تعالي معي. ادخلي هنا. هل معك جواز سفرك؟

ـ نعم.

فتح باباً جانبياً. ظهرت قاعة موازية أمام ساحة الطائرات مباشرة، رأيت بوابات الخروج. لم أصدق ما حدث. تبعته كعمياء، نظرت إلى ساعتي، وسألته : هل طارت طائرتي؟

- نعم.
- أطارت في موعدها؟

ضحك قائلاً: نعم، مع الأسف. أرجو أن تتقبلي اعتذاري.

قلت: حرام عليكم. ما سبب كل هذا؟

- من حقه أن يتتبع أدنى شك. في أي جريدة تكتبين؟
- في مجلتي الزهرة وروز اليوسف.
- ونعم الصحف. مع "صلاح جاهين"، و"صلاح حافظ"، و"أحمد بهاء الدين".
- أنت متابع جيد للصحف المصرية. لكن معظم هؤلاء الكتاب يكتبون في صحف أخرى الآن.
- كلنا ربينا على الثقافة المصرية.
- بالله عليك. ماذا يكون مصيري إذا دخلت بجواز لا أستطيع الخروج به من الأردن؟
- احمدي الله. أنكِ هنا الآن. هل معكِ نقود كافية؟
- مع الأسف. مجرد فكة.

أمر لي بساندوتشات وشاي، ثم تركني قائلاً : تقوم اليوم طائرة إلى مصر عند الثالثة ظهرا. سنضعك عليها إن شاء الله.

استطرد ضاحكاً : أرجو أن تقوم في موعدها أيضاً. مع السلامة. إن احتجت إلى شيء فأنا موجود في خدمتك.

- شكراً لك.

جاء الطعام، جلست أتناوله، وأعيد ترتيب ما حدث في ذهني، وأنا لا أصدق أني نجوت حتى الآن بمعجزة ربانية. سجون أردنية يا نهار أسود. انفرط ثدياي بقطرات من اللبن، تركتها ترعى فوق جسدي في خطوط دغدغت أعصابي، شممت رائحة اللبن طازجة غير عابئة بما يحدث لي. قلت سأصاب ببرد حالاً. الحمد لله أن حقيبة يدي ممتلئة

بالثياب الداخلية، والفوط، والمنظفات. سأتعامل مع المكان باعتباره فندقاً، وليذهب الجميع إلى الجحيم. سجون أردنية. تذكرت قصة صديقي الشاعر "حلمي سالم" الذي دخل الأردن العام الماضي (١٩٨١) وقالوا له: راجع المخابرات واقتادوه منها إلى السجن دون أن يعرف السبب والمحن التي مر بها خلال خمسة عشر يوماً حتى رحلوه إلى سوريا في سيارة مع المبعدين دون أن يعرف لماذا حتى الآن! لكن لماذا السجن؟ ألا تتدخل السفارة في مثل هذه الحالة، وتعطيني جوازاً آخر؟ ومن قال إن المسألة في الجواز؟ الرجل يقول: راجعي المخابرات العامة للاشتباه في اسم آخر. هل يمكن أن يأتي أحدهم الآن ويقول : لقد غيرنا رأينا، اخرجي إلى الأردن الآن؟ ولماذا؟ لقد انتهوا من الموضوع "وخلاص روقي يا "نورا" يا بنت فهمي". ترى يا بني كيف حالك؟ هل كانت تنقصنا مثل هذه الأحداث لأبتعد عنك فترة أطول؟ لماذا لم أعد مع الوفد الرسمي؟ البلد في حالة حرب، وابني الصغير عمره ستة أشهر فقط لا غير، والكبير في الخامسة. أنتِ أم، وصاحبة أسرة يا سيدتي. أرجو أن يكون ما حدث درساً لا تنسينه.

حملت حقيبتي ودخلت إلى الحمام. استقبلتني مشرفة أخرى غير التي ساعدتني في رحلة الذهاب. لم أهتم بشرح تصرفاتي لها، كانت تنظر نحوي من بعيد بعيون متفحصة، ففهمت أن قصتي مع الجوازات قد وصلت إليها. وضعت الأدوات فوق رخام الحوض، ثم دخلت إلى "التواليت" وتركت الباب موارباً حتى أستطيع مد قدمي مرتاحة وجلست منهكة. حاولت عصر ما تبقي في ثدييّ ببطء، ثم أغلقت البلوزة وخرجت، وجدت السيدة ما زالت جالسة فوق مقعدها قلت لها :

- صباح الخير. هل تغلقين الباب من فضلك لمدة خمس دقائق لأغسل جسمي لأنني أرضع؟ الحركة هادئة الآن.

قالت : حبلى ووالدة ومرضعة. هذه هي حياتنا يا ابنتي، أين وليدك؟

قلت : في مصر.

قالت : أنا في الخارج، إذا احتجتِ إلى أي شيء.

أشعرني الماء الساخن بآدميتي. غيرت ملابسي، ثم خرجت إلى الصالة، واخترت مقعدا بعيدا عن الناس والتليفزيون. تخاطفني النوم للحظات سريعة ضارباً سواداً مطبقاً فجائياً، ثم صحواً وإدراكاً لكل حركة من حولي : خطوات الأقدام وقعقعة

الأكواب، رشفات القهوة، والنداءات المستمرة للطائرات، بكاء الأطفال وأحاديث المسافرين. يأتيني الانتباه مثل وميض مفاجئ ويصحو عقلي بصفاء كأنني ما انحرمت من النوم لليوم الثالث على التوالي. تأتيني الرحلة كلها على صينية مرصوصة بعناية، أو يأتي حلمي أمين، وبغداد فتهبط دموعي دون استئذان. أشم رائحة الإسبرسو فأقوم لأحصل على كوب مضاعف.

سألني العامل : هل تحتاجين إلى أي شيء بجانبه؟ ساندوتش، بسكويت؟

- بسكويت.

قلت لنفسي المفروض قطعة من الشيكولاتة ؛ ليكون الكوب على أصوله الفرنسية. ابتسمت ها أنا أستعيد روحي المرحة. جلست فوق المقعد الطويل أمامه من باب التغيير. تذكرت "بسيوني" :

يا ترى أنت فين يا مرزوق؟ السلطانية.

ساعات الليل وحدها لا تكفي لبلوغ الحدود قبل أن يكتشفوا في الصباح اختفاءه بالسيارة. لابد أنه اختار سيارة كانت في الورشة للتصليح فلم ينتبه الضباط إلى غيابها؟ وهل يمر هذا الغياب بسهولة على عم "سيد"؟ لابد وأنه أجل الإبلاغ لفترة حتى يعطيه فرصة لقطع أكبر مسافة بعيداً عن الوحدة. لكنها حرب، وأي خطأ سيتهم فيه الرجل بالتواطؤ، وسيجر إلى مشكلات مع الشرطة العسكرية. لابد أنه حمى نفسه على الأقل في الأوراق. هل سيختبئ بسيوني في مكان ما حتى يكف الأمن عن ملاحقته؟ وهل يكف الأمن؟ لماذا لا أتصل بـ"فتح الله" وأسأله عن أي معلومات جديدة؟ لا. سيكون تليفونه مراقباً، وقد يجره سؤالي إلى مشكلات لا لزوم لها. لماذا أعطيهم فرصة الإمساك بجملة قد تكون بسيطة في نظري ولها معنى آخر لديهم؟ أنا لم أخرج من تحت سيطرة الأمن الأردني حتى الآن، والصلة بينهم وبين الأمن العراقي قائمة بالطبع. والجميع يعتقد أنني في مصر. خلاص صدقتي إن المخابرات العراقية قد ربطت بين مقابلتك لـ"بسيوني"، وهروبه بعدها. أكلت أفلام جيمس بوند عقلك. لابد وأن "بثينة" مُنظمة الرحلة قد أبلغت عن هذا اللقاء كما هي العادة، كما أنه من الطبيعي أن يكون "بسيوني" قد أخبر زملاءه في الوحدة بأنه ذاهب لمقابلة صحفية مصرية تحمل رسالة من أهله. وربما يكون قد فضفض لعم "سيد"، أو لأحد أصدقائه

الأكراد بنيته في الهرب. كلماته وشت بهذا ولكني لم أعطها قدرها. لا داعي لتليفون "فتح الله". اتركي الليلة تمر على خير، ويكفي ما لقيناه من متاعب الجوازات الأردنية. أنتِ مازلتِ مهددة أمنياً هنا. تكفي جهة أمن واحدة - ابتسمت - وواحدة هناك.

أغنية عن صقر

"أخرجت ملف حلمي أمين. وجدت ورقة مطوية بعناية لها عنوان : أغنية عن صقر قرأت:

أنهيت اليوم قراءتي لمجموعة "جوركي" مولد إنسان، على الرغم من أنني قرأتها عدة مرات من قبل في مصر. دوت صرخات الصقر في أرجاء شقتي في بغداد. جمعت بين لوعة الألم وقوة الإرادة وشهوة الحياة والنصر. دخلت إلى سريري والصقر يحلق في سماء الحجرة، ويصرخ في وجه الحية : آه لو أصعد إلى السماء ولو لمرة واحدة. لعصرت عدواً على صدري الجريح، ولشرق بدمي ! آه ما أحلى القتال.

كانت حية زرع قد صعدت إلى الجبل وتكورت، وراحت ترنو إلى البحر، وبغتة هوى من السماء في الشعب الذي تكورت فيه، صقر مهشم الصدر، مخضب الريش بالدم، مرسلاً صيحة قصيرة، وراح يضرب صدره على صخرة قوية بحنق العاجز. فزعت الحية وتراجعت، لكنها سرعان ما أدركت أن الطائر يحتضر. وفكرت في أن الحياة في السماء لابد أن تكون مريحة، ما دام هو يتوجع هكذا، واقترحت على الطائر أن يتحرك إلى حافة الشعب، وأن يرمي نفسه إلى الأسفل فقد يحمله جناحاه، ويعيش قليلاً في الأجواء التي يحبها.

يقول "جوركي" : ارتعش الصقر، وبعد أن صرخ بشمم تقدم من الهاوية، وبراثنه تنزلق إلى الصخر الزلق، ووصل إلى الحافة وبسط جناحيه وتنفس بصدره، وأبرق لعينيه، وهوى إلى أسفل. تدحرج على الصخور مثل جلمود صخر، وسقط سريعاً محطماً بجناحيه. فاقداً ريشه. جرفه موج البحر وغسل الدم. وأزبد واندفع إلى البحر. لطمت أمواج البحر الصخر بزئير كئيب، ولم تظهر جثة الطائر على منبسط البحر.

فكرت الحية في موت الطائر، وباللهفة إلى السماء. التفت على شكل حلقة، وقفزت فسقطت على الصخور، ولكنها لم تصرع.

قلت لنفسي: تدخل الفنان ليجعل للحياة معنى. حين جعل الأمواج تلطم الساحل وتهتز الصخور من ضرباتها، وجعل السماء ترتج، وتهدر بزئير ليث أغنية عن طائر أشم:

نحن نغني المجد لجنون الشجعان

يا أيها الصقر تحدث معي. نحن وحدنا الآن. بماذا فكرت وأنت تحتضر؟هل كنت خائفاً؟

قال الصقر: السماء لا تعرف غير الظمأ المجنون إلى الحرية والنور.

قلت: بماذا كنت تشعر وأنت تطير لآخر مرة؟ هل تعادل هذه اللحظات من الطيران الحياة؟ ألم تفكر في هدنة حتى وإن حرمتك من التحليق عالياً؟

قال الصقر: ما فائدة حياة عاجزة؟ الموت أهون من زمن العفونة. هو الشوق إلى الثورة. والأحلام تختصر المسافات، وتقفز على حاجز الزمن.

قلت: أيها الصقر لا تجعل شفتيك تطبقان على الكتمان المستحيل. إن البكاء يخفف عنك كثيراً. الآن، ونحن وحدنا، حتى الحية اختفت، وليس هنا غيري وغيرك، وعجوز استدعيته من قصة "هيمنجواي" الذي كان رحيماً حين ابتكر الصبي العطوف على العجوز. كثيراً ما تنسى الحياة أن تعطي لمسة جمال ودفء.

قال الصقر: عشقنا الحرية حتى الموت.

قلت للعجوز: أنا وأنت وهو ماذا حصدنا؟ غريمنا واحد: الإعصار، والموج، والحوت، وسمكة القرش الدموية. وحوش الأرض والسماء.

قال العجوز: لم تعرف الحية ماذا رأى الصقر المحتضر في ذلك القفر الذي لا قاع له، ولا طرف، كما وصفه "جوركي"؟ ولم تعرف لماذا الذين على شاكلته يحيرون الروح، وهم الفانون بحبهم للطيران في السماء؟ وماذا يرون بوضوح هناك؟ ولم يفهم الناس المتجمهرون حول مركبي يشاهدون الهيكل العظمي للحوت لماذا أصارع وحوش البحر؟

قلت: هزمك القدر لكنه لم يصرعك ما زالت في العمر بقية للنزول إلى البحر، كما فعل الصقر بالطيران في السماء ولو لزمن قصير.

قال العجوز: من هذا الذي جاء؟

نظرت إليه طويلاً. سمعته يقول: ألم تعرفني؟ أنا "سارويان". رفيق صباك. أنا

الذي كنت أخفف عنك عبء دروس اللاتينية الصعبة، ومقولات "أرسطو" و"الفارابي" و"ابن رشد" والشيخ "ابن سينا". أنا الذي كنت أعينك حين لم تكن الحياة سهلة. طالبتك أن تبدأ البداية الموفقة. لأنك إن بدأتها فلن تستطيع قوة أن توقفك، وليس عليك بعد ذلك إلا أن تعيش.

قلت: عرفتك. أنت الذي كتب عن أمريكا العذراء. جن بك شباب الأدباء في مصر. قرأت خبر نعيك مؤخراً. فلماذا مفاجأتك هذه؟ هل تشعر باحتياجي إليك؟

قال "سارويان" : كما "هاملت" وشبحه، عدت إليك تحكمني ساعات ليل بغداد. جئتك بكلمات صديقك الصياد القديم الذي كان يشوي لك سمكات صغيرة في الفجر أمام الشبكات التي تصيد السمان على شاطئ الإسكندرية في الأنفوشي. هل تذكرها؟ قال لي إنه يشعر بوحدتك، وضجرك، ويعرف أنك لم تفقد إيمانك بها، ولا حبك لها، ذلك الحب الذي كنت تقول عنه لصديقك صلاح حافظ إنه يستعبدنا، ويقول لك صلاح ضاحكاً : نموت ونحيا في حب "يحيى".

قلت: هذا هو الشيخ "سمعان". ماذا قال لك عما يحدث في مصر الآن؟

قال "سارويان" : يقول إن مصر تلد في زمن الحسومات مسخاً للأشقياء ما إن يشبوا عن الطوق حتى تبرأ منهم، ويتبرأوا منها ويحتاج خلعهم من التربة الطيبة إلى جهد جهيد، ويصمم على نسبتهم إلى موسم ولادتهم. الحسومات.

سمعنا ضحكة. خرجت الحية من تحت السرير زاحفة. تحولنا جميعاً إلى طيور تلف وتدور في سماء الحجرة. قالت الحية ساخرة: هذه لذة الطيران في السماء إذن. إنها في السقوط. طيور مضحكة لا تعرف الأرض فتضجر منها وتنطلق إلى حالق في السماء، وتبحث عن حياة في خواء قائظ هناك حيث الفراغ والضوء الكثير، ولكن لا طعام، ولا سند لجسد حي. فما الداعي إلى الضجر؟ ولَمَ تعيير الآخرين؟ ألكي يغطوا به جنون رغباتهم ويخفون وراءه عدم جدواهم في الحياة؟ طيور مضحكة. ولكن لن تغرر بي أحاديثهم بعد الآن! أنا أعرف كل شيء. لقد رأيت السماء. طرت فيها، وسبرت غورها، وعرفت السقوط ولكن لم أتحطم بل وثقت بنفسي أكثر. دع الذين لا يقدرون على حب الأرض يعيشون على الخداع. أنا أعرف الحقيقة. ولا أثق في دعواتهم. أنا من خلق الأرض وعليها أعيش.

رفرفنا جميعاً. فتحنا النافذة التي تطل على سماء بغداد، وانطلقنا نضرب بأجنحتنا فرحين بالحرية والنور كما قال "جوركي" :

نحن نغني المجد لجنون الشجعان."

أغلقت الملف ووضعته في الحقيبة. هو سيرة ذاتية وخواطر. أقرؤها في مصر على مهل ربما تكشف لي الألغاز التي لم تحل حتى الآن. لغز رحيل "أنهار" ولغز رحيله هو أيضاً.

انتبهت إلى دخول فوج من المسافرين معظمهم مصري، وبعض العرب والعراقيين وقليل جداً من الأجانب. هل آن أوان سفري إلى القاهرة؟ لكن كيف؟ تطلعت إلى اللوحة. رأيتها تشير إلى رحلة طائرة عالية إلى بغداد. مصائب قوم عند قوم فوائد. رحلات شركة مصر للطيران اليومية. القاهرة ـ بغداد والعكس، وكذلك رحلات الطيران العراقية متوقفة الآن. تسلم وتستلم المسافرين إلى طيران عالية.

سمعت صوتاً رقيقاً يسألني : لطفاً. هل هذا المقعد فارغ؟

رفعت رأسي لها. سيدة حامل في العشرين من عمرها، منفرطة العافية، والبشاشة. في السن نفسها التي حملت فيها "بياسر".

قلت لها : "تفظلي". (لم تلاحظ نطقي للظاء بدلاً من الضاد).

جلست بعد أن وضعت حقيبتها أمامها على الأرض، وراحت تتلفت حولها.

اقشعر جسمي. شعرت بانفلات بثور صغيرة لتحتل بشرة يدي، وارتعشت من العرق الذى نشع مني فجأة. يحدث هذا لي في كل مرة أرى فيها امرأة حاملاً. سألتني السيدة: هل أنتِ مصرية؟

قلت : نعم.

قالت : أذاهبة إلى بغداد ؟

قلت : لا. عائدة إلى القاهرة.

قالت ضاحكة : راح نتبادل المواقع. أنا قادمة من مصر حتى ألد في بغداد؛ في بيت أهلي. زوجي يعمل في السفارة العراقية. صار عددنا قليلاً بعد غلق السفارة.

قلت : مرتاحة في مصر؟

قالت : نعم. "والله المصريين حبابين".
قلت : لماذا لم تلدي في مصر؟ كنتِ ستجدين نفس الرعاية.
قالت : تعرفين الأهل "غير شكل". هذا أول مولود.
سمعنا نداء التوجه إلى الطائرة العراقية. قامت واستأذنت.

تذكرت هذا الحوار بيني وبين جاراتي العراقيات حين قررت السفر إلى القاهرة لألد "ياسر". لكن الأحداث لم تسر كما خططنا لها. على الرغم من أنني أعددت حقيبتي وقطعت التذكرة وجاءت ليلة سفري التي انتظرتها بلهفة. واستقبلت جاراتي في حي الشرطة، أم "علاوي"، أم "سعدي"، وأم "صفاء". وزارتني "سامية" و"محمود" و"عادل" و"ناهد"، قضينا وقتاً ممتعاً، ثم ودعوني متمنين لي السلامة. كنت قد جهزت حقيبتي وطبخت الكثير من الطعام لـ"حاتم"، ووضعته في الديب فريزر طوال الأسبوع الماضي. دخلت إلى سريري منهكة تماماً. لا أشعر بالتعب إلا حين أضع جسمي فوق الحاشية، يا إلهي. جاء "حاتم" واحتضنني بشدة، فوجئ باستسلامي للنوم. تركني وهو يقول :

ـ أوحشتني.
ـ سأصحو لك مبكراً.

أيقظتني ضربات صغيرة على الجانبين، حاولت أن أهشها وأعود إلى النوم، لكنها بدأت تتزايد، تقلبت عدة مرات، وقمت من السرير إلى الحمام، ثم عدت إلى السرير، والضربات تتصاعد. نزلت أمشي في الصالة، جلست على أول مقعد صادفني، ثم عدت إلى الوقوف، لا شيء يريحني. أطاحت الضربات بظهري بعنف، أمسكت جانبي أسندهما ؛ ورحت أدور حول نفسي حتى كدت أقع، اندفعت دموعي تغرق وجهي، سمعت صوت "حاتم":

ـ ماذا بكِ يا حبيبتي؟
ـ لا أعرف. ضربات عنيفة في ظهري.
ـ أغلي لكِ قرفة؟

ضحكت : "تاني".

كان "حاتم" كلما شعر بتعبي من الحمل في أشهره الأولى، غلى لي أخشاب القرفة وسقاها لي بإصرار، رأته أخته في أثناء زيارتها لنا، يصنع لي القرفة فصرخت قائلة: هذا يطرد الجنين.

قال : كنت أراكن تغلونها إذا ما شعرت إحداكن بمغص.

أخذني في حضنه وأجلسني فوق السرير. ازداد الألم، شعر بسخونة دموعي فوق صدره، قام وارتدى ملابسه، ولفني بالروب، واصطحبني إلى الخارج.

سمعت "صباح" و"شكري" أصوات خروجنا في الثانية صباحاً؛ فتحا الباب وسألا عن الأمر بجزع : إلى أين؟ ماذا حدث؟

- "نورا" متعبة جداً. يبدو أن لديها أعراض ولادة.

قالت "صباح" : لا. مازالت في بداية شهرها الثامن. انتظروني سآتي معكما.

- شكراً لكِ. سأطمئن عليها في المستشفى، ثم نعود إن شاء الله. أنتِ حامل. ولا يصح أن تتعرضي لهذا.

تركنا "صباح" في حالة جزع حقيقية. حالة حنان طبيعية تفاجئني بها من حين إلى آخر. دخلت غرفة الطبيبة النوباتجية (المناوبة). أرقدتني فوق طاولة، وراحت تستمع إلى الجنين بالسماعة ثم قالت: دخول مستشفى. هذه حالة ولادة مبكرة.

قلت : لكننى أسافر مصر غداً.

قالت : قبل أن يأتي الصباح، سيكون لديكِ طفل جميل وعراقي أيضاً.

قلت : لكن طفل الشهر الثامن لا يعيش، ويكون ضعيفاً.

قالت : هذا خطأ شائع. طفل الثامن له فرصة أكبر في الحياة من طفل السابع ؛ لأنه بقي وقتاً أطول في الرحم.

سألتها باكية : ماذا أفعل الآن؟

قالت وهي تربت فوق كتفي : تلدين ولادة طبيعية، دون أن تخشي على الجنين. وإن شاء الله يكون طفلاً قوياً معافى. ماذا فعلتِ اليوم؟

- عملت كثيراً. استقبلت عدداً من الضيوف، وجهزت حقيبة السفر. ألا يمكن أن يكون ما أشعر به الآن مجرد إجهاد وأن تأتي الولادة في موعدها بعد ذلك؟

ضحكت وقالت : الولادة لا تؤجل. إذا قرر الطفل أن يأتي، فلا شيء يمكن أن يمنعه. اصعدي إلى جناح الولادة. ولأنك تلدين للمرة الأولى؛ فسوف تستغرق الولادة وقتاً طويلاً.

كتبت تذكرة الدخول وأمرت لي بكرسي متحرك، اصطحبني "حاتم" إلى غرفتي.

كلما هاجمتني نوبة ألم أمسكت بظهر السرير. في الخامسة صباحاً جاءت طبيبة أخرى وفحصتني.

قالت : الرحم مفتوح بوصة ونصف؛ هل تشعرين بألم؟

- لا.

نظرت إلى "حاتم" وقالت : لماذا أنت هنا؟

- أنتظر زوجتي.

- هل أنت طبيب؟

- لا. مهندس ميكانيكي.

- الميكانيكي لا يولد زوجته. مازال الوقت أمامها طويلاً. غير مسموح بوجودك هنا.

- لكنها وحدها.

- هذا طبيعي، وكلنا معها.

رضخ "حاتم" بعد محاولات يائسة مع الطبيبة. ذهب إلى البيت أولاً لكي يطمئن "صباح" و"شكري". وبعد ساعات، وصلت صباح ومعها حقيبة ملابس لي وللطفل. سمحوا لها بزيارتي لدقائق بعد إلحاح. طلبت الطبيبة أشعة للجنين. علقت حين فحصتها قائلة:

- لماذا هذه الدموع؟ حجم الجنين ممتاز وهو طبيعي جداً، ووضعه إلى أسفل. أنتِ في حالة ولادة، لكن مازال الوقت أمامك.

جاء "حاتم" في المساء من المصنع مباشرة دون أن يتناول أي طعام. بدا عليه الإرهاق والقلق. وأخبرني بأنه طمأن أبي الذي انتظرني في المطار دون جدوى. ذهبنا معا إلى الطبيب المناوب، وسألناه معا : لماذا لم ألد حتى الآن؟

قال : هي حالة ولادة، والرحم مفتوح، لا أستطيع إخراجك، ولا أعرف متى تزداد الانقباضات، ويخرج الجنين. لا نملك إلا الانتظار.

في اليوم الثالث، حين دخلت أول طبيبة إلى غرفتي طلبت منها أن أعود إلى البيت.

قالت : الجنين نازل. إذا وضعتِ قدميك فوق الأرض، فستلدين من فورك. كل

ساعة يبقاها الجنين في رحمك مكسب له. نامي فوق ظهركِ حتى يعود إليكِ الطلق مرة أخرى.

اصطحبني"حاتم" إلى البيت، وجهز الحجرة بكل ما أحتاجه.

قال : سأعطي لـ"صباح" المفتاح ؛ لتأتي إليكِ دون أن تضطري إلى القيام.

جلست فوق سريري غير مصدقة أنني عدت إلى بيتي، وجاء التليفون بأمي : لا تخافي من الولادة. كل يوم تأتي مواليد بالمئات وأنتِ شجاعة على الرغم من أن ابنك مستعجل.

أخذ أبي السماعة وقال : "كل حاجة أونطى حتى الولادة. تريدين أن تختصري شهرين". الله معكِ. أمك هي التي ستصبح جدة ؛ فمازال أبوكِ شاباً صغيراً. انتبهي لتعليمات الأطباء.

أدخل "حاتم" جهاز التليفزيون إلى حجرتي، ونقل إليها كنبة، وطاولة صغيرة، ومقعدين.

قلت : ما كل هذا النشاط؟

قال : أريد أن تشعري بالراحة، وأن تجلسي لكي تقرئي على الكنبة، إذا ما مللت السرير.

- هل فرحت يا حبيبي لأنني لم أسافر؟

- لا بركة لي إلاكِ. لكني كنت أريد أن تلدي بمساعدة ماما. كنتِ تشكين من قلة ساعات القراءة. لديكِ فرصة كبيرة الآن.

بدأت الضجر منذ اليوم الثاني لعودتي إلى البيت. تركت الكتاب فوق الوسادة، وفتحت النافذة لشمس فبراير الناعمة لتدخل إلى سريري، تدفعني رغبة في الوصول إلى الثلاجة؛ لكي أضع اللحم فوق الشواية، وينضج قبل وصول "حاتم"، لكني خائفة. يختصر "حاتم" كل الخطوات على طريقته العملية؛ يتبل اللحم في المساء، وعند عودته يقذف إلى الفرن بكل أنواع الخضروات الموجودة، ويجهز شوربة فورية، وبعد العشاء يجلس بجواري يقرأ. انتبهت إلى طرقات فوق الباب، ألتفت لأرى "فتحية" تدلف إلى الحجرة، وهي تحمل طفلاً صغيراً ملفوفاً ببطانية. صرخت: من هذا؟

- "علي". ولدت أبلة "صباح" في أثناء الليل. خافت عليكِ من الانفعال.

ـ سمعت حركة كبيرة بالأمس، لكنني تصورتكم تستقبلون ضيوفاً.

أمسكت بيد الطفل أقبلها. وضعته فتحية بجواري فوق السرير حتى لا أحمله.

سألتها : لماذا يبدو عجوزاً هكذا ؟

ضحكت : تقول أبلة إنه فقد وزنه قبل الولادة مباشرة. يتغيرون بسرعة. سيكون مثل القمر بعد أسبوع.

بعد يومين صعدت إليَّ "صباح" والأطفال، وعادت الحياة إلى صيرورتها الأولى. مرت أسابيع ثلاثة كأنها ثلاث سنوات. تمددت بطني، وانتفخت مثل بالونة، وشعرت بأنني قنبلة على وشك الانفجار، ثم تكوَّرت، وراحت تنزل تدريجياً إلى أسفل حتى شعرت أنها ستقع مني. استيقظت ضجرة، ثم عدت إلى النوم مرة أخرى بعد خروج "حاتم"، جلست إلى جوار النافذة التي تطل على الحديقة. رأيت "فتحية" تجمع لعب الأطفال.

قلت لها: أرسلي لي "صباح".

فوجئت "صباح" بالأناقة. سألتني : ما هذا ؟

قلت: أريد أن أذهب معكِ إلى السوق. مللت الرقاد. سأمشي بجوارك ببطء تحمَّليني.

ـ لكن الطبيبة حذرتك. والحمد لله قطعنا شوطاً في الشهر الثامن. اصبري.

ـ تعبت.

ـ ماشي. سأرتدي ملابسي، وأنادي عليكِ.

وضعت ماكياجاً خفيفاً للمرة الأولى منذ فترة طويلة. وارتديت "باربوكة" وأنا أبتسم. سأطلب من "صباح" أن تلتقط لي صورة كما أنا مستديرة مثل كرة. اندفع دلو من الماء من بين فخذي، دفعة واحدة. صرخت: الحقيني يا "صباح".

ركضت "صباح" صاعدة السلم : ماذا حدث؟

فوجئت ببحيرة الماء التي أقف وسطها قالت: هذه ولادة حالاً. استدعي يا "فتحية"، تاكسياً بسرعة. أين حقيبة الطفل.

ـ في الدولاب.

ـ قالت الطبيبة لا تضعي قدمك فوق الأرض.

ـ لم أمشِ ثلاث خطوات. الحمد لله أننا لم نذهب إلى السوق.

ركبنا التاكسي وأنا خجلة، لاأعرف كيف أداري خرطوم الماء المندفع من جسمي، قلت للسائق : عفواً. مستشفى اليرموك من فضلك.

قال : بمعودة. الله كريم. يكتب لكِ الله السلامة.

لم أر سائقاً عراقياً يقود بهذه السرعة، وبهدوء شديد أيضاً. دخل بنا إلى قسم الولادة مباشرة، وأنهى إجراءات دخولنا بنفسه. حاولت إثناءه لكنه رفض النقاش.

فحصتني الطبيبة ثم سألتني : ما المدة بين الطلق؟

ـ لا يوجد طلق ولا أشعر بأي شيء.

أدخلتني غرفة، وقالت : حين يأتي الطلق، أخبري الممرضة.

جلست معي "صباح"، وبعد ساعتين بدأت أشعر بآلام شديدة موجعة. أدخلوني غرفة العمليات وحيدة. استنجدت : لا تتركيني يا "صباح".

قالت الممرضة : ممنوع. لا أحد يدخل هنا.

رأيت سيدة في خمسينيات عمرها تنام فوق طاولة مجاورة. همست الممرضة في أذني :"أم علي" توقع أوراق ولادة قيصرية. ستنقل الآن إلى غرفة العمليات. هي في الرابعة والخمسين، وهذه هي ولادتها الرابعة عشرة، وكلها ولادات طبيعية من قبل.

التفت إليها بعد خروج المرضة، رأيتها ساكنة مستسلمة تمتد ضفائرها البيضاء فوق جسمها مثل ثعبان يتلوى في دلال. انحسر جلبابها الأبيض الطويل عن ساقين رفيعتين شديدتي البياض لا تتناسبان مع لون وجهها القمحي المبطش ببقع بنية. كانت تنظر إلى سقف الغرفة، وهي تتمتم بدعاء خافت لا أميز منه سوى كلمة "علي". دخلت الممرضة ممسكة بورقة وقالت لها : وقع ابنك على الأوراق. هذا آخر طفل يا "أم علي". هل سمعتِ؟

ـ يكفي والحمد لله.

نظرت الممرضة نحوي قائلة: تريدين صبياً بالطبع.

ـ لا. صبية.

قالت منزعجة : بنية؟ "أم نسرين" التي أحضرناها الآن حلف زوجها يمين طلاق إذا أنجبت ابنة رابعة. و"أم شيرويت" ينتظرها يمين طلاق أيضاً، و"أم محمود" لديها ثلاثة صبية، وتريد صبياً رابعاً. أنتِ الوحيدة في هذه المستشفى التي تريد بنتاً.

دخلت طبيبة رائعة الجمال، ترتدي قفازاً شفافاً، أدخلت يدها في رحمي وهي تبتسم وقالت : ماذا تريدين؟

- بنتاً.

رددت منزعجة: ماذا؟ بنت.

- أنتِ بنت، أليس كذلك؟

- ولادةَ حالاً.

صرخت : ماذا فعلت؟

لم تلتفت، خرجت مع الممرضة. ساد الغرفة سكون غريب. انتبهت إلى صوت "أم علي" تنادي: احضرني يا "علي". أحضرني يا سيدي. أحضرني.

صرخت بصوت رفيع مثل آلة حادة. ورأيت طفلاً يخرج مندفعاً جافاً من بين فخذيها، وهى تنحني إلى الأمام وتتشبث به بكف يدها، وجسمها لا يساعدها، والطفل يحاول الانفلات إلى الأرض. جاءت الممرضات والأطباء يركضون، أمسكت إحداهن بالطفل بمعجزة. امتلأت القاعة وتعالت الصرخات المرحة : "أم علي" جابت طبيعي. سمعت أصوات مقص، وحركة ذهاب وإياب،ثم رأيت طفلاً جميلاً مربوطاً بقماش أبيض مثل مومياء صغيرة. نزلت دموعي.

سمعت ممرضة تقول : "هادي مصرية. باوعي شلون تطلك[1]؟ متل الأفلام".

هدأت القاعة من زوارها. بدأت أستمع مجددا إلى دقات الألم القادمة من أسفل ظهري. رحت أنادي الطبيبة، فلم يجبني أحد. ثم دخلت الطبيبة وراحت تربت فوق رأسى بهدوء.

قلت : ألن يفرجها الله؟

- مازالت أمامكِ دقائق. حالاً يأتي الفرج.

تركتني، ثم عادت مع طاولة متحركة تدفعها ممرضة، ترقد فوقها امرأة في ثلاثينيات عمرها، تتلوى بعنف، وهي تكتم أناتها. توقفوا في مواجهتي، انشغلت الطبيبة بإخراج الطفل، تعالت صرخات المرأة. اضطربت قدرتي على التنفس، واستمرت دموعي تهطل بغزارة.

---

١ انظري كيف تطلق ؟

أمرتها الطبيبة : ادفعي. تخنقينه. ادفعي.

سمعت صوت صراخ طفل، سألت المرأة: أصبي؟ أليس كذلك؟

ـ لا. بنية.

ساد الصمت القاعة. رأيت دموع المرأة تغرق وجهها، والممرضة تأتي بالطفلة إلى الأم بعد أن خرجت بها إلى الأب قالت : أسماها أبوها "كافي" يا "أم شيرويت".

ـ هل قال طلاقاً؟

ـ لا.

ـ الحمد لله.

ازدادت آلامي بعنف، فأطلقت صرخة أقلقت كائنات الأرض وانسحبت تدريجياً من الوعي، ثم عدت إليه بآلام فتاكة. تقاذفني الألم مثل كرة راكيت. انتظرت من الطبيبة أن تفعل شيئاً، لكنها اكتفت بالقول : ادفعي. ادفعي الآن.

شعرت بانفلات هائل وسكون. قالت الطبيبة: "جيبتك ولد أكرت".

ـ هل هو بخير؟

ـ من هذا التمام. صبي عراقي صحيح. عصب قوي. ألم تحملي به على أرض العراق؟

ابتسمت وقلت : نعم.

هممت بالجلوس حتى أراه، فلم أستطع. ربتت فوق كتفي قائلة : سأعطيه لكِ حالاً.

استسلمت لأصوات الحركة التي تدور من حولي، وشعرت بأنني فوق موجة تحملني إلى أفق لا نهائي. تمنيت أن أنام، وأن أتركها ترسو بي حيث تشاء، لكنها أتتني بأصوات صحو إجبارية. وأنا في شوق لأرى ابني. قمت نصف قيام، بضعف شديد رأيت الممرضة قادمة به نحوي: طفل أسمر تغرق جبهته تحت شعر أسود كثيف ناعم. احتضنته وقبلت رأسه، وعدت إلى الرقاد. أدركت أنهن يغسلنني بالماء تألمت من كل لمسة فوق جسدي المنهك. دفعت الممرضة السرير إلى الخارج، وجدت "صباح" في غرفتي تتسلم ابني من ممرضة أخرى.

قالت ضاحكة : فك القماط يعرف أنه مصري.

ربطوا جسمه بقطعة قماش بيضاء. ثبتوا كل ذراع في ساق، وأعادوا لف القماش حول جسمه، فتحول إلى أنبوب قوي لا يظهر غير رأسه.

تغيرت حياتي بوصول "ياسر". ذكرني طوال الوقت بأمومتي وحقه في حياة طبيعية. كنت أريد العمل في بيروت لأتابع ما يحدث هناك. أدركت أن تجربة العمل مع المقاومة الفلسطينية تجربة إجبارية لمن يريد حياة من هذا النوع. أخبرت زوجي قال :

- لا تخشي شيئاً؛ سأرعى "ياسر" مع أمك حتى تعودي لنا سالمة.

دفعتني موافقته لسؤال : أليس من حق "حاتم" أن يعيش مع زوجة تقليدية، وأن يجد لابنه أمّاً تتابع تعليمه، حتى لو كانت تعمل بالصحافة؟ عدت معهما إلى مصر. لا أعرف أكان هذا قراراً صحيحاً أم لا ؟ لكنني أعرف أنه غير طريقي مدى الحياة.

اخترت أن أكون أماً أولاً، ثم صحفية ثانياً، وأنجبت "هيثم" بعد عودتي إلى القاهرة بسنة. لكن أأنا حقاً أم أولاً؟ لقد تركت ابني في رعاية جدته، ومرضعة، وجف ثدييّ تقريباً من أجل حضور مؤتمر، لكنها بغداد، بعد غياب سنة ونصف عنها. وهي في حالة حرب؟ المهم أن تنتهي هذه الزيارة الجنونية على خير. أحتاج إلى النوم. ساعة واحدة تنعشني يا إلهي. لماذا لا أدخل إلى الحمام وأفرغ ثدييّ وأغسل جسمي بالفوطة والصابونة، فقد أنام. أو على الأقل أشعر بالنظافة. قمت متثاقلة أعيد ما أفعله منذ أسبوع باختناق، وراء باب ضيق، أشعر بخطوات النساء على بعد نصف متر يدخلن ويخرجن بصحبة أطفالهن، وأسمعهن ينظفنهم، ويدخلنهم التواليت، ويحايلنهم بهدوء. من أين يأتينا بكل هذا الصبر على رعاية أطفالنا ؟ الطفل هو الديكتاتور وليس الزوج. لن يفهم مخلوق غيرنا هذا. بدأ جسمي ينتعش، شممت رائحة الكريم فشعرت أكثر بالراحة.

دخلت أسرة ترتدي السواد، أم مصرية تحتضن أطفالاً ثلاثة ؛ تتراقص خطواتها مترنحة. لقد رأيت هذا المشهد من قبل، وتورطت به حتى النخاع.

قال "حاتم" : سأقول لكِ خبراً محزناً. أصيب "عادل" اليوم في المصنع بأزمة قلب ونقلناه إلى الإنعاش في مدينة الطب. وتستمر حالة الخطر حتى الغد. إذا اجتازها عاش. أريد أن نذهب إلى "ناهد" في البيت فهي بحاجة إليكِ. أعدي "ياسر" بسرعة.

قلت : يا خبر. "عـادل" في بداية الثـلاثينيـات من عمره. كيف؟ صحيح هو ممتلئ الجسم، لكن وجهه ينشع بالدم والحيوية، لماذا القلب؟ هل لعائلته تاريخ مرضي في القلب؟

قال : المصيبة أن يدي "عادل" سائبة. يعيش الحياة كما تعلمين بالطول وبالعرض.

ـ أعرف أنه من عائلة ميسورة.

ـ قطعتـان من الأرض الزراعيـة مـاذا تفيـدان؟ كانت قد أفادته، ولم يلجأ إلى الغربة.

سحبني "ياسر" من يدي، وهو يغني، لكني لم أكن في حالة تسمح بمداعبته. يحب زيارة بيت "عادل". وجدنا "ناهد" في حالة فظيعة. لم تستطع البقاء إلى جانب زوجها، وعدها "حاتم" أن نمر بالمستشفى وأن نحدثها من هناك، ونخبرها بآخر تقارير الأطباء. وافقت وهي تهز رأسها في استسلام، وقامت تعد الطعام لـ"ياسر" والبنات، قلت:

ـ اتركيني أعده يا "ناهد". هل هذا وقته؟

ـ ألن يتعشوا ؟ سيتعشون.

ذهبنا إلى المستشفى رفضوا دخولنا. اتصلنا "بناهد"، أخبرناها أنه يهديها السلام، لكنه ممنوع من الحركة حتى ظهر الغد.

مرت الأزمة، وخرج منها "عـادل" منتعشاً، ضارباً عرض الحائط بكل تعليمات الأطباء، على الرغم من أنهم قالوا له بوضوح : إن أزمة القلب في هذه السن الصغيرة أسوأ وأخطر من تعرض الشيوخ لها. لأن قوة الشاب الجسمية تغريه بالحركة الطبيعية التي لا يحتملها قلبه، ولأن الشرايين تكون قوية لا تسمح بمرور الدم إذا سدت بجلطة. قربنا مرض "عادل" من أسرته أكثر. اصطحبناهم والأصدقاء إلى رحلات خلوية للزوراء ولشاطئ دجلة.

طلبني "حاتم" تليفونياً في البيت من فور دخولي وقال من دون مقدمات :

– مات "عادل". اتركي "ياسر" عند الجيران. واذهبي إلى "ناهد" في البيت حتى أصل.

وجدت كل الأصدقاء حولها. احتضنتها، وغرقنا في دموعنا. راحت تسألنا: ماذا أفعل؟

تنادي على البنات بنتاً بنتاً، وعلى طفلها الذي بدأ يركض ويتعثر وراء إخوته الأكبر: ماذا أفعل؟

نحاول تهدئتها دون أن ندري كيف، ونلزم الصمت. دخل بعض الرجال إلى صالة البيت.

قالوا لها : تم ترتيب كل طلباتك بخصوص الكفن والحمد لله. هو الآن في الثلاجة حتى تنتهي إجراءات الشحن واستخراج الأوراق، وحجز الطائرة.

قال "حاتم" : "نورا". غداً تذهبين إلى المستشفى وتستخرجين الأوراق المكتوبة هنا؛ لأنها لا تخرج إلا في الصباح. ثم تذهبين إلى السفارة المصرية (القائم بالأعمال) لتوقيعها أيضاً. ومنها إلى الجوازات في الكرادة، وإذا استطعتِ المرور بشركة الطيران العراقية أو الاتصال بالمهندس "علي" لتعرفي إمكانات المساعدة في السفر بسرعة. الموضوع ليس سهلاً.

قال "محمود عصام" : سأقوم أنا بإجراءات إنهاء التعاقد في المصنع، والحصول على المكافأة، وأعرف إذا ما كان لديه رصيد إجازات، أو أرباح أو أي تعويضات للأطفال؟

قالت "ناهد" : تحول "عادل" إلى أرقام وتعويضات يا حبيبي يا أخي.

قال "حاتم" : حزنك عليه لن ينتهى أبداً. نكفل سلامة عودتك إلى مصر أولاً.

أسبوع، ونحن نركض جميعاً وراء الأوراق في الصباح، ونذهب إلى "ناهد" بأطفالنا بعد الظهر. استسلمت ناهد لصديقاتها. تركتهن يرعين المطبخ قائلة :

- ملأ "عادل" الديب فريزر بالدجاج واللحم. أخرجوا كل شيء، وفرقوه على الجيران.

لم تقبل أي شركة طيران حمل الجثمان. فاجأني الموضوع. قال لي المهندس "علي" :

- لابد من موافقة الطيار. سأحاول مع الطائرة الهولندية القادمة في نهاية الأسبوع.

لم نعد نعرف من الذي يؤخر من؟ أهي إدارة الشركة أم البنك المركزي الذي يطالب كل يوم بأوراق جديدة، أم شركة الطيران والشحن. حاولت ناهد أن تخفف من حمولتها دون جدوى. وقالت : كل منكن تختار ما تحتاج إليه.

بكينا. تمسكت "ناهد" بالأجهزة الكهربائية. قالت إنها ستأخذها حتى لو كلفتها ضعف ثمنها ؛ لأن "عادل" كان سعيداً بشرائها. فرغ البيت تقريباً إلا من الضروري لكي تستمر هي وأطفالها الأيام الباقيات. وجاء الفرج. استطاع المهندس "علي" أن يحجز لسفر الجثمان على طائرة ذاهبة إلى القاهرة عن طريق قبرص، وحجز للأسرة في طائرة ذاهبة عن طريق دمشق.

سألته "ناهد" : هل أصل معه؟

قال : بل ستصلين قبله بساعات. آسف ستضطرين لانتظاره، في مطار القاهرة.

قالت : المهم أن أحضر الدفن.

في الطريق إلى البيت أخبرني "حاتم" أن ناهد لن تحضر دفن زوجها ؛ لأن رحلتها إلى القاهرة ستستغرق يومين في الطريق، وسيصل هو قبلهم. لكنهم اتفقوا على عدم إخبارها؛ حتى لا ترفض القيام بالرحلة. لا أحد يعلم متى يقبل طيار آخر حمل الجثمان. وضعت هذه المعلومات، حاجزاً شفافاً بيني وبين "ناهد"، فالتزمت الصمت حتى جاء موعد رحيلهم. وقفنا على الباب نودعها وأولادها في جنازة مهيبة. تجمعنا خارج المطار في دوائر جعلتنا نشبه قطيعاً من الغربان السود في جنازة رأيتها من نافذة منزلي الريفي ذات صباح. إذ سمعنا فجأة أصوات زعيق حادة، فتحت الشرفة فوجدت ما يزيد عن مائة غراب تحط على الأرض في دوائر وهي تزعق، ثم ترتفع معاً وهي ترفرف بأجنحتها، في حين وقفت صفوف من الغربان أمام طائر ميت، وبعد عدة مرات من الارتفاع والهبوط زعقوا معاً في صوت واحد، ونزلوا فوق الجثمان ثم ارتفعوا، واختفوا به. تذكرت أن الغراب هو الذي أرشد "هابيل" إلى فكرة دفن جثمان أخيه قابيل. لم أسمع عن طير آخر يقيم جنازة لأحد أفراده.

ودعتنا "ناهد" صامتة تماماً. جففت دموعها على الرغم من أننا جميعاً كنا نبكي. أصبحت فجأة سيدة ريفية، قوية من تلك الأرامل التي أقابلهن باستمرار. منكفئات على تربية أولادهن، حازمات، مختصرات لتفاصيل الحياة الكثيرة، يشبهن بعضهن حتى في قسوة الملامح. كنت أتصور أنهن يكسبنها بتعاقب الأيام، وهن يواجهن مشكلات المعاش، ومحاكم الوصاية، وتعقيدات الميراث، وتربية الأبناء وحيدات. تذكرت جملة "محمود السعدني" الشهيرة: "دايخ دوخة الأرملة في مصر." احتلت بشرة

"ناهد" أخاديد من الحزن، واليأس، والوحدة. وكأنها ولدت أرملة. صحبتها إلى آخر نقطة في المطار بمساعدة زميلي "عماد البزاز". ودعتها على أمل اللقاء في مصر قريباً. وحين خرجت إلى الصالة كانت معظم العائلات قد انصرفت. أخذني "حاتم" إلى بناء آخر، سألته : إلى أين؟

قال مهموماً: أريد أن أطمئن على سفر "عادل" نفسه.

دخلنا إلى موظف الشحن. سألناه عن الاسم فأمسك بالأوراق وقال :

ـ لا. مع الأسف أخذ الطيار إحدى عشر جثماناً، وتعذر سفر اثنين من بينهما هذا الاسم.

صرخنا في وقت واحد : أين هو؟ وما العمل الآن؟

قال الموظف : آسف. نحن نبذل كل جهدنا مع طيار نمساوي سيطير غداً. وهناك طائرة أخرى من إيطاليا سبقت، وأخذت جثامين ستأتي مساء بعد غد، وتطير من فورها.

قلت : ألديكم مشكلة موتى كبيرة لمصريين إلى هذه الدرجة؟

قال الموظف : في العراق الآن خمسة ملايين مصري، والموت ليس بعيداً عن أحد. لو أن كل طائرة مسافرة إلى القاهرة حملت معها الجثمان الذى يصل ما كانت هناك أي مشكلة. وهذا هو سبب سفر الجثث في جماعات.

فتح الباب ودخل رجل في الخمسين من عمره. يتحرك بثقة المسؤول الأعلى، قال الموظف وهو يشير إلى "حاتم": المهندس يريد التأكد من سفر واحد من الجثمانين الباقيين.

قال المسؤول وهو يقرأ في الأوراق : مصلحتنا واحدة. سأضغط على أول طيار.

قال "حاتم" : هو شاب صغير ورب أسرة سافرت اليوم.

قال المسؤول : الموت موت. وموت الغربة أنا أدري به. اتصلوا بي في الغد بعد الثالثة ظهراً. ستعرفون أخباراً جيدة.

خرجنا وقد جفت دموعنا تماماً، وتوقف عقلانا عن التفكير. قلت: تصل "ناهد" قبل زوجها إذن؟

ـ ربما تصل معه بالضبط. إذا أخذ "عادل" طائرة الغد في المساء، أو تصل قبله إذا أخذ طائرة الظهر ؛ لأن مسار الطائرة ليس مباشراً أيضاً.

دمعت عيني من وطأة الذكريات، كنت قد قرأت في إحدى الصحف المصرية أن العراق يرسل جثثاً لمصريين ضربوا بالرصاص في حوادث قتل غامضة، وأن المطار يشهد نزول الجثث بالعشرات. أدركت أن مشهد الجنازة الجماعي أوحى بتلك القصة. وكنت إذا شرحت ما رأيت مع "عادل" لا يصدقني أحد. ويقولون لي لأنك تحبين العراقيين، ثم قالوا إنهم جنود مصريون مشاركون في الحرب مع ايران. قال لي أحد الضباط : لا يوجد مصريون في الجيش. لدينا لواء من القوات العربية يتبعون القيادة القومية مباشرة لكن غير مسموح باشتراكه في الحرب. بعض المصريين موجودون بالفعل في الدعم اللوجستي، سائقو معدات وشاحنات، راصفو طرق. تذكرت "بسيوني". خرجت من صدري آهة ألم طويلة.

تذكرت دفتر "أنهار". هذا الدفتر الذي وصل إلى يدي دون سبب واحد، اللهم إلا لاعتراضي هذه القصة التي ولدت في ظروف استثنائية. سحبته من الحقيبة لأعاود القراءة. كنت قد توقفت عند قصة أمها الفصلية وإصرار "أنهار" على عدم قبول الظلم الذي وقع عليها وتعهدها بألا تكرر مأساتها.

قلبت صفحاته بسرعة. مرت الصور أمامي مثل شريط طويل لحياتنا. لم تترك "أنهار" أياً من أحداث حياتنا دون تعليق، لماذا ابتعدت عني؟ كنت في حاجة إليك، كما كنتِ في حاجة إليَّ. لم أدخل معك في أي منافسة لا في العمل، ولا في الحب. من يدري ماذا كانت تحمل في قلبها؟ كل هذا الحزن يا "أنهار".

توقفت يدي عند صفحة كتب عليها "أربيل". مررت ببصري فوق الكلمات، حتى وصلت إلى تلك الليلة التي رأيت "حلمي أمين" فيها يدخل حجرتها في ذلك الفندق الجديد الذي لم يكن قد افتتح بعد. وكنا النزلاء الوحيدين. كتبت تقول :

"فوجئت بطرق على الباب، تصورت أن "نورا" تحتاج إلى شيء، فقد ارتفعت درجة حرارتها اليوم فجأة. سألت : من الطارق؟ فلم أسمع جواباً. فتحت الباب فوجئت بـ"حلمي" أمامي وقبل أن أنطق كان قد دخل الحجرة وأغلق الباب وراءه. شعرت بالحرج من وجودي في مكان مغلق معه، وقد يشعر بنا أحد المقيمين في الفندق أو تشعر بنا "نورا" التى حرصت كل الحرص على أن أخفي عليها ما يدور بيننا، خاصة بعد أن أدركت عمق علاقتها بعائلته. لم أرد أن أضعها في موقف محاسبة ضمير بيني وبين

عائلته. هو لا يعرف أن كل شيء في العراق مراقب، وستحسب حركته هذه عليّ، وعلى مستقبلي. قلت لنفسي : نكون معظم الوقت في المكتب منفردين. فما الفرق؟ لكننا في غرفة النوم. كان قد جلس فوق مقعد أمام السرير، وراح يتأملني دون كلام، لما طال صمتنا قال، وهو يشير إلى فخذه : تعالي هنا.

ذهبت دون أن أفكر. كنا قد تبادلنا قبلاً سريعة من قبل. أحاطني بذراعيه، ودفن رأسه في صدري. لم أتكلم وأنا أشعر بأنفاسه تصعد إلى أعلى، وتلمس أذني، اقشعر جسمي، فقمت.

- تتعب هكذا. هل تشرب شيئاً، يوجد ماء بارد، ولبن.

أمسك بكفي دون أن يرد، وسحبني إلى الفراش دون أن أقاوم. تصاعدت مشاعرنا بسرعة أذهلتني، ويده تمتد، وتطول، وتمنح الحرارة لكل ما تمر به من سراديب ساكنة في روحي. وتعود لتمر بها من جديد بإلحاح راح يتصاعد، ويدفع برغبتي إلى الانفجار. ويداه تدلكان جسمي، وتسحب عقلي إلى منطقة سرمدية من عدم الاتزان. كدت أطالبه بأن يدخلني. منعني خجلي، نسيت أنني عذراء، وأن فقداني لعذريتي معناه الحرمان من الزواج مدى الحياة، ورحت أستعد لاستقباله في لهفة مجنونة لم أشعر بها في حياتي قط. كان يضغط على فمي الأسفل ويحرك كفه فوقه بسرعة شديدة، حتى كدت أصدق أن شرراً قد خرج من بينهما، وأن النار أمسكت بملابسي التي لم أخلعها، وفجأة انقبض جسمي بقوة، وانفرج مثل مروحة تأتي بنسيم عليل في ليلة قيظ، وسمعت صوتاً يشبه الفحيح يطالبني بالانتشاء. ففتحت عيني، رأيت عينين مصوبتين نحوي باتساع غريب، نظراتهما موجعة نفذت إلى قلبي مثل سهم وراحت توقظ عقلي الغائب، لكنها وصلت متأخرة ؛ إذ كان جسمي قد فرد أشرعته، وانطلق إلى فضاء داخلي. فتح أمامي أبواب الجنة والجحيم معاً وراح يقذف ما لديه من بهجة، وينير الحجرة بنجوم فسفورية، حتى همد، ويده ما زالت قابضة على فمي الأسفل. ثم شعرت بارتخاء كفه، وخروجه من بين فخذيّ. وراح النوم يداعبني دون استئذان. اشتقت إلى قبلة "حلمي"، لكني لم أستطع أن أقيم رأسي لأقبله، ورأيته عن بعد ينسل من الغرفة على أطراف أصابعه حتى اختفى في الظلام.

تخبطت في الصباح وأنا أمشي بينه وبين "نورا"، مشغولة الفكر بما حدث في

الليل. فقد عقلي قدرته على إعطاء أوامر التوافق لأعضاء جسمي. يعطي إشارة إلى قدمي اليمنى بالتحرك إلى اليمين فأدور ناحية اليمين، ثم يعطي إشارة إلى قدمي اليسرى بالتحرك إلى الأمام، فتلتف حول ساقي الأخرى وأجد نفسي منكفئة فوق رصيف الشارع. تمتد يد "نورا" لتساعدني وأرى في عينيها سؤالاً أتجاهله مؤقتاً، ثم يعود إلى ذهني : ماذا ستكون الخطوة القادمة؟ إذا كنا قد استطعنا التحكم في جسدينا بالأمس، فهل نستطيع أن نتحكم فيهما غداً؟ شعرت أني ضعيفة، وأنني من سيطالبه بالاكتمال. فلما انتصف الليل تسلل إليّ في الظلام. قفزنا معاً إلى الفراش دون تفكير، وراح كل منا يتحسس جسم الآخر، يكتشفه. دون تمهل أمسك بثدييّ يعتصرهما، وهو يلف الملاءة فوق جسده. مددت يدي أسحبها، أبعد يدي، عدت إلى سحبها، أمسك بكفي بقوة آلمتني، وأغلق ضوء الحجرة، وترك يده تتسلل إلى فخذيّ وتدلكهما حتى انتبهت أعضائي كلها، قال : ما أجملك.

شعرت بالنيران تمسك بأذني، وأدرت وجهي إلى الناحية الأخرى، قال :

أتخجلين مني؟

- عذراء. ألا تعرف خجل العذارى؟ حافظ على عذريتي.

- نسيته منذ زمن طويل. لن أخذلك.

قام وجلس القرفصاء إلى جانبي، وراح يداعب جسمي المكشوف أمامه ويغرق وجهه في صدري، ويلعقني مثل قط، ووجدتني أبلغ نشوتي فوق كفه مرة أخرى.

تحولت علاقتنا بالكامل. لم نعد نستطيع الكف عن العبث بأجساد بعضنا بعضاً. لكني لاحظت عشقه للظلام، وإخفاءه لجسمه طوال الوقت. لم أسأل، وشعرت في بعض الأحيان أنه أكثر خجلاً مني، فلم أطالبه بغير ما يعطيني، وكان يعطيني بإفراط. استمتعت بجنس يفوق قدرتي على المقاومة. مسح من ذهني كل أسئلة المستقبل، وعرفت معنى أن أحب شيخاً، كريماً، يدللني دون هوادة، ويرعى جسمي بتؤدة تزيد من عشقي له كل يوم. وسألت نفسي ذات يوم : هل يستطيع شاب أن يحبني كما يحبني "حلمي"، أو أن يعطيني ما يعطيني من حنان؟ مستحيل. فالشاب يركض بعنف وراء رغبته وحماسته، ثم إذا تذكرني كان بها. هذا ما أخبرتني به صديقاتي اللائي تزوجن قبلي."

أغلقت الدفتر، ورحت أنصت إلى نداء خيل إليّ أنه لشركة مصر للطيران، لم يحن الوقت بعد. ذهبت إلى الاستعلامات ووجدت سيدة أردنية لها بشرة بيضاء تستعد للانكماش من فرط انتباه شرايينها. سألتها : هل أذعتِ معلومات عن رحلة مصر للطيران إلى القاهرة؟

قالت: نعم. يوجد تأخير ساعتين.

قلت: يا إلهي. أراد العالم كله تعذيبي اليوم.

قالت: اطلبي من الله ألا تتأخر أكثر من ذلك.

قلت : لكِ كل الحق.

تعلقت عيناي باللوحة السوداء بأرقامها الكثيرة ومدنها المتنوعة، رأيتها تتحرك إلى أسفل، وتشير إلى موعد إقلاع طائرة لوفتهانزا إلى ألمانيا بعد نصف ساعة. تقاطر عدد كبير من المسافرين إلى الصالة، معظمهم من الفلسطينيين، ثم عاد الهدوء إليها بعد قليل. تذكرت "أنهار". ما الذي تكشفينه لي يا صديقتي الجميلة؟ ولماذا أنا من دون هذا العالم؟ من نحن؟ مجرد قصص تمشي على قدمين. ميلاد لا إرادي، موت لا إرادي، وقصة في المنتصف نلعبها مع الحياة بقسوة. أمسكت بالدفتر ورحت أقلب صفحاته. شدتني جملة تقول :

تسللت إلى مشاعري الكآبة. أكملت القراءة بعدها.

"لم أعد أستطيع تحمل ما يجري بيننا حتى بت أخاف البقاء معه منفردين. حاولت أن أغير مواعيد العمل، أن أداوم في الوكالة في المساء، وأن أذهب إلى المكتب في الصباح ؛ حتى تكون "نورا" موجودة أو يكون "أبو غائب" هناك. قال رئيسي في العمل سأوافق هذا الأسبوع حتى تعود "ظبية" من عطلة زواجها ، ثم نرى ما نحن فاعلون. لم يعجب "حلمي" هذا التحول، وقال لي بغضب : ظروف المكتب تحتاجك في فترة المساء وليس في الصباح، ولا أستطيع أن أبدل مواعيد نورا ؛ لأنها زوجة. كما أنني أحتاجها في المرور على المواقع صباحاً خاصة في الخالصة.

قلت: هذه ظروف عملي.

لم أعطه فرصة للانفراد بي، كان غضبه يزداد ، ويثور لأتفه الأسباب، وكان جسمي

قد تعب تماماً مما يحدث بيننا. ضاعت نشوة المفاجأة، وطالب جسدي بالممارسة الطبيعية. وتحول الوقت الطويل الذي نقضيه في الفراش إلى عبء شديد، أنتشي بسرعة، وأنتظر أن ننتهي فلا ننتهي. تعلمت مع الوقت أن أؤجل انتشائي، إذ لاحظت أن احتمالي يزداد ما دمت لم أصل إلى النهاية، في حين تقل قدرتي بعد بلوغ النشوة، يريد جسمي الراحة والنوم، ويريد "حلمي" الصحو، أصبحت أخشى الالتصاق به، وكلما ازدادت رغبتي ازداد ألمي، حتى يخونني جسمي فجأة وينطلق.

قال لنورا : الجولة لكِ كاملة اليوم. سآخذ معي "أنهار" إلى موعد في وزارة الصناعة.

من فور أن خرجت "نورا"، وجدته أمامي يواجهني : ماذا بكِ؟

قلت والدموع تغمر وجهي: تعبت.

قال: لماذا؟ نحن في جزيرة في محيط هادر لو حلمنا بهذا الوضع لما استطعنا تخيله كما هو الآن. ماذا تريدين أكثر من هذا؟

بكيت : لا أعرف. تعبت وكفى. يجب أن نتوقف من فورنا.

أخذني في حضنه وراح يعتصرني بعنف : أوحشتني.

سحبني إلى الداخل وهو يقبل وجهي وعنقي، ووجدته فوقي. تحرشات لا تؤدي إلى شيء. يده تمتد بين فخذي. أمسكت بظهر السرير ورحت أضغط عليه "وأكز" فوق أسناني وحركة يده تتعالى، وجسده يتلوى إلى جواري. انفجر جسمي بمعزوفته العالية حتى توقف. خفتت نغماته، ويداه تتحركان، وجسمه كله ملقى فوق صدري يتلوى دون توقف.

قلت صارخة : كفى. كفى.

انتبه. قال : ماذا حدث؟

- لا أستطيع. لا يستطيع جسدي. لمَ لا؟

- لمَ لا ماذا؟

جلس إلى جواري : أنتِ تريدين علاقة كاملة؟

- نعم.

- لكنك عذراء.

ـ وليكن.

ـ تعرفين أنني. أن جسمي. أن سجني الطويل قد أثر على. أن. أن.

ـ المسألة ليست عذرية. صديقتي يطؤها خطيبها من الخلف.

ـ اعذريني. ظروفي الصحية. لا تمكنني ولن أقبل.

ـ ماذا أفعل؟

ـ تحمليني بعض الوقت.

بكيت. أحضر لي كوباً من الشاي، وأخذني إلى غرفة المكتب، قال :

ـ أرجوكِ ألا تخلطي بين عملك معي، وعلاقتنا الخاصة. ولكِ مطلق الحرية في الاستمرار معي حتى أستعيد عافيتي. تعرفين لقد سجنت طويلاً، وعذبت.

قلت : أحبك أكثر مما تتخيل، لكني لا أفهم.

قال : لن يسمح سنكِ، بأن تفهمي ما يعاني رجل في مثل عمري. حياتك أمامك. وحياتي تغرب. لا تتركيني أرجوكِ. سيختفي النور من حياتي. هل يمكن أن أسميكِ "أنوار خيون"، بدلاً من "أنهار خيون"؟

ابتسمت. قام وقبلني، قال : اذهبي الآن، ونتحدث بهدوء في الغد.

لم أستطع قط الإفلات من الشرك الذي وجدت نفسي واقعة فيه. حلمت ذات ليلة أنني ممددة في حفرة، منفرجة الساقين كما يحدث فوق سرير حلمي، ورأسي واقع في حفرة أعمق. وكثير من الغربان تقف بجوار رأسي، تنقرني كلما هممت برفعها. أعود برأسي إلى الوراء، فتؤلمني رقبتي بعنف، وتوشك روحي أن تخرج من فمي. حطت بعض الغربان فوق ساقيَّ وراحت تنقرني وهي تقترب بهدوء من بين فخذي، صرخت، وجدتني في سريري. بكيت. وقررت ألا أذهب إلى المكتب مرة ثانية على الإطلاق. في الصباح ذهبت إلى الوكالة في موعدي المعتاد ورفضت تلقي أي اتصالات خارجية. في اليوم التالي اتصلت بي "نورا". تعللتُ بمرض أمي، كان الخبر نسبياً صحيحاً، لكن أخي هو الذي كان يأخذ أمي إلى عيادة الطبيب. قلت لنورا اعتذري لـ"أبي "ميرفت" واحصلي لي على عطلة يومين. سافرت إلى الموصل. جلست في مقهى في الغابة فوق الربوة. وتذكرت المرة الأولى التي التقيت فيها "بحلم" ـ لماذا أحبه كل هذا الحب؟ ما كل هذا الغموض الذي يحيط به نفسه؟ تقول لي صديقتي "مايسة" إنه يستغلني. أرفض

بعناد لكني لم أعد أحتمل. لابد من حل. رحت أبحث عنه وسط الأشجار، بين الممرات التي مشينا فيها واختفينا. حكينا عن أنفسنا الكثير. عرفت يومها أنه دخل قلبي لكني كنت أعرف أيضاً أن حواجزَ كثيرة بيننا لم تزل. تخيلت أنه وصل إليَّ هنا في الموصل وقال لي كما يحدث في الأفلام : كنت متأكداً أنني سأجدك هنا . كيف عرفت؟ لا تبكين ولا تضيعي الوقت. تعالي معي. لكنني لست في فيلم عربي أو كردي. أنا في واقع لم أعد أهضمه. وجدني ذات مساء أقف أمام باب المكتب. أمسك بيديَّ، وصحبني إلى الداخل. قال من دون مقدمات: أعرف أنني ظلمتك، لكن قبل أن أقول لماذا أفعل ذلك يجب أن تعرفي ممَ أعاني بالضبط. أنا لم أعد "فائزة" بشيء. مجرد الشرف. شرف أن أكون مسؤولاً عن تلك التي ترعاني وبناتي بعد أن ماتت أمهن.

- لكنها لم تقبل من قبل أن تتزو..

- لا تقاطعيني أرجوكِ. اتركيني أخبرك أولاً بما أشعر به، وما يزعجني. كانت "فائزة" مثل فراشة رقيقة تعشق حبيبها، حتى إذا مات لم تستطع أن ترى غيره. سرقها الزمن. صدقيني، وقفت صورتها عن نفسها أمام الناس حائلاً دون التراجع. ليس الوفاء، بل الضعف. هذا شيء لن تفهميه، لأنك مازلتِ صغيرة، لا تفكري في الموت ولا العجز. للوفاء معنى أعمق كثيراً من الخوف من الاقتران بآخر ؛ لأن الحب يمزج بين طرفين، ويجعل الآخر هو آخر للاثنين معاً، وهي مثقفة، وناضجة بما يكفي أن تفهم هذا، وأن تعرف أنها لن تنسى حبيبها الأول أبداً حتى إن تزوجت غيره. هي الآن على أبواب الأربعين وأنا زوج أختها، وقد عشت محرماً عليها حتى وقت قريب، ويصعب أن تنظر لي تلك النظرة التي تخلق شرارة الحب. لكنها وجدت نفسها فجأة تهتم بملابسي، طعامي، بناتي. بيننا الآن طفلة صغيرة لم تعرف لها أماً تقول لها: ماما، وتقول لي: بابا. ومن الصعب انتزاعها منها ؛ فكل منهما لم تعرف غير الأخرى، هما الآن، وللأبد معاً. لا أعرف إن كانت تحبني، كما لا أعرف إن كنت أحبها؟

- ماذا؟ تحبها، وأنا؟

- اتركيني أرجوكِ. فثمن هذه الكلمات فوق طاقتي. وأنا رجل عجوز، قوتي تتساقط مثل أيامي.

- آسفة. أكمل.

ـ أقول : إذا جاء "فائزة" رجل الآن، سيكون عليها أن تختار بينه و"رنا" ؛ لأنها من غير المعقول ـ أو هكذا أتصور ـ أن تذهب إليه بها. وهي بيولوجياً ليست ابنتها، وأن تتركها لي لكي أقدم لها أما أخرى، وأدخلها في تجربة ثالثة للفقد، حتى لو لم تكن تذكر أمها. أنا و"فائزة" محكوم علينا من القدر. لم نرد هذا الوضع صدقيني. وربما تكون "فائزة" لا تريدني، لكنه الواجب. هي أيضاً تريد مني أن أنقذها. هل تعرفين أنها حصلت على إجازة من دون مرتب من عملها في هيئة المعارض، ودون أن تستشيرني، وفجأة وجدت نفسها بدلاً من أن تنفق مرتبها الذي يفيض عن حاجتها تكتفي بمعاش زوجها. لم يعد أمامي إلا أن آخذ "نورا" معي لكي نشتري لها هدية ذهبية من سوق النهر، أو أن أشتري لها شهادات استثمار باسمها، وأجعل البنات يهدونها لها في عيد ميلادها، وكلها بالطبع مبالغ لا تتناسب مع ما تركته من أجر شهري ثابت.

ـ كففي دموعكِ ؛ حتى أستطيع أن أكمل حديثي. أرجوكِ.

ـ ميخالف.

ـ نحن معاً أنا وهي في عجلة حياة واحدة، لا نستطيع منها فكاكاً. وكثيرون طلبوا مني الزواج بها حتى بناتي، لكني قلت لهم جميعاً إني لا أستطيع، فما زالت زوجتي حية في وجداني، وهي تفهم هذا، لكني والحق يقال، وقبل ظهوركِ في حياتي مباشرة، كنت قد بدأت أفكر في سؤالها ـ بعد أن تكمل "رنا" سنتين من عمرها ـ إن كانت تقبل الزواج بي. حتى تكون حرة في الرفض ؛ وتكون "رنا" قد تجاوزت نسبياً الاحتياج الشديد إليها.

تنهد قائلاً : لكن فوجئت بأني أقع في الحب. قاومت في البداية، لأنك صغيرة وجميلة، وأنا في هذه السن وابنتي "ميمي" توشك على التخرج، وهي في مثل سنك تقريبا. امسحي دموعك أرجوكِ. لا أقوى على بكائك.

ـ ثم ماذا؟ ما الذي جعلك تغير رأيك؟ وتبادلني هذا الحب الذي جعلته الآن أكثر من محرم؟ ليتك كنت متزوجاً بأخرى. ليتك تحب زوجتك، ليتك بخيل، أو سكير، أو حتى الاثنان معاً. ليتك أي شيء إلا ما تقوله لي الآن. قتلتني بلا رحمة.

ـ أنتِ. شبابكِ هذا. ذلك التحدي الذي يفرضه جسمك على روحي. هذا العنفوان

الذي تتمتعين به حتى دون أن تدري. أنت مثل هذه السماء التي لا تدرك شساعتها. مثل البحر الذي لا يعي كم هو عميق. مثل تلك البرتقالة الحلوة التي لم تستطعم مذاقها، ولا تدرك كيف تروي من يأكلها. مثل رحيق الأزهار، مثل هذه الطبيعة الفاجرة التي تلعب بقلوبنا وأقدارنا دون أن تعي فعلها بنا. سأعود إلى كلمتي الأولى لك. أعرف أني ظلمتك، وأعرف أن من حقك أن أكون لك. لكني إلى الآن لا أستطيع اتخاذ أي قرار، سوى أن أحبك. وسواء تركتيني، أو بقيت معي فسأبقى على حبك، وتكون تعزيتي أني وفي آخر العمر التقيت بالحب الذي كنت أنشده. أعرف أن الكثيرين سيتصورونني أركض وراء جسد شاب لكي يهب جسمي نشاطاً جنسياً، لكنك أدرى الناس بأنه يربكني بدلاً من أن يقويني. لقد وضعني في تحد لا أستطيع أن أتخطاه، وكنت طبيعياً مع غيرك. لا أنكر أني أرى "ميمي" حينما أقترب منك، لكني أظل في حالة خوف، من أن يكون لي الحق في لمسه. ليتني كنت زنديقاً، أو مستغلاً حتى أوافق على علاقة كاملة بك كما تدفعينني أحياناً لأنك وأنت حبيبتي أنت ابنتي، ولن أقبل لابنتي عريساً يموت بعد سنوات قليلة، ويتركها في عنفوان الشباب، أو يتحول إلى شيخ مسن قبل أن تكمل الثلاثين من عمرها.

صرخت: كفى. كفى. ماذا تريد مني؟ أنت لا تحبني. أنت شيطان. مجرد شيطان. بل أنت خمبابا*. خمبابا نفسه. ماذا تريد أن تقول هه. إنك لا تستطيع أن تتزوجني، وتجرح تلك السيدة المسكينة التي تربي لك بناتك، ولا تستطيع أن تتزوجها لأنك لا تحبها، وتحبني أنا. لكنك لا تتركها تعيش عالمها، وترمي إليها ببناتك لتربيهن، ولا تستطيع أن تتزوجني لأنك سائر إلى القبر، وأنا سائرة إلى الحياة ولأن جسدي هذا يغلبك. ولكن ماذا تستطيع أن تفعل؟ أن تحبني فحسب؟ فليكن. أنا أوافق على هذا. أوافق أن تحبني كما تشاء. لكنك لن تمسني أبداً. هل هذا واضح لك ومفهوم؟ وقلبي هذا سوف أمزقه إرباً، إن نظر إليك نظرة واحدة.

قال: هل هذا هو كل ما فهمتيه من كلماتي؟ هل هذا حقاً؟

ازداد صراخي، وراح يعلو في المكان، وقلت: أردت أن أعمل معك فليكن وبهذه الشروط. أردت أن أختفي من حياتك، سوف أختفي. اختر الآن ماذا تريد؟

---

* خمبابا: هو المارد العفريت الذي يحرس غابات الأرز في ملحمة جلجامش.

ـ أريدكِ أن تبقي معي. ولن أحدثك أبداً في الحب مرة أخرى. اهدئي أرجوكِ. سيسمعنا الجيران.

مد يده، أخذني في حضنه، وراح يربت فوق شعري، والليل ليس مثل أي ليل. بحثت شفتاه عن شفتي وأغرقني في قبلة طويلة، شعرت بسخونة فوق وجهي. فتحت عيني رأيت الدموع تغسل وجهينا. صرخت: لا. لا وركضت إلى الخارج. مشيت في طريق أبي نواس حتى تعبت. لا أعرف إلى أين أذهب. هل أعود إليه وأجبره على اتخاذ الخطوة الوحيدة الصحيحة، أن نكون معاً؟ هل أعود إلى بيتي وإلى عملي وأتركه إلى الأبد؟ وفي الصباح عدت إلى عملي ثم إليه، وإلى حياتي السابقة بحذافيرها. وأنا أعرف في قرارة نفسي أنه سيأتي يوم، لا أعود فيه."

تعبت. شد التعب وثاقي، تحجر صدري، ووقف متصلباً بعناد. قمت إلى الحمام قبل أن ينفرط، أجر قدميّ دون حماسة، مشغولة الذهن بـ"أنهار خيون"، لو أستطيع أن أغرق رأسي بالماء حتى أفيق؟ ولماذا أفيق؟ لماذا لا أستسلم للنوم، غسيل شعري قد يصيبني بنزلة برد. غسلت الفوطة في الحوض فعاد الانتعاش إلى نسيجها، ثم توجهت إلى "التواليت" الصغير، ومعى أدواتي.

سألتني العاملة : هل تريدين مساعدة؟ كأنك لم تنامي منذ أيام.

قلت : أشكرك. هذا ما حدث بالفعل. لم أنم منذ أيام.

أنهيت مهمتي وخرجت.

قالت العاملة: الأفضل أن تتركي المنشفة فوق المجفف ستحتاجينها في الطائرة.

ـ فكرة جيدة والله. وإن كان الوقت المتبقي ليس كبيراً. والله أعلم. أشكرك.

ـ كلنا نساء، ونفهم مشكلاتنا. إن شاء الله تعودين إلى طفلك سالمة.

رحت أقول لنفسي: "مشكلاتنا في حكوماتنا وليس في ناسنا. وجلست وأنا أشعر بانتباه غير متوقع لعقلي. جاء فوج أجنبي، جلس بعض أعضائه إلى جواري. عجائز أمريكيين ما الذي أغراهم بزيارة الأردن؟ انتبهت إلى سيدة بيضاء ممتلئة تسألني: هل أنتِ أردنية؟

قلت : أنا صحفية مصرية.

قالت : من بلد "السادات". تحبونه أليس كذلك؟ هو بطل السلام.

قلت : لا.

قالت بدهشة شديدة : لا تحبين "السادات". لماذا؟

استفزت طاقتي الداخلية التي تصورتها قد انهارت منذ ساعات قلت : من الصعب أن تتصالحي مع لص دخل إلى بيتك، واحتل حجرة فيه، وقال لك : أكتبي معي معاهدة سلام. يجب أن يخرج اللص من بيتك أولاً، ثم إذا وافقت أن تتحدثي معه بعد خروجه فهذا شأن آخر.

امتقع وجهها تماماً. قالت وقد انتبه زملاؤها إلى حديثنا : تريدون طرد إسرائيل. هذا مستحيل.

قال الجالس إلى جوارها : ما فعله "السادات" هو سحر حقيقي. ستتغير المنطقة تماماً بالسلام.

انتبهت إلى ما وقعت فيه. قلت لنفسي : تريدين تغيير أفكار عجائز أمريكيين لا يعرفون أمصر في قارة آسيا أم في قارة استراليا؟ أغلقي الموضوع قبل أن يتوجع رأسك، ويتهموك بالتعصب. هئ هئ. وربما بمعاداة السامية.

قلت وأنا أترنح من التعب : الموضوع معقد، و"السادات" ليس بطلاً شعبياً بيننا. هناك خلاف حول اتفاقية كامب ديفيد. وأرى أن التحول في المنطقة ليس لصالح العرب بأية حال؛ فإسرائيل تقتطع جزءاً من سوريا، وجزءاً من الأردن، وآخر من لبنان، وتجنيب مصر الحرب الآن لا يعني توقف الصراع.

هززت رأسي وأنا أبتسم ابتسامة باهتة ورحت أقرأ في جريدة وجدتها فجأة على الكرسي أمامي، وأنا لا أعي سطراً واحداً. شعرت بهم يتحركون بعد قليل إثر النداء للتوجه إلى البوابة، رحلوا وهم يشيرون إليَّ بالتحية، والصدمة ما زالت ماثلة فوق وجوههم. اصطفوا في طابور بأحذيتهم المطاطية وملابسهم الملونة الفاقعة، وشعورهم القصيرة، وأجسامهم المنبعجة، وأعمارهم الثقيلة.

ما زال التليفزيون يعيد نشر أخبار المعارك في العراق. و"السادات" يسيطر على رأسي. كرهته من البداية شكلاً وموضوعاً - جاء بعد جمال عبد الناصر صاحب الكاريزما والشعبية الطاغية - بوجهه القبيح والادعاء. لم أصدقه قط.

كنت أحكي لـ"حلمي أمين" أنني حين أرى في التلفزيون "السادات" وأحد الشيوخ الجدد الذين اكتسبوا شعبية مؤخراً في مصر أغلق الصوت، وأتفرج على مشاهد كوميدية رائعة.

قال : هذا صحيح. أريدك في أثناء تحليلك لأي موقف له ألا تنسي الجانب المخادع في شخصيته، وأيضاً جانب الممثل. لماذا دعا شاه إيران إلى مصر؟

قلت : لا أعرف. ربما خدمة لأمريكا وإعلان الولاء. ربما لأنه استعراضي ويحب الفشخرة، ويحيط نفسه بالملوك، والعراقة التي يفتقدها في أصله. لو كان معتزاً بخروجه من طبقة شعبية مثل جمال عبد الناصر لما فعل هذا.

قال : لا. بسبب ثروة الشاه. أغنى أغنياء العالم. يوفر له في مصر حياة آمنة منعمة، ويشعره بأنه مازال ملكاً، ثم يبدأ في إقناعه بإنفاق أموال تعيده إلى الحكم، ويحصل منه على مليارات الجنيهات تحت دعوى تمويل الانقلاب على الخميني.

غرقت في الضحك.

قال: هذه ليست نكتة. تحليلك للمواقف يتم من خلال شخصيات تتحرك. وببساطة السادات يريد الأموال. والشاه بثروته فريسة سهلة.

قلت : المنطقة كلها خائفة من تصدير الثورة الإيرانية. السعودية، ومصر، والعراق. الشاه الذي لعب دور الشرطي الأمريكي في المنطقة كان أرحم من نظام "الخميني".

قال : أي خلل في المنطقة له تداعياته في توازن القوى، ولن تستقر المنطقة ما دام لم يحدث التوازن. حين خسرت أمريكا إيران ألقت بثقلها في أفغانستان على الحدود السوفييتية. لن يسكت الروس على هذا ؛ لأنها حدودهم. وعلاقات مباشرة قوية بمدن وسط آسيا السوفييتية المتاخمة للحدود. وأمريكا بعيدة يفصلها المحيط، لهذا سيكون الاحتدام عنيفاً في أفغانستان. وسيكون هناك مزيد من إضعاف اليسار في مصر، والمنطقة العربية ؛ حتى لا يكون للاتحاد السوفييتي نفس التأثير على المنطقة. ولكي تتحول المنطقة كلها إلى اقتصاد السوق، وتنهار كل المكاسب الاشتراكية : المصانع الضخمة التي تملكها الدولة ؛ الحديد والصلب، وصناعة الغزل، سيضربون كل ما له علاقة بهذه الصناعة وعمالها ؛ لأنهم بالضرورة قابلون للتنظيم وللوعي. كل هذا من أجل أن تعود المنطقة مجرد سوق لبضائعهم.

***

شعرت بالجوع والبرد، على الرغم من البالطو الثقيل الذي أعطته لي أمي. مازلت طفلتك يا أمي. ماذا آكل؟ بطة محمرة. ساندوتش جبنة وكوب من الشاي إن أمكن. أدخلت يدي في الحقيبة أبحث عن النقود المتبقية، ورحت أقرأ الأسعار. دفعت بهم إلى النادل. تبقى معي ما يشترى مثلهم تقريباً. المفروض أن يوفروا لي وجبات ؛ لأنهم هم الذين أخروني عن الطائرة، لكني لا أريد حواراً معهم، ولا أريد أن أراهم على الإطلاق؛ فقد تكون وردية الضابط العاقل الذي أحضرني إلى هنا قد انتهت، فأصطدم بمجنون آخر تطق في دماغه إعادة القصة من بدايتها. خليني هنا في الدراء ؛ حتى تأتي الطائرة على خير، ومن يأتِ إلى هذا البلد مرة أخرى يستأهل ما يحدث له. وصلتني كرة، التفت لأجد طفلاً جميلاً قادماً ليأخذها، دفعتها بقدمي نحوه، وقف يصفق بيديه، ثم أمسك بها ودفعها نحو. قلت : الله.

فتحت دفتر "أنهار" قرأت :

الحزن رفيقي

"قلت لـ"حلمي" جزعة: ما كل هذا الحزن؟

قال : الوحدة. أنت لا تعلمين حزن رجل ليس له إله. الحزن رفيقي.

قلت ضاحكة أحاول أن أخفف عنه : إذا كان الحزن رفيقك، فأنت لديك رفيق.

قال : الآلهة هي أعظم اختراعات البشر. أتدرين كم تكون الحياة موحشة من دون آلهة؟

قلت : أنا أحب الله. أراه في كل المخلوقات وحتى في الجماد أيضاً. لا أجد غضاضة في إيماني الاقتصادي بكارل ماركس، وإيماني بالله.

قال : كم أنتِ محظوظة. أنت على الأقل تستطيعين أن تطلبي من الله ما شئتِ.

قلت : لكن هذه نظرة انتهازية. افعل كذا ليكون لك قصر في الجنة. العلاقة مع الله أسمى من هذا.

قال: لم أقصد هذا بالطبع. تطلبين المغفرة، الأمان، الأمل في الغد، التواصل. لكن رجلاً بلا إله هو رجل وحيد وحزين القلب.

قلت : ولماذا لا يكون لك إله؟

قال : ليتني أستطيع أن أكون مثل ذلك الرجل البدائي الذي عبد كل ما خاف منه: النار، الريح، الشمس، القمر. لكني لا أستطيع أن أعبد ما أخشاه.

أخذته في حضني. ولم أخفي دموعي، كان حزنه صافياً مثل لهب أزرق."

هاجمني النوم فجأة. سقط دفتر "أنهار خيون" من يدي. شعرت برعشة تملكت جسدي كله على الرغم من تغير الجو. وضعت الدفتر في حقيبتي خوفاً من ضياعه وتمددت فوق الكرسي، بعد أن قربت مقعداً آخر من قدمي. التحفت بالبالطو، وقررت أن أترك نفسي لملاك النوم. لكني لم أنم. وعدت إلى أوراق "أنهار"، وقدرت بالتقريب المكان الذي وصلت إليه قرأت :

"معركة"

"اندفعت كلمات الغضب. ارتعشت أذناه، وتغير لون عينيه، وشعرت أن شعر ذقنه يطول كلما خرجت من فمه الكلمات الجارحة. كلمات الأعماق السوداء. من الواضح أنه ظل مستيقظاً منذ الأمس. لا أعرف كيف تعامل مع موظفي المكتب، وقام بعمله اليومي الشاق.

سألته جزعة : ماذا بك؟

قال : لا تلعبي دور الملاك والشيطان الرجيم.

لم أنطق. عرفت أني أقف الآن على باب الدائرة الجهنمية، استطرد دون أن ينتظر رد فعلي : لا أريد أن أسمع كلماتك. لكِ أن تختاري الحل. انتهت القصة، وعليكِ أن تدفعي الثمن. أنا لا أفكر الآن سوى بالانتقام، فلا تدفعيني إليه.

قلت : أنا

قاطعني قائلاً : أكرهك. لم أكره في حياتي كلها غيرك.

قلت وأنا أشعر بمرارة العلقم : ما المطلوب مني الآن؟

بلع ريقه، ووضع قدمه فوق الطاولة الصغيرة أمامه، وأشعل سيجارة وقال : أنتِ أغبى من عرفت، فلا تجعلي الحماقة تؤدي بكِ إلى طريق مسدود ؛ ستصبحين فجأة ريشة في مهب الريح.

شككت أن يكون قد شرب كثيراً، وهو غير معتاد على الخمر، سيطرت على عقلي رغبة وحيدة وهي أن أنهي الأمر وأمضي إلى حال سبيلي قلت : حدد وسأنفذ.

قال : لا تلعبي دور المرأة الذكية، واختصري كلماتك.

- سأفعل.

- لقد صنعت منكِ نجمة. كنت مثلك مثل مئات الصحفيات. الآن أنت تكتبين في خمس صحف، وتظهرين على شاشة التليفزيون كل أسبوع. ومع هذا فأنتِ مازلتِ في البداية، وركلة من قدمي تهوي بكِ، لكني أؤجل الانتقام الآن.

صمت، وراح يتنفس من خلال السيجارة، ويعبق المكان بالسواد. انتظرت أن أفهم ما خط فوق تعابير وجهه. الحدث الذى مازال يخفيه، ويفقده صوابه.

سألني : هل مررت بالإستوديو اليوم؟

قلت : لا.

قال : لماذا؟ كان الواجب أن تشاهدي اللقطات الباقيات.

قلت : لم يكن لدي وقت كافٍ. جئت من الوكالة مباشرة.

قال : أحذركِ. انتهى الفيلم. لن تعملي معه مرة أخرى. مراهق هنا ومراهق هناك. "عبد الرحيم" هه - ارتفع صوته بحدة - هذا مجرد مرشح للحزب.

- عمن تتحدث؟

- أنصحك أن تختفي قليلاً عن الأنظار. فقد كشف الجميع لعبتك. الكل يكرهك. أسمعت؟ الكل يكرهك. اذهبي إليهم الآن، وستعرفين بنفسك.

- تقول إنني سأدفع الثمن. حسناً سأفعل، ولكن زد على الحساب قليلاً، وقل لي ما حدث. وسأدفع ثمن ذلك أيضاً.

- لقد انتهيت، ولن أزيد حرفاً واحداً. عليكِ أن تجدي الوسيلة لرد ديونك.

- اتفقنا. ما المطلوب الآن؟

- تريدين الذهاب، ولكني سأنتظرك في الغد، وأنتِ تعرفين كيف آتي بك.

- اتفقنا. وهذه كلمة شرف. أنتَ تصل إلى الحلول بسرعة وهذا جميل.

- احتفظي بنصائحك. أنتِ شديدة الثقة بنفسك كما أرى. لن أسمح لمراهق أن أن.. قلت لكِ ستحطمين نفسك يوماً، ولم تسمعي النصيحة. أرشدتك إلى علتك، ولم

تدركيها. أنتِ تعشقين هذه العلة. وستضيع منكِ حياتك في نزوة. أنا لست أحمقاً. لقد أعطيتك كل حياتي. وستدفعين ثمنها المهدور.

ـ أتتكلم عن العطاء؟ لن أناقشك في عطائك. لكن إذا كنت أملك أنا كسرة خبز وحيدة، وأعطيتها، فهي كل ما أملك. ومع هذا سأدفع، ولن تعرف السبب.

ـ قلت لك لا تلعبي دور الملاك أمام الشيطان.

ـ أنت تحياَ في أوهام. وسأتركك لأوهامك.

ركضت نحو الدرج، لا أعرف كيف يتحول بسهولة من الرجل الرائع الذكي اللامع المثقف إلى هذا الإنسان البدائي العكر المزاج. ماذا فعلت بالأمس مع "عبد الرحيم"؟ مجرد ضحكات بريئة، صور أخذناها للمجموعة كلها بمناسبة زيارة "فتح الله" وباقي الشلة. لولا هذه الغيرة اللعينة لأصبحت زوجته. تراكم صوت داخلي يعيد كلمة زوجته. تجاهلته، ورحت أفكر في السد الذي يبنيه بيننا بدأب، حجراً وراء حجر. لكن حجر اليوم أصابني بالسأم، وأشعرني بالاختناق. وقفت أمام البناية الزرقاء في شارع الشيخلي، وألقيت نظرة ثم عبرت الطريق، أغلقت عقلي، لا أريد للأسئلة أن تضرب بمعولها، ولا أريد لقلبي أن يشعر بكل هذا الخوف من الفقد، وجدتني في ساحة النصر، صعدت إلى "الفورت" وقبل أن يتحرك، أدركت أنني نسيت حقيبتي وفيها أوراق يجب أن أسلمها إلى مجلة (ألف باء) صباح الغد. ترددت في النزول من العربة، ثم نزلت وعدت إلى المكتب وقرعت الجرس، فلم يأتني جواب. كنت متأكدة من وجوده في الداخل، فتحت الباب بالمفتاح، رأيت الظلام، وقد هوى على المكان، يبدو أن "حلمي" قد نام من فور خروجي، لاحظت ضوءاً خافتاً يأتي من ناحية سكنه، عرفت أنه مستيقظ، أخذت حقيبتي من المكتب، وعندما فتحت الباب لأخرج لم أستطع عبوره عدت، ومشيت ناحية غرفة نومه لمجرد أن ألقي نظرة للتأكد أنه بخير. قرعت الباب، ثم فتحته كان يضطجع فوق السرير يدخن، تاركاً السيجارة في فمه ترعاها النار من دون أن يعيدها إلى المطفأة، رأيت رمادها ممتداً ومتماسكاً.

قلت: "حلمي". هل لي أن أعرف ماذا فعلت؟ ما الذي يزعجك؟

قال دون أن ينحي السيجارة عن فمه: لا شيء.

لا أعرف لماذا بدا لي عجوزاً أكثر من أي وقت رأيته فيه في حياتي.

اقتربت منه خطوة واحدة قال : اذهبي أرجوكِ. أريد أن أرتاح.

قلت : أنا لن أرتاح إذا بقيت على هذه الحالة من الجهل.

قال : أعصابي متعبة. أنتِ لا ذنب لكِ في أي شيء. تعالي غداً.

وقع بصري فجأة على كوب من الماء فوق الكومودينو، يقبع في قاعه جسم وردي يلمع بحروف بيضاء. دققت النظر إلى حلمي بوجهه المتغضن، وفمه المزموم حول السيجارة مثل "جيبونة" في خصر راقصة بالية. كان قد خلع طقم أسنانه، ووضعه في الكوب. أدركت سبب هدوءه، وعدم رغبته في الحديث معي. أشفقت عليه، قلت : تصبح على خير.

خرجت، لفحني هواء الشارع الساخن، مازلت أجهل سبب غضبه مني، على الرغم من ذكره اسم "عبد الرحيم". لأول مرة أشعر بضعفه الحقيقي، بعدم قدرته على مواجهتي. انتبهت إلى فارق السن بيننا. أعرف أنه يكبرني بخمسة وعشرين عاماً، لكنه هو الوحيد الذي أشعر معه بالأمان، ويعطيني بلا مقابل. غير صحيح. هو يعطيكِ أجر عملك، ويستمتع بجسدك فوق البيعة. لكني أتمتع أيضاً. أي متعة يا عزيزتي. إنه يمتص منكِ رحيق الحياة. يمتص شبابك، وجمالك. هل تستطيعين إيقاف الألم الذي يمزعكِ وأنت تؤجلين وصولكِ إلى النشوة؟ هل تدركين أثر ما يحدث على جسدك؟ ألم تخبرك "أم عابد" بأنه طبعكِ بطابعه إلى الأبد، وأنك لم تعودي تصلحين زوجة ؛ لأنك لم تعودي عذراء بالمعنى الحقيقي. العذرية أن تكوني جديدة في مشاعرك، وفي استقبال جسمك للرجل الأول. أنت الآن لست عذراء حتى لو احتفظ جسمك بهذه البوابة. ألا تتزوج المرأة مرتين؛ لأنها ترملت أو طلقت؟ نعم، لكنها لا تكون عذراء، ويكون زوجها الجديد على علم. هل تستطيعين أن تخبري زوجك بتجربتك هذه؟ هل سيقطع ذلك الشوط الطويل الذي يقطعه "حلمي" معك حتى تنتبهي جنسياً؟ لقد قتلت إحساسك معه، وأنت لا تدرين. لا. كفى. ألم يفزعك وجهه العاري من الأسنان؟ نعم، أفزعني. أدركت فجأةً كم هو عجوز، كأنه خارج من قبر. وأنا أريد ذلك الشاب الذي يستطيع أن يركض معي، يرقص معي، يسافر، ويلعب، يأكل، ويجوع. أريد الحياة الطبيعية. لقد نبهك من قبل إلى فرحك وانتشائك حين تكونين بين الشباب،على عكس ما تكونينه وسط أصدقائه، هل تذكرين آخر مرة التقيت بمجموعة الصحفيين المصريين:

"سعد التائه"، و"سعد زغلول فؤاد"، و"فتحي خليل"، و"جلال السيد" و"أحمد عباس صالح"؟ هل تذكرينهم وهم يثرثرون مع زوجاتهم عن الأمراض التي يتعرضون لها؟ لقد مرت الساعات بطيئة حتى منتصف الليل من دون أن تنطقي حرفاً واحداً تنقلين البصر بينهم، وهم يحكون عن أعراض لأمراض يعرفونها جيداً؛ من السكر إلى الضغط، إلى الفقرات والقلب، إلى الماء الأزرق والماء الأبيض. ألم تشعري بالاختناق والضيق من مجالسهم هذه؛ فتهربي من الانضمام إليها؟ ألا تشترطين وجود "نورا" بينهم حتى توافقي على مقابلتهم؛لأن "نورا" في مثل سنك؟ ألا تعتقدين بأنه لم يلاحظ ذلك؟ هل أدركت الآن سر ثورته في رحلة البصرة؛ حين لاحظ اهتمام "كاظم" بك؟ إن ثورته اليوم تشبه ثورته تلك ولا شيء غير هذا صدقيني. أنا بالفعل أشعر بالتفاؤل بين الشباب، نتذكر الأشياء التي تضحكنا، ليس لأننا عراقيون؛ ولكن لأننا في سن واحدة، وإذا استمر "حلمي" على هذه الحال فلن أستطيع العيش معه. في الغد سأقول له. زادت معاركنا، وغطت على كل لحظات السعادة بيننا.

نمت نوماً قلقاً، أقوم منه فزعة لأجد الوقت لا يمر، تحالفت الساعات على ألا يظهر للغد نهار. قضيت أسوأ أيام حياتي في الوكالة عابثة لا أريد التواصل مع أحد، أرد على زملائي بجفاء حتى أغضبت مني الجميع. ذهبت بعد أن تلكأت قليلاً في شارع السعدون أمام المكتبات من دون أن أشتري شيئاً. وجدته في انتظاري جالساً بهدوء. أسلمته تقرير الوكالة الأخير، وأشرت إلى ملاحظاتي عليه، أنهينا العمل.

قلت: أريد أن أخبرك بشيء.

قال: أريد أن أخبرك أنا أيضاً بأنني آسف. لم يكن الأمر يستأهل كل هذا الغضب. لدينا اليوم دعوة في القصر الجمهوري ويجب أن نذهب الآن."

***

أغلقت الدفتر. وصدرت مني آهة طويلة، خفت أن يكون قد سمعها أحد الجالسين إلى جواري من المسافرين مثلي من مطار عمان. لم تكن "فائزة" هي العائق الوحيد بينكما إذن. لعبت الغيرة الدور الرئيس في المشهد. وهل كان للغيرة أن تلعب هذا الدور، دون وجود عائق مستفز مثل "فائزة"؛ لتدفع بالقصة إلى اليأس والتخبط؟ ربما. لاحظت في إحدى رحلات عائلة "حلمي" أن "فائزة" بائسة على الرغم من أنها كانت

تحمل "رنا"، وتلاعبها، وعقلها سارح تماماً. قلت لنفسي: لماذا لا تكون بائسة وهي تعيش منشطرة بين عالمين، لا هي زوجة، ولا هي مجرد نسيبة، بل هي امرأة ضائعة لا تعرف لحياتها رأساً من قدمين. تشارك "حلمي" الوجود في قلب العاصفة؟ يا إلهي.

احتل ثلاثة من الرجال المقاعد أمامي. لهجتهم الفلسطينية واضحة. يبدو عليهم أنهم من كبار التجار. شتات فلسطيني لا ينتهي.

بمجرد دخولي إلى المكتب، قال لي الأستاذ "حلمي أمين" :

ـ سنذهب للقاء بعض المثقفين الفلسطينيين في دار السلام.

سألته : من هم؟

قال : أدباء وصحفيون وطلاب طردوا من القاهرة فجأة. أحدهم محلل سياسي، والثاني شاعر، والثالث قاص ومترجم، والرابع رئيس قسم التحقيقات في وكالة أنباء الشرق الأوسط، ومعهم بعض الطلاب.

قابلونا بترحاب شديد. قدمهم لي: "عبد القادر ياسين"، "مريد البرغوثي"، "أحمد عمر شاهين"، "محمد أحمد رمضان".

جلسنا نستمع إلى قصة ترحيلهم من مصر. كانوا زائغي البصر، مشوشين، ينتبهون إلى أقل حركة تحدث حولهم، ترقد في عيونهم آلاف الأسئلة.

قال "عبد القادر ياسين" : في أول أيام عيد الأضحى، وقبل أن ينفذ "السادات" وعده وتحط طائرته على أرض مطار بن جوريون مباشرة، اعتُقلنا ـ نحن الأربعة ـ من بين قائمة من تسعة كتاب وصحفيين هم قيادة اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين في مصر. استثنى منهم اثنان لانتمائهما إلى فتح.

قلت : وماذا عن الباقين؟

قال : ذهب أحدهم إلى الحج، وآخر كان في بيروت، و"رضوى عاشور"، لأنها مصرية، ولا يمكن ترحيلها.

سألت : هل جاء قرار الإبعاد بسبب اشتراككم في المظاهرات ضد الزيارة؟

قال "أحمد عمر شاهين" وكان أكثرهم هدوءاً، وربما خجلاً أيضاً: نعم تجمع الطلاب للاحتجاج على زيارة "السادات"، وقرأوا بياناً باسم اتحاد الكتاب والصحفيين شديد اللهجة.

قال "حلمي أمين" : من الذي كتب البيان؟

قال "عبد القادر ياسين" : كنا قد قررنا ألا نأخذ موقفاً ؛ لأن السكين مازالت حامية، وأن ننتظر حتى ينكشف الموقف للجماهير ؛ لأني لا أستطيع أن أقف في مواجهة مع الناس في لحظة استطاع فيها "السادات" أن يجذبهم إليه بدعوى وقف الحرب والتضحيات ونزيف الدم. لهذا فأمر البيان كله هو مؤامرة من فتح والأمن لإبعادنا نحن الأربعة سلفاً.

سألته : لماذا؟

قال : لأن اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين هو النقابة الوحيدة التي لا تضع فتح يدها عليها.

قال "حلمي أمين" : أرُحلتم من فوركم؟

قال "محمد أحمد رمضان" : اعتقلونا أولاً في مجمع التحرير، وسألونا في أمن الجوازات : هل معكم نقود للتذاكر؟ قال ثلاثة منا : نعم، وقال عبد القادر : لا. ذهبوا بـ"عبد القادر" إلى البيت، ليحضر النقود، وذهبوا بثلاثتنا إلى الطائرة. وبعد أن جلسنا فيها بالفعل أنزلونا منها، وأخبرونا أن الترحيل تأجل حتى يعود "السادات" من القدس. وأخذونا - نحن الأربعة - إلى تخشيبة الخليفة في القلعة لمدة ثلاثة أيام، ثم رحلونا بعدها.

قلت : أأنتم الذين اخترتم العراق. أم فرض عليكم؟

قال "مريد البرغوثي" : طلبنا أن نلحق بمنظمة التحرير في سوريا أو في بيروت، فأخبرونا أن العراق هو البلد الوحيد الذي يستقبل الفلسطينيين من دون تأشيرة، على الرغم من أن تذكرة الطائرة إلى بغداد كانت الأغلى سعراً.

ضحك "عبد القادر ياسين" قائلاً : في أثناء جلوسنا في الطائرة قال "مريد" : الآن يمسك بنا "أبو نضال البنا" ويذبحنا. قلت يا رجل هي فوضى. بعد قليل دخل إلى الطائرة شاب وسيم أشقر سأل : أين الأستاذ "عبد القادر ياسين"؟ قال مريد : ألم أقل لك؟ تقدم منا الشاب هذا الذي كان أحد القادة القوميين العرب "شي اسمه"؟ "أمير الحلو". قائلاً لنا أنا مدير مكتب وزير الثقافة مبعوث إليكم لاستقبالكم. تفضلوا.

قال "محمد رمضان" : احكِ لهم عن "سمعان".

قال "عبد القادر" : حدث بالأمس شيء غريب يا "حلمي" يا أخي. التقيت

بالصدفة في الفندق "ألفريد سمعان" الشاعر الشيوعي أنت تعرفه، اعتذر لي كثيراً لأن جريدة "طريق الشعب" لم تنشر خبر وصولنا إلى بغداد، وقال حدث هذا خوفاً من أن ينقلب ضدنا البعثيون. ما الحكاية يا "حلمي"؟ أليس الحكم لجبهة ائتلاف؟

ضحك "حلمي" وقال : أعرفك طويل البال يا "بو جميل". مازالت آثار السفر فوق جسمك : هي جبهة مفارم، وليس جبهة مغانم.

قال "أحمد عمر شاهين" : ماذا سيفعل معنا العراقيون؟ هل يستضيفوننا لفترة حتى ندبر أمورنا في مكان آخر؟ هل نعمل في صحفهم؟ أنا لا أستطيع العيش بعيدا عن القاهرة، ولا عن شقتي في حي السيدة زينب.

لم يكن أي منا يملك إجابة. على الرغم من أننا نعرف أن عدة منظمات فلسطينية قد فتحت مكاتب لها في بغداد؛ قال "حلمي أمين" : ستدرس الحالة وفقاً للعلاقة مع المنظمات الفلسطينية. مسألة العمل في الصحف ليست صعبة. لقد استضافوكم، فانتظروا قرارتهم. وأنتم تعلمون أن الحسبة سياسية.

قلنا لهم : نورتم بغداد. بيوتنا مفتوحة لكم. والفندق في وسط المدينة، حاولوا التعرف عليها، لن تشعروا بملل، ولا تقلقوا من شيء، سنمر بكم دائماً.

تحولت بغداد في تلك الفترة إلى سوق تجذب مقاولي السياسة المصريين. حصل بعضهم على نقود تحت زعم تكوين خلايا بعثية في القاهرة، وحصل آخرون على نقود باسم أحزاب سياسية سرية معارضة في مصر، ولم تصل هذه الأموال إلى الأحزاب قط. حتى النساء دخلن اللعبة. أذكر واحدة طلبت دعماً عراقياً للحزب الذى تنتمي إليه، ثم حولت هذه النقود إلى مؤسسة ثقافية باسمها. كانت الأخبار تنتشر بسرعة في بغداد، ولم يكن أصحابها يخجلون من ذكر أهدافهم. تنهدت والصور تنداح أمام عيني في أسى. في نهاية عام ١٩٧٨، طلب "أحمد عباس صالح" من "أمين عز الدين"، وكان قريبا من "صدام حسين" التوسط له لإصدار صحيفة معارضة للمصريين في الخارج تمولها العراق. فلما ذهب "أمين عز الدين" إلى المسؤول البعثي، قال له الرجل : لماذا لم تأت من قبل؟ لقد أعطينا بالأمس ثلاثة ملايين دولار للدكتور "يسري الكامل" لكي يصدر صحيفة.

بالطبع لم تصدر الصحيفة حتى الآن، أي بعد مرور أربع سنوات. ما كان يثير جنون "حلمي أمين" هو حالة التزلف التي قام بها بعض الساسة المصريين للبعث، ومنهم

من كان يعتبره صديقه مثل "عبد الصمد الخولي" الذي راح يهتف للقيادة القومية والقطرية، وشارك في تأسيس قيادة قطرية لفرع الحزب في مصر. يقول لي في أسى :

- احتاج "عبد الصمد" إلى عملية جراحية دقيقة في عينيه. دفع العراق تكاليفها. لكن هل يكفي هذا لكي يبيع تاريخه النضالي بهذا الشكل؟

وقع "حلمي أمين" بين فكي الكماشة ؛ متملقي حزب البعث من ناحية، وعدم القدرة على السكوت عن حكومة "السادات" من ناحية أخرى. أظن كان هذا سر ثورته يوم أتيت له "بعبد الرحيم وعاطف".

تركنا الفلسطينين، ورحنا نمشى في شارع السعدون. لاحظت حالة الحزن التي غرق فيها "حلمي"، قلت له : فتح العراق أبوابه لانشقاقات التنظيمات الفلسطينية وما يسمى جبهة القوى الرافضة للحلول الاستسلامية، وتدعمها نكاية في سوريا، وحتى الآن أنا لا أفهم لماذا؟

قال "حلمي أمين": أظن أن العراق هو الذي دعا إلى تشكيل هذه الجبهة، ولما دخلت القوات السورية إلى بيروت في العام الماضي ١٩٧٦ لدعم المارونيين، هربت قيادات هذه الجبهة وأعضاؤها إلى بغداد، وفتحوا مكاتبهم ؛ ليكونوا ضد فتح.

قلت: جماعة أبي "العباس"، و"وديع حداد"، المنشق على "جورج حبش".

قال "حلمي" : نحن نعيش وقتاً صعباً يا "نورا". وقتاً صعباً.

ترى أين هم الآن؟

بعد شهر من هذه الوقعة، سمعنا أن "عبد القادر ياسين" قد ذهب إلى رومانيا للعلاج، ومنها إلى بيروت. أخبرني "حلمي أمين" أنه قابله هناك. وذهب "مريد" إلى المجر، وأظنه مازال هناك. أما "أحمد عمر شاهين" فلم يحتمل درجة حرارة صيف بغداد ورحل إلى القاهرة وبقي في المطار لمدة أسبوعين حتى سمحوا له بدخولها. لم يجدوا ضده ما يمنع دخوله، وسافر "محمد أحمد رمضان" إلى نيويورك ليعمل مترجماً في الأمم المتحدة، وكتب "حلمي أمين" مقالاً رائعاً في الجمهورية عن "عبد القادر ياسين" بعنوان "لا أزال أذكر وجهك الباسم يا عبد القادر ياسين !" يحكي فيها قصة اعتقالهما معاً في الواحات.

يا إلهي كيف أنسى صرخات "حلمي أمين" بعد أن عاد من بيروت في تليفون أحد الأكشاك العمومية وهو يحدث شخصاً لا أعرفه :

- لن أترك العراق يحوّل الحركة الوطنية إلى نسخة من المنظمات الفلسطينية التي يتكلم كل جماعة فيها باسم البلد الذي تُؤويه. لن يصبح المعارضون المصريون المنفيون لعبة في يد العراق يصبغه بوجهة نظره، ولا في يد ليبيا ليتكلموا باسمها هي أو غيرها. لن نتمزق بهذا الشكل؟

سألته جزعة بعد أن لفتنا نظر المارة في الشارع : ماذا حدث؟

قال : هل تذكرين هيرمان ميلفل؟

قلت : طبعاً صاحب رواية موبي ديك ـ ضحكت ـ "دون كيشوت" البحر.

قال : يقول "مليفل" : إن الحوت حين يحاصر بقوارب الصيد والبحارة وتشتد فوق جسمه قذائف الرماح، وتخترق جلده، ويمتلئ البحر بدمه المراق، يسكن تماماً، ويظن الصيادون أنه مات، ويقتربون فرحين بصيدهم، لكنه يفاجئهم بضربة قاتلة من ذيله، تشق قاربهم، ويعود هو إلى البحر منتصراً. هكذا نحن يا "نورا". نحن المناضلين المصريين.

قلت : لا أفهم شيئاً.

قال: سيأتي وقت. سيأتي وقت.

غفوت انتبهت على صحو مؤلم، سرى بأوجاع في مناطق مختلفة من جسدي. الصالة مضاءة، الظلام حالك خارجها، سمعت النداء. تعلن شركة مصر للطيران عن رحلتها إلى القاهرة.

ذهبت إلى البوابة. رأيت الناس قد اصطفوا في طابور طويل عرفت فيهم بعض الوجوه التي رأيتها في طابور الجوازات. سألت عن الرحلة على الرغم من وجود الكلمات مكتوبة أمامي على اللوحة. عدت إلى الحمام بعد أن قلت للرجل الذي أمامي أن يحفظ لي مكاناً وراءه. تصرف ساذج وعبيط لكني فعلته. غسلت وجهي، أخذت الفوطة الجافة، وشكرت العاملة. قدمت جواز سفري إلى الموظف. نظر إليَّ متأملاً، وأشار إلى أحد زملائه عن بعد، فأرسل إليه إشارة بالموافقة.

لم أصدق أنني في القاعة الأخيرة، والطائرة رابضة أمامي، تقدمت بخطوات واثقة، ووجهي يحمل حياداً تاماً على الرغم من أنني على استعداد للانفجار في أي لحظة. وأعطيت موظفاً آخر التذكرة بآلية. صعدت إلى الأتوبيس فسلم الطائرة فمقعدي

من دون أن أسمع ما يدور حولي ونمت، وصحوت على صوت المضيف وهو يعطيني الطعام. تناولته نصف واعية، عادت الرعشة إلى جسمي على الرغم من أنني لم أخلع البالطو وشعرت أن أذنيّ تكادان أن تنفجرا. والطائرة تهبط إلى مطار القاهرة كدت أصرخ وأنا أحاول أن أبلع ريقي من دون فائدة. وضعت كفيّ فوق أذنيّ، أريد أن أخلعهما من مكانهما. توقفت الطائرة. جررت جسمي إلى الخارج بصعوبة. لن ينتظرني أحد فهم لا يعرفون موعد وصولي الجديد؟ سيارة ليموزين تحل الموقف، وأسافر غداً إلى مغاغة لأعود بابني، فالسفر إليه مستحيل الآن. قدمت جوازي إلى ضابط الجوازات وأخبرته بما جرى في الأردن. نظر إلى الصورة، وإلى الأوراق التي ملأتها، وقارنها بالجواز، قال :

- لا شيء. مجرد الصورة باهتة. عودي إلى الجوازات في مجمع التحرير وأبدلي الصورة. هل الطفل معك؟

- لا.

- هل يستلزم الأمر مراجعة السفارة الأردنية؟

- لا أظن. هو مجرد شك في الصورة من ضابط الجوازات، وأظنه محقاً. تفضلي. حمداً لله على السلامة.

- شكراً جزيلاً.

انتظرت وصول حقيبتي فوق السير وأنا أتململ من التعب. وصل صندوق الكتب أولاً، أجهشت بالبكاء وأنا أقرأ فوق لوحة كبيرة "ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين". رحت أتأمل الشوارع من نافذة التاكسي. عالم آخر منفصل، أحتاج ساعة لكي أصل إلى بيتي. كنت هنا منذ عشرة أيام. هل يعقل أن تكون كل هذه الأحداث، قد جرت في عشرة أيام؟ عشرة أيام هزت العالم. الناس هنا لاهية لا يدركون أن ما يحدث في العراق بالفعل سيؤثر فيهم. لكن ماذا يفعلون؟ الأثمان التي دفعوها في الصراع العربي الإسرائيلي باهظة. والخبرة التي اكتسبوها في العلاقة المباشرة مع العرب مختلفة تماماً. والعامل المصري يحب التعامل العراقي، والنقود الخليجية. كيف سينعكس هذا على المجتمع المصري؟ كثيراً ما سألت نفسي : لماذا يتعامل الخليج العربي مع العمالة الآسيوية بهذه الكثافة؟ هل يخافون من تركز أعداد كبيرة من المصريين؟

لماذا لا تتحرك السيارة؟ هل خرج كل الناس إلى الشوارع لكي يعطلوا وصولي إلى البيت؟ النيل صديقي. شارع الكورنيش مسرح البالون :

– ادخل هذا الشارع يا أسطى. قف هنا على اليسار.

أعطيته جنيهات مصرية وسألت نفسي لماذا لا يتعاملون مع الجنيه المصري في مطار الأردن؟ رفعت رأسي إلى أعلى. رأيت في الشرفة منشراً داخلياً يحمل قطع ملابس صغيرة مبتلة. ملابس "هيثم". هل جاء "هيثم"؟ كيف ومتى؟ هل أرسلته "تانت" لكي يقابلني؟ هل "فطوم" معه؟ أم أرضعوه لبناً صناعياً؟

جاء البواب، تركت له متعلقاتي وركضت أصعد الدرج وأنا في غاية الخوف. فتحت الباب وأنا أقرع الجرس باليد الثانية جاءت أمي مرحبة : حمداً لله على السلامة. لماذا فاتتك الطائرة؟

ـ هل "هيثم" هنا؟

قالت وهي تقبلني : على مهلك. "هيثم" هنا وبخير.

خرجت من حضنها وأنا أبحث عن ابني قلت : ماذا يرضع؟ هل "فطوم" معه؟

قالت : الصبر. لا تخافي. كل شيء على ما يرام. اجلسي أولاً. تعالَ يا "هيثم".

دخلت الخادمة الصغيرة وهي تحمل "هيثم" الذي هلل ضاحكاً حين رآني، "انفطرت" في البكاء، وأنا أرى ابني هيكلاً عظمياً، اختفى نصف وزنه تقريباً. سألت جزعة وأنا أمد يدي لأحمله : ماذا أصابه؟

قالت أمي: نزلة معوية وشفي منها والحمد لله. أصيب بعد سفرك مباشرة بميكروب في فمه، رفض الرضاعة، اتصلت بي حماتك فأحضرناه إلى الطبيب، وأعطاه كالعادة الجزر والتفاح ومنعه من اللبن، ثم سمح له اليوم بحليب صناعي، أخذ منه رضعة واحدة حتى الآن، وسوف يعود إلى حالته الطبيعية بالتدريج.

قلت والدموع تغرق وجهي : يا ابني يا حبيبي أنا السبب.

قالت أمي مؤنبة : ألم يمرض من قبل، وأنتِ معه؟ كيف حال رحلتك أولاً؟

أجبت وعيناي معلقتان به، لا تتنحيان عن رقبته الرفيعة التي تحمل رأسه بأعجوبة، وبشرته التي اختفى منها اللون الوردي الصافي: الحمد لله. أين "ياسر" و"حاتم"؟

قالت أمي : "ياسر" يشتري شيكولاته، و"حاتم" في الإسكندرية ويعود غداً.

جففت دموعي، وفتحت صدر البلوزة وأعطيته ثديي الأيسر كما يحب أن يرضع أولاً جهة القلب، أخذه ضاحكاً، راح يمتصه على مهل، وعيناه لا تفارقان عيني

تتوسلان إليه بكل اعتذارات العالم، وتخبرانه كم أحبه. وهو يفك شيفرات المعنى دون كلام، بعينين ضاحكتين، ومن دون نظرة لوم واحدة، كأنني ما تركته.

جاء أبي الذي كان يصلي في الداخل، وقال وهو يرى ابني يرضع سعيداً : طبعاً وصلت البقرة يا خنزير. حمداً لله على السلامة يا ستي.

لم أستطع النظر إلى أبي وأنا أرد تحيته خائفة من أن أغير وضع ابني.

- الله يسلمك يا أبي.

دخل "ياسر" مع أخي وارتمى في حضني، رفع "هيثم" وجهه ثم عاد يرضع.

قال أبي : اتركها حتى تُرضع أخاك. هز رأسه رافضاً الابتعاد عني وهو يمسك بخصري، والتصق بي أكثر.

قلت : اتركه يا أبي. ربتّ فوق كتفه وقبلته.

شعرت بحركة ساقي "هيثم" في حجري، أزاح البطانية عن قدميه. ترك ثديي لثوانٍ وتعالى صوته في دندنة جميلة: آآآآآآآ وأشرق وجهه بابتسامة رائعة، ثم أسرع يمسك بحلمة ثديي. شكرت الله على معجزة قبول طفلي لصدري بعد كل هذا البعد. رأيت نظرات الدهشة في عيون أمي وأبي. وشعرت بتجدد اللبن. نقلت "هيثم" إلى ثديي الأيمن وأنا أداعب شعره بيدي، وراح هو يقاوم الدخول في النوم، ثم غرق به. نقلته إلى السرير و"ياسر" يمشي في أعقابي، عدنا للعائلة وهو ما زال ملتصقاً بي. حضنته بشدة. وضعت كفيّ فوق وجهي أريد أن أوقف كل ما يمر بعقلي من صور، وما يمر بقلبي من مشاعر الذنب، والمرارة، والغضب. استجمعت قوتي حتى أعرف أخبارهم. جاءت أمي تحمل كوباً من العصير.

ضحك أبي قائلاً : لم أكن أعرف أنكِ ضعيفة إلى هذه الدرجة. خنزير صغير اليوم، وغداً خنزير كبير. ماذا حدث؟

قلت : لن أسافر وأترك ابني مرة أخرى طوال حياتي.

قال أبي : لا تتسرعي في قراراتك. المهم هل كانت الرحلة تستحق المغامرة؟

قلت : أي مغامرة؟ لم تكن المغامرة هنا يا أبي. كانت هناك.

انهمرت دموعي. أمرت أمي لي بكوب من الماء، أصرت أن أشربه وهي تقول : صلي على النبي "ياما العيال شافت، وياما هاتشوف".

تذكرت بسيوني. سألت : أين التليفون؟

قالت أمي : في مكانه. لم تمر دقائق على وصولك. اصبري قليلاً.

قلت وأنا أدير قرص الهاتف : لا. هذا موضوع مهم. لابد أن أقوم به حالاً.

جاءني صوت "ثريا" فرحاً متألقاً : حمداً لله على السلامة. وصل بسيوني إلى لبنان سالماً، وشدد على الاتصال بكِ لكي أطمئنك. اتصلت بالأمس وقالت لي الوالدة أنك لم تصلي بعد. قلقنا عليكِ جداً، وخفنا أن يكون هرب بسيوني هو السبب في تأخيرك، لكننا لم نقل لها أي شيء.

قلت: الحمد لله. لكن هذا البني آدم يخرج من بلد تحارب إلى بلد آخر تحارب؟

قالت: ماذا نفعل؟ منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، وسيجد من يساعده.

قلت: ألم يجرب دخول بلد عن طريق السياسة؟ ألم تكفه التجربة العراقية؟

قالت : لا شهادة دراسية ولا يحزنون. ويعتقد أنه مناضل وثوري.

قلت : كيف هرب؟

قالت : حكى قصة عن خروجه من بلد اسمها "زاخو" مع أغنام. حمداً لله على السلامة مرة أخرى. وأرجو أن نتقابل قريباً بعد أن ترتاحي.

عدت إلى عائلتي الشغوفة بسماع تفاصيل رحلتي. ورحت أحكي بعض ما دار بها، وأنا أريد أن أنام. أنام فحسب.

بعد أيام وصلني خطاب عليه طابع بريد لبنان. فتحته وقرأت :

عزيزتي أبلة نورا.

تحية طيبة وبعد :

أكتب إليكِ من بيروت الجميلة، أرض النضال العربي الآن، لكي أطمئنكِ عليّ. وكنت أتمنى حين قابلتك في البصرة أن أخبرك بموعد خروجي من العراق ؛ كنت قد لاحظت أثناء عملي أن الطرق يتم فيها دك التربة بطريقة لم أرها في حياتي. وسألت زملائي عن هذه المواصفات، فقالوا لي: إنها مستويات عالمية من الدك H1، H2، H3، مصنفة تحت بند طرق المطارات، فقلت : ولماذا كل هذه التكاليف؟ قالوا : لأنها ستعتبر مطارات احتياطية في حالة الحرب. تابعت عمل المساحين، وتعلمت من دقتهم الشديدة، ولكنني في ذات الوقت رحت أتعجب من أن يتم الاستعداد للحرب في وقت يسود فيه الهدوء مع إيران بعد اتفاقية الجزائر. ـ تحمليني أرجوك. هذه أشياء يجب أن أقولها لكِ أولاً قبل أن أكمل قصتي ـ فلما نُقلت الإدارة التي أَعمل فيها إلى منطقة

"أبو غرب الشهراني"، أبلغت المهندس "فتح الله" أنني لا أريد تنفيذ النقل، وقد بذل هو جهداً كبيراً ؛حتى يبقيني في الموصل. قال لي أحد رؤسائي العراقيين : أنتَ فني ميكانيكي، ونحن حتى إذا تركنا بعض عمال الدك هنا ، فلن نتخلى عن أي عامل مصري فني ؛ فلا تدخل "فتح الله" في الموضوع، لأنه لن ينفعك، وأنتَ لن تجند في الجيش، بل ستقوم ومجموعتك بنفس العمل الذي كنتم تقومون به هنا ، لتخدموا حركة القوات المسلحة مباشرة. ذهبت في مساء نفس اليوم إلى المشرب، وأنا متعب وغاضب على الرغم من أنه أخبرني أن مرتبي سيتضاعف ثلاث مرات، والتقيت هناك بمهندس مصري اسمه "صلاح" كنت قد تعرفت إليه بالصدفة، وقصته في غاية الغرابة ؛ فقد تخرج في كلية الهندسة قسم الالكترونيات، وخدم في الجيش المصري في إدارة الصواريخ. وكان قد أتى قبل أسبوعين إلى الموصل، عند أخته ؛ ليبحث عن عمل، ولسوء حظه جلس مع أحد العراقيين من أصدقاء زوج أخته، وحكى له قصته بالكامل، فقال له : لا تحمل هماً، وبعد أيام فوجئ به ومعه واحد من حزب البعث يطرقان الباب، وأخبراه أنه مطلوب للعمل في الجيش، فلما اعتذر الرجل بأنه أخذ من الحرب ما يكفي، وأنه يحمد الله أن الحرب مع إسرائيل قد انتهت، وخرج منها سالماً إلى عائلته. قالوا إنه لن يحارب، وإنه سيكون في الخدمة الفنية للجيش في سلاح المهندسين.أغرياه بكل أنواع الإغراءات، لكنه رفض فقاموا بتهديده، وقالوا له إن هذه معركة حياة أو موت، ونحن نحتاجك، ولن تخرج من هنا حياً. وقد قابلته يبكي في المشرب في المساء وحكى لي القصة، وهو في غاية الاضطراب، وقال لي إنه رضخ، وإنه أجبر على هذا فلما سألته لماذا لم تعد إلى مصر؟ قال لي كيف أعود؟ لقد اقترضت من جميع أصدقائي حتى أستطيع دفع ثمن الرحلة، وحصلت على إجازة من عملي لمدة سنة. بالإضافة إلى أن أختي وأسرتها لا ذنب لهم. كانوا يعيشون في أمان الله حتى أتيت. أخبرت"صلاح" بما حدث معي، وقررنا معاً الرضوخ للأمر الواقع. وذهب كل منا إلى المكان الذى أرسل إليه، حتى تحينت الفرصة للهرب، وكنت قد دبرت أمر السيارة ؛ فقد جاءت إلى الورشة للإصلاح، وكان عليَّ أن أذهب في اليوم التالي إلى وحدة أخرى لأدبر لها قطعة غيار احتياطية، وقد اخترت التوقيت حتى لا يشعر بي أحد، وسافرت في الليل، وقطعت مسافة كبيرة، وأنا أقودها لست وثلاثين ساعة متصلة دون أن يشعر بي أحد. أقف أمام كل كمين، وأعبره بالأوراق التي معي باعتبارها أوامر عسكرية، وقد عدلت خط

سيـر السيـارة بمعـجزة. ودخلت الموصل لكي آخذ جـواز سفـري وبعض الأوراق المهـمة، وصور وخطابات أمي وخطيبتي وعائلتي. ثم تركت السيارة بعيداً عن الموصل، واتجهت إلى "زاخـو" إلى حيث الحدود السـورية والتـركيـة. وكنت أسمع من زملائي أن البدو الذين يتحركون بين أسواق الأغنام من أجل بيعها للجزارين هم الذين يقومون بالتهريب خاصة وأنهم قبائل متحركة ولهم أقارب في المنطقة كلها. قابلت أحد تجار الأغنام، واتفقت معه على السفر في اليوم التالي، وفي الصباح جاءني بسائق أعطاني زياً بدوياً وأجلسني مع الأغنام بدلاً من التباع الذي يقوم بمساعدته في تفريغ حمولة السيارة في أثناء البيع. ركبت وأنا أقـول لنفسي لقد مررت بما هو أصعب من هذا. عشت سنتين تحت نيـران قذائف متصلة. العمـر واحد، والرب واحد. لن أخاف ؛ لأن الخوف سوف يكشفني. نشطت الريح فساعدتني على تغطية نصف وجهي باليشماغ واكتشفت أن الرجل معروف تماماً لرجال الجمارك. يحيونه هو والتباع باستمرار. وسيارته تعبر الحدود يومياً مرتين، الأولى في الصباح، والثانية في المساء. وحين سمعته يقول للعسكري : الله يسـاعدكم يا أخي. وسـمعت العسكري يرد : في أمان الله. تنفست الصعداء ووصلت إلى الحدود السورية من "زاخو"، إلى "جاخو"، إلى "قامشلي"، وعبرتها بنفس الطريقة، وعلى بعد مائة متر لا غير، رحت أرقص من الفرح وأنا لا أصدق أني نجوت. لكني فعلتها ببركة دعاء الوالدين والحمد لله. دخلت أول فندق قابلني على الأراضي السورية، ونمت نوماً عميقاً لمدة أربع وعشرين ساعة كاملة. ذهبت بعدها إلى دمشق وأخذت أول سيارة تحمل الركاب إلى بيروت. اتصلت بأمي لكي أطمئنها، ثم اتصلت بأحد الأصدقاء الذين يعرفون المهندس "فتح الله" حتى لا أسبب له حرجاً ثم كتبت لكِ هذا الخطاب لكي تطمئني ولكي تعذريني أيضاً.

محبتي الخالصة لكِ. أخوكِ الأصغر
بسيوني عبد المعين

بيروت في فبراير ١٩٨٢.

انتهت
القاهرة في يوليو ٢٠٠٨

شكري وتقديري العميق للباحث العراقي في العلوم الاجتماعية والسياسية د.صادق الطائي على مراجعته الدقيقة لما ورد في الرواية من معلومات وأحداث سياسية واجتماعية.

هالة البدري

هالة البدري روائية وقاصة ونائب رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون
عملت مراسلة لمجلتي روز اليوسف وصباح الخير في بغداد في الفترة من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٠

لها عدة إصدارات منها

السباحة في قمقم رواية ١٩٨٨ دار الغد
رقصة الشمس والغيم قصص ١٩٨٩ دار الغد
أجنحة الحصان قصص١٩٩٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب
منتهى رواية ١٩٩٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب
ليس الآن رواية ١٩٩٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب
امرأة . . ما رواية ٢٠٠١ دار الهلال
قصر النملة قصص ٢٠٠٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب

ترجمت أعمالها الى العديد من اللغات

منتهى إلى الانجليزية عن دار نشر الجامعة الامريكية بالقاهرة ونيويورك ودار كتب عربية بلندن
منتهى إلى اليونانية
امرأة ما إلى الإنجليزية عن نفس الدار
حكايات من الخالة ١٩٧٦
فلاح مصر في أرض العراق١٩٨٠
المرأة العراقية١٩٨٠
غواية الحكي ٢٠٠٩

تحت الطبع

خمسون رواية ورواية
سحر الأمكنة
الجزء الثاني من غواية الحكي
طي الألم رواية
تقاسيم على قصة حب قصص
امرأة . . ما بالإيطالية والإسبانية
منتهى بالهنجارية

لوحة الغلاف: للفنان حسن المسعودي

بغداد نهاية سبعينيات القرن الماضي، تفيض بالنازحين من المثقفين المصريين والفلسطينيين والعرب، الذين غادروا أوطانهم لأسباب سياسية وبعضهم لأسباب اجتماعية، وتلقتهم بغداد واحتضنتهم بالحب العميق. فترة تاريخية حاسمة أعقبت حرب أكتوبر وعاصرت اتفاقيات السلام التي وقعت بين الرئيس السادات والعدو الإسرائيلي، ماجت بأحداث جسام، شهدت سطوع أزمة الفكر القومي واليساري، وبزوغ الديكتاتورية وقبضتها الدامية. وحبلت بالمقدمات المفزعة لما جرى في ما بعد.

البطلة من الأهوار والبطل صحفي مصري يعيش انهيار عالمه القديم من حوله، والكاتبة قاهرية تزوجت في ربوع بغداد، فعشقتها وحملت هموم المدينة العريقة وحروبها على كاهلها، وداومت على زيارتها عبر سنوات الجمر والنار، لتلتقي أبطالها وشخوصها في أرجاء العراق العظيم.

مطر على بغداد رواية ضخمة من خلال عيون مصرية، حكايات عن روعة الأمكنة بين الجنوب العربي وساحات الأهوار، والشمال الكردستاني الساحر، وشخوصه المفعمة بالجمال الإنساني وثقافاته المتنوعة في زمن الحب والدمار وسؤال يلح عليك طوال فصول الرواية هل ما حدث كان حتمياً ؟

ISBN 2-84306-060-x
9 782843 080609